في بيتنا رجل
احسان عبد القدوس

إحسان عبد القدوس

في بيتنا رجل

دار القلم - المكتبة الحديثة
بيروت - لبنان

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار القلم – المكتبة الحديثة
بيروت ـ لبنان
ص . ب : ٣٨٧٤

الطبعة الخامسة
ايلول ١٩٦٩

١

أحد ايام شهر رمضان .. والساعة الخامسة مساء ، قبل الافطار بساعة ونصف .. وكان راقداً في فراشه باحدى غرف مستشفى القصر العيني .. غرفة خاصة يقف على بابها جنديان من جنود البوليس يحمل كل منهما بندقية ..

واعتدل فوق الفراش ، وبدأ يجمع الصحف اليومية المتناثرة حوله ، ويرتبها الواحدة فوق الاخرى .. وسقطت عيناه للمرة الالف فوق السطور العريضة الحمراء المنشورة في صدر الصفحة الاولى : « قرار الاتهام في قضية .... »

ولم يتم قراءة السطر العريض ، انما طوى الجريدة بسرعة كما طوى غيرها .. وقام واقفاً واتجه الى الحنفية المثبتة في جانب من الغرفة .. وبدأ يغسل وجهه .. وأحنى رأسه وترك الماء ينصب فوقها بقوة كأنما يحاول ان يطفىء نارا تندلع فيها .. ثم عاد وهو يدفن وجهه في المنشفة كأنه لا يريد أن يرى هذه النار .. لا يريد أن يرى شيئاً ..

وبدأ يبدل ثيابه .. خلع « البيجاما » وارتدى القميص والبنطلون .. ثم جلس فوق الفراش وأخذ يلبس حذاءه .. ثم دس يده تحت « مرتبة » السرير وتسلل بأصابعه داخل شق صغير فيها وأخذ يتحسس قطع القطن المندوف حتى اصطدمت أصابعه بشيء صلب صغير ، جذبه اليه . ووضعه في كفه وأخذ ينظر اليه برهة في حنو تشوبه سخرية كأنه ينظر الى طفل صغير .. انه مسدس « براوننج » .. وقد أصبح يسخر من المسدسات الصغيرة .. انه لا يحس بها في يده .. يخيل اليه انها اقرب الى لعب الاطفال .. ان اول مسدس حمله في يده كان مثل هذا المسدس .. صغيراً ضعيفاً .. وقد كان أيامها صبياً .. كان لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره .. وقد كبر بعد ذلك .. اصبح رجلاً .. وكبر معه المسدس .. أصبح مسدساً كبيراً .. « برتا » .. ولكنه مضطر اليوم أن يعود الى المسدس الصغير .. وأحس انه يعود صبياً !!

ودس المسدس في جيب البنطلون كأنه يخفي ذكرى عزيزة .. وقام يسير في غرفته جيئة وذهابا .. ثم ألقى بنفسه فوق المقعد الوحيد .. ونظر الى ساعته

وتنهد .. وكأنه خشى أن يتنهد مرة ثانية . فجذب احدى المجلات من جانبه وأخذ يقرأ فيها أخبار نجوم السينما ..

ان مصر لا تزال تهتم بأخبار نجوم السينما .. كل هذا يحدث له ، وفاتن حمامة لا تزال تظهر على الشاشة ، وعماد حمدي يبدو في صورته مبتسماً سعيداً كأنه لا يدري .. كأن مصر كلها لا تدري ان أحد ابنائها سيموت في سبيلها .. سيعدم .. سيشنق ..

والقى بالمجلة على الارض في عصبية وتمتم بينه وبين نفسه :

– لن أموت .. لن امكنهم مني !!

ولم يبد شيء من ثورته على وجهه .. ان لم تنظر الى عينيه فلن تعرف شيئاً مما في نفسه ، بل ربما اعتقدت انه سعيد .. سعيد جداً لان فاتن تمثل فيلماً جديداً ، وعماد حمدي يبتسم في صورته ..

وكانت هذه طبيعته .. أن لا يبدو شيء من أحاسيسه الا في عينيه ، ويبقى باقي وجهه خالياً إلا من تعبير واحد لا يتغير .. تعبير مريح هادىء يجذبك اليه ، ويسلب منك قلبك وعقلك .. فتحبه وتثق به ، دون أن يخطر ببالك ان صاحب هذا الوجه يمكن أن يكون بطلاً ..

وربما هو نفسه لم يتعمد أبداً ان يكون بطلا .. ولم يتصور أبداً ان صورته ستحتل يوماً الصفحات الاولى .. وان الناس كلهم سيتحدثون عنه ، وان الدولة كلها ستقصر اهتمامها عليه .. لم يحس ابداً بدوافع البطولة .. بل لم يعتقد في نفسه انه أجرأ من غيره من الشباب ، ولا اكثر منهم تطرفاً في وطنيته .. كانت تصرفاته كلها تبدو طبيعية بالنسبة له .. لم يكن يحس فيها بشيء من التفوق ، ولا بشيء من الشذوذ .. بل انه كان يحس بمواطن ضعفه أكثر مما يحس بمواطن قوته ، كان يحس مثلاً انه لا يستطيع ان يواجه الجماهير ويخطب فيهم .. وكان هذا الاحساس يصاحبه منذ ان بدأ يشترك في الثورات الوطنية التي يقوم بها زملاؤه طلبة المدارس الثانوية .. فكان لا يتقدم الصفوف .. ولا يهتف .. ولا يلقي خطباً حماسية .. بل كان يتولى الجانب العملي في الثورة .. ويتولاه صامتاً بلا ضجة ولا صراخ ..

كان اذا حاصر البوليس مدرسته تولى هو تركيب خراطيم الحريق ليسلط ماءها على رجال البوليس .. ثم يتولى جمع الزجاجات وملأها بالرمل ، ويفرقها على الطلبة كسلاح يقابلون به الرصاص الذي ينصب عليهم .. ثم كان يبتكر اسلحة صغيرة ينبهر لها زملاؤه الطلبة .. زجاجات مولوتوف .. وكرات من

القماش مغموسة في الجاز يشعلها ويلقي بها على سيارات البوليس .. والطاسات التي يقدم فيها طعام المدرسة يقلبها إلى خوذات يضعها الطلبة فوق رؤوسهم ليحموها من عصى الجنود .. وشيئاً فشيئاً بدأ الطلبة يلتفون حوله ويثقون به وينتظرون منه دائماً أن يفعل شيئاً ، ولكنهم ظلوا يعتبرونه زعيماً صامتاً .. لا يتقدم الصفوف ، ولا يهتف ، ولا يخطب فيهم .. وقد أشاع صمته من حوله جواً مثيراً .. وتناقل الطلبة عنه عدة اشاعات .. ان في بيته عشرة صناديق مليئة بالديناميت .. وان والده يخفي في بلده مدفعاً رشاشاً .. ان أخـــاه ضابط في الجيش وهو الذي يضع له خطط الهجوم والدفاع .. انه يشترك في الاجتماعات السرية التي يعقدهـا طلبة الجامعة .. و .. و .. ونسجت هذه الاشاعات من حوله صورة مثيرة لبطل مثير ، يبهر زملاءه .. ولم تكن هـذه الاشاعات صحيحة .. كان والده مجرد موظف في الدرجة الخامسة بوزارة الاشغال .. موظف كبقية الموظفين ، يتحدث عن الدرجات ، ويحذر ابنه من الاشتغال بالسياسة .. ولم يكن له شقيق ضابط في الجيش .. ليس له شقيق على الاطلاق .. وليس في بيته صناديق مليئة بالديناميت ، ولم يشترك أبداً — حتى ذلك الحين — في اجتماعات سرية يعقدها طلبة الجامعة .. وأكثر من ذلك انه لا يشتغل بالسياسة .. لم يحاول أن يتعب رأسه بمناقشة المسائل السياسية .. لم يختر لنفسه مبدأ سياسياً معيناً .. ولم ينضم لحزب من الاحزاب .. كانت وطنيته مجرد احساس عاطفي قوي يدفعه مع المجموع ، وينعكس في رأسه كخطط لمقاومة رجال البوليس والتفوق عليهم .. هذه الخطط التي تبهر الطلبة !..

كان يكره الانجليز .. يمقتهم .. يحس يجرح في كبريائه كلما رأى أحداً منهم .. لكنه لم يكن يعي حقيقة الاستعمار ، ولم يكن يعي مدى ما يستنزفه الانجليز من دم بلده .. وكان يكره الملك ، ويكره الزعماء والوزراء .. وكان يطالب بالغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ، وبرفع الأحكام العرفية .. كل ذلك دون فهم عميق للاسباب التي تحرك عواطفه .. مجرد احساس مرهف بمطالب المجموع .. مطالب الشعب .. وكان في السابعة عشرة من عمره ، طالب في مدرسة السعيدية الثانوية ، عندما حمل اليه أحد زملائه المؤمنين به أول مسدس يقع عليه نظره .. مسدس « براوننج » صغير ، وعلبة رصاص .. ولم ينظر زميله في عينيه ليرى مدى الدهشة التي انتابته وهو يقلب المسدس في يده .. بل ربما اعتقد الزميل انه حمل اليه شيئاً عادياً لا يليق ببطولته ! وأخذ المسدس وذهب به إلى بيته .. وأحس أنه قوي .. قوي جـــداً .. انه يستطيع الآن ، بهذا الشيء الصغير ، أن يتخلص من كل

أعدائه .. أعداء وطنه .. ولكن كيف ؟!.. ان احساسه بهذه القوة الجديدة التي أصبحت بين يديه ، صحبه أحساس آخر .. جديد أيضاً . احساس بالمسئولية .. مسئولية استعمال هذه القوة .. انه لا يستطيع أن يقتل من يشاء لأنه ليس قاتلا ، ولا يريد ان يكون قاتـــلاً .. ورغم ذلك فهو يحس انه يستطيع أن يستعمل هذا الشيء الصغير ليقوم به بدور كبير ..وحمل المسدس وعلبة الرصاص . وخرج من بيته في خطى محترســـة كأنه يخشى أن ينطلق المسدس من تلقاء نفسه في أي وجه عابر يمر به .. وركب الترام إلى نهايـة شارع الهرم ، ثم سار على قدميه حتى وصل إلى مكان قصي من الصحراء الممتدة خلف الاهرام . وأخرج المسدس وعباه بالرصاص..ثم صوبه إلى حجر منتصب أمامه .. وارتعشت يده .. وجمد اصبعه فوق الزناد .. سيسمع دوياً هائلاً يصم أذنيه ويجمع الناس من حوله .. شيء هائـــل سيحدث لو ضغط على الزناد .. وخاف .. واحتاج إلى كل ارادته ليتغلب على الخوف .. ثم أغمض عينيه وضغط على جفنيه بشدة حتى يحكم اغماضهما. وخيل إليه أنه يضغط ايضاً على أذنيه ليسدهما كي لا يسمع الصوت الرهيب ..

واستطاع أخيراً ان يحرك اصبعه ويضغط على الزناد .. ولم يحدث شيء .. انطلقت الرصاصة في طرقعة خافتة .. كأنه كسر بندقة بأسنانه ، ومرت في الهواء تئز أزيزاً خافتاً كأنه أزيز بعوضة . لا دوي .. ولا شيء رهيب !..

وفتح عينيه وهو لا يصدق نفسه .. وابتسم ابتسامة واسعة ، كأنه اكتشف عالماً جديداً .. ثم أطلق الرصاصة الثانية .. والثالثة .. والرابعة .. والخامسة .. و .. و .. عبأ المسدس من جديد ، وأخذ يطلقه وهو يحاول في هذه المرة ان يصيب الهدف .. يحاول في صبر وحرص ، كأنه اشترى كلباً أصيلاً يدربه على طاعته .

وأحب المسدس .. كان يضعه تحت رأسه قبل ان ينام ويفتح عليه عينيه أول ما يصحو .. وكان يخفيه في دولاب ملابسه قبل ان يذهب إلى المدرسة ، ثم يفكر فيه طول يومه .. ويتلهف عليه .. ويهيم في خياله كأنه عاشق .. ثم يعود إلى البيت آخر النهار مسرع الخطى ، ويدخل غرفته مباشرة ، ويغلق على نفسه الباب ، ويخرج المسدس من الدولاب ويضمه بأصابعه في شوق وفرحة .. ثم يعبث به كأنه يداعب حبيبته..ويفك أجزاءه كأنه يخلع عن حبيبته ثيابها !

وكما يقبل العاشق على قراءة القصص الغرامية ، بدأ يقبل على قراءة القصص البوليسية ، وعلى مشاهدة أفلام رعاة البقر . وكانت عيناه دائماً على المسدس ، وما يستطيع المسدس أن يفعله !

وكان بينه وبين مسدسه موعد عصر كل يوم خميس ، وصباح كل يوم جمعة فيصحبه إلى الصحراء الواقعة خلف الاهرام ويطلقه .. وتصل أصوات الطلقات إلى أذنيه كأنها طرقعة القبلات ..

وأجاد إصابة الهدف .. كان يصيب الهدف بمجرد ان يشير اليه بمسدسه ، وأجاد جميع الحيل التي رآها في أفلام رعاة البقر وقرأ عنها في القصص البوليسية . كان يصيب الهدف وهو مغمض العينين ، ويصيبه وهو مدير ظهره اليه ناظراً في مرآة .. وصغر حجم الهدف .. بعد ان كان حجراً كبيراً ، أصبح قرشاً ، ثم أصبح قطعاً فضية صغيرة من ذات القرشين .. وفي المرات القليلة التي كان يخطىء فيها اصابة الهدف ، كان ينظر إلى المسدس في لوم وعتاب ويقول له :

– كده برضه يا عزيزه !

ثم يبتسم ، وكأن المسدس يرد عليه : معلهش الدور ده يا ابراهيم !

إلى هذا الحد أحب المسدس .. عزيزة ! ولكنه كان يخاف هذا الحب ..

كانت في صباه رجولة مبكرة تحذره من هذا الحب .. تحذره من هذه القوة الضخمة التي تنطلق في قلبه كلما ضم المسدس بين أصابعه .. فأخفى هذا الحب ، وكبت هذه القوة .. وحمل مسئولية المسدس بأمانة فلم يبدُ به أبداً أمام أحد ، ولم يخرج به في المظاهرات التي يشترك فيها مع زملائه الطلبة .. كان يخشى أن يفقد أعصابه يوماً ، فيطلقه .. بل أنه لم يتحدث أبداً عن مسدسه أمام الناس .. كان يحمل حبه في صمت ، كالعاشق الشريف ..

وظل هكذا .. ليس في قلبه إلا عواطفه الوطنية ، وليس له هواية إلا « مسدسه » إلى ان انتهى من دراسته الثانوية ، والتحق بكلية الحقوق ، واحتل بين زملائه الجدد نفس المكانة التي كانت له دائماً ، مكانة الزعيم الصامت الذي لا يفرض زعامته ولكنه يجذبك إليه .. حتى الذين حاولوا الاستهانة به ، ومعظمهم من الطلبة المنضمين الى اللجان الحزبية ، لم يستطيعوا ان يكرهوه ، فهو لا يدع لهم سبيلا إلى كراهيته .. انه لا يعارضهم في آرائهم ، بل يستمع اليهم كأنه يتلقى منهم درساً ، ولا يشترك في جدالهم الحزبي ، لأنه لا ينتمي إلى حزب من الأحزاب ، ولا ينافسهم في مواقفهم ، لأنه لا يتقدم الصفوف ، ولا يقود الهتافات ، ولا يلقي خطباً ، إنما يقوم بدوره خلف الصفوف وان امتدأثره إلى الصف الأول ..

كل ما كانوا يأخذونه عليه .. أنه جاد أكثر من عمره .. انه لا يتكلم الا اذا كانت هناك حاجة ماسة الى كلامه . وهو لا يلعب الطاولة في النادي ، ولا البوكر ، ولا الكونكان .. بل انه لا يتقرب الى الطالبات .. ولا يلاحقهن كبقية

زملائه ، ويبدو انه يحتقرهن ويتجاهل وجودهن ..

ولم يكن هذا تزمتا منه .. كانت هذه هي طبيعته .. لا يستطيع الكلام الكثير ، ولا يحب ان يلعب الطاولة ، ويكره ان يشاهد زملاءه يلعبونها لأن صوت نقل أحجارها يذكره بصوت طلقات مسدسه الحبيب .. ولا يحب أيضاً ان يجلس الى مائدة ليلعب البوكر والكونكان.. اما البنات ، فهو لا يكرههن، ولكن ليس لهن أثر في حياته .. كانت دنياه خالية دائماً منهن .. لم يكن له أخت ، ولم يكن يعتبر امه امرأة كبقية النساء .. كانت في نظره انساناً كاملاً ليس له مثيل في الوجود .. انسانا لم يكن ابداً بنتاً .

لم يكن متزمتاً .. ولم يكن يغضبه ان يلعب زملاؤه الطاولة او الكتشينة أو يلاحقون البنات .. وكثيراً ما كان أصدقاؤه يروون له مغامراتهم الغرامية فيستمع اليها بانتباه شديد .. ولكن هذا الانتباه كان ينصب على تتبع أحوال أصدقائه أكثر مما ينصب على المغامرة نفسها أو على بطلة هذه المغامرة ..

وقد كان يحب اصدقاءه كثيراً .. كما يحب مسدسه .. وكان في حبه لهم رجولة عارمة وشهامة وافتداء .. لم يكن يبخل بشيء في سبيل أصدقائه .. لم يكن يبخل حتى بحياته .. ومرة أو مرتين كاد يقتل اثناء المظاهرات ، وهو يحاول أن ينقذ أحد اصدقائه من القتل .. بل كاد يقتل مرة في سبيل كل الطلبة ، عندما القى بنفسه في النيل اثناء سير المظاهرات ، وتعلق بقارب صغير وجذف حتى وصل الى قاعدة كوبري عباس ، وصعد اليها ليغلق الكوبري الذي كان البوليس قد فتحه ليحول دون وصول الطلبة المتظاهرين الى القاهرة.. ولم يستطع أن يغلق الكوبري ، فقد تصدى له البوليس وانهالوا عليه بالعصي ، فاضطر أن يلقي بنفسه ثانياً في النيل ويسبح حتى الشاطىء .. إلى هذا الحد كان يحب اصدقاءه وزملاءه .. حباً ليس فيه تكلف ولا ادعاء انما ينبعث من طبيعته. وربما كان هذا الحب هو سر انجذابهم اليه .. وسر الشعاع المريح الهادىء الذي يحيط بوجهه الاسمر .. سمرة القمح في موسم الحصاد !! ولم يكن ينتظر له أن يكون أكثر من ذلك .. طالب يهب عواطفه لوطنه وزملائه . ويحب مسدسه حباً خفياً مكتوماً .. هو نفسه لم يكن يعتقد ان دوره في الحياة ، في هذه الفترة من شبابه ، سيتعدى هذا الدور الشريف الذي يقوم به .. إلى أن كان يوم ..

وكان خارجاً من السينما ، ماراً بشارع عدلي .. ولمح أمام احدى الحانات زحاماً شديداً .. جنوداً انجليز وباعة متجولين مصريين .. وصراخاً .. ومعركة .. واقترب ووقف يتتبع المعركة ، ضمن جمهور المتفرجين . وبدأ

مقته للانجليز يتحرك في صدره .. واشتد احساسه بالمقت حتى أصبح ثورة .. ثار دمه الحار .. وبدأت أعصابه ترتعش .. وتمنى أن ينتصر الباعة المتجولون على الانجليز .. يجب أن ينتصروا .. ولكن الجنود الانجليز تكاثروا .. ثم لمح واحداً منهم يخرج مطواة ويشهرها في الهواء ثم يغمدها في جبهة أحد الباعة .. وسال الدم .. دم مصري .. ولم يعد يحتمل .. لم يعد يرى شيئاً .. وفي لحظة واحدة قفز والقى بنفسه في وجه الانجليز .. قبضاته .. ورأسه .. وكتفاه وساقاه .. كل قطعة منه كانت تنقذف في وجوه أعدائه من تلقاء نفسها . ولم يكن يدرى كيف يسدد ضرباته .. كانت تصرفاتـــه أسرع من تفكيره .. وبدأ يحس بضربات مقابلة تنهال عليه .. كل الضربات تنهال عليه .. انهم يلكمونه . يصفعونه . يركلونه .. ووقع على ركبتيه .. وفجأة تذكر شيئاً .. المسدس .. لو كانت « عزيزة » معه لقتلهم جميعاً .. الكلاب .. كانت عزيزة تستطيع أن تصونه من هذه الاهانة .. تحفظ له كرامته .. سأقتلهم .. سأقتلهم .. سأقتلهم جميعاً . ورفع رأسه وهو لا يزال راكعاً على ركبتيه فلمح المطواة في يد الجندي الانجليزي مشهرة في الهواء ، ثم لمحها تشق الفضاء كالقذيفة متجهة إلى رأسه .. ومال برأسه بسرعة ، وهب على قدميه .. وأخـــذ يعدو .. بعيداً عن أرض المعركة .. ثم تعلق بسيارة أجرة وطلب الى السائق أن يتجه به إلى بيته .. في المنيرة .. وهو يتعجله .. أسرع .. أرجوك أن تسرع .. والسائق ينظر اليه مبتسما كأنه فيلسوف ، ويتفحص الكدمات التي تبرز في خديه ، وفوق عينيه ، ثم يقول وهو يضحك وكأنه يخفف عنه : تعيش وتأخذ غيرها !..

ولم يرد على السائق .. ظل يردد كالمجنون : أسرع .. ارجوك ان تسرع إلى ان وصل الى البيت .. وقال للسائق انتظرني .. وصعد السلم كأنه أسرع من ساقيه .. واقتحم غرفته دون ان يسمع صرخة أمـه عندما فتحت له الباب .. واخرج مسدسه .. وعـاد ينزل السلم كأن ساقيه أسرع منه .. وألقى بنفسه في السيارة التي تنتظره ،وهو يقول من بين انفاسه المبهورة : رجعني شارع عدلي .. قوام وحياة أبوك !.. وانطلق السائق بسيارته ، ثم التفت إلى الوراء ، ونظر إلى الراكب .. نظرة الفيلسوف ، وعاديقول في ابتسامة حانية : بس لو كنت تهدي نفسك شوية يا سيدنا الافندي !.. ولم يزد عليه .. كانت يده تقبض على المسدس وهو في جيب سترته .. وكأنه وضع في جيبه – مع المسدس – كل قلبه ، وكل عقله ، وكل شبابه .. ووصل إلى شارع عدلي .. ولم يجد شيئاً .. كانت المعركة قد انفضت ولم يبق منها سوى بقـع متناثرة من الدماء فوق الأرض السوداء ..

وتلفت حوله يبحث عن أي واحـد منهم .. عن أي انجليزي .. وكان الطريق خاليا منهم.. وهدأت رعشته..وانفرجت أصابعه عن المسدس المختفي في جيب سترته.. ثم تذكر شيئاً.. تذكر انه لم يدفع اجر السيارة .. والتفت إلى السائق، فاذا به ينظر إليه نفس النظرة.. نظرة الفيلسوف..وبين شفتيه نفس الابتسامة.. ابتسامة حانية فيها طيبة وفيها يأس!..وأخذ يدخل كفه في جيب، ويخرجها من جيب ، باحثاً عن النقود .. فلم يجد .. لم يكن معه سوى خمسة قروش .. وكان يعلم ان ليس معه سوى هذه الخمسة قروش ، ولكنه في خلال ثورته نسي ..

وقال السائق وهو يرى ارتباكه : معلهش ياسيدنا الافندي .. خللي عنك.. ولا يكون عندك هم .. الجماعه يدفعوا بدالك !..

وقال في دهشة : الجماعة مين ؟..

قال السائق وهو يضحك : جوني..هو فيه جماعة عندنا غير هم..سلاموعليكو!..

وانطلقت السيارة .. كأنها تشارك سائقها في قهقهته .. وسار على قدميه ، والهواء البارد يضمد جرح وجهه .. سار حتى بيته في المنيرة .. وكان يفكر .. واكتشف اثناء تفكيره اشياء جديدة .. خطيرة.. اكتشف ان دوره لا يمكن ان يكون مقصوراً على تدبير المظاهرات الوطنية والاشتراك فيها .. لماذا يقذف البوليس بالطوب .. ولماذا يحطم الفوانيس ويحرق عربات الترام ؟!.. لماذا ؟.. لأنه يؤمن بحق وطنه في الحريه .. والدستور ، والغاء المعاهدة ، ورفع الاحكام العرفية.. كل هذه مطالب تهدف إلى تحقيق الحرية..ومن الذي اغتصب حريته.. حرية وطنه؟!.. ليس البوليس ، ولا شركة النور ، ولا شركة الترام ، ولا زعماء الأحزاب .. انهم الانجليز !.. اذن لماذا لا يضرب الانجليز مباشرة .. لماذا لا يوجه المعركة اليهم ، بدل ان يوجهها إلى البوليس ؟..

وكان هذا هو بدء تفتق وعيه السياسي .. وكان هذا اليوم ، هو اليوم الذي اتجه فيه تفكيره إلى تكوين جمعية سرية لاغتيال الجنود الانجليز !..

وقضى أياماً كثيرة مترددا .. انه ليس قاتلاً .. لا يريد ان يقتل .. ولكنه لن يقتل .. انه يحارب .. حرباً شريفة .. هم يقابلونه بأساطيلهم ومدافعهم ، وألوف من جنودهم .. وهو سيقابلهم وحده ، ومسدسه الصغير !.. وقضى ليلة مفتح العينين .. لم يكن يشعر بجراحه ولا بالكدمات التي تغطي وجهه ، كأنها آثار أقدام ثقيلة داست فوقه.. وإنما كان ينظر في العالم الجديد الذي تفتح أمامه.. عالم مليء بالجثث والدماء.. الانجليز ودماء الانجليز .. وجثة الانجليزي الذي ضربه على وجهه وشهر المطواة فوق رأسه ! ولم يكن هذا العالم يخيفه أو يزعجه ..كان

ينظر إليه فاحصاً مدققاً وفي عينيه عزم وتصميم .. وخرج في اليوم التالي ومسدسه معه .. لم تعد «عزيزة» تفارقه منذ ذلك الحين .. أصبحت دائماً في جيبه ..

وبدأ يدرس خططه . عرف جميع الطرق المتطرفة التي تؤدي إلى معسكرات الانجليز .. العباسية .. المعادي .. الماظة .. طريق الاسكندرية . وعرف موعد عودة الجنود إلى ثكناتهم .. وعرف ان التعليمات تحتم عليهم ألا يخرجوا إلى القاهرة فرادى .. دائماً في جماعات .. وعرف الأسلحة التي يحملونها ، عرف كل شيء ، وتجمعت لديه كل المعلومات التي يحتاج إليها .. واختار مكان المعركة الأولى .. في مصر الجديدة ، عند نهاية خط الترام ..

وعندما بدأ يضع خطة التنفيذ ، اكتشف انه لا يستطيع ان يقوم بها وحده .. انا في حاجة – على الأقل – إلى شريك يملك سيارة ، ليهرب فيها بعد ان يطلق رصاصته .. وبدأ يبحث عن الشريك الأول . واختار نفس الصديق الذي أهداه المسدس .. كان أبوه يملك سيارة ، وكان شاباً نظيفاً صادقاً في عواطفه الوطنيه ، وكان سهل الانقياد له .. ولكنه لم يعرض عليه ابتداء فكرة اغتيال الانجليز بل أخذ يتردد عليه كل يوم ويحدثه بأسلوبه الهادىء وكلماته القليلة عن الانجليز .. عن جرائمهم وفظائعهم .. إلى أن أوحى اليه بالفكرة فعرضها هو .. عرضها صديقه كأنها من أفكاره وصاح في حماسة : لماذا لا نقتلهم ؟!

وتعلق ابراهيم بهذه الصيحة ، وبدأ يبحث مع صديقه خطة التنفيذ !

ومرت أسابيع طويلة قبل ان يحدد اليوم والساعة .. كان يحسب حساب كل شيء بدقة وحرص .. كأنه يخدع الموت ؟

ووقفت سيارة في الساعة الثانية عشرة قبل منتصف الليل ، عند نهاية خط ترام الماظة .. كل شيء حولها هادىء ، كأن الليل أصيب بالهلع فكتم أنفاسه ..

ولم يتكلما .. مضت مدة طويلة دون ان يتكلما .. لقد اتفقا على الخطة .. واتفقا على أنه إذا قبض على ابراهيم أو سقط صريعاً ، سيفر الآخرة بالسيارة وحده .. وجاء جنديان انجليزيان .. سكارى .. ووضع ابراهيم يده على مقبض باب السيارة .. ونظر الى صديقه نظرة حائرة كأنها نظرة وداع . وتردد قليلاً ، ولكنه وجد صديقه اكثر منه تردداً .. كانت شفتاه ترتعشان ، وكان في عينيه نظرة اختلط فيها الخوف بالرجاء ، كأنه يتوسل اليه أن يعدل عن التنفيذ ..

واستمد من ضعف صديقه قوة . شد ظهره ، وزم شفيته ، ثم ابتسم له ابتسامة صغيرة كأنه يشجعه ويطمئنه ، ثم فتح الباب بسرعة ووقف منتصباً في الطريق في وجه الجنديين الانجليزيين ، ويده قابضة على « عزيزة » داخل جيب سترته .

ومرة ثانية أحس بالتردد ، وأحس ان تردده قد طال .. انه لا يستطيع ان يخرج عزيزة من جيب سترته ، كأنها فتاة تتمنع .. أنه لا يستطيع ان يضغط على الزناد .. لا يستطيع ان يقتل .. وأحس ان قلبه يختنق ، وان ركبتيه لم تعودا تحملانه ، كأنه أصبح معلقاً في الهواء .. وكاد يعود إلى السيارة ويهرب .. يفر ، ويعترف لعزيزة ولصديقه بضعفه .. ولكن .. فجأة ، هجم عليه الجنديان وقبضاتهما موجهة إلى صدره .. وفي لمـــح البصر خطا خطوة إلى الوراء ونزع عزيزة من جيبه وأطلقهـــا .. وصرخت عزيزة صرخة مكتومة .. وأزت الرصاصة كأزيز ناموسة .. وسقط جندي انجليزي على الأرض قتيلاً ..

وكان آخر ما رآه نظرة هلع تملأ وجه الصديق الآخر ..

وقفز إلى السيارة ، وقادها صاحبه بجنون كأنه يريد ان يشق الأرض ويختبىء فيها .. وعندما وصلا إلى المدينة هدأ من سرعته .. وأصبح يقود السيارة كأنه يتنزه هو وصديقه ، أو كأنهما يبحثان عن فتاة يلاحقانها .. هكذا كانت تقضي الخطة !.. ولم يتكلمـــا .. لم يستطع أي منهما ان يتكلم .. حتى عند ما وصلت السيارة الى بيت ابراهيم ونزل منها لم يستطع ان يحيي زميله ، ولم يستطع زميله أن يحييه .. ! وبات مفتح العينين .. وجثة القتيل ماثلة امامه . ولكن هذه الجثة لم تكن مدار تفكيره .. لم تكن تثيره .. انما كان يناقش نفسه : هل هو على حق ؟ ودقات الساعة تطرق على رأسه ، كأنها تؤكد له : انه على حق !!

وعندما فتح عينيه في الصباح .. وامسك بالجريدة بيد تكاد ترتعش .. لم يجد خبراً عن قتيل الامس .. لقد منعت الرقابة نشر الخبر حرصاً على هدوء الناس .. وكانت هذه هي المرة الأولى . وتوالت بعدها المرات .. وكبرت الجمعية .. اصبح عددها سبعة شبان وكبرت المسدسات .. استطاعوا ان يشتروا مسدسات اكبر .. واصبح له مسدس كبير .. اكبر من حجم كفه .. « برتا » .. وكان يحس وهو يقبض عليه انه يخون « عزيزة » .. ولكن ما ذنبه ؟ ان عزيزة لا تريد ان تكبر معه .. تركته يكبر وحده .. انها كالحب الأول يظل دائماً في عمر الصبا .

وكان السبعة يذهبون كل اسبوع الى الجبل ويتدربون على اطلاق مسدساتهم ثم يجتمعون لوضع خططهم .. كانوا كلهم يتكلمون كثيراً ، ثم يلتفتون اليه ليقول الكلمة الاخيرة .. لم يكن اكبرهم فلم يكن قد تعدى العشرين من عمره ، وبينهم من وصل الى الثانية والعشرين ، ولم يكن زعيمهم ، فقد اتفق السبعة على ان لا يكون لهم زعيم ، ولكن كانت هذه طبيعته .. ان يقول الكلمة الأخيرة .. ولم يتهوروا .. أو على الاقل لم يدعهم يتهورون .. كان يقول كلمته في حرص شديد .. وكان يترك

فترة طويلة من الزمن بين كل عملية واخرى.. وفي خلال عامين لم تتم اكثر من ثماني عمليات .. وتمت كلها بنجاح .. لم يستطع البوليس ان يعثر على اثر يتتبعه . ولم تستطع الاجراءات الكثيرة التي وضعت لحماية الانجليز ان تحول دون العملية التالية .. كان دائما يجد منفذاً، ودائما يجد خطة .. واجتمعوا، ووضعوا خطة العملية التاسعة ..

وقبل التنفيذ بيوم واحد الغى العملية .. ودهش زملاؤه .. ووصلت دهشتهم الى حد الاحتجاج ، ولم يجد عذراً يقوله لهم الا انه غير مطمئن الى الخطة .. ولم يكن هذا عذره .. كانت قد مرت به أسابيع وهو يحاسب نفسه ويراجعها ..

ما جدوى هذه العمليات التي يقوم بها ؟ انه لا يستطيع ان يقضي على الجنود الانجليز كلهم . انهم آلاف .. والاغتيال قد ينقصهم واحداً أو أثنين أو عشرة أو مائة .. ولكنهم لن يخرجوا من مصر ، سيظلون دائماً على قلبها !

ثم ان هذه «العمليات» ليس لها صدى بين الناس بعد أن منعت الرقابة نشر أنبائها .. أنهم لا يحسون بها.. لا تثيرهم ولا تحمسهم ولا تجمعهم في عمل واحد.. انها تبدو كأنها هواية شخصية .. وهو لا يهوى القتل .. انه يريد أن يؤدي عملاً وطنياً ايجابياً يثير الناس ، وينبههم ، ويكتلهم ، ويفتح أبواب معركة يخوضونها جميعاً .. كيف استطاع الانجليز أن يضغطوا على الناس كل هذا الضغط .. وأن يتمكنوا من قلب مصر إلى حد لم يعد يجدي معه قتل أفراد من جنودهم !؟

ليس الجنود الانجليز الذين يفرضون الرقابة .. وليسوا هم الذين يتولون الأحكام العرفيـة .. وليسوا هم الذين يجمعون الوطنيين ويغلقون عليهم أبواب المعتقلات.. انها سياسة متفق عليها .. بل سياسة يفرضونها.. ومن الذين يقومون بتطبيق هذه السياسة.. سياسة حماية الاحتلال البريطاني؟ انهم العملاء الخونة !.. وبدأ يشعر برعشة !.. انه يعلم إلى أين يقوده تفكيره ..ويعلم أنه عندما يتمكن منه هذا التفكير ، فلن يستطيع أن يقاومه ، وسيدفعه الى القتل .. وسيقتل هذه المرة مصرياً .. أو مصريين .. وقد حرص منذ وقع في يده أول مسدس ، ألا يصوبه إلى صدر مصري .. لم يخرج به في مظاهرة من المظاهرات .. تحمل الكثير من عصي رجال البوليس ومطاردتهم ، ولم يفكر مرة واحدة في استعمال مسدسه .. لم يكن يستطيع أن يرفع مسدسه في وجه مصري !

ولكنه لا يفكر الآن في رجال البوليس.. انه يفكر في فئة أخرى .في العملاء .. الخونة.. ان رجال البوليس شرفاء، انهم اداة لتنفيذ سياسة لا ذنب لهم فيها.. ولكن هؤلاء العملاء.. الخونة.. ان عليهم الذنب كله.. ولو استطاع ان يقضي عليهم، لما وجد الانكليز من ينفذ سياستهم ولن يستطيعوا هذه المرة اخفاء الخبر.. ان مقتل عميل كبير

لا يمكن أن يخفى .. وسيثور الشعب فرحاً لمصرعه .. وسيخاف بقية العملاء .
و .. وقضى أسابيع أخرى يتعذب بفكرته ، ومنطقه الجديد يوقظه من نومه ، ويلح على رأسه .. ولكن كيف يتأكد من أنهذا أو ذاك عميل للانجليز ، خائن لمصر !.. هناك واحد أجمع الناس كلهم على خيانته .. هو نفسه يتباهى بأنه عميل .. وعقاب الخيانة القتل .. لقد حكم الناس بخيانته ، وبقي أن ينفذ الحكم .. وهو الذي سيتولى التنفيذ .. ! وكعادته بدأ يسوق أفكاره إلى زملائه ويوجههم اليها ، ويدعهم يسبقونه إلى ما يريده .. حتى قرروا أن يحولوا نشاطهم إلى العملاء وأقتنعوا أنهم لن يتخلصوا من الانجليز إلا اذا تخلصوا من عملائهم أولاً ..

ووضعت الخطة . خطة اغتيال عبد الرحيم باشا شكري .. رجل الانجليز في مصر !.. وتم كل شيء كما رسمه على الورق ، وكأنه إله صغير يسيطر على القدر . وأطلق رصاصته ، التي لا تخيب .. وأطلق بعدها رصاصتين كأنه يطارد بهما الروح الصاعدة في طريقها الى الجحيم .. وجرى نحو السيارة التي تنتظره .. وكان المفروض ان تتحرك قبل ان يصل اليها ، وان يتعلق بها ثم تنطلق به .. ولكن السيارة لم تتحرك . شيء اصابها .. وهو يسمع من ورائه صياحاً وصراخاً واقداما تهرول .. وصاحبه يضغط على مفتاح السيارة فتزفر أنينا كشهقات الموت دون ان تتحرك ..

واجتاز السيارة واخذ يعدو بكل ما في ساقيه من قوة ، وبكل ما في في صدره من انفاس .. كان يعدوبلا تفكير .. لا يدري الى اين .. ولكنه يعدو والصياح والصراخ يعدوان وراءه .. وسمع صفارات رجال البوليس .. وسمع من يهتف : « حرامي .. حرامي » .. والناس تتكاثر وراءه . كلهم يعدون خلفه ولا يدرون لماذا يعدون .. بعضهم يعتقد انه فعلاً « حرامي » !.. لماذا لا يطلق مسدسه عليهم .. ان رصاصة واحدة لتشتيتهم .. لو سقط منهم قتيل واحد لفر الباقون !.. وقبض على مسدسه .. وادار رأسه إلى الخلف ، وهو لا يزال يعدو ولكنه لا يستطيع .. انه ليس قاتلاً .. ان هؤلاء الناس ابرياء .. ليسوا خونة .. وليسوا عملاء للانجليز .. ولن يقتل منهم احداً حتى لو قتلوه !.. ولكنهم يقتربون . وافواج جديدة تنضم إليهم ، وتعدو معهم ، وقد بدأت انفاسه تتخلى عنه .. وبدأت ساقاه تتصلبان .. وبدأ يشعر بجفاف حاد في حلقة كأن فيه سكيناً . ويبست شفتاه كأنها استحالتا إلى قطعتين من خشب وفجأة توقف عن العدو . ولحق به الناس .. وتكاثرت الأيدي فوق كتفيه !. وملأ صدره بكل ما بقي من انفاسه ثم استدار لهم .. ورأوا وجهاً خالياً الا من

تعبير واحد لا يتغير .. تعبير مريح هادىء يجذبك اليـــه ويسلب منك قلبك وعقلك.. والذين لم ينظروا إلى عينيه لم يروا مدى ما كان يعانيه من حيرة وجزع وخوف .. وتساقطت الأيدي من فوق كتفيه كأن الناس ندموا لأنهم امسكوا به .. ولم تبق سوى كف رجل البوليس ممسكة بـــه .. وساروا به إلى حيث سقطت جثة الخائن والناس من حوله.. وأقفوه أمامها إلى ان يأتي الرؤساء ورجال النيابة ولم ينظر إلى الجثة .لم يستطع . انه يستطيع ان يواجه الخونة وهم احياء ولكنه لا يستطيع أن ينظر إلى جثثهم .. وسمع واحد من الناس يهمس وهـو ينظر في وجه الخائن المقتول: يستاهل ! .وارتفعت إلى شفتيه ابتسامة ضعيفة.. كأنه سمع حكماً ببراءته. حكماً اصدره الناس .. وبدأ التحقيق في نفس الليلة.. واستمر شهوراً عديدة ، قبض خلالها على كل أعضاء جمعيته ، ولم يكن هو الذي أرشد اليهم ، ولكنها نمرة السيارة التي ضبطت هي التي دلت عليهم .. وضجت مصر كلها من حوله .. وأصبح أسمه على كل لسان ، وصورته على الصفحة الأولى من كل جريدة .. وتطوع كثير من المحامين للدفاع عنه . بعضهم جاء عن ايمان بوطنيته ، وبعضهم جاء ليستغل القضية في نشر اسمه والدعايـة لنفسه .. وجاءته الخطابات كثيرة في سجنه .. بنات وشبان يكتبون له ويباركون اليد التي أطلقت الرصاص .. ونـاس لا يعرفهم يرسلون له في السجن هدايا من علب السجائر والفاكهة .. وأمه تبكي ثم تجفف دموعها وترفع رأسها .. وابوه صامت كأن ابنه قد استشهد ودخل الجنة !.. وعرف من خلال هذه الضجة انه قد اصبح بطلاً . لم يحس بالبطولة في نفسه .. انه لم يتغير ، لا يزال يعتقد ان تصرفاته كانت طبيعية ليس فيها شذوذ.. الناس هم الذين يعتبرونه بطلاً .. ولكن ماذا يجديه ان يعتبره الناس بطلاً ؟.. انه سيموت !..

سيعلق في حبل المشنقة ، ووسام البطولة معلق على صدره.. وهو لا يريد ان يموت .. لا يريد ان يشنق .. يريد ان يعيش .. انه يحس ان الحياة لا تريد ان تفارقه. ان دماءه احر من ان تجف ، وقلبه اقوى من ان يتوقف.. وبدأ يفكر في الهرب.. لم يعد ينام.. ولا يأكل .. ولم يعد يهتم بسير التحقيق معه .. لم يعد في رأسه ولا في نهـاره وليله سوى فكرة واحدة .. الهرب .. وتعمد ان يطيل التحقيق .. كان يخرج للمحقق كل يوم باعتراف جديد ، غالباً ما يكون اعترافاً كاذباً ، ليتجه بالتحقيق اتجاهاً جديداً ويكسب وقتاً يستزيد فيه من التفكير في الهرب. وقرر انه لن يستطيع الهرب من داخل السجن .. خير طريق للهرب ان ينقل الى مستشفى القصر العيني ، كما انتقل غيره من المسجونين السياسيين ..

وبدأ يتمارض .. وبحث في نفسه عن علة قديمة .. وادعى انه يصاب بأزمات في الكلي .. ونشرت الصحف انباء مرضه .. وتتبعها الرأي العام ، وبدأ يتهم الحكومة باساءة معاملته .. وارسلت له الحكومة طبيب السجن ،وارسل له اهله طبيباً خاصاً .. وقرر الاثنان ضرورة نقله الى مستشفى القصر العيني .. وربما اتخذ الاثنان هذا القرار قبل ان يفحصاه .. ونقل الى القصر العيني بعد ان انتهى التحقيق وبدأت النيابة تعد تقريرها .. ووضع في غرفة خاصة .. وعينت له حراسة .. جنديان يقفان على بابه ، وضابط اتخذ له مكتباً في الغرفة المواجهة لغرفته .. كان ذلك في أول شهر رمضان .. ومنذ اليوم الأول بدأ في تنفيذ خطته ..

بدأ يعود حراسه على ان يروه كل مساء في الساعة الخامسة مساء وهو يرتدي ثيابه .. القميص والبنطلون والحذاء .. ولا يخلعها الا قبل أن ينام في الساعة الحادية عشرة .. وبدأ يكسب صداقة الضابط .. كان الضابط شاباً لا يقل وطنية عن سجينه وان اختلف في واجبه .. وكان بحكم مهمته سجيناً مع السجين وفي حاجة الى من يتحدث اليه ويقتل معه الوقت .. ووجد في سجينه انساناً مثقفاً ، دمثاً ، حلو الحديث ، رزين الفكر ، رغم قلة كلامه .. ووقع الضابط تحت سيطرة الوجه المريح الهادىء الذي يجذبك اليه ويسلب قلبك وعقلك .. ثم بدأ يكسب ثقة الجنديين ايضاً .. كان يعاملهما في احترام .. احتراماً لهما واحتراماً لنفسه .. وكان يغدق عليهما بكل ما يصله .. نقود وطعام وسجائر .. وبدأ يخرج من غرفته ويجلس في غرفة الضابط .. وبدأ بعد ايام يخرج من غرفته — وهو مرتد ثيابه — ويذهب ليجلس في غرفة الاطباء .. ثم يعود من تلقاء نفسه الى سجنه ..

ثم بدأ يغيب عن حجرته طويلاً .. ويدع الشك يتسرب الى نفس حارسه ، وقبل ان ينقلب الشك الى يقين يعود الى غرفته ، ويلمح علامات الراحة والاطمئنان على وجه الضابط والجنديين. وكان يطيل مدة غيابه يوما بعد يوم .ربع ساعة ، ثم نصف ساعة ، ثم ساعة ، ثم ساعتين .. ثم يعود بعدهما الى غرفته .. وفي خلال هذه الأيام كان أحد محاميه الشبان قد هرب اليه هذا المسدس الصغير الذي اخفاه في مرتبة سريره .. الى ان تأكد ان الضابط والجنديين قد اطمأنوا اليه ، وانهم اقتنعوا بأنه لا يفكر في الهرب .. وزاد في اطمئنانهم انهم احبوه ..

وحدد يوم التنفيذ .. سيخرج ولن يعود .. ولن يعلن الضابط عن هربه لرؤسائه الا بعد مضي ثلاثة ساعات على الأقل ، يكون خلالها قد وصل الى .. الى اين؟! .. لقد اجهد ذهنه في تحديد المكان الذي يلجأ اليه عقب هربه مباشرة .انه في حاجة الى قضاء بضعة ايام في القاهرة الى حين يستطيع ان يتصل بأصدقائه ليدبروا له خطة

خروجه من مصر .. ايام قد تمتد الى اسبوع أو اسبوعين ، فـــأين يقضي هذه المدة ؟ انه لن يستطيع أن يلجأ إلى بيته ، او الى احـد اصدقائه .. فالبوليس سيبحث عنه هناك ، ولن يستطيع ان يذهب الى احد الفنادق .. مستحيل ..

ومن خلال تفكيره ، تذكر محيي .. محيي الدين مصطفى احمد زاهر .. كما يصمم على ان يذكر اسمه دائماً .. وابتسم وهو يتذكر محيي .. انه طالب معـه في كلية الحقوق في السنة الرابعة .. ليس له قيمة بين الطلبة الا انه كان دائماً أول دفعته في ترتيب النجاح .. وفيه كل ما في اوائل الطلبة .. الانطواء .. والبعد عن الاشتغال بالسياسة .. والايمـان بأن المظاهرات مضيعة للوقت .. والخوف الذي يبدو احياناً عجزاً .. وكان محيي يبدو اكثر عجزاً من غيره من اوائـل الطلبة ، وخصوصاً كلما وقعت عيناه على ابراهيم .. كان ينظر اليه كأنه يقف بين يدي الله .. يرتعش وتقف الكلمات في حلقه .. كان ينظر اليه كأنه شيء كبير ضخم لا يستطيع ابداً ان يكون مثله .. ان محيي خير من يستطيع أن يختبىء عنده .. لن يخطر على بال البوليس ابداً ان مثل هذا الطالب يمكن أن يلجأ اليه قاتل هارب .. وابتسم ابراهيم مرة ثانية ، وهو يتخيل محيي عندمـا يلتقي به .. تخيل وجهه المستدير .. وانفه المستدير .. وفمه المستدير .. وعينيه المستديرتين .. وفوقهما نظارة امريكاني حلقتاها مستديرتان . ان كل شيء فيه مستدير حتى جسده القصير لو امتلأ قليلاً لأصبح مستديراً .. ولكن هـــل من العدل ان يفرض نفسه على زميله محيي ؟ انه مضطر .. ولو رفض محيي ايواءه فلن يفرض نفسه عليه .. ولكن محيي لن يرفض .. انه يعرف هذا النوع من الطلبة .. انه نوع عاجز عن تجسيم عواطفه في عمل ايجابي . قد يحب ولكنه لا يستطيع ان يعبر عن حبه ، او يقنع به الفتاة التي يحبهـا .. وقد يكون وطنياً ولكنه لا يستطيع ان يطلق وطنيته او يندفع وراءها .. ان هذا النوع لا يستطيع ان يكون بطلاً ، ولكنه لا يرفض ان يساهم في بطولة ، اذا مـا اضطر للمساهمة فيها .. ومحيي انسان يزخر قلبه بالوطنية ، وان كانت وطنية جافـة ليس لها صدى في تصرفاته .. ولكنه ماذا يحدث لو رفض محيي ايواءه . لو انه كان مخدوعاً في تقدير وطنيته ، او لو تدخل ابوه وحال دون دخوله البيت ..

لا شيء .. وهو لن يموت مرتين !..

* * *

وسمع نقراً على باب غرفته ، ثم اطل احـد الجنديين برأسه ، وهو يقول .. وابتسامته الواسعة تختفي وراء شاربه كأنها تطل من وراء كومة من القش :

– مش لازمك حاجة يا استاذ ابراهيم ؟

واعتدل ابراهيم في جلسته قائلاً :

– كتر خيرك يا باشاويش .. بس خد البطيخة دي تحلو بيها بعد الفطار ..

واشار ابراهيم الى بطيخة موضوعة فوق الدولاب ..

ودخل الباشاويش الى الغرفة متجهاً الى البطيخة وهو يقول :

– لا والله .. لا يمكن !

وقام ابراهيم من على مقعده ، كأنه يؤدي عملاً روتينياً ، واتجه الى الدولاب وحمل البطيخة ، وقال وهو يناولها للباشاويش :

– والله انتم احق بيها مني .. على الأقل انتم صايمين خد يا شيخ ، مـا فيش تكليف ! وتلقف الجندي البطيخة قائلاً : يا سلام عليك يا سي ابراهيم .. كلك كرم ! وخرج بالبطيخة ، واغلق الباب وراءه .. واخذ ابراهيم يروح ويجيء في الغرفة وهو يشعر بهواء بارد يملأ صدره .. ان هذا الهواء البارد لم يهب عليه من قبل عندما كان يقدم على مغامراته الوطنية .. انه ايامها لم يكن يهرب ، كان يهرب ، كان يهجم . وكان الهجوم يحصر كل عقله وكل احساسه في الخطة التي يضعها.. لم يكن يشعر بالتردد ولا باحتمال الفشل .. لم يكن يحس بشيء اطلاقاً، كان ينقلب الى آلة دقيقة تدور حسب خطة وضعت لها . ولكنه الآن .. وهو يهرب .. يحس بالهواء البارد، ويخاف احتمال الفشل .. ان الهروب اقسى وأشق من الهجوم .. شيء لم يكن يعلمه .. وتنبه على طلقة مدفع الافطار .. وانتظر حتى انتهى المؤذن من آذان المغرب . ثم فتح باب غرفته ، والتقى بالجنديين وقد جلس كل منهما على معقد وركن بندقيته على الحـــائط ، وتوسطهما مقعد ثالث وضعا عليه طعام افطارهما ، وصاح احد الجنديين بمجرد ان رآه :

– اتفضل ياسي ابراهيم بيه !

وقال ابراهيم ، وهو يضغط على كلماته كأنه يخشى ان تفر منه وتكشف عن نياته : عشت .. أما أروح أدور على واحد من الدكاترة يكون فاطر زيي !..

ثم اتجه الى الغرفة التي يجلس فيها الضابط وكان هو الآخر يتناول افطاره ، وصاح في لهجة حلوة بريئة ، فيها من الحلاوة والبراءة أكثر من اللازم .. صاح وهو واقف على بابها : – بالهنا والشفا !

وصاح الضابط : تعال يا ابراهيم .. تعال اقعد معايا !

ووضع ابراهيم ضحكة بين شفتيه وقال :

ـ لا .. انا ما اقعدش مع صايمين زي حضرتك !!

وانحرف عن باب الغرفة ، وسار في الممر الطويل . كان يسير في بطء .. ولكنه كان لا يريد ان يكون بطيئاً اكثر مما تعود في مشيتة ولا ان يكون سريعاً اكثر مما تعود . فجاءت خطواته بعضها بطيء وبعضها سريع ..

وانتهى من الممر الطويل .. وقبل ان يصل الى السلم .. فتح باب غرفة لم يكن فيها أحد ، ونزع من فوق المشجب معطفاً أبيض مما يرتديه الأطباء .. وخرج وأغلق الباب وراءه ثم نزل السلم ، وقبل ان يصل الى نهايته ارتدى المعطف .. وسار في ممر طويل آخر . لم يكن هناك أحد ، كلهم مشغولون في تناول طعام الافطار .. وقبل أن يصل الى الباب المؤدي الى الفناء .. لمح طبيباً واقفاً .. طبيباً لا يعرفه .. وتردد .. فكر في ان يخلع المعطف .. ويعود الى غرفته .. واستدار اليه الطبيب قبل ان يخلع المعطف . ونظر في وجهه .. وخيل اليه انه عرفه . ولكن الطبيب عاد واستدار الى الناحية الاخرى ، وهو يبتسم ابتسامة تبدو في عينيه ولا تبدو على شفتيه .

وعدل ابراهيم عن خلع معطفه .. وتقدم ، وحاذى الطبيب . ثم جاوره . واعتقد انه سيسمع صيحة .. صيحة الطبيب وهو ينبه الى هربه .. ولكنه لم يسمع شيئاً .. واستمر في طريقه ..

سار في الفناء الخارجي .. وجاوره دون ان يحدث شيء .. وعندما وصل الى الشارع خلع المعطف .. وسار في نفس خطواته التي تسرع حيناً وتبطيء حينا .. الى أن وصل الى موقف سيارات الاجرة ، وألقى نفسه في احداها ، وقال للسائق في صوت تعمد ان يكون هادئاً : ميدان سليمان باشا يا أوسطى !!

ونظر اليه السائق ، ولم يعرفه .. لم يكن متنكراً . ولم يكن يخفي وجهه .. كان يعتمد على ان احداً لا يعلم بهربه ولا ينتظر ان يلتقي به هارباً ، وكان يؤمن بالنظرية التي تقول « ان خير طريقة للتنكر ، هي الا تتنكر » .. لو انه وضع على عينيه نظارة سوداء واطلق شاربه ، مثلاً .. لأصبح منظره مريباً ، ودقق فيه الناس ، وربما عرفوه .. ونزل من السيارة في ميدان سليمان باشا . ثم انتظر قليلا حتى ابتعدت عنه السيارة التي نزل منها ، وسار على قدميه .. حتى شارع معروف ، وهناك ركب سيارة أخرى ، وقال للسائق : الجيزة يا أسطى ..

ونظر اليه السائق .. ولم يعرفه أيضاً .. وقبل ان يصل إلى ميدان الجيزة ، أوقف السائق عند باب احدى العمارات .. ونقده أجره ، وسار أمام السائق

ودخل من باب العمارة .. عمارة لم يجد لها بواباً .. ثم انتظر قليلاً ، وخرج من العمارة ، وسار على قدميه ، حتى وصل إلى شارع همذان ووقف أمام بيت من ثلاثة أدوار .. انه يعرف البيت .. لقد جاء إلى محيى مرة في العام الماضي ليقترض منه مذكراته .. وصعد السلم في خطى تكاد تكون ثابتة ، وضغط على جرس الباب وجذب من صدره نفساً طويلاً واستعاد في رأسه الكلمات التي اعدهـــا ليقولها لمحيي عندمايفتح له الباب.. وفتح الباب .. وبرزت منه فتاة .ووقفت الكلمات فوق شفتيه قبل ان ينطق بها .. وأتسعت عيناه كأنــه مشدوه .. وظل يبحلق فيها صامتاً كأنه اخرس .. ولم يكن يرى فيها شيئاً .. لم ير الا انها فتاة .. لم يرَ شعرهاالأسود الناعم الذي يتدلى خلف ظهرها في ضفيرة كأنها جدلتها من أطياف الليل .. ولم يرى شفتيها البريئتين .. لم تدنسهما اصباغ ولا قبل ، بل خافت عليهما ابتسامتها فتعلقت بينهما دون ان تمسهما..ولم يرَ عينيها.. سود ، فيهما وحشة ، وفيهما سر ، وفيهـما رهبة وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة .. وهناك في أعماقهما نور يدلك إلى الطريق .. ولم يرَ وجنتيها .. مكتنزتان ، مشدودتان،مصهورتان ، كأنها ورثتهما عنجدود منالهنود الحمر ، تتراقصفوقهما غمازتان كأنما تزغردان في فرح لا ينتهي.. ولم يرَ قوامها.. قوام السادسةعشرة وكأن ستة عشر فناناً اشتركوا في رسمه .. لم يرَ شيئاً منها .. كل ما رآه انها فتاة .. بنت .. وقد حسب حساب كل شيء في خطته الا البنات .. لقد عاش طول حياته وهو لا يحسب حساب البنات !.. وسمع صوتها رقيقاً ناعماً كأنها توقظه برفق من ذهوله : مين يا أفندم!.. ونظر اليها ، ثم عاد وخفض عينيـــه سريعاً ، وقـال في صوت اجش : محيي موجود من فضلك ؟ وعادت تسأله .. برفق .. وهي تدققفي وجهه هذه المرة : نقول له مين ؟.. وكان ينوي انيقول لها اسماً غير اسمه ..اسماً مستعاراً .. فهكذا كانت تقتضي خطته في حالة التقائه بغريب ، ولكنه وجد نفسه يرفـع رأسه اليها وفي عينيه نظرة يائسة ، ويقول كأنه يزفر اسمه من أعماقه : ابراهيم .. ابراهيم حمدي !.. واهتزت رموشالفتاة فوق عينيها ، وأطبقت شفتيها وكأنها تبتلع صرختها وابتعدت عنالباب قليلا.. ثم قالت كأنها تكاد تبكي فزعاً : دقيقه واحدة.. أما أشوفه !.. وقبل أنتغلق الباب . تنبه إلى نفسه .. ووضع قدميه بين ضلفتي الباب ، وقال وهو ينظر اليها فيقوة وكأنهيطالب بحق له : أقدر استنى جوه.. لو سمحتي ؟.. وتراجعت أمامه .. ودخل وأغلق الباب وراءه .. ووقف في «الصالة الصغيرة» ينظر اليها

نفس النظرة القوية .. لم تكن نظرة قوية فحسب .. كان فيها تحد .. وتعلقت بنظراته كأنها فراشة لا تستطيع ان تبتعد عن النار .. ثم نزعت نفسها من بين عينيه ، واختفت داخل الشقة .. وأراح عينيه من نظراتـه القوية المتحدية .. وبدأ كأنه مهموم يائس . كأنه يشعر بالفشل ..

وهز رأسه كأنه يقول لنفسه : لماذا يلد الناس بنات !..

٢

كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الافطار ، في حجرة « القعاد » والراديو يلقي اليهم أغانيه.. كان الأب في جلبابه الابيض الفضفاض ، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التي لا يخلعها الا ليضع مكانها الطربوش .. وقـد جلس على الاريكة « الاستامبوللي » ووضع ساقيه تحته واتكأ على احد مرفقيه ، وبين يديه جريدة « الاهرام » يطل فيها من وراء نظارته الذهبية ، ويعيد قراءة مقال سبق أن قرأه عقب عودته من الديوان ، وأمامه مائدة صغيرة عليها كوب شاي فارغ ، بقي في قعره بعض التفل الأسود ..

وكانت الأم الطيبة مكتنزة ، وبين شفتيها ابتسامة هادئـة كأنها قطعة من فمها .. جالسة على الطرف الآخر من الأريكة وبجانبها « علبة الخياطة » وبـين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها .. وكانت سامية جالسة على مقعد خيزران وأصابعها تتحرك بسرعة بين خيوط التريكو .. ليست جميلة كأختها الصغرى .. أو على الأقل ، لا تستطيع ان تلمح جمالها من النظرة الأولى .. انه نوع من الجمال يكشف لك عن نفسه كلما نظرت له أكثر .. وكان محيي جالساً على مقعـد « اسيوطي » كبير ، حتى ليتسع لشخص آخر بجانبه .. وكان يقرأ في كتاب ، ويرفع أصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته الامريكاني ، دون ان يكون في حاجة إلى الضغط عليها .. مجرد حركة تعودها .. وكانوا كلهم صامتين صمتاً هادئاً مريحاً ، كل منهم متفان في هضم طعام افطاره بعد صيام يوم طويل.. وكـأن معداتهم تبتسم وهي تقوم بعملية الهضم وترسل ابتسامتها إلى شفاههم ليحمدوا بها الله.. وعندما سمعوا جرس الباب ، لم يتحرك واحد منهم ولم يخرج

عن صمته .. لم يرفع الأب عينية عن الجريدة ، ولم ترفع الأم رأسها عن الجوارب التي ترتقها ، ولم تتوقف أصابع الابنة الكبرى بين خيوط التريكو ، ولم يقطع الابن قراءته في الكتاب . فقط تحركت نوال والقت المجلة التي كانت في يدهـــا وقامت .. فهي تعلم انها المكلفة بفتح الباب اذا دق الجرس ، باعتبارها صغرى البنتين ، ولأن الخادمة لا تزال مشغولة في المطبخ بغسل الصحون ..

ولم يكن واحد مـــن أفراد العائلة السعيدة ، ينتظر شيئاً من وراء جرس الباب .. غاية ما كانوا ينتظرونه ان يكون الطارق هو الكواء ، أو يكون البواب يعيد الاطباق التي أرسلوا له فيها طعام افطاره كعادتهم في أيام رمضان.

وعادت اليهم نوال بعد ان فتحت الباب وأجابت الطارق .. ولم يتحرك أحد ايضاً .. لم يرفع واحد منهم عينيه اليها .. انما مالوا اليها بآذانهم منتظرين ان يسمعوا صوتها وهي تحادث أمها وتبلغها عمـــن طرق الباب .. ولكنهم لم يسمعوا شيئاً !.. احسوا بها واقفة بينهم ، لا تتكلم .. ورفعوا رؤوسهم اليها في حركة واحدة كأن خيطاً واحداً قد شدها .. ونظروا بعيون متسائلة ، تساؤلاً طبيعياً هادئاً ، كان كل ماحدث هو أنهـــا نسيت ان تتكلم .. ولكنهم رأوا وجهها ممتقاً وشفتيها ترتعشان .. وانقلب التساؤل في عيونهم إلى جزع ولهفة ..

وقال الأب في صوت غليظ كأنه يؤنبها : مين ؟!..

وأدارت عينيها بينهم ، ثم ركزتها فوق شقيقها محيي ، وقـــد ازدادت شفتاها ارتعاشاً كأنها فقدت لسانها ..

وعادت الأم تقول في صوت حنون كأنها تتوسل : مين يانوال اللي ضرب الجرس !..

وقالت وهي ترفع عينيها عن أخيها وتهيم بهما في الفضاء : ابراهيم ...

وارتفع صوت الأب .. وقال في حدة :

– ما تتكلمي كويس .. جرالك ايه .. ابراهيم مين ؟!..

وأدرت عينيها إلى أبيها وقالت في صوت ضعيف كأنها تشفق عليه : ابراهيم حمدي ..

وقفز محيي إلى مقدمة المقعد الكبير الذي يجلس عليه ، وصاح :

– بتقولي ايه ؟!.. ابراهيم حمدي ..؟!

وعاد الأب يصرخ : ابراهيم حمدي مين ..؟!

وقالت وهي تتنهد كأنها تلقي اليهم بكل ما في صدرها :

– ابراهيم حمدي اللي قتل عبد الرحيم باشا شكري !..

وتوقفت أصابع سامية بين خيوط التريكو .. وألقت يديها في حجرها ،

وأتسعت عيناها وقد ملأتهما نظرات فزعة ..

وأرتفع صوت محيي رفيعاً حاداً : مش معقول .. ده في السجن !..

وقال الأب وهو ينزل ساقه التي كان يضعها تحته ويعتدل في جلسته ويثبت نظارته فوق عينيه : ما يمكن ابراهيم حمدي تاني .. ايه عرفك !؟..

وقالت في صوتها المتنهد : أنا عارفاه من صورته ..

ونظرت الأم الى زوجها كأنها تستغيث به ، وقالت وهي تضع يدهـــا على صدرها كأنها تمنع قلبها من ان يشقه : وده عايز مننا ايه الجدع ده ؟!..

وأجابتها نوال : بيسأل على محيي !..

ووقف محيي ، وقال مرتبكاً حائراً وهو يتلفت حوله يبحث عن مكان يهرب منه : عايز مني ايه .. مش معقول .. ده عمره ما عاز مني حاجة !..

ونظر اليه والده بعينين واسعتين كأنه يتهمه ، ثم عاد وأرخى عينيه عنه .. وأطرق مفكراً .. وساد الصمت .. كلهم ينظرون إلى الأب منتظرين كلمته ..

وتكلم بعد فترة .. تكلم في صوت هادىء كأنه يعرف ما يقول :

ـ أظن تروح تشوفه عايز ايه يا محيي !..

وعاد محيي يتلفت حوله وينظر في وجوه أفراد عائلته واحداً بعد واحد ، كأنه يسألهم رأيهم ثم تحرك من وقفته ، وقبل أن يخرج من الغرفة ، قالت نوال وهي تلمس كتفه بأطراف أصابعها : آجي معاك يا محيي ؟..

وقال الأب في حزم : لا .. خليكي انت هنا .

وخرج محيي وكلهم يتبعونه بعيون مشفقة كأنهم يودعونه إلى ميدان القتال ، أو كأن اباه ألقى عبئاً لا يحتمله ، وسار وهو يشد قامته القصيرة ، ويحاول ان يتزن في خطواته ، ويضغط على اعصابه ليبدو هادئا ، ويبذل في ذلك مجهوداً نفسيا كبيراً حتى يخنق دماءه في عروقه فيزدرد وجهه كقطعة النحاس المحمى ..

* * *

ووجد ابراهيم واقفاً في الصالة .. انه كما تعود أن يراه في الكلية .. الوجـه الهادىء المريح الذي يجذبك اليه ويسلب منك قلبك وعقلك .. وكان يبتسم .. وكأن في ابتساسته اضطراب..ومد ابراهيم يده في لهفة كأنه يمدها إلى منقذه.. ومد محيي يداً قصيرة مترددة وهو لا يتكلم .. فالتقط ابراهيم يده كأنه يجذبها منه ، وقال في صوت خافت لا يخلو من حشرجة ، وكأنه يهمس : انا آسف يا محيي .. أنا عارف اني ازعجتكم .. كل اللي ارجوه انك تسمح لي .. وبعـدين

تقرر اللي تشوفه ..

وابتلع محيي ريقه كأنه يسترد روحه ، وأخذ ينظر الى ابراهيم كأنه ينظر الى وهم أو الى مارد انشقت عنه الارض .. ثم قال وقد بدأت صدمة المفاجأة تخف عنه : اتفضل ... وأشار الى مقعد من القش موضوع في الصالة .. وجلس ابراهيم ، وهو يقول : انا أكرر أسفي .. تأكد اني مش حاضايقك ..

وجلس محيي على مقعد آخر .. وقال كأنه يبحث عن أى شيء يقوله : انت فطرت يا استاذ ابراهيم !؟ وابتسم ابراهيم ، ابتسامة مجاملة .. وقال وكان السؤال قد قطع عليه حبل أفكاره : انا فاطر .. ثم اعتدل في جلسته ومال بوجهه ناحية محيي وقال في لهجة خطيرة :

– اسمع يا محيي .. انا هربت من مدة ثلاث ارباع ساعة بس .. والبوليس حيبتدي يدور علي بعد ساعة على الاقل .. مش ممكن قبل كده .. أنا عامل حسابي كويس .. وجيتلك علشان أستخبي عندك .. واخترتك انت بالذات لأني عارف ان مالكش دعوة بالمسائل السياسية ، وما حدش يخطر على باله انه يدور علي عندك .. وانا مش محتاج اقعد هنا كتير .. غايته أربع أو خمس أيام لغاية ما اعرف أتصل بناس معينين وانفذ بقية خطتي .. واللي عايز أعرفه حالا دلوقت .. تقبل تخبيني عندك ولا لأ ؟ ..

وكان محيي يستمع اليه بأنفاس مبهورة كأنه يستمع الى قصة خرافية مثيرة ، وهو يرفع اصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظاراته .. وعندما سكت ابراهيم .. لم يرد عليه محيي .. انما أبعد عينيه عنه وظل صامتا فترة .. وعاد ابراهيم يسأل في الحاح : ايه رأيك ؟! ورفع محيي أصبعه وضغط على قنطرة نظارته مرة أخرى . وقال في صوت عميق كأنه كبر عشرة أعوام :

– والله ما اقدرش اقول لك يا استاذ ابراهيم .. انت عارف اني مؤمن بيك . كل الناس مؤمنة بيك وبوطنيتك .. كل واحد كان يتمنى انه يقوم بالعمل اللي قمت بيه ، لو يقدر عليه .. لكن انا مش لوحدي في البيت .. انا قاعد مع عيلتي زي ما انت عارف .. ولازم أسأل والدي قبل ما أقولك رأيي ..

وقال ابراهيم كأنه يتعجله :

– أسأله .. ولو مارضيش ، تأكد اني حاسيب البيت حالاً ! وقام محيي واقفاً ، وهو يقول : تسمح .. دقيقة واحدة !.. وقال ابراهيم كأنه يستوقفه :

– انتم عندكم تليفون هنا ؟! واجاب محيي في دهشة : لا ....

وعاد ابراهيم يقول في لهجة حازمة لا تخلو من قوة :

– انا واثق منك يا محيي .. انما انت عارف اني في ظروف حرجة .. ممكن اطلب منك ان ما حدش ينزل من البيت طول ما انا هنا !! ..

وقال محيي كأنه يلومه : حاضر .. وعاد ابراهيم يقول قبل ان يستدير له محيي :

– وعلشان أبقي صريح معـاك .. أحب أقول لك اني معايا مسدس ! ..

ونظر اليه محيي برهة كأنه لا يفهم ما يعنيه ، ثم قال وكأنه يتكلم بلا وعي : تحب اعملك قهوة ؟! .. وقال ابراهيم كأنه يعتذر له : لو سمحت .. متشكر ..

واستدار محيي واتجه الى داخل الشقة ، وهو يسير دون ان يرى شيئاً .. لا يرى الجدران ولا المقاعد .. كل ما يرانا هو صوره ابراهيم مجسمة في رأسه ..

وكانت العائلة لا تزال مجتمعة في غرفة « القعاد » على الصمت كأنها أصيبت بنكبة اذهلتها .. لم يتكلم احد منها ، ولم ينظر أحد منها الى الاخر ، ولم يرتفع بينها الا همهمات الأم وهي تقرأ لنفسها آية الكرسي ..

واستقبلوا محيي بعيون ملهوفة جاحظة تكاد تشد لسانه من فمه ، وبدأ على الأم بعض الارتياح لمجرد أن ابنها قد عاد اليها .. وتنحنح الأب في عصبية كأنه يعد نفسه لأمر .. وجذبت نوال ضفيرتها إلى صدرها واخذت تعبث بها كأنها تربت على قلبها حتى لا يبكي ولا يصرخ .. وظلت سامية معلقة العينين في الفضاء .. واجمة كأن يداً سحرية مستها واحالتها إلى تمثال من الشمع .. واتجه محيي بعينيه إلى والده دون أن يلتفت إلى أحد غيره ، وأطرق برأسه برهة ، ثم رفعها وقال ، وهو يحاول ان يسيطر على لسانه حتى لا يخونه عن الكلام : هوه .. ابراهيم حمدي ..

وصمت قليلاً .. فاستعجله الأب : وعايز ايه ؟..

وقال في بطء كأنه يعد كلماته : هرب من السجن ، وجاي يستخبى عندنا ..

وزاد اتساع عيون افراد العائلة ، وصاحت نوال تقاطعه كأنها تتلهف إلى سماع قصة من قصص البطولة : هرب ؟ هرب ازاي !..

ونظر اليها والدها نظرة اسكتتها .. فمالت في مقعدها كأنها تختبيء من هذه النظرة .. وقال الأب في هدوء مفتعل : وأشمعنى اختارنا احنا ؟.

وقال محيي وهو يتنهد كأنه يتحسر : لأني بعيـد عن السياسة ، والبوليس مش ممكن يخطر على باله انه يدور عندنا ..

وسكت الأب برهة كأنه يفكر ، ثم قال :

– ما يمكن البوليس تتبعه ، وزمانه محاصر البيت !..

وخبطت الأم على صدرها وهى تسمع كلام زوجها ، وقفزت نوال واطلت من الشباك ثم صاحت ورأسها لا يزال خارج الشباك : ما فيش حد ..

وقال محيي في هدوء : هوه بيقول ان البوليس مش حيبتدي يدور عليه الا بعد ساعة .. وعايز يعرف رأينابسرعة .. ما رضيناش نخبيه حايسيب البيت حالاً

وتقلص وجه الأب كأنه يشعر بألم لا يدري مصدره ، وظـــل صامتاً ..

وتعجل محيي والده : ايه رأيك يا بابا ؟!..

وظل الأب صامتاً ، وقد زاد تقلص وجهه حتى سقطت نظارته الذهبية فوق أرنبة أنفه .. وقالت الأم كأنها تساعد زوجها في تفكيره :

ـ كبدي عليه .. يا ترى أمه عاملة ايه دلوقت ؟!..

وقالت سامية ، وهي تحاول ان تحرك أصابعها من جديد بـــين خيوط التريكو : الحقيقة .. يصعب على الكافر !..

والاب لا يزال صامتاً .. وقالت نوال وكأنها تتبع في خيالها فيلماً سينمائياً من أفلام رعاة البقر : انما هرب ازاي ؟!..

وتنحنح الأب كأنه يطلب من عائلته السكوت . وقال كأنه على اهبة أن يصدر حكماً : الواقع أن .. أن .. وكأنما غير فكره ، فصرخ بغتة : العيال دول مـا فيش حد قادر يلمهم .. انا مش فاهم ، بأي حـــق يفرضوا أنفسهم على الناس بالشكل ده . ده مش ..

ولم يتم كلامه ، والتفت فجأة الى زوجته وقال في صوت مبهور : ايه رأيك يا تحية ؟!.. ووضعت الأم اصبعها فوق خدها ، وقالت وهي تدارى عينيها كأنها لا تريد أن تؤثر عليه بهما: انا عارفة يا خويا . الرأي رأيك .. انما هوه لاحرامى ولا مجرم ، غير شي انهم ضحكوا عليه بالسخامة اللي اسمها السياسة وخلوه عمل اللي عمله .. انما .. أصل احنا كمان مالناش دعوة !..

وانطلقت نوال بلا سبب : ما ضحكوش عليه يا ماما .. و ..

وصرخت فيها أمها كأنها تريد ان تصرخ في أي انسان :

ـ اسكتي انتي يا مسحوبة اللسان ..

وقام الأب واقفاً ، وهو يعدل الطاقية فوق رأسه ويتلمس بأصابع قدمـه مكان الشبشب ونظر الى ولده قائلا في لهجة جدية :

ـ أظن الأحسن اقابله بنفسي .. تعال ..

واتجه إلى الباب ، وقبل أن يصل اليه قـال محيي وهو لم يتحرك بعد من

وقفته .. قال وكأنه يهمه أن يسمع كلامه كل افراد العائلة : ابراهيم بيقول مش عايز حد يخرج من البيت طول ما هو موجود فيه. وبيقول ان معاه مسدس !..

وتوقف الأب عند الباب وكان كرامته أهينت .. وخبطت الأم على صدرها وقالت مذعورة : - مسدس .. ما بقاش ناقص الا المسدسات تدخل بيتنا ..

وقالت نوال وعيناها تلمعان : مسدس بصحيح !..

وقالت سامية وهي لا ترفع رأسها عن خيوط التريكو :

- دي حكاية كبيرة .. مصيبة ووقعت علينا !

وتحرك الأب من جديد دون ان يعلق بشيء ، وخرج وابنه يتبعه . وتنحنح - كعادته - قبل أن يصل الى « الصالة » . وقام ابراهيم واقفاً بمجرد أن رآه ، وظل لا يمد يده اليه كأنه يخشى ان مدها اليه ان يرفضها .. ولكن الأب مد يده اليه وهو يحاول ان يضع على شفتيه ابتسامة باهتة ، وصافحه ابراهيم في احترام كبير ، وقال محيي يقدم والده : والدي ...

وكان ابراهيم يبدو مضطرباً .. كان الانتظار قد اتعبه وكان يعلم ان الوقت يمر ، وان كل دقيقة محسوبة عليه .. انه لم يكن يضطرب هذا الاضطراب وهو في انتظار اعدائه الذين يقتلهم .. ولكنه الآن يضطرب .. يخاف .. يحس انه في حاجة الى حماية .. انه ليس قوياً يحتمي اعداؤه منه .. انه ضعيف يطلب حماية الاصدقاء .. وهو يريد أن يهدأ .. يريد أن يرى والدته فيهدأ بين احضانها. أو يرى أباه ويهدأ الى جواره .. ورفع عينيه إلى الرجل الذي يصافحه .. وتمنى ان يكون هذا الرجل أباه .. ثم قاوم اضطراب نفسه الذي لا يبدو على وجهه ، وقال في كلمات يحاول أن يرتبها حتى لا تتعثر : انا آسف يا أفندم . آسف جداً .. انما انا مضطر ..

وقال الأب وهو يدعي الهدوء : اتفضل يا ابني .. اتفضل هنا !..

وسار أمامه ، وفتح باباً جانبياً يؤدي الى غرفة « الضيوف » .. اثاث على الطراز العربي .. وآيات قرآنية فوق مسائد المقاعد المكسوة بقماش عتيق مضى عليه سنين. وجلس الوالد . وعاد يكرر : اتفضل يا بني.. اتفضل !..

وقبل ان يجلس ابراهيم ، عاد الأب يسأل : انت فطرت ؟ .

وقال ابراهيم : متشكر . ما كنتش باقدر أصوم في السجن ..

ثم استطرد كأنه يتعذر عن عدم صيامه : اصلي انتقلت للمستشفى..

وسادت فترة صمت قصيرة ، قال الأب بعدها : أقدر أسألك كام سؤال ؟.

وقال ابراهيم وهو يضغط بيد على يد ، كأنه يريد ان يوقف الدماء في عروقه حتى لا يشعر بمرور الوقت : اتفضل ..

ونكس الأب رأسه وقال وهو ينظر إلى شبشبه : حد عارف انك هربت؟

وقال ابراهيم بسرعة : البوليس حيعرف بعد ساعة على الأقل ..

وصحح الأب السؤال : قصدي حد من اصدقائك ؟..

واجاب ابراهيم : فيه تلاته عارفين اني حاهرب ، انما ما يعرفوش حاهرب امتى .. كان تحديد ميعاد الهرب متروك لي .. حسب الظروف !..

وعاد الأب يسأل : وحد منهم عارف ان يوم ما تهرب حاتيجي هنا ؟!..

وقال ابراهيم وهو يختصر في الجواب : لأ .. لأني مش متاكد انكم حتقبلوني عندكم .. مارضتش اصرح باسم محيي من غير لازمـــة .. انما أتفقت معاهم اني حاتصل بيهم بمجرد ان أستقر في مكان ..

وابتسم الوالد كانه يحيي شهامة ابراهيم ، وعاد يسأل وقد بدأ اكثر هدوءاً: ولو خرجت من هنا دلوقت حاتروح فين ؟..

وقال ابراهيم وهو لا يزال يتكلم بلهجة سريعة ليشعر محدثه باهمية الوقت :

– ما اعرفش .. اظن حاضطر أروح لواحد من التلاتة دول ، ومن هناك ندور على حته تانيه ..

وقال الأب في حماسة كأنه أشرك نفسه في مؤامرة وطنية : – لكن لازم البوليس عارف ان التلاتة دول اصدقاءك ، وحايدور عليك عندهم !

وقال ابراهيم وهو يتنهد : فعلا .. انما مضطر ! ..

وعاد الأب ينكس رأسه كأن حمـــلاً ثقيلا قد أسقطه من فوق رقبته .. وسكت .. كأنه لن يتكلم أبداً ..

واتسعت عينا ابراهيم كأنه نزع جفنيه عنهما ، وبـدا فيهما قلق عنيف .. واضطراب .. وتحفز .. كأنه ينتظر حكم القدر ..

ولم يتكلم محيي .. أخذ ينقل عينيه بين أبيه وابراهيم دون ان تستقر عيناه على أحد منهما .. وهو يرفع يده احياناً ويمسح بها على شعره .. ثم ينزلها ويعبث بأزرار « بيجامته » ثم يرفعها مرة اخرى ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته .. ويبتلع ريقه بين كل لحظة واخرى .. كأنه عطشان .. تائه ..

ورفع الأب رأسه .. وركز عينيه على وجـه ابراهيم .. وقال في لهجة أب غاضب على ولده : – تعرف اني لغاية دلوقت مش موافق على اللي عملته .. ده

نوع من الوطنية لا أقره ..

واكفهر وجه ابراهيم وقفز الى مقدمة مقعده كأنه يهم بالقيام.. لم يعد وجهه الهادىء المريح يستطيع ان يخفي اضطرابه ..

وامتقع وجه محيي كأنه يرى فرخة تذبح ..

وعاد الأب يتكلم وقد بدا اكثر حزماً :

— انا مش موافق كمان على انك كنت تيجي هنا .. احنا ناس مالناش دعوة بالسياسة .. لما كنت في سنك عمري ما اشتغلت في السياسة . عمري ما مشيت في مظاهرة .. ومـا أظنش اني حا غير حياتي علشان خاطرك بعد ما كبرت وأصبحت مسئول عن عيلة ..

وانتفض ابراهيم واقفاً ..

ورفع الأب رأسه وسكت عن كلامه ..

وتحرك ابراهيم في بطء كأنـــه لم يفقد الأمل بعد .. وظل صامتاً ثم خطا خطوتين نحو الباب وهو يقول : — أنا آسف يا افندم .. آسف جداً ..

ولم يرد الأب ولم ينظر اليه انما عاد وجهه يتقلص مرة اخرى وكأنه في هذه المره يعاني ألماً عنيفاً ..

وخطا ابراهيم خطوة ثالثة ..

وقبل ان يصل الى الباب .. رفع الأب رأسه بغتة ، وقال في صوت عميق كأنه يستسلم الى شيء أقوى منه .. الى قـــوة تنطلق من صدره ولا يستطيع مقاومتها بعقله : — تعال يا ابني .. تعال .. اقعد ، اقدر اسألك سؤال كمان ؟

وأجاب ابراهيم في استسلام كأنه يكاد يبكي : اتفضل ...

— انت قتلت عبد الرحيم باشا ليه ؟ ..

وقال ابراهيم كأنه لا يزال مصراً على جريمته مقتنعاً بها : — لأنه انجليزي. خدم الانجليز .. كل الناس عارفه انه خاين وعميل للانجليز ..

وقال الأب : مش كنت تسيب الحكومه تعرف شغلها معاه ..

وقال ابراهيم وهو يحاول ألا يحتد :

— ما كانش فيه حكومة تقدر تكلمه .. كان اقوى من الحكومات كلها .. كان هوه اللي بيشيل حكومه ويحط حكومه .. فيه احـــكام كتير الحكومه ما تقدرش تصدرهـــا ولا تنفذها .. لازم الناس هي اللي تصدرها وتنفذها .. والناس كلها حكمت ان الراجل ده خاين ، وانا نفذت الحكم ..

وسكت الأب قليلا ثم عاد يسأل : – انت منضم لحزب من الأحزاب ؟ ..

– لأ ..

– ولا للحزب الوطني ؟

– لأ ..

وسكت الأب .. سكت طويلا ..

ثم التفت الى ابنه وقال كأنه كان قد نسي شيئاً : أظن تقوم تنده لوالدتك واخواتك ، علشان يتعرفوا بالاستاذ ابراهيم ..

والتفت ابراهيم ومحيي اليه في دهشة وحيرة ، كأنهما لا يفهمان .. ثم لمحا بين شفتيه ظل ابتسامة خافتة مسكينة ، كأنه يحاول بها ان يساعدهما على الفهم ..

وفهم ابراهيم .. وحرك شفتيه كأنه يريد ان يتكلم ، ولكنه لم يقل شيئاً ، انما عاد وجهه مريحاً هادئاً ، وزادت عليه ابتسامته اكثر راحة وهدوءاً كأنها تنهيدة زفرها بعد شقاء طويل ..

وقام محيي واتجه الى خارج الغرفة في خطى سريعة جادة وكأنه يقوم بأخطر عمل في حياته ..

وساد الصمت في الغرفة .. وتنحنح الأب .. وعاد وتنحنح مرة أخرى ..

ثم قال دون ان ينظر الى ابراهيم : وازاي الوالد ؟!

وقال ابراهيم وهو يعتدل في جلسته ويتخذ وضعاً اكثر أدباً :

– الحمد لله .. كويس يا افندم .

وقال الأب كأنه يحاول أن يتكلم في أي موضوع يلهى به نفسه : أظن هو في الدرجة الرابعة دلوقت ..

– اظن كده .. قال في لهجة روتينية :

– انا لي أبن عم موظف في وزارة الأشغال . ودايما يمتدح والدك جداً ..

وسكت برهة ثم عاد يقول :

– يا ترى انتم تقربوا لعبد العزيز بك حامد مدير القلم بتاعنا ؟ سمعت أن فيه صلة قرابة !

– أظن أنه صديق والدي .. – ده كان رجل كويس ..– ايوه يا افندم ..

وعاد الصمت ، كأن الأب اكتشف ان كلامه ليس مناسباً ، وكأنه لم يجد كلاماً آخر يقوله .. وقال ابراهيم بعد فترة :

– أنا مش قادر أشكر حضرتك ازاي .. انا كنت ..

وقاطعه الوالد بسرعة كأنه لا يريد أن يذكر نفسه بما فعله :

– ما فيش لازمه .. انت زي ابني محيي .. كل ما هنالك ان دورك في الحياة مختلف عن دوره .

وعاد محيي وجلس في مقعده . وخيم الصمت الثقيل .. كان كل من الثلاثة يبدو محرجاً مرتبكاً لا يدري ما يجب أن يقوله .. كان الأب يسدل جفنيه فوق عينيه فيبدو وجهه من خلف نظارته الذهبية كأن ليس له عينان .. كان يغيب في تفكير عميق كأنه يحاول أن يقيس المستقبل .. ثم فجأة يرفع جفنيه وتبدو عيناه وهما تلمعان خلف نظارته كأنه يهم بأن يلقي خطاباً سياسياً يبين به رأيه في وطنية الجيل الجديد .. ثم يكتشف ان الوقت ليس مناسباً لالقاء الخطب السياسية .. فيطفىء لمعة عينيه ويعود الى التفكير العميق ..

وكان محيى يبدو كأن في رأسه الف سؤال.. ولا يدري بأي سؤال يبدأ .. فاذا وجد سؤالاً يبدأ به رفع عينيه الى ابراهيم . ثم التفت بهما الى والده .. ثم كأنه لا يجد الجرأة ليلقي سؤاله . فيسكت ..

وكان ابراهيم في جلسته المهذبة ، يفكر احياناً في خطته ثم يجد نفسه يفكر في العائلة التي أقحم عليها نفسه ، فيرفع عينيه وينظر الى الوالد كأنه يعتذر له ، ثم ينظر الى الابن كأنه يشجعه .

وأخيراً تزاحمت الاسئلة في رأس محيي ، فانطلق واحد منها من بين شفتيه ، وكأنه انطلق رغم ارادته ، فخرج في صوت رفيع مرتعش : انما قدرت تهرب ازاي يا استاذ ابراهيم ؟!

وأجاب ابراهيم في اختصار وهو يبتسم ابتسامة صغيرة متواضعة كأنه يجيب على سؤال بديهي :

– ولا حاجة .. كانوا سمحوا لي في المستشفى اني اتمشى شويه .. النهارده اتمشيت لغاية عندكم !!

وظهرت خيبة الأمل على وجه محيي .. كان ينتظر أن يسمع قصة مثيرة .. قصة شاب يتسلق الجدار العالي ، وينزلق فوق مواسير المياه بينما رصاص الجنود يطارده .. لم يكن ينتظر أن يكون الهرب من السجن بهـــذه البساطة التي يتحدث بها ابراهيم !!

* * *

ودخلت الأم ووراءها البنتان .. لم يزد عليهـــا شيء ، الا أن الأم بدلت

ثوبها . وسامية ونوال كل منهما لبست حذاءها .. حذاء بكعب متوسط الطول.

وقام ابراهيم واقفاً .. والتقط يد الأم وانحنى يقبلها ويرفعها الى جبينه كما تعود أن يقبل يد أمه .. وعندما التقت عيناه بوجهها الطيب الساذج المكتنز ، وابتسامتها التي تبدو كقطعة من فمها ، تمنى أن يلقي نفسه فوق صدرهـــا .. ويستريح .. كما كان يفعل وهو طفل عندما يعود الى أمه عقب يوم متعب قضاه في شوارع المنيرة ..

وضغط على أعصابه حتى يقاوم هذه العاطفة الضعيفة التي مرت به .. ثم مد يده يصافح كبرى البنتين ، وسمع صوت الوالد يقول : بنتي سامية ..

ثم مد يده الى الصغرى ، وسمع صوت الوالد يقول : نوال ..

ولم يرفع عينيه الى سامية أو الى نوال .. لم يرهما وهما تنظران اليه في لمحات خاطفة ، كأنهما تنظران إلى مخلوق عجيب ليس من حقهما ان تنظرا اليه ..

وأحس بحرج شديد ، بلغ حد الضيق .. ليست بنتاً واحدة ، انهما بنتان .. وهو لم يدخل في حسابه البنات .. كيف يعيش في بيت فيه بنات .. انه لم يعش ابداً في بيت فيه بنات .. وأحس كأنـــه ينتهك عرضاً .. كأنه يجرح شعور صديقه ووالد صديقه .. وعاد يضغط على اعصابه حتى لا يبدو شيء مما في نفسه ..

وظل واقفاً الى ان سمع صوت الام تقول : اقعد يا بني .. اقعد يا حبيبي ..

وجلس ، والام الطيبة لا تزال تتكلم في أسلوبها الساذج : ازيك يا ضناي .. ازي صحتك ؟

وقال وهو منكمش العينين : الحمدلله .. الله يسلمك ! وعادت تقول :

– وازاي الست والدتك .. يا ترى كنت بتشوفها ؟ قال وهو لا يزال ينظر الى قدميه : سمحوا بالزيارة من مدة عشرة ايام .. صحتها كويسة .. الحمد لله..

قالت وهي تمصمص شفتيها : يا كبدي عليها .. ده زمان قلبها متشحط عليك .. ما هو ما حدش بيشيل الهم الا الام .. يا ترى هيه عارفة انت فين دلوقت ؟!.. قال في صوت خافت وقد بدأ الحديث عن أمه يعصر قلبه : لأ ..

وتنحنح الاب كأنه يطلب من زوجته ان تسكت ، ثم قال في صوت رزين:

– الاستاذ ابراهيم حيقعد معانا كام يوم .. طبعاً من غير ما حد يعرف ..

وسكت .. وسكت معه الجميع كأن احداً منهم لم يفاجأ بهذا القرار ..

ثم قالت الام وهي تضع اصبعيها تحت ذقنها : طيب افرض يا خويا حـــد جالنا ؟! وقالت سامية كأنها تحادث أمها وحدها : احسن حاجة نقفل الباب

علينا ، ونعمل نفسنا مسافرين !! ورفع ابراهيم عينيه اليها بغتة كأنـــه صعق لهذه الفكرة .. ورآها .. رأى هذا النوع من الجمال الذي يكشف لك عن نفسه كلما نظرت اليه أكثر .. وكأنه اراد ان ينتظر الفرصة ويتعرف الى باقي وجوه العائلة .. فتسلل بعينيه الى نوال ، وما كاد يرفعها اليها حتى التقى بعينيها تمتصانه كله فخفض عينيه سريعاً كأنه يخشى ان يغرق في عينيها ، وخفضت عينيها كأنها تفر منه .. ولم ير منها شيئاً .. لم ير الا هاتين العينين .. سود .. فيهما وحشة ، وسر ، وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة ، وهناك في اعماقهما نور يدلك الى الطريق ..

وسمع صوت محيي يرد على اخته : بأه ده اسمه كلام .. طيب ناكل ونشرب ازاي ..؟ وبابا يروح الديوان ازاي !! وقـال الاب : على كل حال حاتعمد اني اخرج كل ليلة بعد الافطار ، ولما ييجي حد تقولوا له اني مش هنا !!

وقالت الام وهي تشوح بيدها ، وتدير عينيها عن ابراهيم كانها تخشى ان تجرحه بكلامها : وانت ذنبك ايه يا اخويا تدور في السكك كل ليلة ؟! وتكلم ابراهيم ، وانتبه الجميع اليه كأنـه اله يتكلم : اظن يا افندم احسن طريقة ان كل حاجة تمشي طبيعي .. كل واحد يعمل اللي كان بيعمله ، علشان ما نلفتش نظر حد .. وقالت نوال كأنها تتم حديثه : ولو حـــد جه يبقى الاستاذ ابراهيم يستخبي في أي حته !! وابتسم ابراهيم دون ان يلتفت اليها كأن المفروض ان تعبر عن افكاره .. وقال الاب كأنه لا يستطيع أن يتخذ قراراً : أهو نبقى ساعتها نتصرف .. وربنا يستر .. وصاحت نوال كأنها اكتشفت امراً هاماً : والبت سنيه ؟! وقالت الأم : مالها سنيه كمان ؟! وقال محيي كأنه التقط بذكائه ما تقصده اخته : فعلا سنيه ما يصحش تعرف .. دي بنت صغيره ولسانها فالت !! وقالت سامية : طيب وحانعمل فيها أيه ؟!

وتجهم وجه ابراهيم كأنه اكتشف شيئاً آخر لم يحسب حسابه عندما وضع خطته .. وسكت الاب كأنه ينتظر ان يقول آخر كلمة .. ولمعت عينا نوال كأنها تكشفان عن سر من أسرارهما ، وصاحت في صوت خافت :

– أقول لـكم نعمل أيه .. أقوم أنا دلوقت أدب معاها خناقة .. وبعدين ننده على البواب يروحها لأمها ..

وقالت الأم : والنبي ده انتي جباره .. يا شيخه حرام عليكي !

والتفت اليها ابراهيم كأنه يهنئها ، والتقى بعينيها مرة أخرى تنظران اليه كأنهما تشهدانه على ذكائها ..

وقال الأب : يظهر ما فيش قدامنا الا الطريقة دي ..

وقامت نوال وخرجت من الغرفـــة ، وبعد قليل ارتفع صوتها وهي تنهر الخادمة .. ثم ارتفع الصوت أكثر حتى أصبح صراخاً حاداً ، يصحبه صوت صفعات وبكاء .. ثم عـــادت نوال وهي منفعلة كأنها كانت في خناقـــة حقيقية ، وكأن الخادمة كانت تستحق فعلا هذه الصفعات .. وقالت وهي في انفعالها تكاد تبكي :

– قومي انتي بأه يا ماما أطرديها .. وقالت الام وهي لا تقوم :

– والله ما تهنش علي .. ده حرام عليكم ... ده احنا في رمضان !!..

وقال الأب متأثراً : معلهشياتحية ،ما احنا حنرجعها بعد تلات اربع أيام ..

وقالت الأم : قوم انت يا محيي اطردها ..

وقال محيي وهو يتمسك بمقعده : واناما لي ومال طرد الخدامين كمان .. دي عمرها ما كانت شغلتي !..

وقالت نوال : قومي انتي يا ماما ، واديها نص ريال من فلوسي ..

وقامت الأم وهي تنظر إلى ابراهيم نظرة عتاب كأنها تحمله ذنب الخادمة الصغيرة ، وقالت وهي تخطو خطواتها الثقيلة : أقل من خمسين قرش فـــوق ماهيتها ، ربنا ما يسامحناش .. دي غلبانة ويتيمة !..

وخرجت ، وقالت سامية وهي تقلب شفتيها :

– دلوقت شغل البيت كله حيقع على دماغنا .. ومين يا ترى اللي حا يجيب حاجة السوق .. أنا وألا نوال ؟

وقالت نوال : يا ستي مـا تحمليش هم .. عم علي يجيب حاجة السوق ، وأنا ادخل المطبخ مع ماما يوم وانتي يوم ..

وارتفع صوت الأم من الداخل .. ثم سمـــع الباب يفتح وصوت البواب يتحدث .. ثم أغلق الباب ، وعادت الأم اليهم وهي تقول : ربنا يسامحنا ..

وتحرك ابراهيم في جلسته دون ان يقول شيئاً ، كأنه يتألم لهـــذا الارتباك الذي أحدثه في العائلة .. وقال الأب :

– اظن الاستاذ ابراهيم تعقان . اتفضل في اودة محيي .. وبكره الصبـح باذن الله نكمل كلامنا .. وقام ابراهيم ووقف مرتبكاً بين افراد العائلة ، ثم قال دون ان ينظر الى احد منهم : تصبحوا على خير .. وهمهم الجميع ولم يتضح إلا

صوت نوال وهي ترد عليه : وانت من اهل الخير . .

وقام معه محيي ،وقبل ان يصلا الى نهاية الغرفة ،قال الاب: يا استاذابراهيم .

وتوقف ابراهيم ، والتفت اليه مستسلماً ، واستطرد الأب :

– انا سمعت ان معاك مسدس . . من فضلك تشيله من جيبك وتحطه في اي درج من ادراج محيي . . إنما ما تمسكوش في ايدك ابداً طول ما انت معانا . . انا ما حبش المسدسات . . وبحركة لا ارادية . . وببساطة . . أخرج ابراهيم المسدس من جيبه وهو يقول : تحب أشيله عند حضرتك ؟.. واتسعت عينـا الاب في فزع . . وخبطت الأم على صدرها وهي تصيح : ابعـد البتاع ده عن وشنا ألله يخليك . . وانكمشت سامية في مقعدها ، وابتعد محيي خطوتين وقـــد ففر فاه كأنه يبحث عن انفاسه . . وأطلت نوال بعينين مستطلعتين كأنهـــا ترى شيئاً سمعت عنه طويلاً ولم تره . . وازداد ارتباك ابراهيم ، وقـال متلعثماً وهو يعيد المسدس الى جيبه كأنه يخفي عاراً : أنا آسف . . ما كنش قصدي . .

ثم وقف بينهم برهة ، واستدار ، وخرج وبجانبه محيي . .

وأغلق محيي وراءهما الباب . . وتلفت ابراهيم يدقق في محتويات الغرفة . . دولاب ومكتب . ومقعدين . . وشماعة معلقة في الحائط . . كل شي نظيف . . مرتب . . وجلس على احد المقعدين ، وجلس محيي على حافة السرير ينظر اليه كأنه يطالبه بالكلام . . وتكلم ابراهيم . . ولكنه لم يتكلم في السياسة ولا في القضية التي سجن من أجلها . . بل اخذ يسأل محيي عن زملائها في الكلية وعن الاساتذة ويروي له نوادر عن كل منهم . . كان يعلم انه في حاجة الى كسب اطمئنان صديقه وثقته ، وفي حاجة الى ان يخفف عنه الخوف والرهبة ، ويرفع من بينهما «الكلفة» واستطاع ان يحقق كل ذلك بسهولة . . وبدأ محيي يحس بابراهيم كصديق له . . وبدأ يحس بالزهو لصداقته ببطل . . هـــذا البطل الذي كان ينظر اليه من بعيد كاله لايستطيع ان يرقى إلى بطولته ، اصبح اليوم صديقه ، وفي بيته وسينام معه على سرير واحد . . وبعد قليل اصبح محيي هو الذي يتكلم أكثر من ابراهيم . . وسمعا نقراً على الباب . . وقام محيي ، وخطا خارج الغرفة ، ثم عاد يحمل صينية تحمل أطباق طعام . . وضعها على المكتب ، وهو يقول :

– اتفضل يا ابراهيم !. .

وابتسم ابراهيم وهو يسمع صديقه يناديه باسمه مجرداً دون لقب « استاذ ». تأكد انه كسب ثقته واطمئنانه . . وقام الى طعامه واكل بشهية . . انه منذ ان

سجن لم يجد في نفسه مثل هذه الشهية .. وكان محيي لا يزال يتكلم .. وسمعا نقراً آخر على الباب .. ولم يتحرك محيي ، بل صاح وهو في جلسته على حافة السرير : خش.

ودخلت نوال ، تحمل بين يديها جلباباً «مكوياً» وقلت وهي تنظر الى ابراهيم في تردد : ما أظنش بيجامات محيي تيجي على أدك .. جبتلك جلابيه من بتوع بابا !

ووقفت يد ابراهيم التي تحمل الشوكة بين الطبق وفمه . وأحس بشيء في نفسه ينكمش كأنه يحاول الاختباء .. وازدرد وجهه كأن اللقمة قد وقفت في زوره .. وسقطت عيناه فوق نوال ولم يستطع ان يرفعها عنها .. ورأى هذه المرة وجنتيها المكتنزتين المشدوتين .. كأنها ورثتها عن جدود من الهنود الحمر وغمازتيها اللتين تزغردان فوق الوجنتين .. ورأى شفتيها البريئتين من الاصباغ ، وابتسامتها المتعلقة بين الشفتين .. وخيل اليه ان كل ذلك يراه من بعيد .. من بعيد جداً .. وكان يعاني دهشة وفزعاً .. فلم يكن يدري ان «البنات» سيصلن الى الغرفة التي ينام فيها ..

ونظرت نوال اليه بتعجب ، وقالت وهي تستدير لأخيها : مش عايزين حاجة كمان؟

وقال لها أخوها : متشكرين ..

وقال ابراهيم وهو يتكلم من بعيد : متشكر ..

وخرجت نوال .. واتم ابراهيم طعامه ، وهو لا يزال يفكر في «البنات» اللاتي لم يحسب حسابهن في خطته .. ثم صحبه محيي الى الحمام ، ثم عاد وخلع القميص والبنطلون ، ووضع المسدس في درج من ادراج المكتب ، وارتدى الجلابية ونام بجانب محيي على السرير ، واحكم الغطاء من حوله كأنه يخشى ان يدخل عليه « البنات » وهو نائم .. وكان محيي لا يزال يتكلم .. ويروي ذكرياته في الجامعة .. وفجأة .. تنبه ابراهيم الى الأغنية التي يذيعها الراديو من الغرفة قد توقف ، وانطلق صوت المذيع قائلاً : « سيداتي وسادتي .. نذيع عليكم أخباراً هامة .. جاءنا البيان التالي من وزارة الداخلية .. استطاع ابراهيم حمدي المتهم الأول في قضية مقتل المرحوم عبد الرحيم باشا شكري ، الهرب هذا المساء .. وكان قد نقل من سجنه الى مستشفى القصر العيني للعلاج منذ ثلاثة وعشرين يوما .. ويعلن وزير الداخلية عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يقبض عليه ، أو يدلي بمعلومات تساعد على القبض على المتهم المذكور ، كما اصدر الحاكم العسكري أمراً بمعاقبة كل من يساعد المتهم في هربه أو يمتنع عن الادلاء بما لديه من المعلومات ، بالسجن مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات .. واليكم

نص الأمر العسكري .. »

وامتدت يد ، وأقفلت الراديو ..

ونظر محيي الى ابراهيم ثم عاد وابتعد بعينيه عنه ..

ولم ينظر ابراهيم الي محيي .. ظل معلقاً عينيه في سقف الغرفة ثم قـــال كأنه يخاطب نفسه : أنا ما كنتش فاكر اني غالي كده ! !

وسكت ابراهيم .. ولم يتكلم محيي ..

ظل كل منهما معلقاً عينيه في سقف الغرفة دون أن ينظر الى الآخر ..

لم يجد ابراهيم ما يقوله تعقيباً على البيان الذي اذاعته الحكومة .. انـــه لا يستطيع ان يهون وقعه على صديقه ، فان وقعه لا يمكن ان يهون .. ولا يستطيع ان يطلب من صديقه ان يعده بألا يشيء به ، فليس من حقه ان يطالب بمثل هذا الوعد .. وان كان في نية صديقه أن يشي به فلن يجديه وعده ..

سكت ابراهيم وهو يحس بالغيظ .. غيظ حاد يمزق أعصابه ويصهر انفاسه .. لماذا لا يتركونه في حاله .. لماذا لا يثور الناس ويسقطون هـــذه الحكومة التي تطارده .. لماذا لا يحدث اي شيء .. أي شيء ينقذ حياته ويعيد اليه مستقبله واطمئنانه .. لقد قتل الخـائن من اجل وطنه .. من اجل الناس .. فلماذا لا يتحرك الناس من أجله .. وشعر بموجة من اليأس الأسود تجتاح رأسه .. ان الناس لن يتحركوا .. سيتركونه يقع كما يقع الفأر في المصيدة .. وربما كان منهم من يمني نفسه الآن بالخمسة آلاف جنيه مكافأة الارشاد عنه .. وشعر بأنه يتخبط فعلاً داخل مصيدة .. وان رأسه يرتطم بقضبان من الحديد .. وانه فعلاً فأر .. يختبيء ويتوارى .. ويفر .. والناس تجري خلفه ..

ثم تذكر العائلة التي أقحم نفسه عليها .. هل ترشد عنه .. وأحس بالخجل من نفسه لهذا الخاطر .. أحس كأنه ناكر للجميل .. لا ، لن يرشد عنه أحد من أفراد هذه العائلة .. انه متأكد .. ولكن هذا البيان الذي اذاعته الحكومة زاده احساساً بثقله على هذا البيت الهادىء الوديع الذي طرق بابه ودخله وهو يحمل جريمته فوق كتفيه .. يجب ان يرحل .. سيترك هذا البيت .. غداً .. في أقرب وقت يستطيعه .. لن يبقى فيه .. حرام ان يحمل الناس وزراً لا ذنب لهم فيه .. وكانت كل هذه الخواطر تزدحم امام عينيه وترتسم صورها في سقف الحجرة .. وصديقه راقد بجانبه .. صامت هـو الآخر .. كان قد زايله الزهو الذي أحس به لأنه يضم في بيته بطلا .. لم يعد يفكر في البطل .. أصبح يفكر

في نفسه .. في مصيره .. وأحس انـــه واقف على باب دنيا لا يعرفها .. دنيا مخيفة .. تندلع في جوانبها نيران ، وتضج في ارجائهـــا اصوات مزعجة .. صرخات .. وهتافات .. وطلقات رصاص .. وهناك ، على مدى البصر ، كان يلمح في هذه الدنيا قضبانا غلاظا من الحديد .. وخلفها شبان من زملائه الطلبة . كلهم في رداء السجن .. وهو .. انـه معهم .. في رداء السجن ايضاً .. وشعر بالخوف .. وامتقع وجهه دون ان يدري .. وسحب جسده بعيداً عن صديقه الى الجانب الآخر من الفراش كأنه يتبرأ منه وكأن البوليس اذا دخل ليقبض على صديقه ورآه بعيداً عنه فلن يقبض عليه ..

وهو بعد ان سمع بيان الحكومة يذيعه الراديو لم يفكر في المكافأة التي وضعت للقبض على السجين الهارب .. لم يفكر في هذه المكافأة اطلاقاً .. لم تخطر له على بال .. انما كان يفكر في الأمر العسكري الذي ينص على سجن كل من يساعد الهارب في هربه .. انه يخاف السجن .. لا يريد ان يسجن .. وأحس بقطرات من العرق البـــارد تتفصد من جبينه .. وأحس كأنه يرتعش .. كل خلجة في جسده ترتعش .. كأنه محموم !

ولا يدري احدهما كم مضى من الليل قبل ان يسمعا طرقاً خافتاً على بابهما .. وأدار ابراهيم رأسه ناحية الباب في حدة .. ثم ادارها ناحية محيي وقد اتسعت عيناه وارتسمت فيهما نظرات متسائلة جزعة ..

وتكرر الطرق على الباب .. وصاح محيي : حاضر ..

ثم التفت الى ابراهيم وهو يقوم من رقدته ، وقال ، كأنه يوقظه : يا استاذ ابراهيم .. يا استاذ ابراهيم !

والتقى بعينيه المتسائلتين ، فاستطرد : اتفضل .. السحور !

وهدأت عينا ابراهيم ، وقال كأنه يتنهد :

– متشكر .. ما اظنش حاقدر أصوم بكره !

– وقام محيي وأضاء النور ، ووضع نظارته فوق عينيه ، وخرج من الغرفة وهو يقول : تحب أسيبلك النور والع ؟ ..

وقال ابراهيم : اطفيه لو سمحت !

واطفأ محيي النور .. وخرج ! واستطرد ابراهيم في تفكيره .. ثم أحس ان عينيه تضعفان شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد يقوى على رؤية أفكاره .. وسقطت جفونه .. ونام .. كأنه أغمى عليه !

٣

وتسلل شعاع حاد من النافذة ولسع جفني ابراهيم ، ففتح عينيه وأدارهما حوله في ذهول كأنه لا يدري اين هو !!

كانت الغرفة قد غمرها ضوء النهار .. والتفت بجانبه فلم يجد صديقه محيي.. ونظر في « المنبه » الموضوع امامه .. كانت الساعة التاسعة والثلث .. وتعجب أين ذهب صديقه.. ولماذا لم يوقظه .. وظل في فراشه منتظراً ان يعود محيي.. ولكن محيي لم يعد .. وقام من الفراش ، ووقف في الغرفة ، وهو يتعمد أن يبتعد عن النوافذ حتى لا يلمحه احد من الجيران .. ثم جلس على المقعد .. وبدأ يفكر في خطته . وكان النوم العميق قد اعاد اليه كل قواه ، وأحس انه يفكر تفكيراً سليماً .. وانه يرى المستقبل بوضوح .. وأحس بالتفاؤل ، ولم يقلل من تفاؤله ما اذاعته الحكومة من تهديد وإغراء للقبض عليه .. ان الناس ينقسمون الى افاضل واشرار .. ولن يغير التهديد والاغراء من الناس .. سيبقى الفاضل فاضلاً ، والشرير شريراً . وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يهزأ من الحكومة ومن الحاكم العسكري ومن الأحكام العرفية .. ومن المشنقة !!

ولكن محيي لم يعد .. وفكر ان يقوم وينادي عليه من داخل البيت ، ولكنه احس بالحرج .. ان في البيت بنات ولا يجب ان يشعرهن بوجوده ، ولا ان يثقل على البيت بأن يفرض عليه شيئاً .. سيبقى صامتاً الى ان يعود محيي .. ولم يعد محيي .. وبدأ يحس بالضيق .. انه يريد ان يغسل وجهه ، يريد ان يبلل شفتيه بالماء .. يريد ان يبدأ يومه ..! وقام وبدأ يرتدي ملابسه .. القميص والبنطلون .. ثم توقف فجأة ، والتمعت في عينيه نظرة شك وريبة .. كان خاطر مسموم قد انتفض في عقله .. اين ذهب محيي .. ولماذا لم يعد .. ربما اغلقوا عليه الباب وحبسوه الى ان يأتي البوليس للقبض عليه !..

وجمع طرفي البنطلون بين يديه — ولم يكن قد ربطه بعد إلى وسطه — وسار على اطراف اصابعه الى الباب ، وأمسك بالأكرة في حذر ، وجذب الباب اليه جذبة خفيفة ، تأكد بعدها ان الباب ليس مغلقاً .. واطمأن ..

وأعاد إغلاق الباب كما كان ، ثم ربط بنطلونه حول وسطه ، وجلس وبدأ يلبس حذاءه .. ثم رفع رأسه من جديد ،وعادت نظرات الشك تلمع في عينيه .. ربما خرج كل اهل البيت وتركوه وحيداً ، واغلقوا الباب الخارجي عليه .. او ربما لم يغلقوه ، بل تعمدوا ان يتركوه مفتوحاً حتى يحس بأنهم لا يريدون إيواءه بعد البيان الذي أذاعته الحكومة ،ويرجونه ، رجاء صامتاً ، أن ينصرف عنهم .. المهم .. انه لم يعد يستطيع ان يبقى في هذه الغرفة .. يجب أن يخرج منهـــا حالاً .. الآن .. وقفز من جلسته وتقدم ناحية المكتب ، وفتح الدرج وأخرج مسدسه ، وقبل ان يدسه في جيبه سمع طرقاً خافتاً على الباب . وأعاد المسدس الى الدرج ولكنه تركه مفتوحاً .. والتفت ناحية الباب ، وهو يقول : مين ؟.. قالها بلهجة جافة ، ثم تنبه إلى جفافها فعاد يقول في لهجة مهذبة قبل ان يسمع رداً : اتفضل .. وسمع صوتاً رقيقاً من خلف الباب :

– حضرتك صحيت يا استاذ ابراهيم؟..وخمن انها نوال..الأخت الصغرى.. انه صوتها .. عجيبة .. انه يعرف صوتها .. انه متأكد انها هي ..

وأجاب في أدب : أيوه يا أفندم .. أتفضلي .. وانفتـــح الباب في بطء ، وأطلت نوال برأسها، وأطلت معها ابتسامة حائرة لا تدري على أي جانب من شفتيها تضعها .. واحتار مع ابتسامتها .. وجد نفسه موزع الخاطر بين لهفته على لقاء صديقه محيي وبين ارتباكه وهو يواجه نوال .. وقال في صوت تلقائي كأن إنساناً آخر يتكلم في صدره : فين محيي ؟ ثم استدرك قائلاً ، وهو يحاول ان يكون رقيقاً: صباح الخير .. وقالت نوال وهي تسلط كل عينيها عليه : يسعد صباحك .. محيي راح الجامعة من الصبح .. و ..

وقاطعها وهو يبذل مجهوداً كبيراً حتى لا يحتد ،ويخفض عينيه حتى لا ترى فيهما حدته :

– راح الجامعة ازاي.. مش كان لازم يكلمني قبل ما يخرج؟! وقالت نوال وقد أحست بغضبه الذي لا يبدو على وجهه : احنا عملنا مؤتمر الصبح وبابا قرر اننا نسيبك نايم لغاية ما تستريح .. اتهيأ لنا انك ما نمتش بقى لك سنة من يوم ما تسجنت .. ورفع عينيه اليها كأنه يتعجب من طيبة العائـلة وسذاجتها ، ثم عاد وخفضهما وهو يقول : وأنا اقدر أنام في ليلة زي دي ..

وقالت كأنها تعاتبه وهي ترفع حاجبيها كأنها تتحداه :

– الحقيقة انك كنت نايم .. ولو انك ما كنتش بتشخر !

وابتسم ابراهيم كأنه يعتذر لها عن مغالاته ، وقال :

– فعلاً .. أنا كنت تعبان .. إنما كان لازم اشوف محيي قبل مـا يخرج ..

فيه حاجه كان لازم أقولها له.. بالشكل ده ضاع هنا يوم بحاله..! وقالت كأنها تخفف عنه : الأيام كتير باذن الله .. تحب تغسل وشك ؟

وتنهد أسفاً كأنه لا يؤمن بأن أيامه كثيرة ، واتجه نحو الباب وهو لا ينظر اليها .. بينما كانت تنظر الى كل شيء فيه .. الى وجهه الأسمر كأنه وجه فلاح عاش طول عمره في الحقل ، ولم ينسحب عليه يوماً ظل المدينة .. وإلى عينيه العسليتين الكبيرتين اللتين لا يرفعهما خوفاً من أن يفضحا أحاسيس نفسه . وإلى أنفه الكبير كأنه رأس سهم يتجه الى صدر أعدائه .. وإلى شفتيه الرقيقتين الصامتتين اللتين تطلان من فوق ذقن عريض قوي كأنه يختزن فيه كل إرادته.. وما كاد يتعدى باب الحجرة وهو منكس الرأس ، حتى سمع شهقة خافتة ورفع عينيه فرأى سامية واقفة قبالته مبهورة الأنفاس .. كانت لا تزال في جلباب نومها .. جلباب أزرق من الباتستا، مشمر الأكام .. وكانت قد فوجئت برؤية ابراهيم فرفعت يديها تضم طرفي ثوبها فوق صدرها ، ثم كأنها تذكرت انها لم تسوي شعرها ، فمدت إحدى كفيها الى رأسها تسوي بعض خصلات الشعر المنثور فوق جبينها .. وارتبك كلاهما حتى لم يستطيعا تبادل تحية الصباح . وظلت عيناها المبهورتان معلقتين بعينيه المرتبكتين، ثم كأنها تغلبت على نفسها، ففرت من امامه واختبأت خلف احد الأبواب .. ونظر ابراهيم الى نوال كأنه يعتذر لها ويحتمي بها .. وابتسمت نوال وتقدمته الى الحمام ، وهي تقول :

– أصل أختي سامية مشهورة بالكسل .. تقوم من النوم وتفضل تلف من أوده لأوده .. ما تغيرش هدومها إلا يدوبك قبل ما بابا ما ييجي ..

وابتسم ابراهيم دون أن يرد .. ثم دخل الحمام وأغلق على نفسه الباب .. ثم عاد وتأكد من أنه أغلقه جيداً .. ووقف برهة في وسط الحمام دون ان يتحرك .. انه يحس بالضيق .. ويحس انه مقيد في هذا البيت أكثر مما كان في السجن.. لقد كان حراً في السجن .. كان كل من في السجن رجالاً .. أما هنا فحوله قضبان من البنات.. وقضبان في نفسه من الحياء ، ومن إحساسه بأنه يعتدي – بمجرد وجوده –على عفاف بيت كريم .. ولوى شفتيه، وبدأ يغسل وجهه .. وعندما انتهى ، وقف حائراً أمام الباب .. هل يفتحه .. أم ينقر عليه قبل ان يفتحه حتى ينبه البنات ؟ وفضّل ان ينقر على الباب قبل ان يفتحه .. ونقر نقرات خفيفة . ثم اشتد في النقر وسمع صوت نوال تقول : اتفضل ..

دائماً نوال .. كأن ليس في البيت غيرها ..

ولم يحس بالضيق لسماع صوتها .. بل أحس بالراحة ، كأنها صديقته الوحيدة في هذه الدنيا التي أقحم نفسه عليها .. أو كأنه قرر أن يضمهـــا الى أصدقائه السبعة الذين كانوا يشتركون معه في عمليات الاغتيال ، وتعجب من نفسه لهذه الراحة التي يحس بها . وفتح الباب ووجدها أمامه ، تبتسم ابتسامة كبـيرة .. ووجد نفسة يبتسم ابتسامة اكبر منها.. ثم اتجه الى الغرفة وهي وراءه.. وقبل ان يدخل – الى الغرفة – عاد والتفت اليها قائلاً وهو يشير برأسه الى النوافذ : تسمحي تقفلي الشيش ..

وبرقت عيناها كأنها فهمت بذكائها ما يقصده ، وكأنها تذكرت انهـــا في حضرة بطل .. فتقدمته الى الغرفة وهي تسير في خطوات خفيفة نشطة ، كأنها تؤدي عملاً وطنياً خطيراً .. وبدأت تنحني فوق حافة النافذة لتجذب «شيش» النوافذ وتغلقه .. ودخل وراءها وهو يتعمد الا ينظر اليها .. وأمسك بمشط محيي ووقف أمـــام المرآة ، وهم ان يمشط شعره .. ثم تذكر وجود نوال ، فأحس بالخجل من ان يقف امام المرآة.. كأن مما يعيب الرجولة ان يقف الرجال امـــام المرآة .. فاستدار وطأطأ برأسه ومشط شعره في حركة سريعة ، بلا مبالاة .. بينما كانت نوال تقول له وقد انتهت من اغلاق النوافذ :

– اتفضل افطر في أودة السفرة على بال أنا ما أساوي الأودة ..

وتمتم في صوت خافت : متشكر ..

وخرج من الغرفة .. وما كاد يخطو خطوات حتى التقى بالأم بوجهها المكتنز الصبوح ، وابتسامتها الطيبة .. وقالت أول ما رأته : صباح الخير يا ابني .. ياللا يا ضنايا افطر ..

وقبل ان تسمع رداً لتحيتها ، قالت وقد علا صوتها : – سامية .. يا اختي ، راحت فين البت دي .. ما فيش جنس حاجة اتعملت في المطبخ ..

ثم استطردت وكأنها تخاطب ابراهيم ونوال معاً :

– علشان تعرفوا قيمة البت سنية ، كانت شايله البيت كله عـــلى دماغها ، وما كانش حيلتكم غير الامارة ..

ثم وجهت كلامها الى ابراهيم : اتفضل افطر يا ابني ..

ثم الى نوال : تعالي انت معايا المطبخ ..

وردت نوال معترضة : أنا النهارده على تنظيف الأود .. وسامية هيـه اللي عليها المطبخ ..

وقالت أمها : تعالي بس واسمعي الكلام ..

وسارت نوال وراء أمها وهي تهز رأسها في حركة غيظ .. وسار ابراهيم متحسساً طريقه الى حجرة الطعام .. وجلس الى المائدة وأمامه طبق الفول ، وقطعة الجبن ، وحبات الزيتون .. وبـــدأ يأكل منكس الرأس ، مثبتاً عينيه أمامه ، لا يرفعها حوله ، وكأنه يخشى ان رفعها ان يرى حوله بنات عرايا ..

وكان يحاول ان يركز تفكيره في خططه ..

كان يريد ان يتصل بأصدقائه في الخـارج ، وكانت وسيلة الاتصال بهم هي محيي .. انه مضطر ان يزج بمحيي في خططه .. ليس امامه وسيلة اخرى ..

وكان يريد ان يقرأ صحف الصباح ، لقد تعود منذ قبض عليه ان يفهم من قراءة الصحف اكثر مما يفهمه القارىء العادي . كانت قراءة الصحف امراً هاماً بالنسبة له، وقد أقام ثورة في السجن عندما منعوا عنه قراءة الصحف. ولكن هنا – في هذا البيت – هل يستطيع ان يطلب الصحف .. بأي حق وبأي وجه ..

وهو يريد ايضاً ان يعرف تأثير البلاغ الذي أذاعته الحكومة .. ان نوال لم تشر اليه ولا اختها ولا امها.. ويبدو انهن تعمدن عدم الاشارة اليه – الى البلاغ – حتى لا يجرحن شعوره، او يشعرنه بخطورة وجوده بينهن واختبائه في البيت.. وهن لطيبتهن لا يدرين انهن بذلك يزدن في احراجه ويعقدن الأمور أمامه .. انه يفضل ان يعاملوه على انه انسان هارب .. انسان تطارده الحكومة.. حتى يستطيع ان يناقش خططه معهن بصراحة .. ولكنهن بنات وهو مضطر ان ينتظر ان يعود الرجال .. وظل يلقي الطعام في جوفه دون ان يحس له طعماً.. وهو تائه في خيالاته وخططه ، ويحس بالدقائق التي تمر به كأنها ساعات .. ولم يكن يحسب الدقائق التي تمر به فحسب ، بل كان يحسب الدقائق التي ستمر به حتى صباح اليوم التالي .. حتى يستطيع ان يفعل شيئاً لاتمام خطة هربه ..

وانتهى من طعامه .. ومر وقت طويل بعد ان انتهى منه ، وهو لا يزال جالساً في مكانه لا يرفع رأسه ولا عينيه كأنه أعمى ينتظر من يقوده خـــلال الطريق .. وسمع صوت نوال بجانبه تقول : تحب تتفضل في الأوده ؟

ورفع عينيه اليها كأنه وجدها اخيراً .. وقام وهو يتمتم : – متشكر ..

ودخل الغرفة ، والتفت اليها يريد أن يقول لها شيئاً .. كان يريد أن يسألها عن صحف الصباح .. ولكنه عاد وسكت .. انه لا يستطيع أن يسألهـا ، لا يستطيع أن يزيد عبئه على أحد .. وقالت نوال وهي تبتسم : لو عزت حاجه،

اندهلي .. وهمت أن تخطو ، ثم توقفت لتقول :

– الجرنال بابا بيجيبه معاه .. تحب انزل اشتريلك واحد دلوقت ؟..

وقال وهو ينظر اليها في دهشة ، كأنه يعجب كيف قرأت أفكاره ، متشكر .. ما فيش لازمه .. بس لو سمحتي تفتحي الراديو !.. وقالت في تردد :

– الراديو اليومين دول دمه تقيل .. ما فيهش حاجـه تتسمع ! وقال وهو يبتسم : على الأقل نسمع الأخبار .. وقالت في يأس : حاضر.. وانصرفت عنه. وجلس وهو يحاول ألا يفكر فيها .. ولكنه كان يجد نفسه مضطراً للتفكـير فيها . انه مضطر أن يفكر في كل من حوله ، ليستفيد من كل منهم في خططه.. وهذه فتاة ذكية جريئة يمكنه أن يعتمد عليها ، ربما أكثر مما يعتمد على أخيها. ولكن .. لا انهـا بنت .. وهو لا يؤمن بالبنات .. أو يشفق عليهن من أن يتحملن مسؤوليات الرجال .. ثم انه لا يستطيع ان يزج في خططه بابنة الرجل الكريم الذي آواه في بيته .. لا يمكن .. ان شهامته تمنعه .. ورغم ذلك فكلما قلب في ذهنه عشرات الخطط التي يضعها لنفسه ، وجد في كل منها مكاناً لنوال.. وارتفع صوت الراديو .. وكان المذيع يعلن نهاية نشرة الأخبـار .. وهز رأسه أسفاً .. ظل ابراهيم جالساً وحـده في الغرفة ساهماً حيناً ، ويقلب في كتب محيي حيناً آخر .. والزمن يمر به بطيئاً ويزداد ثقله فوق صدره ، إلى ان سمع جرس الباب الخارجي يدق .. وانتبهت كل أعصابه.. وسمع قلبه يدق في صدره كأنه يرتعش الرعشة التي لم يتعودها إلا منذ امس .. منذ بدأ في تنفيذ خطـة الهرب .. رعشة التوتر والخوف !!

واستراح قليلاً وهو يسمع صوت محيي يحادث أخته .. وبدأ يستعـد لملاقاة صديقه .. علق على شفتيه ابتسامة ، وكسا وجهـه بالهدوء .. ولكن محيي تلكأ قبل أن يدخل اليه .. وخيل اليه انه تلكأ طويـلاً حتى كادت ابتسامته تسقط من بين شفتيه ، ثم سمع نقراً على الباب .. وقال في صوت بـدا هادئاً ليس فيه أثر لاضطراب نفسه : اتفضل ..

ودخل محيي .. أصفر الوجه كالليمونة الناضجة ، وكأنه عائـد من رحلة شاقة استنزفت كل قواه وكل أنفاسه ، وكل دمه .. وكانت عيناه مضطريتين لا يريد أن ينظر بهما الى ابراهيم .. وخطواته عصبية ، يسير كأنه يترنح ..

وفحصه ابراهيم بعينيه ، واستنتج مدى الاضطراب الذي يعانيه ، ثم قال دون أن يقف ليحييه متعمداً أن يرفـع الكلفة بينهما ، وكأنهما أصدقاء قدماء :

أهــلاً .. ورد محيي وهو يلقي بكراسة محاضراته فوق المكتب ، ويضغط بإصبعه على قنطرة نظارته : ازيك دلوقت يا استاذ ابراهيم ؟

قالها كأنه يؤدي واجباً .. ورنت كلمة « استاذ » في أذني ابراهيم رنيناً شاذاً ، اضطر بعده أن يصمت كأنه يتدبر أمراً . كان يعتقد ان الكلفة قد رفعت بينه وبين صديقه من أمس .. ماذا حدث .. لعل السبب مجرد اضطراب أعصاب .. وقام من مقعده وقد اتسعت ابتسامته ، كأنه يتودد بها الى صديقه ، ثم اقترب منه وهو يقول : وازاي الحال ؟.. وقال محيي ، دون ان ينظر اليه ايضاً : الجامعة كلها بتتكلم عنك ..

وسأله ابراهيم في اهتمام كأنه بدأ يعمل: بيقولوا ايه ؟.. ونظر اليه محيي، ثم عاد وأدار عينيه ، وهو يقول :

- والله ما سمعتش حاجه .. الحقيقة اني تعمدت اني ما اسمعش حاجة .. كان متهيأ لي اني لو أبديت أي اهتمام كل الطلبة حيعرفوا انك عندنا .. فضلت عامل نفسي كأني ما عنديش خبر.. كأن ما حصلش حاجه في البلد..واضطريت أحضر كل المحاضرات رغم اني ما كنتش سامع ولا كلمة منها ، انما لمجرد اني ما غيرش عادتي .. اتهيأ لي لو مـــا حضرتش محاضرة الطلبة كلهم حيخرجوا يدوروا علي وييجوا ورايا عـلى البيت .. ونظر اليه ابراهيم نظرة عطف ، ثم قـــال كأنه يسأل عن شيء لا يعنيه : وكانوا بيقولوا ايه عن البلاغ اللي طلعته الحكومة ؟! وسكت محيي قليلاً ، كأنه ظن ان ابراهيم يسأله عن رأيه هو لا عما يقوله الطلبة .. ثم قال : سمعتهم بينكتوا .. واحد قاعد ورايا في المحاضرة كان بيقول للي جنبه .. زمان أبوك داير في السكك بيدور على ابراهيم حمدي علشان يسلمه وياخد الخمستلاف جنيه .

وضحك ابراهيم كأنه يضحك من قلبه.. وبددت ضحكته بعض الاضطراب الذي يعانيه محيي ، فعاد يقول : وواحد صاحبي جه يسألني .. يا ترى لو ابراهيم حمدي سلم نفسه يستحق ، من الناحية القانونية ، الخمستلاف جنيه !

قالها وهو يقلد زميله في التحدث بلهجة فقهاء القانون ..

وضحك ابراهيم وهو يقول: لو ضمنت لي الخمستلاف جنيه مستعد أسلم نفسي! وضحك محيي ثم قال بحماسة :والله ولاميت ألف جنيه واحس ابراهيم ان الاضطراب قد زايل صديقه ، وانه نجح في رفع الكلفة بينهما مرة ثانية ..

وسادت بينهما فترة صمت .. ثم قال ابراهيم كأنه اختار موضوعاً بلا تعمد :

ما شفتش فهمي عبد العزيز ..؟

وقال محيي وهو لا يحس للسؤال بأي اهمية : لأ .. يمكن كان قاعد في البوفيه زي عوايده .. وانا ما بارحش ناحيـة البوفيه أبداً .. وعاد ابراهيم يسأل بلا مبالاة : وايه رأيك فيه ؟..

وقال محيي وهو لا يزال يتكلم باهمال : ما احبوش .. شكله ما يريحنيش . عامل كده زي الفتوات .. والخطب اللي بيقولها ايام الاضراب كلها كلام فاضي .

وقطب ابراهيم ما بين حاجبيه ، ثم عاد وأراح وجهه سريعاً قبل ان يلحظ محيي تقطيبه ، وقال وهو ينظر الى الأرض كأنه يحادث نفسه : انمـا ده شاب كويس.. قام بأدوار مهمة كتير .. وتنبه محيي فجأة الى ان ابراهيم يعتمد اطالة الحديث عن فهمي عبد العزيز فقال في تعجب : انت تعرفه ؟..

وقال ابراهيم : اعرفه كويس !..

قال محيي : قصدي .. كان .. كان بيشتغل معاك ؟!..

وقال ابراهيم في اختصار. تقريباً . وكأن ابراهيم أراد أن يدفع محيي دفعة قوية ليفهم قصده فقال : ده واحد من اللي كانوا عارفين اني حاهرب !..

وفغر محيي فاه وارتفع حاجباه حتى جاوز نظارته.. وقال وقد عاد يضغط بأصبعه على قنطرة النظارة : وعارف انك هنا ؟

واجاب ابراهيم في هدوء : لأ .. انما لازم اتصل بيه ! .

وقال محيي بسرعة : وحاتتصل بيه أزاي ؟. ورفع ابراهيم عينيه إلى محيي ، ثم عاد وخفضهما قبل ان يكشفا عن قصده ، وقال في لهجة حاول ان تخلو من خبث : اهو ده اللي لسه بافكر فيه ! ولم يرد محيي.. ساد بينهما الصمت كأن الاثنين يشتركان في تفكير واحد ، الى ان رفع محيي رأسه قائلا : انت متأكد من فهمي؟

قال ابراهيم في تأكيد : جداً ، وزي ما انا متأكد من نفسي !..

وساد الصمت فترة اخرى دون ان يحاول ابراهيم ان يتكلم ، وكأنه يترك لصاحبه فرصة التفكير واتخاذ قرار ، وهو يرفع اليه عينيه بين برهة واخرى في نظرات مختلسه ..

ثم قال محيي فجـأة ، وكأنه تعب من التفكير دون ان يصل الا الى قرار واحد لا بد منه : يظهر ان ما فيش طريقة الا اني اكلمه بنفسي .

وابتسم ابراهيم بينه وبين نفسه كأنه يهنئها بالانتصار.. كان هذا ما يريده .. وكانت هذه هي عادته ، الا يملي قراراته على زملائه ولا يطلب منهم شيئاً ، ولكنه

يقودهم بسياسته الى القرار الذي يريده والى مـا يطلبه منهم . ويتركهم مقتنعين بأنهم اصحاب القرار ، وأصحاب الطلب .. وسكت ابراهيم قليلاً كأنه يفكر جدياً فيما يقوله زميله ، ثم قال كأنه خضع للأمر الواقع : أظن هيه دي الطريقة الوحيدة ! .. وتردد محيي كأنه كان يرجو ان يرفض زميله فكرته ، ثم قال في حيرة واضطراب : انما حأقول له ايه ؟.. وعاد ابراهيم يتظاهر بالتفكير وهو في قرارة نفسه يشفق من سذاجة صديقه: قول له « الامانة عندنا » أو أي كلمة يفهم منها انك عارف انا فين .. بس بلاش تنطق اسمي ..

وقال محيي في عصبية : انما انا ما اعرفوش .. وما حدش من الطلبة شافني بكلمه أبداً .. ويمكن لما يشوفوني يشكوا في الموضوع ..

وقال ابراهيم وهو لا يزال هادئاً: اعمل نفسك بتديله كراسة محاضرات .. ولا كلمه وانت ماشي جنبه .. انما انا متأكد ان ما حدش حيشك فيك حتى لو كلمته من غير أي احتياط ..

واحس محيي انه اهين عندما قال ابراهيم ان احداً لن يشك فيه .. أحس انه انسان ليس جديراً بالبطولة . ولكنه قال كأنه استسلم لقدره : وبعدين..!!

وقال ابراهيم : ولا حاجة .. سيبه هوه يتصرف بعد كده . هو حيعمل كل حاجه .. وحياخد الاحتياطات كلها ..

وسكت محيي كأنه جرى بخياله الى الغد .. الى فناء الجامعة .. الى زملائه الطلبة .. والى فهمي عبد العزيز بالذات ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

– انا آسف يا محيي اللي باتعبك ، مش عارف اشكرك ازاي !

وقال محيي في اختصار باتر : العفو .. ثم قام وجلس الى مكتبه ، وفتح كتاباً من كتب القانون ، وأمسك بيده قلم رصاص ، وبدأ يستذكر ..

وقال ابراهيم كأنه يحاول ان يغير الموضوع قبل ان يبدأ صديقه في المذاكرة:

– هوه الامتحان امتى ؟ ..

ورد محيي دون ان يرفع عينيه عن الكتاب : بعد شهر ونصف !

وسكت ابراهيم قليلاً ثم قال : كان حقك جبت لنا الجرنال معاك ..

وقال محيي ورأسه لا يزال في الكتاب : زمان بابا جاي وجايبه معاه !

وسكت الاثنان .. وأمسك ابراهيم بكتاب آخر وأخذ يحـاول ان يقرأ فيه.. وفجأة رفع محيي رأسه،وقال فيصوت أجش كأنه يتعثر بأفكاره المزدحمة

في رأسه : لكن دول بيقولوا على فهمي عبد العزيز انه جاسوس السراي ! . .

ورفع ابراهيم رأسه عن الكتاب في هدوء ، وقال في صوت اكثر هدوءاً :

– يا شيخ . . ما تصدقش ؟ . .

وعـــاد محيي يتكلم وكأنه يلح ان يصدقه زميله : وبيقولوا ان الحكومة بتعتقله علشان يتجسس على بقية المعتقلين ! . .

وقال ابراهيم وهو لم يفقد هدوءه :

– يا شيخ حرام عليك . . ده من أشرف الطلبة !

وظل محيي قاذفاً بعنقه نحو زميله ، وكأنه يبحث عن حجة اخرى يقولها. وقبل انيثني رأسه ويعود به الى كتابه ،قال له ابراهيم وهو يبتسم كأنه يشجعه : لو ما كنتش متأكد من فهمي ما كنتش أمنت له على نفسي . . وعليك ! . .

وكأنما اطمأن محيي لسماعه كلام زميله واكتشف فيه شيئاً كان قد نسيه . . فعاد الى كتابه مطمئناً . . وسمع الاثنان جرس الباب . .

وانتبهت أعصاب ابراهيم . . وسمع مع جرس الباب دقات قلبه . . هـذه الدقات المرتعشة التي تتبعه ، وتهز من ثقته بنفسه . . وقال محيي : ده لازم بابا . .

وسمعا فعلا صوت الأب . . وقال محيي : عن اذنك . . دقيقة واحدة !

وخرج ، وجلس ابراهيم ينتظر ، وكان ينتظر بلهفة ان يدعوه الأب اليه ، او ان يدخل عليه . . وكان تلهفه لا على سماع الأخبار فحسب ، بل كان يريد ان يطمئن على الأب نفسه . على حالته العصبية . . وعلى شعوره نحوه . . وعلى قدرته على تحمله في بيته بعد البيان الذي اذاعته الحكومة . .

وعاد محيي وحده وفي يده جريدة الاهرام : وقال وهو يناولها لابراهيم :

– بابا بيطمن عليك . .

وقال ابراهيم في عجلة : متشكر . . واخباره ايه ؟ . .

وقال محيي دون اهتمام : والله ما تكلمش . . أصل من عادته في رمضان انه يرجع تعبان وينام على طول . .

واحس ابراهيم كأن لهفته سقطت في ثلاجة ، ولكنه اقنع نفسه انها «بشرة خير » ما دام الأب لم يغير عادته . . واخذ الجريدة بين يديه واخذ يقرأ اسمه في العناوين الضخمة وبين شفتيه بسمة ساخرة ، كأنه يسخر من النـاس كلهم الذين يقيمون له كل هذه الضجة . . ولم يبدأ بقراءة البيـان الرسمي ، بل أخذ يقرأ في نهم التفاصيل التي جمعتها الصحيفة . . واخذت ابتسامته تزداد اتساعاً . . ليس في

المنشور أثر بأن هناك من يتبعـه .. ولم يتقدم واحد من سائقي سيارتي الأجرة اللتين استقلهما في هربه ، لأداء الشهادة . حتى الطبيب الذي لمحه وهو يهرب ، لم يرد اسمه . واكفهر وجهه فجأة وهو يقرأ خبراً على جانب الصفحة بعنوان : « التحقيق مع حارس ابراهيم حمدي » . ان وزير الداخلية أمر بتكوين مجلس تحقيق للضابط الذي كان يقوم على حراسته .. هذا الشاب الطيب المهذب .. ما ذنبه ؟.. ذنبه انه وثق به .. وقد خان ثقته .. غرر بـه .. ضيع مستقبله . مستقبل شاب مصري لا ذنب له ..

وارتفعت صرخات في نفس ابراهيم ، كأنـه يصفع نفسه .. انـه اناني .. انه مجرم .. انه يؤذي كل من يقترب منه .. كل من يثق به .. ان هذا الشاب ليس خائناً .. وليس عميلاً للانجليز .. فلماذا يؤذيه ؟ ورغم ذلك فقد كاد أن ينساه!!.. واشتد به الكرب .. أحس ان انفاسه قد احتبست في صدره وتكاد تخنقه .. وحاول ان يخفف عن نفسه .. اخذ يقول لنفسه « اني اهرب من حكم الاعدام .. امـا هو فلن يصيبه الا قرار بالنقل . او تأخير ترقيته » ولكنه لم يقتنع .. اخذ احساسه بأنه خان ثقة شاب لا ذنب له ، يتجسم في مخيلته ..

وهب واقفاً ، وهو يقول لمحيي في لهجة آمرة ، ولم يتفوه بها من قبل :

– اديني ورقة وقلم !..

وناوله محيي ورقة قطعها من كراسه ثم اعطاه القلم وهو ينظر اليه في دهشة كأنه مبهوت .. وجلس ابراهيم يكتب : « عزيزي الملازم أول جميل عزت .. » وتوقف عن الكتابة قليلاً .. انه يريد ان يكتب له خطاب اعتذار .. يريد أن يفسر له لماذا هرب منه ، ولماذا خان ثقته .. يريد أن يدافع عن نفسه .. وبدأ يكتب مرة ثانية : « بعد التحية .. كان يجب عليّ ان اكتب لك لأبرر ما فعلته و .. و .. و .. » وتوقف عن الكتابة .. انه لا يستطيع ان يكتب له .. ان ارسال خطاب قد يفسد خطته .. بل قد يسيء إلى موقف الضابط أثنـاء التحقيق الذي تجريه له وزارة الداخلية .. وألقى القلم من يده .. وألقى رأسه بين يديه ، وقد أحس انه يقسو على نفسه ، أكثر مما يقسو على الضابط الذي لن يعتذر له .. وسمع محيي يسأله في لهفة : مالك يا ابراهيم ..

ورفع ابراهيم رأسه وقد استعاد قناعه ، وقال في هدوئه المفتعل : ولا حاجه .. ونسي – بين عواطفه المضطربة – أن يمزق الورقة التي كتب عليها اسم الضابط !!

٤

واطلت نوال من الباب ..لم يعد باقياً على موعد الافطار سوى نصف ساعة.. وقالت وهي تتحرك في الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب : بابا بيقول لكم اتفضلوا في أودة القعاد .. وطوى محيي كتابه في حركة سريعة كأن الملل من القراءة كان يأكل صدره منذ ساعات..واعتدل ابراهيم في جلسته وأسقط جريدة الاهرام من يده ، وبدأ يتابع نوال في نظرات مختلسة ..

عجيبة .. انه لا يكره البنات .. ليس الى الحد الذي كان يعتقده .. انه على الأقل لا يكره نوال ،ولا يتجاهلها..بل يشعر براحة كلما سمع صوتها ،وكلما أحس بها بجانبه .. راحد كالتي يحس بها انسان حر .. انسان لم يقتل ، ولم يسجن ، ولم يفر، ولا تطارده الحكومة .. راحة كالتي كان يحس بها في بيته، عندما كان يغلق على نفسه باب حجرته ،ويهدأ كل شيء حوله، ويبقى وحده ساعات طويلة ، بينما يحس في قرارة نفسه انه ليس وحده ، انما هناك شخص آخر. أمه في الغرفة المجاورة وانفاسها في البيت كله.. ان نوال تذكره بأمه.. لا ،انها تذكره بالهدوء والراحة .. لا ، انها تذكره بالحرية .. بالحرية ..

انه يحس الآن في هذا البيت بحاجته الى الحرية أكثر مما كان يحس بها في السجن.. انه يحس كانه ازداد تشبثاً بالحياة .. اسباب جديدة لا يتبينها جعلت الحياة أثمن لديه مما كانت ، وأثمن مما كان يعتقد .. ربما كان هذا البيت الذي لجأ اليه ، والطبيبه التي تحوطه ، والحياة البسيطة الساذجة التي تجري فيه .. ربما كان هذا هو السبب الذي يزيده تشبثاً بالحياة .. انه لا يحس هنا ان في مصر انجليز ، أو خونة ، أو ثورة ، أو حكومة ظالمة .. انه يحس ان مصر كلها كهذا البيت .. طيبة بسيطة ، يحوطها الهدوء والسلام .. طافت بذهنه كل هذه الخواطر في لحظة واحدة ، وهو يقوم من على مقعده ويساوي قميصه وسرواله .. وقال محيي وهو يتقدم نحو الباب : اتفضل .. يا استاذ ابراهيم !

وابتسم عندما سمع كلمة « استاذ » .. انه كلما سكت عن صديقه فترة ، عاد ووضع التكليف بينهما !! وقالت نوال وهما متجهان الى الباب :

– انت يا محيي ما تقعدش على المكتب إلا لما تلخبط كيانه .. وقال محيي

دون أن يلتفت اليها : علشان تلاقي حاجه تعمليها ، يعني حتعملي ايه اذا مـــا لقتيش حاجه تساويها ! وانحنت نوال تجمـــع جريدة الاهرام من فوق المقعد حيث تركها ابراهيم ، ثم بدأت تجمع الكتب والكراسات والأوراق المتناثرة من فوق المكتب وترتبها في نظام جميل.. ولم تعرف انها دست بين أوراق وكتب اخيها ، الورقة التي نسي ابراهيم ان يمزقها .. الورقة التي كتب عليهـا ابراهيم بخط يده ،اسم الضابط الذي كان يقوم على حراسته.. ودخلا إلى حجرة «القعاد»..

وانحنى محيي يقبل يد أبيه. ثم قام الأب من جلسته فوق الأريكة «الاستامبللي» نصف قومه وهو يصافح ابراهيم .. وجلس كل منهما على مقعد في مواجهـــة الأب .. محيي في المقعد « الأسيوطي » العريض الذي يبدو فيه صغيراً الى حد أن يتسع لشخص آخر بجانبه .. وابراهيم على مقعد خيزران .. وقد جلس في أدب وصمت ، وهو يعاني بينه وبين نفسه نوعاً من القلق ، فلم يكن حتى هـذه الساعة قد حدد بالضبط الدور الذي يجب أن يقوم به امام الأب .. هـل يقوم بدور الابن المهذب المطيع المسكين ، ام يقوم بدور الرجل الكامل الذي يناقش ويضع الخطط ويجر اليها الأب نفسه ؟؟ هل يبدو بكل شخصيته أمام الأب ، أم يخفي جزءاً منها احتراماً له؟! ورفع عينيه الى الأب في لمحة خاطفة .. ورآه مهموماً ، عابساً كأن حملاً ثقيلاً يضغط على كتفيه .. ورآه كأن لون وجهه قد تغير عن الامس ، وكأنه قد ازداد نحولاً وهزالاً عن الامس .. ومرت فـــترة صمت .. ثم تنحنح الاب كأنه ينفض بعض همه وقال في صوت مجامل :

– ازيك دلوقت يا ابني .. على الله تكون نمت كويس امبارح ! وقـــال ابراهيم : الحمد لله يا عمي .. ثم كأنه أراد أن يخفف من حـدة التكلف الذي يحيط بهم ، فاستطرد قائلا : الحقيقة انا نمت امبارح اكتر من اللازم !..

ولم يعلق الاب .. لم يتكلم ولم يبتسم .. ومرت فترة صمت أخرى تبـادل خلالها محيي وابراهيم النظرات .. ثم قال الاب كأنه يحادث نفسه :

– انا النهار ده شفت والدك خارج من باب وزارة الاشغال .. كنت حانسى نفسي وأروح أسلم عليه .. إنما كان باين عليه انه مهموم خالص .. وتنهد الأب كأنه يعني نفسه بذكر الهموم ..

وقال ابراهيم كأنه لا يزال يحاول ان يخفف التوتر الذي يحيط بهم : أظن والدي خد خلاص على الحاجات دي .. ونظر اليه الاب نظرة غاضبة كأنـــه ينهره ، وقال بصوت غاضب : الأب أب مهما كان .. عمره ما يرضى لابنـــه

بالضيم ولا بضياع مستقبله !.. وسكت ابراهيم .. وأرخى عينيه وهو يبتلع ريقه .. وكأن غضبة الاب قد زودته بجرأة كان يبحث عنها ، فعاد يقول وهو يحاول أن يبدو صوته هادئاً : يا ترى عرفت تتصل بأصدقائك النهار ده ..

وقال ابراهيم بعد أن نظر الى محيي نظرة خاطفة كأنه يوصيه ألا يتكلم : بكره بإذن الله.. كان لازم أفوت يوم علشان البوليس ما يخدش باله.. وسكت الاب كأنه اقتنع ، ثم قال بعد فترة : ويا ترى حتتصل بيهم ازاي !

واحتار ابراهيم بماذا يجيب .. وعاد ينظر إلى محيي كأنه يساله : « هل والده يقر الخطة التي اتفقا عليها » .. ولكن محيي كان قـــد غاص في مقعده أكثر ، وغاص وجهه في سحابة صفراء..

واستبدت الحيرة بابراهيم .. انه لم يكن يحتار أبداً أمـام أي سؤال يسأله زملاؤه الشبان .. الثائرون مثله .. ولكنه لم يتعود على اسئلة الكبار .. الجيل السابق .. وكان في حيرته يحادث نفسه : « انه لم يتعود في حياته ان يطلع اباه على خططه الوطنية .. فهل يطلع عليها هذا الأب .. هل يقول له انـه قرر ان يتولى ابنه مهمة الاتصال بأصدقائه.. وانه سيزج بابنه في خططه ويعرضه لكل ما تصبه الحكومة على الوطنيين من عذاب .. وهـل يرضى الأب بذلك .. هل يسكت وهو يرى ابنه يسير بقدميه نحو الحقل الملغم . انه رجل وطني ، مخلص في وطنيته ، والا لما قبله في بيته .. ولكن اي نوع من الوطنية .. ومـا قدرتها وطاقاتها على الاحتمال..انها على الأرجح وطنية سلبية. وهي تدافع عن سلبيتها بعنف وقسوة .. والسيد مصطفى احمد زاهر سيدافع عـــن سلبيته .. سيثور عندما يعلم ان ابنه سيقوم بدور ايجابي .. وقد تنتهي ثورته بـأن يطرده من البيت .. ان يضحي بشهامته في سبيل سلامته ويطرد ضيفه الخطير الذي فر اليه والحكومة كلها وراءه. لا ، لن يقول له شيئاً ، يجب ان يبقيه بعيداً عن خططه ، كما ابقى والده بعيداً عنها .. وكما يقف كل الآباء بعيداً عن خطط ابنائهم » ..

والتفت الى محيي لفتة سريعة ونظر اليه بكل عينيـه كأنه يسلط ارادته عليه حتى يشل لسانه ، لئلا يتكلم ويقول شيئاً لأبيـه .. ولكنه كان في الوقت نفسه ، لا يزال يحادث نفسه : ولماذا لا اقول له الحقيقة .. انه رب البيت الذي يؤويني ، ويجب ان اثق به .. لماذا لا اثق في عقلية الشيوخ.. ربما كان عنده رأي ينفعني ، وينقذني .. رأي يستمده من تجاربـه وحرصه وحماسه الهـادىء .. ثم الأمانة .. يجب ان اكون امينا معه .. اقل ما يجب علي ..ثم الأمانة .. وكفاه

ما عرضته له » .. وطـال تردده الى ان سمع الأب يقول : مش ضروري .. انا مش عايزك تقول الا الحاجات اللي تمسني وتمس بيتي !..

وقال ابراهيم ، والكلمات تكاد تتعثر فوق لسانه كأنها ترتطم بترددده : الحقيقة لسه ما قررتش اتصل بيهم ازاي .. انما بكره حيتم كل شيء باذن الله !..

وقال الاب كأنه ينصحه : انا شايف ان ظروفك بقت صعبة جداً بعد البلاغ اللي اذاعته الحكومة .. الناس البطالة كتير ، خمستلاف جنيه مش شويـــه .. لازم تعمل حسابك على كده ..

وقال ابراهيم في استسلام : ربنا يستر .. اطمئن يا عمي.. بكره كل حاجه حتنتهي على خير !..

ونظر اليه الأب وفي عينيه دهشة وفيهما تأنيب ، كأنـــه يتهمه بالوقاحة اذ يتكلم عن الاطمئنان .. يطمئن !! كيف ؟.. وهل يعلم مثل هـذا الشاب مدى حاجته اليوم الى الاطمئنان؟ وكيف يعلم وليس له زوجة ولا اولاد وليس وراءه هذا الماضي الطويل الذي قطعـه خطوة خطوة ، وكل خطوة بحساب .. وليس امامه مثل هذا المستقبل القصير الذي يحتاج الى كل دقيقة فيـه ليصنع لزوجته وابنائه ما يطمئنه عليهم من بعده.. وليدفع الحياة فيهم بعد ان يتركهم وحدهم..

واعتدل في جلسته والقى باذنيه الى الراديو كأنه يتابع تلاوة القرآن ، وعاد الصمت لا يقطعه الا صوت المقرىء ، والا نظرات قليلة مختلسه يتبادلها ابراهيم ومحيي ، والا نحنحة الأب بين الحين والحين .. وفجاة ، واجـه الأب ابراهيم مرة ثانية ، وقال في حدة كانه ينفس عن بخار اختزنه طويلاً في صدره : انا اللي عايز اعرفه ، انتم عايزين ايه .. ما فيش حد في البلد عاجبكم .. ما فيش راجل ماشيين وراه .. النحـــاس مش عاجبكم ، النقراشي مش عاجبكم ، الملك مش عاجبكم .. تبقوا عايزين مين ؟.. مين اللي حضرتك عايزه يحكم البلد .. حتقوللي كلهم ما ينفعوش .. كويس .. موافقين.. انما مين؟هايجين ومهيجين البلد علشان ايه؟.ما تسكتوا وتوفروا تعبكم لغاية ما تلاقوا الراجل الكويس اللي انتم عايزينه..

وبوغت ابراهيم بهذه الثورة ، والتفت الى محيي كانـه يساله عن اللغة التي يمكن ان يحادث بها اباه .. وقبل ان يتكلم ، كان الأب قد استطرد قائلاً كأنه يدافع عن نفسه ، عن نظريته في الحياة: زمان في ثورة تسعتاشر كان فيه زعيم.. البلد كلها ماشيه ورآه .. كان فيه سعد زغلول .. وكانوا الناس عارفين هم بيعملوا ايه .. عارفين ايه .. سعد زغلول يتفاوض ويحقق الاستقلال.. انما دلوقت مين

يحل محل سعد زغول ؟ ومين يفاوض الانجليز والا يحاربهم ؟!

والتفت الأب الى ابنه كانه يعنيه بكل هذا الكلام ، ويتعمد ان يقنعه بـه ليحميه من مبادىء صديقه . . وكان في لهجة الأب لون من التحدي ، وكان وكأنه يتعمد هذا التحدي . . ويتعمده أمام ابنـــه بالذات ، حتى يقنعه بانه هو ايضاً — الابن — يستطيع ان يتحدى ابراهيم في آرائه . . ولم يقبل ابراهيم ان يناقش الاب . . لم يقبل التحدي . . وكان يعرف كيف يرد عليه . . كان يستطيع ان يقول انه لا يسير وراء زعيم ، ولكنه يسير وراء مبدأ . . وانه لا يبحث عن شخص يحكم مصر ، ولكن يبحث عن الحرية ، والمساواة ، والرخاء لمصر . . ولكنه لم يرد . . لم يناقش ، ربما لطبيعته التي كانت تتسع لسماع كل الآراء دون ان يثار ، وربما لأن الاحترام المفروض عليه تجاه الاب يمنعه من مناقشته ، وربما لأن ذكاءه دله على انه ليس في موقف يستطيع فيه ان يدخل في ايه مناقشة سياسية . .

وقـال في صوته الهـادىء وهو يتعمد ان يغير مجرى الحديث : حضرتك اشتركك في ثورة تسعتاشر ؟ . .

وتنازل الاب عن تحديه بسرعـــة . . كأن هذا التحدي لم يكن سوى زفرة دخان . . وسرح بعينيه وعلت شفتيه ابتسامة خفيفة كأنه يترحم بها على ذكرى سعيدة . . وقال في هدوء : كل البلد اشتركت فيها . . كان عمري ايامها خمستاشر سنة ما كنتش اقدر اروح اسمع سعد زغلول لمـــا يخطب وما كنتش باشترك في المظاهرات . . انما كنت حافظ خطب سعد صم ، وكان والدي — الله يرحمه — يوقفني امامه ويسمع لي الخطب ، واحدة واحدة . . وابتسم ابراهيم ابتسامـة حانية كأنه يرى امامه صبياً في الخامسة عشرة من عمره ، يعيش بقلبه ، وخياله وكل ما يتسع له ذهنه ، مع سعد . . واستطرد الأب قائلاً : كانت ثورة بصحيح . . وكانت البلد كلها يد واحدة ! . . ودخلت الام . . كانت خارجـة من المطبخ ، وصهد « وابور الغاز » يصهر وجهها المكتنز فيبدو كأنه وجه عروسة كبيرة من عرائس الاطفال وبددت ابتسامتها الطيبة الجو القلق الذي يحيط بالرجال الثلاثة ، وكأنها جاءت تحمل اليهم رسالة الحيـــاة والسلام . . فتحرك في الثلاثة أجمل ما فيهم . . ابتسم الاب ابتسامة حاول عبثاً ان يخفيها تحت قنـاع الحزم والصرامة الذي يصر على ان يبدو به . . ورفع محيي رأسه الى أمه كانه يرفع اليها قلبه ، ونظر اليها من خلال نظارته بعينين والهتين كأنه يلجأ اليها لتحميه تحت جناحيها . . وقام ابراهيم واقفاً كانه التقى بايمانـــه . . الايمان الذي لا يداخله شك فيه . .

ايمان يزوده بالحياة كلها .. الايمان بالام ..

وقالت الام في لهجتها المتعجلة ، وكأنها دائماً مشغولة .. ودائماً لا تستطيع ان تقف حتى لا تقف الحياة نفسها : فاضل اد ايه على المدفع يا جماعة ؟..

ثم التفتت الى ابراهيم وهي تضع يدهـــا على كتفه قائلة : اتفضل يا بني .. اقعد يا ضناي ربنا يحميك ويحرسك !.

وقال محيي بعد ان نظر الى الساعة .. قال بسرعة وكانه يعلم ان امـه لا تنتظر ابداً جواباً على اسئلتها : فاضل خمس دقائق ..

وقالت الام ، كأنها تلومه لأنه اجابها : طيب اتفضل حضرتك افرش سجادة الصلا لبابا .. ما هو كل واحد لازام يعمل حاجة ، البنتين هلكوا النهار ده يا حبة عيني .. ثم التفتت الى زوجها قائلة دون ان تغير نغمة صوتهـا : اسمع يا زاهر .. اول البت سنية ما ترجع ، باذن الله من غير مقاطعة ، انا حزود ماهيتها ريال .. دي أتاريها كانت شايله البيت شيل !

وقال الأب ، وهو يتنهد ، كأن عودة سنية بمثابة ازاحـة الهم من البيت : باذن الله !.. وقام محيي واعتلى حافـة المقعد « الاسيوطي » وجذب من فوق الدولاب سجادة الصلاة .. واعتدل ابراهيم على حافة مقعده كأنه يهم بالقيام ، وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة : أقدر اساعد في حاجه يا افندم ؟..

والتفتت اليه الام وقالت بلهجتها السريعة : يا ابني كفايه الهم اللي انت فيه ده احنا كلنا نخدمك بعنينا ! وانكمشت ابتسامة ابراهيم فوق فمه ، كانها تغرق في ذكرى همه .. او كأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه .. تذكر انه ليس عضواً في هذه العائلة .. وليست هذه الام امه .. وانه ليس كمحيي .. لم يكن مثله ابداً .. حتى في بيته .. لم يتمتع بهذا الهدوء ، وهذه الطيبة ، ولم تكلفه أمـه يوماً بشيء من أعمال البيت ..

وخرجت الام ، وهي تقول كأنها تحادث نفسها :

ـ أما أروح أغرف الأكل ، زمان البنات محتاسين !

وخرجت ، وهي تسير في خطوات نشطة كأن اكتناز جسدها حشو من ريش النعام .. وانطلق صوت مدفع الافطار ، بينما كان مقرىء الاذاعة لم يختم التلاوة بعد .. وقال محيي وهو يقوم من على مقعده : أظن المدفع ضرب ..

وقال والده دون ان يتحرك : استنى لما نسمع الادان ..

وأرتفع صوت المؤذن .. وظل الوالد لا يتحرك الى ان انتهي الأذان .. ثم

قام وهو يعدل الطاقية فـــوق رأسه .. ووقف للصلاة بينما قفز محيي من على مقعده ، وقال وهو يدفع ابراهيم امامه تأدباً : اتفضل يا ابراهيم ..

ثم همس في أذنه بصوت لايكاد يتجاوز شفتيه : اوعى تكون زعلت من كلام بابا.

وقال ابراهيم بلا مبالاة : أبداً ..

وخرج الاثنان ، والتقيا في الممر المؤدي الى حجرة المائدة ، بسامية ونوال خارجتين من المطبخ وكل منهما تحمل طبقاً من اطباق الطعام ..

وابتسمت سامية لابراهيم ابتسامة كبيرة خجلة كانها تؤدي بها واجبـــاً مفروضاً عليها .. ومالت نوال برأسها اليه ، وقالت في صوت خفيض كأنهـا تحاول ان تخفف عنه : ابقى قوللي رأيك في المسقعة .. انا اللي عملاها !..

وابتسم ابراهيم ابتسامة كبيرة .. كأنه بدأ يحس من جديد انه في بيته..

والتفوا وقوفاً حول المائدة .. ثم جاءت الام تحمل طبقاً من الارز ، ناولته لسامية لتضعه على المائدة ، وهي تقول : اقعدوا يا أولاد على بال بابا ما يصلي..

ثم لمحت محيي وهو يمد يده الى سلطانية المخلل ، فنهرته قائلة: ما تفطرش على مخلل . خاف على معدتك يا ابني.. ده حتى حرام عليك.. السنة بتقول اننا نفطر على بلح

وقال محيي ضاحكاً : أصل ايامها ما كنش فيه مخلل !..

وتجاهلته الام الطيبة ، وقالت لابراهيم وهو حائر اين يجلس :

— اقعد يا ابني هنا جنب محيي .. نورتنا.. !

وجلس ابراهيم وهو يقول في صوت خفيض : متشكر ..

وعادت تقول له وهي تملأ له كوباً من شراب القمر الدين :

— والنبي يا ابني انا مش صعبان على الا الست والدتك .. دي عمرها ماتقدر تتهنى على لقمه وانت بعيد عنها .. واحس ابراهيم بان قلبه ينقبض حتى تكاد الدماء تختنق فيه .. انه يعلم ان السيدة الطيبة لا تعتمد تذكيره بامه .. لاتعتمد ان تثير شجونه ، أو تثير عواطفه التي يخفيها في اعماق نفسه حتى يكاد ينساها.. انها سيدة طيبة ، ورغم ذلك فهي تؤلمه . تعذبه .. بلا تعمد !.. ومد يـده يتناول كوب الشراب ، ونكس عينيه في طبقه لا يرفعهما ..

وجاء الاب وجلس دون ان يتلفت الى أحد ، ثم رفـع المعلقة وأسقطها في طبق الشوربة ، وهو يتمتم « اللهم اني لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت » !..

وانهمكت العائلة في تناول طعام الافطار . الاب صامت دائماً..والام تنقل عينيها بين الوجوه ، ولا تكف عن اصدار التعليمات ، كأنها قائد ماهر يـــدير

معركة حياة أو موت .. « ما تكلش عيش كتير يا محيي .. اعمل حسابك على الكناقة » .. « سامية .. قربي طبق الرز من الاستاذ ابراهيم » .. « ما تا كل يا خويا .. انت عايز عزومه والا ايه ؟ » ..

ورفعت نوال رأسها وقالت : ايه رأيكم في المسقعة ؟..

وتذكر ابراهيم انه يجب ان يقول رأيه .. ولكنه أحس بحرج شديد كأنه يهم بأن يقول كلمة غزل لا يصح انتقال .. وانتظر ان يبدأ أحد من أفراد العائلة بابداء رأيه في المسقعة .. ولكن واحد منهم لم يتكلم ، وكأنه هو وحده الذي سمع سؤال نوال .. واحس انه يجب ان لا يتخلى عنها .. يجب ان يشعرها باهتمامه .. وأن يشعرها بأن «المسقعة» عمل رائع تهنأ عليه ..فقال بصوت خفيض دون ان يرفع عينيه اليها ، وقد ازدرد وجهه حياء : مدهشة !..

والتقطت نوال كلمته فرحة ، وقالت كأنها تخاطب أفراد العائلة كلها :

ـ أنا اللي عاملاها !..

وردت سامية وهي تنظر اليها بتحد : بذمتك انتي اللي عملاها .. هو اللي يقشر بدنجان يبقى اسمه عمل مسقعة !!

وصاحت نوال كأنها تدافع عن نفسها : لا يا شيخة .. باه كل اللي عملته تقشير بدنجان .. ثم التفتت الى امها قائلة : والنبي يا ماما ، مش انا اللي قليت البدنجان وعملت كل حاجة ..

وقالت امها دون ان تنظر اليها : ايوه . اسكتي باه .. بس يا سامية .

ونظرت نوال الى ابراهيم كأنها تشهده على انتصارها ..

وقال محيي ساخراً : وانا قاعد اقول يا ترى ايه الغلط اللي في المسقعة دي !

وردت نوال بسرعة : طب حاسب على صوابعك ..

ورفع الأب عينيه وفيهما نظرة متبرمة ، ودار بهما دورة سريعة بين وجوه المجتمعين ، كأنه يامرهم بالسكوت .. وسكتوا جميعاً .. حتى الام سكتت ، ولم تتكلم من جديد الا بعد ان جاء دور الكنافة .. وانتهى الافطار .. وانتقل الرجال الى حجرة « القعاد » .. وبقيت الام وابنتاها يجمعن الاطباق من فوق المائدة وينقلنها الى المطبخ.. وساد الصمت في حجره « القعاد » .. الأب صامت في تبرم ، كأنه يعاني عسر الهضم ، وكان تزاحم الأفكار على رأسه قد اجتذب كل دمائه ولم يبق شيء منها يحرك به معدته .. وابراهيم صامت في قلق ، كأنه يتربص فرصة ينتقل فيها الى الغرفة الاخرى ليخلو الى نفسه بعيداً عن الأب ،

وبعيداً عن فروض المجاملة والتأدب التي يفرضها عليه وجود الأب امامـــه .. ومحيي صامت ، يحـاول ان يسلي نفسه بشيء .. فينقر باصابعـه على المقعد ، ويضغط على قنطرة نظارته ،ويتلفت الى الباب كأنه يتعجل عودة امه واختيه..

وبعد قليل دخلت سامية تحمل صينية عليها براد وأكواب الشاي ، وضعتها على مائدة أمام الاب..ثم التفتت الى محيي وقالت كأنها تعني بقولها كل الحاضرين:

– اللي حيقوللي اعملي حاجة بعد كده حارمي نفسي من الشباك !

ثم القت نفسها على مقعد ، وهي تغالي في ابداء اعيائها ..

وقال محيي و كأنه انتهز الفرصة ليخفف عن نفسه :

– الخوف انك تقعي على حد ..

ورد عليه الاب كأنه يؤيد ابنته ، وهو يملأ أكواب الشاي :

– قوم يا محيي هات الجرنال ..

وقام محيي ، وعاد بالجرنال .. ودخلت الام وخلفها نوال ..

وقالت نوال وهي تجلس : احنا حقنا نعمل زي أمريكا .. كل واحد بعد ما ياكل يغسل طبقه ! ورفع ابراهيم عينيه اليها كأنه يقول : يا رايت !!

وقال محيي : في أمريكا ما بيكلوش مسقعه والا ماكنوش غسلوا الاطباق .. ده غسيل اطباق المسقعة عايز واحد اختصاصي .. زي حضرتك كده !

وردت نوال بسرعة : – خلاص .. من هنا ورايح حضرتك تبقى تاكل خضار مسلوق ، علشان تقدر تغسل طبقك !

ووزعت أكواب الشاي .. وبدأ كل منهم يحاول أن يرشف كوبه ويتمتع به في هدوء .. وفجأة .. رن جرس الباب !

والتفتوا جميعاً في حركة واحدة.. لا الى الباب ولكن الى بعضهم البعض.. ووضع الاب كوب الشاي على المائدة واسقط الجريدة من يده الاخرى ، ونظر صامتاً كأنه ينتظر أن يتكلم أحد . وقالت الام وهي تحاول أن تخفي أنفاسها المبهورة : – يا ترى ده مين ده .. سترك يارب !

وقالت سامية : بلاش نفتح!!.. وقال محيي : مش ممكن .. احنا مولعين النور واللي بره عارف اننا موجودين !

وقالت نوال : يمكن عم علي البواب .. ولا أم البنت سنية جيـــه تترجى نرجعها .. وعادت الام تقول وكأنها لم تعد تحتمل :

– دي مش عيشه يا خواتي .. احنا عمرنا لا كنا حرامية ، ولا كان يدخل

لنا شر .. افتحوا الباب ، وزي ما تكون بأه ..

وظل الاب وابراهيم صامتين.. الاب ينظر الى ابراهيم كأنه يسأله في غيظ: « ماذا تفعلون في مثل هذه الاحوال يا حضرات الشبان الثوار » ؟.. وابراهيم يحس بقلبه يدق هذه الدقات المرتعشة التي تعودها منذ بدأ يهرب، والتي لا يبدو أثر لها على وجهه ما لم تنظر الى عينيه ، ويحس اكثر بالحرج أمام العائلة .. يحس بنفسه كأنه يزن ستين طناً من الحديد ، ويجلس على صدور كل هؤلاء الأبرياء الطيبين .. وبذل مجهوداً كبيراً للاحتفاظ باتزانه .. اتزان أعصابه واتزان تفكيره .. قبل أن يقول موجهاً كلامه الى الاب :

– اظن يا افندم .. حد يفتح شراعة الباب ، ويشوف مين اللي جه .. اذا كان حد غريب يعمل ان الباب مقفول بالمفتاح ، ويرجع لنا بحجة انه حيجيب المفتاح ونبتدي نتصرف ..

وتلقت نوال الفكرة كأنها بهرت بها .. ونظر محيي الى ابراهيم كأنه يشك في نجاح فكرته .. وتململت سامية في مقعدها كأن هذا الحال لا يعجبها ..

وهزت الام رأسها ورفعت كفها الى صدرها كأنها تطرد من حولها شر العفاريت .. وقال الاب ، وهو يلوي شفتيه ، كأنه يحتقر هذا النوع من التفكير ولكنه لا يجد مفراً منه : – قومي يا نوال اعملي اللي بيقوله ابراهيم ..

وخرجت نوال وهي تتلفت اليهم كأنها تستمد منهم شجاعتها ، وودعوها بنظرات منكسرة كأنهم يبتهلون ألا تعود اليهم بشر ..

وعادت نوال بسرعة ، وقالت وهي ترتجف : – عبد الحميد ، ابن عمي !!

وقال الاب، كأن الالفاظ انطلقت رغماً عنه: – أعوذ بالله .. يا حفيظ يارب ..

وقال ابراهيم كأنه يخاف ضياع الوقت: – أظن أروح أنا أقعد في أودة محيي ..

وقال محيي بسرعة : – ده عبد الحميد لما بيجي ما بيخليش أوده ما يخشهاش .. عامل نفسه واحد من العيلة !

والأم تهز جسمها الضخم يمنة ويسرة ، وتدق على صدرها بيدها دقات منتظمة ، وهي تقول : يا رب .. يا رب .. يا رب !

وقالت سامية : أقول لكم يدخل البلكونة ونقفل عليه ..

وقال الأب : والجيران ؟!.. وقالت نوال : – أحسن طريقة اننا نخش انا وسامية في أودة الضيوف ونعمل انه فيه بنات بيزورونا ، والاستاذ ابراهيم يخش يقعد معانا .. و .. وقاطعتها سامية بسرعة :

– والله يا أختي ، حيقعد يلف ويدور لغاية ما يخش علينا !

واشتد القلق في العيون ، وبدأ كأن في رأس كل منهم ألف اقتراح ، ليس بينها اقتراح نافع .. واضطرب كل شيء .. كان كل واحد منهم يهم ان يتحرك ثم لا يتحرك .. والام لا تزال تهز جسدها المكتنز وتخبط على صدرها وتردد « يا رب .. يا رب »

والاب تقلصت عضلات وجهه حتى أصبح كقطعة الاسفنج لا يبدو منه أنف ولا فم ولا عينان .. وابراهيم انقلب اضطرابه الى ثورة .. ثورة على هذه العائلة المرتبكة التي لا تستطيع أن تدبر أمره .. ولاحت له من خلال ثورته المبكوتة صورة مسدسه .. لماذا لا يأخذ مسدسه ويشهره في وجه القـــادم ، ثم يفر الى الخارج .. الى أي مكان .. وليكن ما يكون ..

وقال في عصبية وصورة المسدس لا تزال تهتز أمام عينيه : – يعني ما فيش ولا حته في البيت أقدر استخبي فيها ؟

وانطلق محيي وهو يرفع رأسه كانه مستغرق في تفكير عميق : – أحسن مكان هو السندرة .. يطلع ابراهيم يستخبي فيها ، وأظن مش ممكن عبد الحميد حيطلع وراه ..

ومرت لحظة صمت ، نظر خلالها كل من في الحجرة الى الآخر ثم التفتوا جميعاً الى الاب ..

وقال الاب في صوت أجش : أظن ما فيش غير كده ..

ونظر الى ابراهيم نظرة حادة كانه يطعنه بعينيه .. ثم التفت الى نوال .قائلاً : روحي انتي يانوال طلعي ابراهيم في السندره ، وأنت يامحيي روح افتح الباب ..

وقال محيي : طيب فين المفتاح علشان اعمل نفسي اني بافتح الباب بيه !..

ومدت الام يدها تحت وسادة « الكنبة » لتخرج مجموعة المفاتيح التي تحتفظ بها دائماً بجانبها .. وقالت نوال وهي تشير الى ابراهيم : تعال ..

ثم تقدمته بخطى سريعة نحو المطبخ .. كانت « السندرة » عبارة عن سقف معلق في أحد الاركان تحت سقف المطبخ .. ورفعت نوال سلماً خشبياً واسندته الى الجدار ، وهي تقول لابراهيم : اطلع ..

ووضع ابراهيم قدمه على السلم وهو يسأل نوال : هوه بيشتغل أيه ابن عمك؟

وكان يسألها بأنفاس مبهورة وكأنه يريد أن يطمئن الى ان ابن عمها ليس ضابط بوليس .. ليس عدواً يتعقبه ..

وقالت نوال هامسة : ده واد صايع ما كملش تعليمه ..وبيشتغل في شركة ، وبقى له سنة رايح جاي عايز يتجوز سامية أختي .. ده بعده !

وصعد ابراهيم درجات السلم ، وكأنه اطمأن .. واضطر أن يقوس ظهره حتى يصبح رأسه بين ركبتيه ليستطيع أن يجلس داخل « السندرة » ..

ورفعت نوال السلم واعادته الى مكانه ، واطفأت النور ، وخرجت لتشترك في استقبال الضيف .. مد ابراهيم يده بصعوبة ، وأزال من تحته حبات البصل والثوم التي جلس عليها .. وسمع محيي من الخارج يقول للقادم :

– أصل من يوم سنية ما خرجت ، وماما بتقفل الباب بالمفتاح بعد الفطار على طول !!

وابتسم ابراهيم ، كأنه يهنىء صديقه على ذكائه.. وحاول أن يظل محتفظاً بابتسامته ليؤنس بها نفسه في الظلام الذي يحيط به .. ولكنه لم يستطع .. ان رائحة الثوم والبصل المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود بدأت تتسلل إلى أنفه .. وشيء لزج يلامس صفحة وجهه وجانب عنقه .. لعلها صفيحة زيت .. وأشياء تتحرك عند قدميـــه .. لعلها فئران .. ولعلها ستقرضه بعد قليل .. وظهره المقوس بدأ يؤلمه ..وأنفاسه بدأت تتململ في صدره .. وعيناه تؤلمانه.. تكادان تدمعان ، ليس من تأثير رائحة البصل ولكنه يريد أن يبكي .. نعم ، انه يحس كأنه على وشك البكاء .. بل انه يتمنى أن يبكي ليفرج عن هذا الضيق الذي يخنق قلبه .. يبكي حاله .. يبكي أحساسه بالاضطهاد .. انه لم يكن يبكي في السجن لأنه كان يعرف من يضطهده ، ويصب حقده عليه .. ولكنه هنا ليس في السجن .. ان الدنيا كلها تضطهده هنا .. ظروفه نفسها هي التي تضطهده .. الظروف التي اختارها بنفسه ..

ومضت ساعة .. قاوم كل دقيقة منها بكل ارادته..قاوم ثورته على نفسه ، وقاوم احساسه بالاضطهاد .. وقـــاوم رغبته في البكاء .. وقاوم رائحة البصل والثوم المختلطة برائحة السمن والعسل الاسود .. وافاق على صوت اقدام تتجه نحو الباب الخارجي .. ثم سمع صوت الباب الخارجي يفتح .. وفي نفس اللحظة دخلت نوال ، واضاءت نور المطبخ ، ووضعت له السلم وهي تهمس :

– أنزل .. خلاص !! وقبل أن ينزل سمع صوت البـاب الخارجي يغلق .. انه يذكر تماماً انه سمعه يغلق .. ونزل وكل عضلة في جسده تئن .. وتتقدم نوال نحو باب المطبخ كي ينطلق الى الحريـــة .. وقبل أن يخطو في الممر الذي يفصل

المطبخ عن باقي الحجرات سمع الباب الخارجي يفتح مرة ثانية ، ربما خيل اليه أنه وهم .. ولكنه يذكر انه سمع شيئاً كأن الباب الخارجي يفتح ..

وفجأة رآه أمامه .. شخص غريب .. يبحلق بعينين دهشتين .. ومن خلفه محيي واقف كالصنم ..!

وتحرك ابراهيم حركة تلقائيـــة وخطا خطوة سريعة داخل المطبخ كأنه يختبىء من طلقة مسدس .. وتسمرت كل العائلة ، لا تتحرك .. صامتة .. ذاهلة .. ثم تحرك الشخص الغريب وقال وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

– آسف .. أصلي نسيت المجلة اللي كانت معايا !! ثم دخل من تلقاء نفسه إلى حجرة « القعاد » .. وعاد يحمل في يده مجلة .. ثم دار بعينيه على وجوه العائلة الذاهلة ، والابتسامة الخبيثة لا تزال بين شفتيه ، وقال السلام عليكم .

ولم يرد أحد تحيته ولم ينتظر رداً .. خرج وأغلق الباب وراءه !

٥

وخطا ابراهيم خارج المطبخ وقد امتقع وجهه وأرتعشت جفونه فوق عينيه كأنها حملت دقات قلبه الواجف .. واخـــذ ينظر الى افراد العائلة في تساؤل وجزع .. كان ينتظر ان يناقشوه فيما يجب عمله .. كان يريد ان يعرف من هو عبد الحميد .. اخلاقه ، طباعه .. وهل يبلغ عنه البوليس ؟.. يريد ان يسمع أي شيء ، حتى لو شتموه .. فقط يريد ان يسمع شيئاً يبدد هذا الجزع الذي يمـــلأ صدره .. شيئاً يعينه على التفكير ، وعلى تحريك ذهنـه ، حتى يستعين بنشاط ذهنه على اخماد رعشة قلبه .. ولكن .. لم يتكلم احد من أفراد العائلة الذاهلة. وعندما بدأ ذهولهم يتبدد ، حولوا عيونهم الى الأب .. كأنهم يخافون عليه .. كأنه هو الضحية .. ولم يتكلم الأب .. ولم يلتفت الى احد ولا الى ابراهيم .. واتجه إلى غرفته في خطوات ثقيلة متعبة كأنه يجرجر عمره وراءه .. وسارت خلفه الأم ، وعلى وجهها جزع ولهفة وخوف ، وجسدها المكتنز يهتز فوق ساقيها المرتعشتين كأنه يكاد يسقط من فوقهما ..

والتفتت سامية إلى ابراهيم وحدجته بنظرة حادة فيها غيظ مكتوم ، كأنها

اطلقت من عينيها يداً ملتهبة تصفعه بها ، وتمسكه بها من قفاه وتلقي به خارج البيت ، ليستريح البيت منه .. ثم سارت في خطوات عصبية تدق بها الأرض واختفت في غرفتها ، وصفقت الباب وراءها في عنف ..

ورفعت نوال رأسها الى ابراهيم وبين عينيها نظرة رحيمة تعتذر بها . تعتذر عن اختها ، وعن ابن عمها ، وعن أبيها ، وعن الحكومه التي تطارده ، وعن مصر كلها التي أتعبته بمشاكلها .. وحاولت ان تتكلم .. حركت شفتيها لتقول شيئاً .. ولكنها لم تجد شيئاً تقوله.. فرت كل الكلمات من رأسها ، وهي تلتقي بوجه ابراهيم الممتقع ، وجفنيه المرتعشتين فوق عينيه .. حاولت ان تستعيض عن الكلمات بابتسامة مشجعه.. تخفف بها عن همه.. ولكن الابتسامة اصطدمت بقلبها المبهور الملتاع فلم تستطع ان تصل إلى شفتيها .. ونكست رأسها ، وسارت على مهل كأنها لا تريد ان تبتعد عنه .. كأنها تنتظر ان يستغيث بها لتقف بجانبه ودخلت وراء اختها والدموع في عينيها .. ولم يبق في الممر الذي يفصل بين المطبخ وباقي الحجرات سوى ابراهيم ومحيي .. وهمّ ابراهيم ان يتكلم ، ولكن محيي أدار عينيه عنه ، وضغط على قنطرة نظارته في هذه الحركة العصبية التي لا تفارقه .. واتجه إلى غرفته ووجهه جامد محتقن ، اختلط فيه دمه الأحمر ببشرته السمراء فاصبح في لون الغروب .. وكاد ابراهيم يصرخ وراءه .. احس انه يريد ان يصرخ في البيت كله .. انه لا يحتمل هذا الصمت .. لا يحتمل هذا الضعف .. انهم ليسوا في جنازة .. البوليس لم يات بعد .. ويجب ان يجتمعوا ليتشاوروا فيما يجب عمله بعد أن رآه عبد الحميد .. ان يجتمعوا لوضع خطة ، كما كان يجتمع بزملائه اعضاء الجمعية لوضع خطط الاغتيال.. ان الموقف لا يتسع للعواطف .. لا يتسع للخوف ، ولا للندم ، ولا للكمد .. يتسع فقط للتفكير .. لاجهاد الذهن .. لاعادة حساب الظروف المحيطة بهم.. لوضع الخطط .. ورغم ذلك فقد أحس ان هذا الصمت الذي احاطته به العائلة ، يحمل خطة يعرضونها عليه .. انه ليس مجرد صمت .. انه طلت مقدم اليه ملفوف في الصمت .. طلب صامت .. انهم يطلبون منه ان يغادر البيت حالاً ، ويريحهم من مشاكله .. هذا ما يريده الأب والعائلة كلها .. حتى نوال !..

وسيغادر البيت .. سيغادره حالاً .. سيحمل مسدسه ويرحل..

وخطا خلف محيي نحو الغرفة ، وعقله يتحرك في رأسه بسرعه حتى طغى تفكيره على هذه الرعشة التي بدأت تنتاب قلبه منذ فر من السجن .. وبدأ يسأل

نفسه : هل خروجه من البيت سينقذ العائلة ويريحها ؟

وازدحمت سحب الشك في رأسه وهو يبحث عن الجواب ، ويحاول أن يرى مصير العائلة بعد أن يغادرها .. وأجهد ذهنه كثيراً ليزيح هذه السحب ويصل من ورائها إلى الرأي الصواب ، وبدأ يحادث نفسه كأنه يحل مسألة حسابية : « لنفرض أن عبد الحميد قرر أن يبلغ عني البوليس .. فهل يذهب الآن ليبلغ عني ؟! لا .. فعبد الحميد لا يريد أن يأتي البوليس الى بيت عمه ليقبض علي فيه .. مهما بلغت سفالته ونذالته فهو لن يسلم عمه وأولاد عمه الى البوليس .. ثم هو يحب سامية ويريد أن يتزوجها فلن يبدو أمامها سافلاً الى هذا الحد .. ولكنه سينتظر الى أن أخرج من البيت بعد أن رآني فيه .. ويتتبعني بعد خروجي ثم يبلغ البوليس عن مكاني ، لقبض المكافأة . وسيحقق معه البوليس .. سيستجوبونه ، ولن يستطيع أن يقاوم أسئلتهم . أن هذا الصنف السافل من الشبان يكون عادة ضعيف الارادة ويسهل التأثير عليه باستغلال جشعه .. وسيعرف رجال البوليس منه الحقيقة كاملة .. سيعرفون اني كنت أختبيء في هذا البيت ، ثم يقبضون على الأب والابن .. اذن فالضمان الوحيد حتى أفوت على عبد الحميد غرضه هو ألا أخرج من البيت حتى لا أعطيه فرصة التبليغ عني .. الضمان الوحيد للعائلة هو أن أبقى معهم ، لا أن أغادرهم ! »

واستراح الى هذا التفكير .. وربما استراح اليه أكثر ، لأنه لا يريد أن يغادر البيت الآن .. فليس له بيت آخر يستطيع أن يلجأ اليه ..

وبدأ يستعد لاقناع العائلة بهذا المنطق حتى يستريحوا لبقائه معهم ، أو على الاقل ، حتى لا يضطروه إلى مغادرة البيت .. ولكن .. هل يقتنعون ؟!..

والتفت إلى محيي وقال ، وهو يحرص على أن يبدو هادئاً :

– تفتكر ابن عمك شافني ؟!

وقال محيي وهو يجلس إلى مكتبه ويفتح أحد كتبه : أظن كده ! وعاد ابراهيم يسأل ، وهو يضع على شفتيه ابتسامة يحاول أن يرفه بها عن صديقه : وتفتكر انه حايبلغ عني ؟.. واجاب محيي متبرماً : والله ماعرفش !..

وسأل ابراهيم وهو يضغط على الكلمات كأنه يلح على صديقه أن يرفع رأسه عن الكتاب : انما تفتكر أخلاقه تسمح له أن يبلغ البوليس ؟

ورفع محيي رأسه عن الكتاب ، وقال في حدة غير مقصودة :

– أخلاقه زفت .. شاب بايظ حشاش .. سقط في التوجيهية تلات سنين ..

وبعدين راح اشتغل في شركة .. وما حدش عارف عايش ازاي ولا بيجيب فلوس منين . وقال ابراهيم وهو محتفظ بهدوئه : سمعت انه عايز يتجوز سامية !

ونظر اليه محيي نظرة فيها غضب وفيها تعجب ، كأنه أهين . وأستدرك ابراهيم قائلاً كأنه يعتذر : نوال هيه اللي قالت لي !

ونكس محيي رأسه إلى الكتاب وقال بصوت خافت : كان طلبها في السنة اللي فاتت .. وطبعاً ما حدش رضي بـــه . ثم رفع رأسه واستطرد في صوت غاضب كأنه يريد أن ينتهي من هذا الموضوع :

— اسمع يا ابراهيم .. عبد الحميد يبقى ابن عمي صحيح ، انما مافيش حد منا يطمئن له .. كلنا عارفين انه مستهتر وما عندوش أخلاق.. وقال ابراهيم كأنه لا يريد أن يرحم صديقه : وتفتكر نعمل أيه دلوقت ؟..

وقال محيي وهو يدير عينيه ، كأنه واثق أن ليس هناك إلا طريق واحـد يعرفه ابراهيم جيداً : والله زي ما انت عايز !..

وقال ابراهيم كانه يفكر : تفتكر أقوم أخرج من البيت دلوقت ؟

وقال محيي بصوت خافت كأن هذا هو القرار الوحيد : وحاتروح فين ؟

— أروح أي حتة .. المهم ان ما يحصلكمش حاجة بسببي !!

وصمت محيي .. وعاد ابراهيم يقول : تفتكر أن عبد الحميد يبيع عمه وابن عمه ومرات عمه وبنات عمه ، بخمستلاف جنيه ؟

وقال محيي وهو يحاول أن يبدو ساخراً : ده يبيعنا بنص ريال !

وقال ابراهيم في تأكيد وفي لهجة جادة : ما أظنش !!

ورفع محيي رأسه وفي عينيه نظرات دهشة ، كأنه يتعجب من أن يدافع ابراهيم عن ابن عمه ، وقال : ما تظنش ليه ؟..

وقال ابراهيم كأنه يرى الغيب بوضوح : — الصنف اللي زي عبد الحميد دايماً يفتكر في نفسه انه ذكي .. وحايحاول يبعني لوحدي ، علشان يستر وشه قدام العيلة ، حايحاول يسلمني للبوليس من غير ما يسلم حد منكم !

وقال محيي وهو لم يفهم بعد ما يرمي اليه ابراهيم : ازاي ؟

وقال ابراهيم كأنه يعرض خطتـه : عبد الحميد منتظر دلوقت اني أنزل من البيت .. وأول ما أنزل حيمشي ورايا ويشوفني رايح فين ، وبعدين يبلغ عني .. ويقول للبوليس انه شافني في الشارع وتتبعني .. وما يجبش سيرتكم خالص !!

وأطرق محيي مفكراً كأنه اكتشف دنيا جديدة لم تخطر بباله .. واستطرد

ابراهيم : لو ما كنتش مصدقني .. قوم انزل واراهنك انك حتلاقيه واقف على رأس الشارع !

وقال محيي كأنه يحاول أن يقتنع : واذا مـــا سبتش البيت ، حايعمل ايه عبد الحميد ؟

وقال ابراهيم بسرعة ، كأنـــه يخشى ان يفقد السيطرة على تفكير زميله : حيستنى . هوه متأكد اني حاسيب البيت . اذا ما كنش النهارده حيبقى بكره !.

وقال محيي ساهماً : كلام معقول .. يعني طول ما انت معانا ، عبد الحميد مش حايبلغ عننا !..

وقال ابراهيم : أنا ما بفكرش في نفسي بس .. انا بفكر فيكم .. لو عبد الحميد بلغ عني البوليس حيفضل وراه لغاية ما يعرف اني كنت هنا .. في بيتكم !

وتقلص وجه محيي جزعاً وقال وهو يلتقط انفاسه : والعمل ؟

واجاب ابراهيم في ثبات : زي مـــا باهرب من البوليس ، لازم أهرب من عبد الحميد .. لازم اخرج من البيت من غير ما يشوفني ولا يمشي ورايا ..

وسكت ابراهيم .. وسكت محيي فترة ، وقد قطب ما بين حاجبيه مستغرقاً في تفكير عميق ثم قال كأنه يتوسل الى زميله : اظن بلاش تسيب البيت الليلة .. نستنى كام يوم لغاية عبد الحميد ما يتعب من الانتظار ..

وابتسم ابراهيم ، ابتسامة لم تخرج الى شفتية . احس انـــه قد وصل الى غرضه .. ثم قـــال وهو محتفظ بلهجته الجادة : انا متأكد اني بكره حاسيب البيت .. المهم انك تقابل فهمي عبد العزيز في الجامعـة وتقول له الكلمتين اللي اتفقنا عليهم .. وبعد ما حاترجع بنص ساعة حاكون انا بره !

وابتسم محيي كأنة يقول في سره : « ان شاء الله » .

واستطرد ابراهيم قائلاً : يا ترى والدك موافق اني ابات في البيت الليلة ؟

وقال محيي ، كأنه امتلأ ثقة بالمستقبل : احسن حاجه اننا نسيبه دلوقت .. هو مش حايقولك اخرج .. وانا حاطمنه ساعة السحور .. وعاد محيي الى كتابه ، واستطرد قائلاً : أما اذاكر لي كلمتين .. الامتحان قرب ومن امبارح ما قرتش ولا كلمة ..

وساد الصمت بين الصديقين ، ليكمل الصمت في البيت كلـــه .. وكان صمتاً ضاجاً .. كانت الضجة في رؤوس كل من في البيت .. ضجة تنفس عن نفسها في همسات متقطعة ..!

كانت الأم تهمس للأب وهي جالسة فوق الفراش وساقاها تحتها، لا تريد ان تستلقي .. والأب مستلق على جنبه مديراً لها ظهره وهو مفتح العينين : والعمل يا زاهر ؟!..

وأجاب الأب : والله ما أنا عارف يا تحية !..

وقالت الأم وهي تلقي برأسها فوق كفها : انا مش مطمئنة للواد عبدالحميد ده !

وقال الأب، وهو يتنهد كأن انفاسه تخرج من بين قضبان ضيقة : ربنا يستر ..

وقالت الأم ، وهي تردد كأنها تقاوم شيئاً في نفسها : والنبي حق الأستاذ ابراهيم يدور على حتة تانية .. اذا كان مش خايف علينا يخاف على نفسه !

وقال الأب . يعمل اللي هوه عايزه .. يعقد، يخرج .. انا خلاص .. سلمت امري لله .

وقالت الأم وهي تمصمص شفتيها : حسبنا الله ونعم الوكيل . ومدت ساقيها من تحتها ، وازاحت جسدها المكتنز ورقدت على جنبها ووجهها مواجه للحائط وظلت مفتحة العينين، وفي رأسها أشباح تنعكس على الحائط وتكاد تراها بعينيها في الظلام كأنها أشباح عفاريت .. وأغلقت عينيها حتى لا ترى العفاريت .. ولكن العفاريت تكاثروا عليها بمجرد أن أغلقت عينيها ، فعادت وفتحتهما واستدارت بجسدها ناحية زوجها في حركة سريعة ثم القت ذراعها حوله ، قائلة : زاهر .. أنا خايفه يا خويا !

ومد الزوج يده يضغط على الذراع التي القيت حوله ، في رفق وحنان ، وقال : ما تخافيش يا تحية .. ربنا معانا ..

وقالت الزوجة وهي ترتجف : أنا عارفه ربنا بعت لنا سي ابراهيم ده ليه .. احنا عمرنا ما كنا وش الحاجات دي !

واستدار لها الزوج وهو يرفع ذراعها عنه برفق ، وقال :

– تعرفي أنا بفكر لو كان إبراهيم ده ابني كنت عملت ايه ؟

وقالت الأم بسرعة : يا خويا بعيد الشر .. تف من بقك !.. واستطرد الأب قائلاً : ولا لو كان محيي هو اللي هرب مـــن السجن ، وراح استخبي في بيت ابراهيم .. كان أبوه عمل ايه ! وقالت الأم كأنها تلوم زوجها :

– وما فكرتش في عبد الحميد حيعمل ايه .. ده يقدر دلوقت يودينا كلنا في داهية .. أنا كل حته في بتفرفر .. متهيأ لي ان البوليس حيخش علينا دلوقت حالا .. وقال الأب في صوت حزين :

– مش عايز افكر لا في عبدالحميد ولا في غيره .. التفكير مالوش نتيجة ..

كنت بافكر اني اقول لابراهيم يسيب البيت . ماجاليش قلب .. انا اللي قلت له يقعد عندنا .. كان لازم من الاول ما اقبلوش في بيتنا . دلوقت خلاص .. لازم اتحمل النتيجة .. واذا كان عبد الحميد يقدر يودينا في داهية ابراهيم كمان يقدر يودينا في داهية .. يبقى أحسن حاجة اننا نخليها على الله .. وما تخافيش يا تحية .. عبد الحميد برضه ابن اخويا ، ومهما كان بايظ انما من أصل طيب . وابراهيم كمان ابن ناس وراجل ، ما تخافيش أمال انتي طول عمرك جامدة وقوية.

وكان يتكلم كأنه يحاول ان يقنع نفسه بكلامه .. كان هو الآخر خائفاً ساخطا، حائراً امام الغد،وامام واجبه كرب عائلة ، وامام واجبه كرجل شهم

ودفنت الزوجة رأسها في صدر زوجها ، ثم انطلقت تبكي ، ودموعها تهز جسدها المكتنز كأنها تقطع دموعها من لحمها .. ثم تكتم نشيجها ، فيخرج نهنهة خافتة كأنها أنات .

ولم تكن تبكي وحدها .. كانت نوال تبكي معها في الغرفة المجاورة .. تبكي بدموع صامتة وضفيرتها ملقاة بجانب رأسها فوق الوسادة، كأنها شارة الحداد.

والتفتت اليها سامية بعد ان صبرت طويلاً على دموعها ، وقالت في لهجة لاذعة ، تحاول ان تخفي بها شفقتها ولهفتها على أختها : تسمحي تقوليلي أنت بتعيطي ليه دلوقت !؟

وقالت نوال وهي تشد ضفيرتها بيديها كأنها تحاول ان تنزعها من رأسها : ده حرام .. حرام يا اخواتي ! .. وقالت ساميه بضيق : ايه هو اللي حرام ؟! وردت نوال دون ان تلتفت الى اختها :

– حرام يحصل له ده كله .. ذنبه ايه بس ؟! وقالت ساميه وهي تتجاهل ما تقصده اختها : مين هوه ؟! وردت في صوت حالم : ابراهيم .. وقالت ساميه كأنها تنهر اختها عن ذكره :

– ايوه هو له ذنب .. انما أحنا ذنبنا ايه؟!

والتفتت اليها نوال في عصبية وقالت وهي تضرب الوسادة بقبضة يدها : هوه ما لوش ذنب ، ده كان لازم الحكومة تعمل له تمثال ده بطل .. قتل واحد انجليزي .. ما قتلش علشان يسرق ، ولا علشان مجرم .. قتل علشان وطنه .. زي العسكري ما يقتل عدوه في الحرب .

وسكتت سامية برهة وهي تبحلق في وجه اختها كأنها تحاول ان تصل الى قلبها من خلال عينيها ثم قالت ساخرة : طيب بلاش سيرة القتل وحياة أبوكي ،

أحسن المفاريت تطلع لنا .

وادارت نوال جسدها ، ورقدت على صدرها ، ومدت ذراعيها فوق رأسها ، وقبضت على اطراف الوسادة بأصابع مرتخية ، وقالت في صوت ضعيف :

– اللي يشوفو ما يصدقش انه يقدر يقتل فرخة .. ده هـــادى ومؤدب وخجول .. ده بينكسف مني !

وقالت ساميه كأنها توقظ اختها من أحلامها :

– ده عنيه تخوف . ما خدتيش بالك من عنيه .. يا امه ؟!! وادارت نوال جسدها مرة ثانية ، ورقدت على ظهرها ، وقالت وهي تنظر من خلال الظلام الباهت الى سقف الحجرة :

– عنيه .. عنيه .. أيوه شفت عنيه !؟

واغتاظت سامية ، وضغطت على شفتيها كأنهـا تكتم غيظها ، ثم أمسكت بذراع اختها وهزتها بعنف قائلة : نوال ، بصي لي هنا .. وريني خلقتك ؟!

وادارت لها نوال وجهها في برود وهي لا تزال ساردة في احلامها ، وركزت سامية كل عينيها على الوجه المتطلع اليهـــا ، وقالت في حدة : انتي حالك مش عاجبني من ليلة امبارح شايفاكي مطيورة ، ومش على بعضك . قوليلي بالظبط ، ايه الحكاية ؟! واشاحت نوال بوجهها عنهـا وقالت في برود : مالكيش دعوة !

وصرخت سامية وصراخها همس مبحوح : ليه دعوه ونص .. مـا تنسيش انه مالوش مستقبل ده محكوم عليه بالاعدام !!

وانتفضت نوال كأنها لدغت ، وقالت وعيناها تبرقان وسط الضوء الخافت المتسلل من النافذة : ما تقوليش كده .. اوعي تقولي كده تاني مرة .. سامعة !!

ثم انكفأت على وجهها ، وبدأت دموعها تنهمر من جديد .. ولم تكن هذه المرة دموعاً صامتة ، كانت دموعاً تحمل انفاساً مبهورة ممزقة ..

ومدت سامية ذراعها واحاطت كتف اختها ، ثم مالت ووضعت رأسها على الوسادة بجانب الرأس المعذب والصقت خدهـا بالخد المبلل بالدموع ، وقالت في لوعة : أنا خايفه عليكي يا نوال .. خايفه على البيت كله .. خايفـه على بابا وعلى محيي .. انتي مش مقدرة اللي بنعمله ايه ؟!!

وأدارت نوال رأسها واحتضنت اختها ، وارتفع نشيجها ..

وعادت سامية تقول وهي تربت على ظهر نوال كأنها طفلة في احضانها : يعني لو قالوا لك بابا ولا ابراهيم تختـاري مين ؟! ولم تجب نوال .. انكمشت في صدر

اختها ، وارتفع نشيجها اكثر .. وظلت سامية تربت على ظهرها وهي تردد في حنان : بس يا نوال .. بس يا حبيبتي .. بس أحسن بابا يسمعك !!

ومضى الليل وكل من في البيت لم ينم .. وبعضهم ظل مفتح العينين وبعضهم سقطت جفونه تحت ثقل الدموع .. وجاء الصباح وخرج الأب الى عمله دون أن يرى ابراهيم .. خرج مهموماً بائساً كأنه كبر عشرة اعوام .. كأنـه احيل على المعاش ، ولم يعد يدري اين يذهب عندما يخرج من البيت ..

وقال ابراهيم لمحيي وهو خارج الى الجامعة : وحياتك يا محيي ، اول ما تقابل فهمي ، ترجع على طول علشان تطمني ، وبلاش تكمل المحاضرات .. وهز محيي رأسه واجماً ، وقال وعيناه جامدتان خلف نظارته : حاضر .. وخرج وكل قطعة منه ترتعش .. اطرافه ترتعش ، ووجنتاه ترتعشان .. وفتحتا انفه ترتعشان .. خرج وكأنه ذاهب الى السجن بقدميه . وجرت الحياة في البيت كما كانت تجري بالامس .

دخلت نوال تدعو ابراهيم الى الحمام ليغسل وجهه ، وهي تنظر اليه في لهفة كأنها تريد ان تطمئن عليه او تطمئن على نفسها به . ونظر اليها ثم حول عينيه سريعاً عنها كأنه مذنب لا يستطيع ان يلتقي بوجه ضحيته . ثم دخل الحمـــام وخرج دون ان يلتقي بالأم أو بسامية .. واعتقد انهما تعمدتا ان تتجنباه ، والا تحييناه تحية الصباح .. ربما لم يكن هذا صحيحاً .. ولكن احساسه بمدى الخطورة التي يعرض لها العائلة ، جعله يعتقد ان العائلة بدأت تنفر منه ..

ودخلت نوال بعد قليل تحمل له صينية عليها طعام افطـاره .. انها لم تدعه الى حجرة الطعام كما فعلت بالأمس .. لا بد ان العائلة قد قررت عزله هنا حيث يأكل وينام .. ولا يخرج الا الى الشارع وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يعذر العائلة في تصرفاتها .. وتلكأت نوال بجانبه ، وهي تضمه بعينيها كأنها تحاول ان تحميه .. تحميه من الدنيا كلها ومن نفسه ومن افكاره التي تجهلها .. وظل صامتـاً لا يرفع اليها عينيه .. وخرجت بطيئة الخطى ، كأنهـا تبحث في كل خطوة عن حجة تعود بها اليه .. واكل لقمـة .. ولقمتين .. ثم لم يستطع أن يأكل شيئاً .. وجد نفسه تائهاً في سحب من أفكاره .. وحـــاول ان يركز تفكيره في خط مستقيم يصل به الى شيء .. حاول ان يفكر في خططه التي يكمل بها هربه . حاول ان يفكر في العائلة التي القى نفسه عليها بكل ثقله .. حاول ان يفكر في عبد الحميد وما يمكن ان يفعله .. ولكنه لم يستطع .. لم يستطع ان يركز تفكيره في شيء .. وانتهت محاولاته الى ان وجد تفكيره محصوراً في نفسه .. وكان يفكر في ماضيه ،

في حاضره ، وفي مستقبله .. وكان تفكيره يصل الى اعماق نفسه ليكتشفها .. انه لم يعرف نفسه ابداً قبل ان يدخل السجن .. لم يكن يدري ان له أعماقا .. وان له أحساساً .. وان له عواطف ..

ترى .. لو انه حسب حساب السجن والهرب ، والمشنقة ، وكل هـــذا العذاب .. هل كان يقتل عبدالرحيم باشا شكري ؟!

انه لم يفكر أبداً في السجن قبل ان يدخله ، ولم يتصور المشنقة الا عندمـا بدأت تلتف حول عنقه .. كان يجد أمامه رجال البوليس السياسي ، وكان يدرس عقلياتهم وأساليبهم ، ولكنه لم يكن يرى ما وراء هؤلاء الرجـال من سجون ومشانق .. وربما كان هذا هو سر انتصاره عليهم ، فقد كان يحس انه ند لهم .. ند للحكومة ، بل أقوي من الحكومة .. وكأن تحدى الحكومة لا يحتاج الى اكثر من الذكاء .. كأنه يلعب الشطرنج ، وليس لأحد اللاعبين سلاح لا يملكه الآخر .. ليس احدهم يملك السجون والمعتقلات والمشانق ، والاخر لا يملك الا ذكاءه والمسدس الصغير الذي يحمله في جيبه .

وربما كان هذا هو كل الفرق بينه وبين أي شاب آخر .. بينـــه وبين محيي مثلاً .. ان محيي لا يقل عنه وطنية .. ولكن محيي يرى دائماً السجن ، والمشنقة ، فيتجنبها بأن يقف موقفا سلبيا من القضايا الوطنية .. اما هو فـلم يكن يراهما فلم يتجنبها واتخذ موقفاً وطنياً ايجابياً .. ولعله لو رآهما لتجنبها هو الاخر ، وأصبح سلبيا . لا .. ليس هذا صحيحاً .. ان محيي عنـــدما وضع أمام عينيه السجن والمشنقة خافهما ، فسجن نفسه في الخوف ، وشنق نفسه به .. اما هو فقد تحرر من الخوف .. تحرر من صوت السجون والمشانق ولم يخف على مستقبله منهما . بل انه تحرر أيضاً من مستقبله . لم يفكر ابداً في هذا المستقبل .. لم ير نفسه وزيراً ولا نائباً ولا غنيا ولا فقيراً ولا سجيناً ولا مشنوقـاً ..

هذا التحرر .. التحرر من الخوف .. والتحرر من المستقبل الشخصي .. هو الذي زوده بالقوة ، ودفعه الى العمل العنيف .. ورغم ذلك ، فهو اليوم .. الآن .. في هذا البيت .. لا يحس بالقوة .. لا يحس انه بطل متحرر .. انه اليوم لا يريد الا نفسه .. يريد ان يحرر نفسه من الاحساس بأنه هارب .. يريد ان يرتاح .. يريد ان يضحك .. نعم يريد ان يضحك !

وابتسم ابتسامة مسكينة وهو يتذكر انه لم يضحك منذ عام .. منذ قبض عليه .. لم يضحك أبداً من قلبه .. وقد كان في السجن يضحك ضحكات جوفاء

يجامل بها زملاءه.. ولكنه هنا.. في هذا البيت لا يجد حق الضحك الأجوف..

ودخلت نوال لتحمل صينية الافطار ، وهو لا يزال مستغرقاً في أفكاره . واحس بوقع قدميها ، فلم يرفع رأسه .. ربما خيل اليه انها قدما سجانه ، وهو لم يتعود ان يرفع عينيه الى سجانه .. ونظرت اليه نوال مترددة، ثم حملت الصينية من أمامه ، وهمت أن تعود بها ، ولكنها عـــادت واستدارت له ، قائلة كأنها تناديه : فيه حاجه مضايقاك يا استاذ ابراهيم ؟!

ورفع رسه كأنه يفيق وقال كأنه يتكلم من بعيد : لا . ابداً ..

وعادت تقول،ونظراتها الحانية تمسح على وجهه كأنها تزيل عنه آثار العذاب: مش عايز حاجة ؟..

وقال في تهكم : عايز أضحك !!..

واهتزت الصينية في يدها واحدثت الأطباق من فوقهـا رنيناً مرتعشاً كأنه رنين اجراس صغيرة معلقة في رقبة قط هارب .. وقـــالت وقد احست بمدى العذاب الذي يعانيه ، وانطلق هذ العذاب الى صدرها فشق قلبها :

– بكره حنضحك كتير يا ابراهيم .. باذن الله ..

وتنبهت الى انها نطقت اسمه بلا كلفة لأول مرة ..

وتنبه هو ايضاً ..

واحمرت وجنتاها ، واهتزت الصينية في يدها مرة ثانية ..

وارتبكت نظرات عينيه ، وارتبكت شفتاه فـلم يعد يدري هل يضمها او يبتسم بهما ، او يستعملها في كلام .. ثم قال كأنه يعتذر عن الضعف الذي بدأ به أمامها : أصلي افتكرت دلوقت ، اني بقالي سنه وشوية ما ضحكتش واتهيأ لي اني جعان ضحك !

وابتسمت نوال ، وقالت في حياء ، كأنها تحـاول محاولة يائسة لاضحاكه : تحب اقولك نكته ..!

وابتسم ابتسامة كبيرة ، وقـال وهو يهم بالضحك قبل ان تقول نكتتها : يا ريت !!..

وسرحت بعينيها لحظة ثم قالت ضاحكة من خلال حيائهـا : يا خسارة .. مش فاكره ولا واحدة ! ودارت والصينية في يدها، واتجهت الى الباب ، وقبل ان تصل اليه ، التفتت وقالت : اول ما حافتكر نكته حارجع أقولها لك ..

ولكنها وجدت وجهـــه وقد زايلته الابتسامة ، فسقطت ابتسامتها عن

شفتيها .. ونظرت اليه كأنها تتوسل له ان يرحم نفسه .. وخرجت مضطربة ..

وعاد وحيداً في الغرفة .. لا يستطيع ان يقرأ ، ولا يستطيع ان يفكر ، ولا يستطيع ان يحتمل الفراغ .. ومرت به الثواني كأنها وخزات ابر في لحمه .. الى ان سمع صوت الباب الخارجي يفتح ، ثم سمع صوت قدمي محيي . وكانت الساعة قد قاربت الواحدة والنصف ..

ودخل محيي اليه مكفهر الوجه ، وحيـــاه دون ان يصافحه .. هزة من رأسه ، وتمتمة من شفتيه ، واستقبله ابراهيم بعينين مستطلعتين تكادان تقفزان من محجريهما .. وقال في عجلة : خير .. عملت ايه ؟

وقال محيي وهو يلقي كتبه على المكتب في عنف : ولا حاجه !..

وقفز ابراهيم واقفاً وقال وهو يكاد يصرخ : ولا حاجة ازاي .. و ..

وقاطعه محيي ، كأنه ثائر ثورة بكاء : ما لقتش فهمي عبد العزيز .. فضلت أدور عليه ، مافيش فايده وبعدين سألت عليه ، وعرفت انه اعتقل .. قبضوا عليه .

وجحظت عينا ابراهيم ، وقال وهو يحاول عبثاً ان يتمسك بهدوئه الذي اعتاد عليه : اعتقل ازاي ؟.. امتى ؟..

وقال محيي ، وهو يجلس على الفراش ويسقط رأسه بين كفيه :

– امبارح في الفجر .. بيقولوا انه ساعدك على الهرب !..

وسكت ابراهيم .. بدأ يجمع ارادته ليستعيد هدوءه ، حتى يبدأ التفكير من جديد وطال سكوته إلى أن رفع محيي رأسه وقال في لهجة لا تخلو من حدة : دلوقت حنعمل ايه ؟

وقال ابراهيم وهو ينظر اليه في ثبات : نبتدي نفكر من جديد !..

وقال محيي كأنه يائس من التفكير : أظن لازم نفكر بسرعة .. مـا فيش وقت .. البلد كلها قايمة على رجل .. البوليس مش مخلي ولا حته ما بيفتشهاش .. وبيقولوا انهم قبضوا على خمسين واحد !..

وقال ابراهيم دون ان يتأثر : المهم اننا نفكر كويس ..

وتعمد ان يضغط على كلمة «اننا» حتى يشعر محيي بأنه شريكة في التفكير .. ثم اخذ يروح ويجيء في الغرفة ومحيي ينظر اليه بين الحين والحين نظرات حائرة .. فيها شفقة ، وفيها خوف ، وفيها كراهية ، وفيها توسل ..

٦

وسمع صوت الباب الخارجي يفتح مـن جديد .. وصوت قدمي الأب ، ثم سمع الأب وهو يقول لسامية في عجلة : فين مامتك ؟..

وقفز محيي وجرج من الغرفة ليستقبل والده ، ولكن والده لم يلتفت اليه ، مد له يده دون ان ينظر إلى وجهه ، وعاد يردد : فين مامتك ؟!

وخرجت الأم من المطبخ مهرولة ، ثم دخلت وراء زوجها إلى غرفتهما ، وتعمد الاب ان يغلق الباب وراءهما ، ثم قال قبل أن يخلع طربوشه ، ودون ان يجلس .. قال وهو مبهور الانفاس : عبد الحميد فات علي في المكتب ..

وقالت الام كأنها تتأهب لسماع قصة طويلة : هيه .. وقال لك ايه ؟..

وقال الاب ساخراً وكأنه يسخر من نفسه : قال لي اني راجل وطني عظيم.

وقالت الام وهي لا تزال تتأهب لسماع قصة طويلة : كترخيره.. وايه كمان؟.

وقال الاب ووجهه يتقلص في ألم : وعايز يتجوز سامية !..

وفتحت الام عينيها وكأنها لا تستطيع ان تفهم ، وقالت :

– ما طلبها السنة اللي فاتت وقلنا له لأ !..

وقال الاب وهو ساهم كأنه يبحث عن دموعه :

– الدور ده ، مش حنقدر نقول له لأ !..

وسقطت الام جالسة على الأريكة ، وهي مبحلقة العينين ، فاغرة فاهـا ، كأنها صفعت .. ثم تمتمت في صوت خفيض : وذنب ساميه ايه كمان ؟

وسكت الأب .. كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعطي ابنته لعبدالحميد.. كان مرغماً .. أو هكذا كان يظن ..

وكان يتصور نفسه كربان مركب على وشك الغرق ، فيضطر أن يلقي ببعض حمله في للبحر لينقذ البعض الآخر .. وقد قرر ان يلقي بسامية لينقـــذ باقي العائلة .. ورغم ذلك فهو لن يلقي بها قبل ان يعد لها قارب النجاة ..

وعادت الأم تردد وهي لا تزال مبهوتة ، تنظر أمامها كأنها لا ترى شيئاً : ذنب سامية ايه يا ربي .. ذنبها ايه يا اخواتي !

وقال الأب وهو لا يحس بما يقوله : ربنا عايز كده .. هذه ارادة الله !

وعاد يتذكر كلام عبد الحميد له عندما زاره في الصباح في مكتبه .. كان

يتكلم همساً .. كان يفح كالثعبان .. وقال انـه واحد من العائلة ، لا يقل عن باقي افرادها وطنية .. تحدث كثيراً عن وطنيته ، وعن المظاهرات التي اشترك فيها عندما كان طالبـــاً .. ثم تحدث – بالمناسبة – عن رغبته في الزواج من سامية .. وكان يتحدث بنغمة خاصة ، كأنه يقول ان شرط اعتباره فرداً من العائلة هو ان يتزوج سامية ، وان وطنيته متعلقة بتحقيق هذا الزواج .

يريد ان يتزوج بالتهديد .. السافل .. المجرم .. القذر .. لقد هم ساعتها ان يصفعه .. ان يطرده مـــن مكتبه .. وان يتبرأ منه ومن ابيه .. ولكنه لم يستطع .. كان في موقف الضعيف .. كان لا يملك الا ان يستسلم .. وقد فكر ساعتها في كل الحلول التي تنقذ سامية .. وكان اول ما فكر فيـه ان يعود إلى البيت حالاً ويطرد ابراهيم .. انه لا يستطيع ان يتمادى في تحمل عبئه إلى هـذا الحد .. ولكن طرد ابراهيم لن يغير الموقف .. سيظل عبد الحميد يهدده ، حتى يتزوج سامية ..

وافاق على صوت زوجته وهي تقول كأنها تولول .. كأنها تنعي ابنتها .. مش ممكن أبداً دي اول فرحتي ده ما كانش عاجبنا الدكتور اللي طالبهـــا ، نقوم نرميها للواد عبد الحميد ..

وأزاح الأب نظارته من فوق عينيه وقال وهو يضغط على أرنبة انفه كأنه يحبس دموعاً تكاد تنهار : خليكي عاقلة امال يا تحية .. افهميني .. بصراحة .. عبد الحميد بيهددنا .. إذا ما كنش حيتجوز سامية حيبلغ عننا .

وصاحت الام كأنها اعلنت الثورة : يبلغ زي ما يبلغ .. انما أنا ما ارميش بنتي الرمية دي .. ما موتهاش بالحيـا .. يروح ابراهيم وزفت الطين في ستين داهية .. انما بنتي ما تتجوزش الجوازه دي ابداً ..

وقال الأب في أسى : لو كان ابراهيم هو اللي حيروح في داهيـة لوحده ، كانت هانت .. انما محيي .. وأنا ..!

وفغرت الأم فاها .. ثم سقط رأسها فوق صدرها وأخذت تنتفض بالبكاء ، وهي تقول من خلال دموعها كأنها طفلة تائهة : يا مصيبتي .. يا خرابي .. ماليش دعوة .. ما يحصليش ده كله أبداً .. ده ما يرضيش ربنـا .. شوف لي حل يا زاهر .. ما ترميش بنتك بايدك يا خويا ..

ومد الأب ذراعه وأخذ يربت على ظهر زوجته ، وينظر اليها في حنان قائلاً : بس يا تحية أنا لسه ما كملتش كلامي اسمعي أمال .

واخذ يربت على ظهرها حتى هدأت انتفاضتها ، ثم استطرد قائلاً وفي عينيه نظرات خبث ساذج ، كأنه يجرب ذكاءه لأول مرة :

– شوفي يا ستي .. دلوقت احنا حنوافق على الجوازه دي .. انما حنوافق كده وكده .. وطبعاً مش حنقدر دلوقت نكتب كتاب ، ولا نعزم معازيم .. وحتى مش حنقدر نلبس الدبل ، ولا نعزم اخويا .. انما هو بس كلام بيني وبين عبد الحميد .. وحجتنا معانا .. مش ممكن عبد الحميد يطلب اننا نعمل حاجة وابراهيم قاعد في البيت . وبعد كام يوم .. ولا كام شهر ، يبقى يحلها ربنا ..

وكانت الأم تستمع اليه وهي مبحلقة العينين ، ورموشها ترتعش ، كأنها دهشة ، كأنها تشد ذكاءها من رأسها برموش عينيها .

واستطرد الأب قائلاً : فهمتي بقى يا ستي ؟..

وقالت الأم كأنها تحاول ان تقنعه انها ليست اقل منه ذكاء :

– قصدك اننا حنعمل جوازه بالكذب !

وقال الأب كأنه يلومها على غبائها : مضبوط ..

– مش جوازة .. مجرد كلام .. مجرد موافقة مبدئية !

وقالت بسرعة : وبعدين نرجع في كلامنا ..!

قال ، وهو يبتسم ابتسامة مرة : مضبوط ..

وسكتت الأم قليلاً ، ثم عادت تقول كأنها تهم بالبكاء ثانية :

– والنبي ده حرام .. يعني حنخسر سمعة البنت ، ويقولوا اتخطبت وانفسخت خطوبتها .. والبطال والكويس يبتدي يتكلم علينا ..

وقال في ضيق ، كأنه عجز عن ارضائها : يا ستي ما حدش حيتكلم . ما حدش حيعرف بالحكاية دي إلا احنا ، بينا وبين بعضنا .. وعبد الحميد حيخش ويخرج على انه ابن أخويا .. ويبتدي يشيل الهم معانا .. تبقى رجله جت .. اذا حب يبلغ عننا بعد كده .. حيسألوه وكنت ساكت ليه من الاول ؟..

وقالت الام كأنها لا ترضى عن كل هذا ، ولا تطيقه : ربنا يستر .. ماحدش عارف بكره فيه ايه .. هو حد كان يصدق ان ده كله حيحصل لنا ..

وقال الاب كأنه يحادث نفسه ، وكأنه لم يسمع تعليق زوجته : وحتى لو الناس اتكلموا عن سامية .. حيقولوا ايه يعني ؟ ما فيه ميت بنت اتخطبت وانفسخت خطوبتها .. مش أحسن ما يقولوا عليها أبوها وأخوها في السجن ..

وصرخت الام كأن ابنتها هانت عليها في زوجها وابنها : ما تجبش السيرة

دي .. ما تقولش كده .. انا خلاص ما بقاش فيه روح .. ولا أقـــوم والنبي وأحرق نفسي بالجاز ..

وقال الأب وهو يحاول ان يرفه عنها : انا بقول يعنى ان ...

وقاطعته زوجته قائلة : ما تقولش . كفاية كده ؟..

وساد الصمت بينهما فترة .. ثم قال الاب :

– مش ننده لسامية ونقول لها على الحكاية !؟.

وقالت وهي تديروجهها عنهوتشيح بيدها كأنها تحمله المسئولية كلها وحده :

– انده لها .. وقول لها انت !..

قال وهو يهم بالقيام : انا حا انده للولاد كلهم ..

وفتح باب الغرفة ونادى بصوت خفيض مبحوح : سامية . سامية ..

وخرجت اليه سامية من المطبخ ، ونظر اليها ملياً في حنان كأنه ينظر إلى شهيدة : اندهي لأخوكي وأختك.. وتعالوا .. وأطلت نوال من خلف اختها.. ثم أسرعت بمجرد أن سمعت كلام ابيها ، ونقرت على باب غرفة محيي ، ثم فتحت الباب وأدخلت رأسها وهي تقول بينما كانت تبحث بعينيها عن ابراهيم :

– محيي .. تعال .. بابا عايزك !..

وقام محيي خارجاً ، وابراهيم ينظر خلفه ، وفي عينيه تساؤل حاد .. لقد تذكر بسرعة ان الاب من عادته أن ينام بمجرد أوبته من عمله .. فلماذا لم ينم.. لا بد ان هناك شيئاً خطيراً قد حدث وحال بينه وبين النوم .. وقبل ان يبدأ في التخمين كان محيي قد خرج وهو يزيح اخته من أمامـــه .. وأغلق الباب وراءه .. واجتمعت العائلة كلها في حجرة نوم الزوجين .. ووقفت ساميةونوال مستندتين الى حاجز السرير ، ووقف محيي مستنداً إلى الحائط بجوار الباب .. والأم والأب جالسان على الاريكة وكلاهما يتحاشى النظر إلى أحد الأبناء ..

وتنحنح الأب مرة ومرتين كأنه يطرد شيئاً من صدره ، ثم قال وهو ينظر إلى كفيه : عبد الحميد حا ييجي يزورنا النهار ده بعد الفطار ..

وقاطعه محيي قائلاً في قرف : تاني ! .

ونظر الاب اليه كأنه يلومه على مقاطعته ، ثم استطرد : النهار ده جالي في المصلحة وفهمت منه انه شاف ابراهيم عندنا ..

وقالت نوال بسرعة : وعايز ايه يعني ؟..

وحول اليها الأب عينيه وفيهما نظرة غاضبة ، ينهرها بها . وعـاد يتابع

كلامه : طبعاً انتم عارفين ان ظروفنا وحشة .. وفي الظروف دي الواحد بيستحمل كتير ، وكلنا لازم نستحمل بعض ..

ونظر إلى اولاده كأنه يحاول ان يرى تأثير كلامه عليهم ، ويحاول ان يكشف عن أعماقهم ليرى مدى احتمالهم لما سيقوله .. ورآهم كلهم صامتين ، وقد بدأت نفوسهم تميل إلى القلق .. فتنحنح مرة ثانية ، ثم قال :

– انتم عارفين ان عبد الحميد ولد وحش .. والصنف اللي زيه لازم ناخده بالسياسة .. علشان نتجنب اذيته ..

وقاطعته الأم وهي تلتفت اليه مشفقة عليه : يا اخويا ما تقول لهم اللي عايز تقوله وتخلص .. ما احنا شايلين الهم مع بعض ..

وقال الأب : صبرك علي يا تحية ..

وجذب نفساً عميقاً من صدره ، يستجمع به شجاعته واستطرد وهو لا ينظر إلى أحد : عبد الحميد السنة اللي فاتت كان طلب ساميه .. طبعاً عارفين اننا رفضناه .. النارده جه يطلبها تاني ، وطبعاً حنرفضه برضه ..

وقالت سامية وهي تهز كتفيها : ايه التلقيحة دي .. ما البنات ماليه البلد!

وقال الأب دون أن ينظر اليها : انما حنرفضه بالسياسة .. يعني حنفهمه اننا قبلنا ، وبعدين نرفضه ..!

وقال محيي في حدة وهو يرفع ظهره عن الحائط المستند عليه :

– يعني عايز يتجوز بالتهديد .. المجرم .. أنا عمري ما شفت سفالة بالشكل ده!

وقالت سامية ، وفي عينيها نظرات مذعورة ، وهي تدق الأرض بقدمها : أنا ما أقبلوش ولا يوم واحد ولا ساعة واحدة مش ممكن .. مستحيل .. يهدد ما يهددش ، أنا ما ليش دعوة ..

وخطت نوال خطوة الى جانب اختها ، والصقت بها كتفها ، كأنها تحميها .. وعاد الأب يقول : اذا كنتي انتي ما تقبلهوش ساعة .. أنا ما اقبلوش دقيقة .. انما مضطرين .. وكل اللي أقدر أوعدك بيه انه مش حيتجوزك ، ولو ضربني بالرصاص مش حايكتب عليكي كتاب ..

وقالت سامية ، وقد بدأت دموعها تنهمر : يعني عايزني أعمل ايه يا بابا ؟..

قال الأب : عايزك تسايريه .. تاخديه على عقله لغاية ما ربنا يحلها ..

وقالت سامية كأنها لا تصدق ان والدها يطلب منها مثل هذا الأمر : أسايره .. أسايره ازاي ؟!..

ورد الاب وهو لا ينظر اليها كأنه يخجل أن يواجهها : قصدي انك تسيبيه يعتقد اننا قبلناه ..

قالت وكأنها تتعمد احراج والدها : ازاي ؟..

وصرخ فيها والدها ، وكأنه يدافع عن نفسه بصراخه : ما اعرفش ازاي.. انما لازم تفهمي ان الكلام ده مش معناه ان عبد الحميد يبقى له حق عليكي .. تقطعي ايده لو مدها .. فاهمه !

ثم خفت صوته ، وقال كأنه يتوسل : انا استحملت كتير .. استحملت كثير قوي .. ساعدوني ..

وقالت سامية وهي تمسح بكفها دموعا على خدها : كل ده علشان سي بتاع اللي قاعد جوه .. أنا خلاص ، طهقت .. مش قادرة اسكت .. أنا حا أخرج من البيت ده ..حاروح أقعد عند خالتي.. مش عايزةأقعد هنا دقيقة واحدة.. ما تشوفوا لكم حل .. احنا حانروح كلنا في داهية ..

وقامت الأم وأخذت ابنتها بين ذراعيها وهي تربت على ظهرها وأحنت نوال رأسها ، كأنها تقصدها هي بكلامها ..

وقال محيي ووجهه مكفهر موجهاً الكلام لابيه : وتفتكر حضرتك ان عبد الحميد مش عامل حسابه اننا يمكن نلعب بيه ..

وقال الأب في ضعف : والله يا ابني ما أنا عارف .. أديني باعمل اللي بيقدرني عليه ربنا ..

وصمت محيي قليلاً يفكر في طريقة أخرى ، يبعد بها شر عبد الحميد عنهم.. ثم كأنه لم يجد في رأسه شيئاً ، فتحرك ليخرج من هذه الحجرة التي يملأها نشيج أخته سامية ..

واستوقفه والده قائلا : بلاش تقول لابراهيم على حكايـــة الجوازه دي .. خلينا احنا بس اللي عارفين ..

وقال محيي في اكتئاب وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته : حاضر ..

وهم أن يتحرك مرة ثانية فعاد الأب يقول : قول له بس أن عبد الحميد حاييجي الليلة ، وانه حيقابله علشانه يعمل حسابه !!

وقال محيي في استسلام : حاضر !..

وعاد الأب يستوقفه قائلاً : هوه ابراهيم ما عرفش يتصل بأصحابه لسه ؟!

وقال محيي وهو يزفر الكلمة في ضيق : لسه !!

ونكس الأب رأسه كأنه يتمادى في الاستسلام ..

وخرج محيي في خطوات غاضبة كأنه ذاهب ليقتل ابراهيم ،أو عبد الحميد..

واستقبله ابراهيم رافعاً اليه عينيه ، ولكن محيي تفادى العينين حتى لا يلتقي بتساؤلهما .. وجلس مكفهر الوجه ، ممطوط الشفتين ، وأصابعه تعبث بعضها ببعض .. وقال ابراهيم وهو يرسم بين شفتيه ابتسامة يخفف بها عن صديقه : خير ان شاء الله .. حصل حاجة ؟!

وقال محيي وهو يزفر ساخطاً : مـــا حصلش .. بس عبد الحميد حايشرف هنا الليلة !!

وأحس ابراهيم بالرعشة التي تنتاب قلبه ، ولكنه كتمها ، وقال في بساطة وهو لا يزال يدعي الهدوء : ليه ؟..

وقال محيي بسرعة ، وهو يهب واقفاً : علشان يشوفك كان مرة . علشان يتعرف بيك .. ووالدي بيشوف انك لازم تقابله .. كده أحسن .. بدل مـا نخاف منه ، نخليه يخاف معانا !!

وقال ابراهيم وهو يطاطىء رأسه : خلاص !!..

واغتاظ محيي وقال في حدة : خلاص ايه ؟..

وقال ابراهيم دون ان يتأثر بحدة صديقه :

– قصدي ما دام عمي موافق اني اقابله .. حاقابله ..

وقال محيي وهو يحاول أن يفتح كتاباً يدفن فيه غيظه :

– وبابا سألني اذا كنت قدرت تتصل باصدقائك ولا لسه ؟

وقلق ابراهيم وقد رفع عينيه إلى صديقه كأنه بدأ يعمل :

– فيه واحد نقدر نتصل بيه دلوقت حالاً !!

وقال محيي : مين ؟!..

وقال ابراهيم : وأحد اسمه فتحي المليجي ..

وقال محيي كأنه يحاول ان يسخر من كل اصدقاء ابراهيم : ما اعرفوش ..

وقال ابراهيم في هدوء :

– ده مش معانا في الكلية .. طالب في كلية الآداب ..

وقال محيي وهو لا ينظر إلى صديقه : زمانهم اعتقلوه !!

وفقد ابراهيم هدوءه لأول مرة منذ دخل البيت ، وقال وهو يواجه محيي ، كأنه يحاول أن يسيطر عليه بالقوة :

– اسمع يا محيي.. احنا كل اللي نقدر نعمله اننا نجرب كل طريقة .. في الظروف اللي زي دي ما حدش بيتأكد من حاجة .. يجوز فتحي المليجي اعتقل انما يجوز برضه انه ما اعتقلش . المهم اننا نحاول نتصل بيه واذا ما قدرناش نحاول حاجة تانية

وقال محيي وهو يتحدى غضب صديقه : وحانفضل نحاول كده لغاية امتى باذن الله

وقال ابراهيم وهو يخفف من حدته : انا عارف انكم تعبانين مني .. انا بقى لي هنا يوم واحد وده التاني ، انما حاسس انكم مش قادرين تستحملوني أكتر من كده.. والدك وعدني انه يخبيني مدة أقصاها أربعة أيام .. اذا كان لسه عند وعده ، انا مستعد أخرج من هنا في اليوم الرابع حتى ولو سلمت نفسي للبوليس !..

ولانت نظرات محيي ، ونظر إلى صديقه في عطف كأنه تذكر موقفه ، وقال وهو يعتذر : انا آسف يا ابراهيم .. ما كنش قصدي.. انما انت عارف اننا مش واخدين على الظروف دى !.. وسكت ابراهيم كأنه يتعمد ان يزيد محيى أسفاً وعاد محيي يقول بعد فترة : وحانتصل بصاحبك ده أزاي ؟!..

وقال ابراهيم وهو يدعي التفكير : مش عارف .. ايه رأيك ؟..

وابتسم محيي ابتسامة خبيثة كأنه كشف اسلوب ابراهيم في تنفيذ خططه. ثم قال : طبعاً ما فيش الا انا ؟..

ونظر اليه ابراهيم نظرته القوية ، وقال في هدوء : لأ .. ما تنفعش !..

قال محيي وهو لا يزال ساخراً : أمال مين .. بابا ؟!..

وتكلم ابراهيم في جد ، كأنه ليس لديه وقت للمناقشة ، ولا وقت لاتباع أسلوبه القديم في التلويح بخططه : لأ .. نوال !..

وبهت محيي ، وقال في دهشة : نوال اختي !.. اشمعنى ! .

وقال ابراهيم في حزم : لاني خايف ان يكون فتحي مراقب .. لو رحت انت البوليس حيراقبك انت كمان.. انما نوال تقدر تروح على انها واحدة صاحبة اخته

وسكت محيي يفكر .. ثم قال وهو يضرب حافة مكتبه بقبضة يده : انما أنا ما أسمحش لاختي انها تتدخل في المواضيع اللي زي دي.. كفاية انا ..

وقال ابراهيم وهو ينظر إلى محيي كأنه يمده بالقوة : كلنا دخلنا في موضوع واحد..

وقال محيي كأنه طفل عنيد : مش ممكن .. اخواتي البنات مالهمش دعوه بالحاجات دي .. دور على فكره تانيه !..

وقال ابراهيم كأنه يعلن يأسه : تفتكر لو كان عندي فكرة تانيه ، كنت فكرت في نوال .. انا عمري ما اعتمدت على بنت .. ولا وثقت في بنت .. انما الشغلانة دي مش ممكن تقوم بيها إلا بنت !

وقال محيي في حدة: ومش ممكن البنت دي تبقى أختي.. كفاية اللي حصل لنا..

ونظر اليه ابراهيم كأنه يستهين به وقال : طيب قول لي فكرة تانية ؟!

وسكت محيي .. وطالت فترة سكوته .. وسكت معه ابراهيم سكوتاً عصبياً ، يثير ضجة في رأس كل منهما .. ثم انطلق محيي فجأة كأنه يتم حديثاً كان يدور بينه وبين نفسه :

– وأنا ايه عرفني بفتحي ده .. ازاي أسمح لأختي تروح له لغاية بيته .. ما يمكن يكون سافل ، ويدور بعد كده يتكلم عليها في كل حته !!

وقال ابراهيم وقد انفرجت اساريره وبدأ يشعر بأنه على وشك النجاح في خطته : دي حاتروح له في وسط عيلته .. وحاتقابل اخته .. ومش حاتقول اسمها ولا اسمك، ولا حاتقول انا فين.. والمواضيع اللي زي دي ما حدش بيتكلم فيها .. فتحي يمكن ما يخاقش على اختك من الكلام ، انما حايخاف على نفسه !

وقال محيي : انما بابا مش ممكن يرضى ده يدبحنا كلنا ولا ينشل !

وقال ابراهيم كأنه يصدر أمراً لا يناقش : باباك مش حا يعرف !!

ولم يناقشه محيي في هذا الأمر كأنه اقتنع به.. وسكت مرة ثانية .. وطال سكوته.. ثم عاد وانطلق فجأة قائلا: وحاتروح له امتى؟.. اظن في نصف الليل!؟

وقال ابراهيم في لهجة جدية كأنه يدعو صديقه لأن ينتهي من وساوسه ، ويبدأ في العمل : حاتروح دلوقت .. احنـــا الساعة تلاتة ونص لسه .. تقدر تروح وترجع قبل الفطار .. بيته قرب مننا .. في الدقى !.

وأغلق محيي الكتاب الذي كان قد فتحه .. طواه في عصبية كأنه يصفع به القدر ، ثم اتجه الى الباب وفتحه ، وصاح بأعلى صوته : نوال .. نوال !!..

وخرجت نوال من حجرتها في خطوات بطيئة كأنها تحمل فوق كتفيها دموع اختها .. وقالت في كمد : عايز ايه ! . مالك بتزعق كده ! !

وقال محيي بلا ابتسام : تعالي .. دقيقة واحدة ..

وانسحب الى داخل الغرفة ، ودخلت وراءه، وسقطت عيناها على ابراهيم، ونظرت اليه نظرة مسكينة ، كأنها تتوسل اليه أن يأخذها فوق صدره لتبكي حظها وحظه ، وحظ البيت كله معها .. وأدار ابراهيم عينيه عنها، وهو يخجل ان يواجهها بما يدور في رأسه .. وقال محيي وهو يغلق الباب :

– ابراهيم عايز يقول لك حاجة ! !

ورفع اليه ابراهيم عينيه كأنه يلومه لأنه ألقى هذه المهمة عليه ، ثم حول عينيه الى نوال ونظر اليها نظرة سريعة ثم خفضهما ، وهو لا يزال أضعف من أن

يواجهها .. والتفت نوال الى أخيها ثم الى ابراهيم ، وهي دهشة .. لا تستطيع ان تتصور شيئاً يقوله لها ابراهيم .. الا شيئاً واحداً لا يستطيع ان يقوله !!

وتنهد ابراهيم .. جذب نفساً عميقاً من صدره يستعين به لاطلاق لسانه ثم قال : الحقيقة ان فيه واحد صاحبي لازم اتصل بيه دلوقت حالاً .. ومافيش حد يقدر يروح له الا انتي .. قالها بسرعة ، كأنه يريد ان يزيح عن صدره شيئاً ثقيلاً.

وقفزت من صدر نوال ابتسامة ضعيفة ، بلغ من ضعفهـــا ان عجزت عن الوصول الى شفتيها .. ثم التفتت الى أخيهـــا صامتة ، كأنها تسأله بصمتها عن حقيقة ما يقوله ابراهيم ..

وأحس ابراهيم بالتفاتتها ، فاستطرد : محيي وأنا مالقيناش طريقة تانية ..

وبدأ احساس نوال ينشط ويطرد من قلبها الهم الذي تركته فيـــه دموع اختها .. أحست انها مقبلة على عمل خطير .. ولم تحس ان هذا العمل من أجل مصر .. ولا من أجل بطل .. ولكن من أجل ابراهيم .. الرجل الذي التقت به .. أحست انها تقترب منه أكثر .. تقترب منه جداً حتى لتشعر بأنفاسه ، وقالت بسرعة : وحاروح له ازاي !..

وقال ابراهيم وهو لا يزال يرفض ان ينظر اليها ، كأنه يحاول ان يقنع نفسه انها ليست نوال التي يشركها في خططه .. انما محرد زميل من اعضاء جمعيته :

– بيته في الدقي .. شارع اسماعيل نمرة ١٥ .. اذا فتح لك حد تاني قولي انك زميلة له في كلية الآداب وجاية تاخدي منه كراسة المذكرات .. ولما يقابلك ما تقوليش له انتي مـــين .. ولا أنا فين .. قوليله بس اني عايز بدلة ظابط .. وعايز عربية تستناني في شارع النيل قبل نادي التجديف من ناحية الجيزة .. تستناني بعد مدفع الفطار بعشر دقايق .. ولازم كل ده يـــتم بكره ، يا بعده بالكتير . فهميه اني مش حاقدر أقعد مطرح ما انا ، اكتر من كده !

وكانت نوال تستمع اليه وقد تجمع ذكاؤها كله في عينيها .. وشفتاها ترتعشان كأنها تشرب بهما كلامه .. والغمازتان فوق خديها تلوحان حيناً وتختفيان حينا كأنهما نجمتان من نجوم الفجر الجديد ..

وقالت في صوت حنون ليس فيه أثر للانفعال ، انما فيه استسلام وكأنهـا تسأله «عايز ايه كمان» .. كأن رجلها يأمرها فتسعد بأمره ، وتسعد بالخضوع له :

– وحاقول لماما ايه علشان تسيبني أخرج ؟

قال محيي : – قوليلها انك رايحة تزوري فوزيه ولا واحدة من صاحباتك !

قالت نوال وهي هادئة أيضاً : مش حترضى !!..

وقال ابراهيم بعد لحظة صمت : قوليلها انك لازم تزوريها قبل ما تيجي هيه تزورك وتطب علينا !..

ونظرت اليه باعجاب كثير وقالت : فكره !.. ثم استطردت : هوه اسمه ايه ؟.. قال ابراهيم وهو يرفع اليها عينيه في دهشة : مين ؟!..

قالت مبتسمة : اللي حاروح له ؟.. قال وهو يضحك من نفسه : فتحي المليجي !.. قالت : اروح له دلوقت ؟..

قال وهو ينظر اليها مبتسماً كأنه يودع بين يديها حياته ومستقبله راضياً : حالا .. قالت وهي تقبله بعينيها : حاضر ..

وهمت ان تنصرف ، فاستوقفها محيي ، واقترب منها ، وقال كأنه يواسيها: خدي بالك من نفسك يا نوال .. ما تتهوريش زي عوايدك .. لو حسيتي بأي حاجة .. حد بيتبعك .. أو حد بيضايقك .. ارجعي حالاً ..

قالت وكأن فرحتها لم تترك لها طاقة للكلام : حاضر ..

وخرجت من الغرفة كأنها ذاهبة الى ابراهيم لا ذاهبة بعيداً عنه !

٧

لم تجد نوال صعوبة في اقناع والدتها لتسمح لها بالخروج بحجة زيارة صديقتها.. وأخذت تبدل ثيابها في هدوء مفتعل ..

ورغم الجهد الذي كانت تبذله في افتعال الهدوء ، لم تستطع أن تحول دون رعشة أصابعها ، حتى انها مزقت جوربها وهي تسحبه على ساقهـــا ، فرفعت اصبعها الى فمها وبللته بريقها ثم مسحت به على الجورب حتى تحول دون اتساع الرقعة الممزقة .

فعلت ذلك وهي تبتسم ، كأنها تبتسم لنفسها لتتحايل عليها وتقنعها بالهدوء.. ولم تكن رعشتها رعشة خوف ..

كانت رعشة الاقدام على مغامرة جديدة.. رعشة الوقوف امام عالم مجهول ، ترى نوره بعين ، وترى ظلامه بالعين الاخرى .. وتسمع فيه باحدى اذنيهـــا تغريد الطيور وتسمع بالاذن الاخرى زئير الوحوش ..

ولم تكن ترى في هذا العالم الا انسانا واحدا .. ابراهيم .. كأنها ذاهبـــة

اليه .. كأنها ذاهبة الى أول لقاء لأول حب .. وكان النور والظلام اللذان تراهما ينبعثان من ابراهيم .. والتغريد والزئير تسمعهما حول ابراهيم .. وكانت تائهة وهي تحاول الذهاب اليه .. تائهة فيه .. وكان احساسها بأنها تائهة يزيدها لهفة عليه .. واصراراً على العثور عليه .. العثور على سلامته وأمنه .. كأنه مريض لا تدري دواؤه فتدور ملهوفة تبحث له عن الطبيب ..

انها ذاهبة الآن الى الطبيب .. وخرجت وضفيرتها السوداء حائرة معها خلف ظهرها ..

وسارت في الطريق نحو موقف الاوتوبيس ، دون أن يخطر على بالهـــا انها ذاهبة في مهمة وطنيـــة .. لم تفكر في البوليس ، ولا في السجن .. فقط كانت تفكر في الطبيب الذي ينقذ ابراهيم .. وكان كل خوفها الا تجد الطبيب .. أو أن يهز رأسه امامها علامة اليأس .. ورغم ذلك فلقد كانت أحياناً تذكر نصيحة أخيها لها : « خدي بالك من نفسك يا نوال .. لو حسيتي بأي حاجة .. حـــد بيتبعك .. أو حد يضايقك . ارجعي حـالاً » .. كانت تذكر هذا الصوت ، فتنتبه الى نفسها .. وتقفز الى عينيها نظرات شك وريبـــة تديرها بين ركاب الاوتوبيس .. وكانت تمر بها لحظة تعتقد فيها ان كل هؤلاء الناس يعرفون سرها .. وسر ابراهيم .. ويخيل اليها انهم كلهم من رجـــال البوليس السري ، وانهم سيقبضون عليها .. سيأخذونها الى السجن ، قبل أن تصل الى الطبيب .. وكان قلبها يرتجف .. ولكنها كانت تطرد هذه الشكوك سريعاً ، فتهدأ عيناها ، ويهدأ قلبها .. وتعود تفكر في ابراهيم .. وفي الطبيب ..

ونزلت من الاوتوبيس في ميدان كوبري الانجليز ..

وسارت في شارع اسماعيل ، تتبع بعينيها أرقام البيوت .. وعندما وصل الى رقم ١٣ تلفتت وراءها بلا تعمد ، كأن شيئاً في اعماقها يدفعها الى الحذر .. ولم تجد احداً وراءها فخطت عدة خطوات ، ووقفت أمام البيت رقم ١٥ .. واشتد وجيب قلبها كأن عمرهـا كله يتجمع في الخطوة التالية .. وترددت .. وترددت طويلاً . وكان في ترددها كثير من الحيـاء ، وكثير من الضعف .. كأنها أفاقت من احلامها لتصدم بالواقع .. كأنها عرفت لاول مرة ان ابراهيم هارب من الحكومة ، وانها هنا لتساعده على الهرب .. وكأنها اكتشفت لأول مرة انها ستدخل وحدها الى بيت غريب ، لتلتقي برجل غريب ..

وقاومت ترددها بكل ارادتها .. وبدأت تقيس البيت بعينيها .. انه بيت كبير .. فيللا .. وحديقة .. يبـــدو انهم أغنياء .. وخطت الى الداخل في

خطوات مرتبكة .. وضغطت على جرس الباب كأنها تضغط على قلبها .. وفتح لها خادم اسمر يرتدي قفطاناً أبيض .. ووقف أمامها صامتاً كأنه يبشر بليل طويل .. وقالت في صوت ضعيف متهدج : فتحي بك موجود ؟!..

وقال الخادم وشفتاه تتحركان بسرعة فوق اسنانه البيضاء ، كأنه يحول دون انبثاق الفجر : نقول له مين حضرتك ؟! ..

قالت وصوتها لا يزال يرتعش : أنا زميلته في الكلية ..

قال : اتفضلي .. دقيقة واحدة .. نديله خبر !.. وقادها الى صالون فخم .. ولكنها لم تستطع ان تلمح فخامته .. لم تستطع ان ترى المقاعد الأوبيسون، ولا التحف المتناثرة فوق الموائد المذهبة ..ووقفت حائرة كأن الحجرة فراغ ، ليس فيها مقعد تجلس عليه .. وسمعت وقع خطوات سريعة .. ثم بدت أمامها فتاة في مثل سنها .. جميلة ، ولكن ثوبها اجمل منها .. وتمهلت خطوات الفتاة وهي تقترب منها ، ثم مدت يدها تصافحها قائلة : بونسوار ..

وقالت نوال وهي مرتبكة في حيائها : بونسوار ..

وأخذت الفتاة تنظر اليها فاحصة تتحسس قماش ثوبها لتعرف نوعه ثم قالت في برود : حضرتك مع أبيه فتحي في الجامعة ؟

وبلعت نوال ريقها وهي تقول : أيوه ..

قالت الفتاة وهي لا تزال تطلق نظراتها الفاحصة : هوه نايم .. تحبي نبلغه حاجة ؟! واحتارت نظرات نوال في عينيها برهة ، ثم قالت كأنها صممت أمراً : أرجوكي تصحيه انا عايزاه في حاجة ضروري خالص

ونظرت اليها الفتاة في تعجب ثم قالت : أصحي ابيه فتحي !! مش ممكن.. ده يدبحني .. ياي .. كله الا صحيان ابيه فتحي ..

وقالت نوال بسرعة : تأكدي انه مش حيزعل لما تصحيه دي مسألة تهمه خالص. ونظرت اليها الفتاة في سخرية وقالت : وتهمك انتي كمان طبعاً !

وفهمت نوال ما تقصده الفتاة ، وازدحمت دماؤها في وجنتيها ثم صعدت إلى رأسها ، والتمعت في عينيها نظرة كشرارة النار ، وقالت في حدة تحاول ان تكتمها حتى لا تصفع الفتاة الواقفة امامها : أرجوكي تروحي تصحيه واذا ما رضيش يصحى تعالي قوليلي ونظرت اليها الفتاة في دهشة ، ثم قالت بلا مبالاة: دي يظهر مسألة مهمة خالص .. يا بختك !!

وقبل ان تنفجر نوال صارخة في وجهها ، استطردت قائلة :

– واقوله مين حضرتك !..

وهبطت حدة نوال ثم قالت وهي لا تزال تفكر : زينب ..

ثم استطردت بسرعة كأنها وجدت طريقاً : زينب حمدي !.

وهزت الفتاة كتفيها بلا مبالاه ، وخرجت .. وتركت نوال ساهمة .. كان اسم « حمدي » الذي نطقته بلسانها لا يزال يرن بأذنيها .. انه اسمه .. ابراهيم حمدي .. هل سطت على اسمه .. هل أصبح هذا الاسم حقاً لهـا .. هل يكون اسمها يوماً « نوال حمدي ».. وأحست أنهاتمادت في احلامها أكثر مما يجب ..انها سارت بعيداً في العالم المجهول .. وأحست بحيائها .. حياء لذيذ يدفىء قلبها لمجرد ان اسمها واسم ابراهيم اجتمعا في اسم واحد .. وتلفتت حولها ..ثم جلست على مقعد.. جلست مستريحة سادرة في احلامها.. ثم تنبهت إلى مهمتها ، فاعتدلت، وجلست على مقدمة المقعد ، واتخذت لنفسها وضعاً جدياً .. وتركوها وحدها فترة طويلة .. وبدأت تتنبه إلى الفخامة التي تحيط بها ..إلىالمقاعد الأوبيسون ، والتحف المتناثرة على الموائد المذهبة .. هل يمكن ان يكون بين أصدقاء ابراهيم فتيان في مثل هذا الثراء .. مرفهون إلى هذا الحد .. لقد كانت تتصورهم جميعاً مجاهدين مشردين..لايطيقون الثراءولا الرفاهية..ولا يملكون شيئاً إلاالمسدسات وسمعت وقع اقدام .. ودخل شاب نحيل.. بارز الوجنتين تنفر عروقه من فوق يديه .. وكانت عيناه منتفختين من أثر النوم ، وشعره مشعث .. يرتديبيجاما ومن فوقها « روب» من الحرير .. هل هذا هوفتحي المليجي لقد كانت تتصوره انساناً ضخماً قوياً بارز العضلات .. ان الذي ينقذ ابراهيم يجب أن يكونانساناً ضخماً .. واستقبلته بعينين دهشتين كأنها لا تصدقه ومدت له يدها لمصافحته ، وهو يبادلهادهشتها، وقبل ان تتكلملمحت أخته آتية وراءه فقالت بلهجةحاسمة:

– من فضلك اقدر اكلمك لوحدك؟!.. ورفعت صوتها حتى تسمعه الفتاة..

وهزت الفتاة كتفيها كأنها تقول « يا سم » ! ثم خرجت واقتربت منه نوال وقالت هامسة : حضرتك الأستاذ فتحى المليجي ؟..

وقال فتحي والدهشة لا تزال تملأ وجهه : أيوه ..

وقالت نوال وقد اشتد همسها خفوتاً بعد أن نظرت اليه ملياً كأنها تطلع على بطاقة تحقيق شخصية : انا جاية من عند ابراهيم حمدي ..

واتسعت عينا فتحي ، وقاطعها قائلاً في لهفة : هو فين ؟..

وقالت نوال : ما اقدرش أقولك ..

قال كانه يعتذر : قصدي اسألك صحته ازيها وعامل ايه ؟!

وقالت وهي تحس احساساً كاملاً بمهمتها الخطيرة :صحته كويسه ..وبيقولك

انه عايز بدلة ظابط.. وعايز عربية تستناه في شارع النيل ،قبل نادي التجديف من ناحية الجيزة بعد مدفع الفطار بعشر دقائق.. ولازم كل ده يتم يا بكره يابعده..

ونكس فتحي رأسه ، وأخذ يفكر ، بينما نوال تنظر اليه بكل عينيها كأنها تنتظر منه نتيجة امتحانها. النتيجة التي ستقدمها لابراهيم.. ورفع رأسه وقال وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجد : بدلة الضابط أقدر اجيبها الليلة .. لو كنت انتي اللي حتستلميها تقدري تاخديها مني بكره الصبح ..

وقالت بسرعة كأنها تتعجل بقية القرارات : الساعة كام ؟..

قال : زي ما يعجبك .. الساعة اتناشر مثلاً ..

قالت : فين .. آجي هنا ؟.

قال : لا بلاش البيت احسن والدي يمكن مـا يخرجش بكره استنيني في ميدان الكوبري .. عند دكان السجاير .. وانا حافوت عليكي ، واسلمها لك .. اذا ماجتش الساعة اتناشر بالضبط تيجي هنا الساعة تلاته لأنه يمكن حد يكون مراقبني

قالت كأن المهمة أصبحت صعبة : يعني اخرج مرتين في يوم واحد.. مش معقول؟

ونظر اليها فتحي في تعجب كأنه لايفهم ماتقول ،قال : مش معقول ليه ؟..

وكادت تهم بأن تقول له ان أمها لن تسمح لها بالخروج ، ولكنها تنبهت إلى ان ليس من حقها ان تناقش فتحي في مثل هذه المواضيع ، فقالت :

– قصدي .. المهم .. والعربية حتعمل فيها ايه ؟

قال : العربية بعد بكره .. مش ممكن قبل كده ..

قالت وهي تهم بالانصراف : متشكرة ! !

وسألها وهو لا يزال ممسكاً بيدها : حضرتك أخت ابراهيم .. قريبته ؟

قالت وهي تبتسم ابتسامـــة خفيفة : لأ .. معارف .. وخطت نحو البهو الخارجي ، ووجدت أخت فتحي تنظر اليها .. نفس النظرة الساحرة ، وقالت وهي تودعها بعينيها حتى الباب :

– يا بخت بنات الجامعة دي الليسيه بقت رجعية خالص !

ولم ترد عليها ، انما أشاحت برأسها فطارت ضفيرتها في الهواء كأنها تصفعها بها .. وخرجت .. عادت إلى البيت ، تحمل الدواء .. وكانت فرحة .. كان صدرها ممتلئا بالثقة في نفسها .. لقد عرفت الطريق .. انه طريق سهل ، ليس فيه ما يخيف .. ليس فيه وحوش ، ولا ظلام .. الطريق الى ابراهيم !

وانطبعت في ذهنها صورة فتحي المليجي .. الوجـــه النحيل ، والعروق البارزة ، والعينان المنتفختان من أثر النوم .. وصورة أخته بنظراتها الساخرة

وثوبها الجميل .. اجمل منها .. وصورة البيت .. والمقاعد الاوبيسون ، والتحف فوق الموائد المذهبة. انطبعت في ذهنها كل هذه الصور كأنها ذكريات عزيزة .. غالية .. ذكريات أول لقـاء لأول حب .. وسمعت بأذن خيالها صوت أخت فتحي وهي تقول «يا بخت بنات الجامعة . دي الليسية بقت رجعية خالص »..
ماذا كانت تقصد .. وابتسمت بينها وبين نفسها وهي تواجه هـــذا السؤال ..
انها بنت صغيرة هذه الفتاة .. أخت فتحي .. انها لا تدري الحياة .. لا تدري الحب .. لا تدري أن في بيتها رجلا .. بطلا . لا تدري شيئاً .. ان تعليقها لا يعدو مجرد تنفيس عن غيرتها .. كهؤلاء الناس الذين يلقون التعبيرات الساخرة كلما رأوا في الطريق فتى بجانب فتاة .. وقد رأتها بجانبه .. لا بجانب شقيقها فتحي .. بل بجانب ابراهيم .. كان ابراهيم دائمـاً بجانبها ، وخياله يلوح في عينيها ، وفوق شفتيها ، ويتأرجح مع ضفيرتها .. فغارت منها .. ولكنهـــا صغيرة .. صغيرة جداً هذه الفتاة .. أما هي فكبيرة .. ناضجة عرفت الحياة .. وعرفت الحب .. ودخلت تحمل فرحتها وثقتها بنفسها ..

وسمع محيي وقع خطواتها ، فخرج اليها ، وأشار اليها من بعيد ثم قال همساً وهو يجذبها من يدها الى داخل الغرفة : خير .. لاقتيه ؟!

قالت وهي تنظر الى ابراهيم وبين شفتيها ابتسامة ملأت الغرفة كلها ابتساماً ، أيوه لاقتيه !..

واحتضنها ابراهيم بعينيه ، ووجهه ينطق بالفرح ، كان كل خلجة فيه تزغرد .. ولم يفرح بالخبر ولكنه كان فرحاً بعودتها .. لقد قضى كل هذه الفترة منذ ذهابها ملهوفاً عليها .. يفكر فيها وقلبه ينقبض وينفرد كأنه يجري وراءها .. وحاول أن يقنع نفسه انه لم يكن يفكر فيها الا ليطمئن على خطته .. وانه لم يكن ملهوفاً عليها ، انما كان ملهوفاً على نفسه .. حاول كثيراً .. وحاول أن يفسر احساسه بأنه نفس الاحساس الذي كان يشعر به وهو يرسل زملاءه في الجمعية السرية لتنفيذ خططه حاول ان يوجه احساسه إلى هذا الاتجاه .. ولكنه لم يستطع .. انه أحساس جديد ذلك الذي يحس به .. وهو احساس مركز في شخص واحد .. لا يشمل المجموع كله .. لا يشمل مصر كلها .. كأن الناس كلهم أصبحوا واحداً .. ومصر كلها لم يعد فيها الا واحداً .. وقد ثار على هذا الاحساس .. ثار على لهفته .. انه احساس أقوى منه .. ولهفة تكاد تنهار بـه .. تكاد تدفعه لأن يصرخ منادياً نوال ، ثم يحطم القضبان التي يسدلها أمامه حرصاً على تنفيذ خطته ، ويجري وراءها ليعود بها .. يعود بهـا اليه حتى لا تغيب عن عينيه .. وظل يقاوم احساسه .. قاوم

كثيراً .. الى ان عادت ، فكف عن المقاومة .. وانطلقت خلجات وجهه تزغرد فرحاً .. ولأول مرة احتواها بعينيه دون أن يحولها عنها .. لم يستطع أن يحولها. وتعلقت ابتسامته بابتسامتها .. تعلقت طويلاً .. كأنهما لن ينتهيا من الابتسام .. وكأن بينهما رسولاً من الشوق يروي عمره كله وعمرها كله ..

وعاد محيي يقول في لهجة سريعة وقد ضاق بتلكؤها في الكلام :

وقالك ايه .. ما تتكلمي !..

قالت كأنها هائمة : قال لي انه حيعمل كل حاجة !..

وكان ابراهيم قد أفاق على صوت محيي ، فاستجمع ارادته حتى استطاع ان يرخي عينيه عن نوال ، وقال في اختصار كأنه لم يعد يستطيع الكلام : ازاي؟.

وقالت نوال كأنها تتباهى بنجاحها : بكره الساعة اتناشر حايجيب البدلة. وبعد بكره العربية حاتكون جاهزه ..

وقال محيي متعجلاً : حايجيب البدلة فين ؟..

قالت : حاستناه في ميدان الكوبري جنب بتاع السجاير وحايفوت يسلمهالي

وصاح محيي حتى كاد صوته يخرج من الغرفة : عال .. مش ناقص إلا انك تقابليهم في السكك .. وضغط باصبعه على قنطرة نظارته ، وعاد يقول غاضباً :

– انا مش ممكن اسمح لك بكده .. كفاية لغاية هنا .. أنا أروح آخد البدلة منه.

والتفتت نوال الى ابراهيم كأنها تستنجد به من أخيها الذي يكاد يحرمها لذة انتصارها ، ويحرمها من نشوة حبها ..

وسكت ابراهيم برهة .. كان هو الآخر يحس بالضيق . يحس ان شيئاً في صدره يعارض ان تذهب نوال وتقابل فتحي في الطريق .. كأنه يغار عليها .. كأن التقاءها بشاب آخر يجرح كبرياءه .. وقال في صوت خافت وهو يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع محيي : ده حايسلمها البدلة ويمشي على طول .. المسألة مش حتاخد اكتر من دقيقة واحدة ..

وقال محيي : دقيقة .. اتنين .. انا اللي حاروح بنفسي .. انما اخواتي البنات ما يقابلوش شبان في السكك ..

وقالت نوال في حدة كأنها تدافع عن نجاحها : انما هو ما يعرفكش .. حيسلمك البدلة ازاي ، وهو ما يعرفكش !..

وسكت محيي ، ورفع اليه ابراهيم عينيه كأنه يتحداه أن يجيب على هذا السؤال ..

وخطا محيي عدة خطوات ، ثم استدار إلى أخته قائلاً كأنه وجد الجواب :

– أروح معاكي .. نروح احنا الاتنين !..

وقال ابراهيم بلهجة الاستاذ : لو فتحي شافك جنب نوال .. حيعمل نفسه مش عارفهـا ويمشي على طول .. حيفتكرك جاسوس ، ولا حيفتكر ان نوال كانت بتضحك عليه ..

وقال محيي وهو لا يزال في غضبه : مـا هو مش ممكن تروح لوحدها .. فكر حضرتك في أي فكرة .. انما نوال ما تقابلش شبان في الشوارع ..

وقال ابراهيم وقد طرد من نفسه ترددها : يا محيى احنـا قربنا خلاص ما يصحش تيجي دلوقت وتقف في حاجة صغيره ..

وقال محيي وهو ينظر إلى ابراهيم في حنق : دي مش حاجة صغيرة .. لو كان لك اخوات بنات ما كنتش تطلب منهم اللي بتطلبه من اختي ..

وسكت ابراهيم فجأة .. وفغر فاه كأنه يهم ان يقول شيئاً .. ولكنه لم يقل شيئاً .. سكت .. وتقلص وجهه ألماً كأنه يكبت جرحـــاً في قلبه .. وأحست نوال بالألم الذي يعانيه ابراهيم .. احست بجرحـه .. فالتفتت الى شقيقها وقالت في حدة : ايه الكلام اللي بتقوله‌ده يا محيي .. انا رحت لفتحي في بيته .. شاب مؤدب .. مارفعش عينه في عيني .. واخته استقبلتني .. بنت متربيه .. في سني .. أصغر مني شويه .. وكانت حاتشلني شيل لمـا عرفت اني زميلة أخوها .. خايف من ايه .. حيا كلني يعني ؟!

وقال محيي وهو لا يزال غاضباً دون ان يستطيع النظر الى ابراهيم : طيب ما اتفقش معاكي يسلمك البدلة في البيت ليه ؟

وقالت نوال : خاف يكون باباه موجود !!..

وعاد محيي يقول ، وكأن كل المنافذ قد سدت في وجهه ، ويحاول ان يفتح منفذاً جديداً : لأ .. مش علشان باباه .. علشان يفوت عليكي بالعربية ،ويقول لك اركبي جنبي لغاية ما نروح نجيب البدلة .. انتي ما تعرفيش الشبان دول ، أنا عارفهم كويس !!

وقالت نوال وهي تدق الأرض بقدميها : انت اتجننت يامحيي .. ازاي تقول لي كلام زي ده .. انت فاكرني عبيطة ، ولا اتجننت ..

ورفع ابراهيم رأسه ، وقال ووجه ينضح ألماً : اسمع يا محيي.. مافيش لازمه للكلام ده .. أنا حاخرج من البيت دلوقت حالاً .. واللي يحصل يحصل ..

واتسعت عينا نوال كأنها تصرخ بهما جزعاً ..

وقال محيي مرتبكاً وكأنه يتقهقر بلا انتظام : ازاي الكلام ده !؟

وقال ابراهيم في هدوء ، وهو يقوم واقفاً :

– لو خرجت من البيت دلوقت ، فيه احتمال تسعين في الميـــه انهم يقبضوا علي .. ولو خرجت عـــلى حسب خطتي يبقى الاحتمال خمسين في الميه .. يعني الفرق أربعين في الميه بس .. مش حاجه !!..

وقالت نوال وهي تنظر اليه كأنها تتعلق به :

– لأ .. مش حاتخرج .. مش ممكن !!

ثم التفتت الى شقيقها وصاحت في حدة صيحة خافتة : محيي ..

ونكس محيي رأسه في الأرض ، وقال وهو يضغط على نظارته : دي مش طريقه يا ابراهيم ،مش قصدي أقولك تخرج انما لازم تقدر ظروفي..ظروفنا كلنا.

وقال ابراهيم في صوت رقيق كأنه يضع قلبه بجانب قلب صديقه: أنا خارج لأني مقدر ظروفكم .. مقدرها من ساعة ما دخلت البيت !..

وقال محيي وهو لا يزال منكس الرأس :

– أنا كل اللي يهمني خوفي على نوال .. دي مش زي بنات الجامعة بتوعنا .. دى بابا قعدها في البيت من قبل ما تاخد التوجيهية .. و ..

وقال ابراهيم كأنه يعاتب صديقه : انا كان خايف على نوال ..

ورفعت اليه نوال عينيها وفيهما نظرة مترددة كأنها بدأت تخاف فعلا.. واستطرد ابراهيم قائلا : لو كان فيه اي خطر ما كنتش طلبت منها حاجة .. تأكد يا محيي .. أنا ماليش اخوات صحيح .. انما من ساعة ما دخلت بيتكم وانا باتمنى اني أكون أخوكم ..

وارتفع صوت الأم من خارج الغرفة وهي تصيح :

– نوال .. يا نوال .. يا خويا هيه راحت فين البت دي !

وتحركت نوال قائلة : أما أروح أشوف ماما عايزه ايه ..

وخطت نحو الباب ثم استدارت قبل ان تخرج وقالت لشقيقها وبين شفتيها ابتسامة ترشوه بها : ما تخافش علي يا محيي .. انت عارفني كويس !

وخرجت وأغلقت الباب وراءها .. واستقبلتها امها وهي واقفة عـلى باب المطبخ قائلة : انتي ملهيه في ايـــه .. وسيباني لوحدي في المطبخ .. انا سمعاكي راجعة من نص ساعة وأكتر ..

وقالت نوال : كنت باكلم محيي ..

وقالت امها : طيب روحي اقلعي جزمتك وشرابك وحصليني .. أحسن اختك لاويه بوزها ومش راضية تتحرك ..

وهزت نوال رأسها ، وقالت : حاضر ..

ثم دخلت الى غرفتها ، وتلفتت عيناها تبحثان عن أختهـا سامية .. كانت سامية جالسه فوق الفراش ، مستندة بظهرها الى الحائط وذراعاها تضمان ركبتيها الى صدرها .. وكانت مرتدية جلباب النوم .. جلبابـــاً أزرق من الباتستا .. وشعرها قد جمعته في « ايشارب » قـــديم .. أصفر باهت .. يبدو كمنديل الرأس .. وكان وجهها في لون « الايشارب » .. اصفر باهت ايضاً ، وكانت عيناها ذابلتين من أثر الدموع .. كل شيء فيها ذابل .. كأنها بكت كل دموعها ، ثم بكت كل دمائها .

ونظرت اليها نوال في حنان وقالت وهي تقترب منها : مالك ؟!

وردت ساميه في غضب : ماليش .. كنتي فين ؟..

وقالت نوال وهي تتظاهر بالبراءة : كنت عند فوزيه .. أصلي خفت تيجي تزورنا ، فرحت أزورها أنا !..

وقالت سامية وبين عينيها نظرة حادة كالشوكة في الوردة الذابلة :

– لا يا شيخه .. علي انا الكلام ده !!..

وقالت نوال وقد بدأت تعجز عن الاستمرار في التظاهر بالبراءة :

– أمال يعني كنت فين ؟!..

وقالت سامية وهي تتحداها :

– ما اعرفش .. هو حد بقى عارف حاجه في البيت ده ..

وقالت نوال وهي تتودد اليها : ايه بس اللي مزعلك يا سامية .. و ..

وقاطعتها سامية في حدة : مالكيش دعوة بيه .. كفاية عليكي سي ابراهيم بتاعك .. قال ايه اللي مزعلني قال .. ما فيش حاجة .. مبسوطة خالص .. مبسوطة أكتر منك .. انتي بتفكري في واحد محكوم عليه بالاعدام .. وانا واقع في قسمتي واحد « بايظ » ما كملش تعليمه .. على الأقل انا احسن منك.

ومدت نوال يدها تحاول ان تلمس كتف شقيقتها ، قائلة : ما تقوليش كده يا سامية .. ده بابا حلف انك مش ممكن يكون ده قسمتك ..

وضربت سامية اليد الممدودة اليها وصاحت : ابعدي عني .. سيبيني .. مش عايزه أشوف حد منكم خالص ..!

ثم اسقطت رأسها بين ركبتيها ، كأنها تحاول البكاء ، فلا تجد دموعاً ..

وظلت نوال ترقبها في حنان يشوبه أشفاق وأسي ، ثم اخذت تبدل ثيابها.. ثم خرجت لتلحق بأمها في المطبخ ، وتركت سامية وحدها .. تركتها تستعيد للمرة الألف صور حياتها .. وصور عبد الحميد في حياتها ..

لقد عاش عبد الحميد في حياتها كلها .. كان ابن العم الذي التصقت به طفولتها وصباها .. وكانت في الايام البعيدة تعجب به .. تعجب بذكائه ، وجرأتـه .. كانت تعجب به وهو يتحدى أوامر أبيه وأمـــه .. وتعجب به وهو يسرق قراطيس البسكوت من بائع الدندرمة ، ويعود اليها لتشاركه في أكلها وهمـــا يتضاحكان .. وتطور اعجابها مع عمرها الى عاطفة أقوى من الاعجاب .. إلى نوع خاص من الحب .. هذا النوع من الحب المنظم الذي يقوم على عملية حسابيه لا تستطيع الا ان تستسلم لنتائجها .. فقد كانت العائلة تعدها لعبد الحميد ،وتعد عبد الحميد لها .. كان معروفاً انهما يتبادلان الاعجاب .. وانهـما في المستقبل ، سيتزوجان .. وقد استسلمت لهذه النتيجة ، كأنها ولدت لها .. لم تحاول ان تناقشها .. ومنذ أن وعت هذه النتيجة .. منذ كانت في الحادية عشرة من عمرها وهي تعتبر نفسها زوجة لعبد الحميد .. تخجل منه ، وتطيع أوامره ، وتدافع عنه في غيبته ، وتلجأ اليه في مشاكلها الصغيرة .. وقد خلق فيها هـذا التكلف أحساساً اكبر من سنها .. كانت تحس انها اكبر كثيراً من اختها نوال .. واكبر كثيراً من أخيها محيي .. وقريبة جداً من عمر أمها .. وكان هذا الاحساس يدفعها إلى نوع من التعالي على بقية صديقاتها .. ويدفعها إلى الصمت لتبدو به اكثر تعقلاً واكثر اتزاناً .. ويدفعها — رغم كسلها — إلى التظاهر بالاقبال على أعمال البيت وأشغال الابرة ،لتبدو كزوجة ناجحة .. وكان عبد الحميد يكبرها بخمس سنوات وكانت ترقب بطرف عينيها تطور شبابه ، كأنها ترقب الانتهاء من خيوط «بلوفر» تصنعه بيديها لترتديه .. كانت ترقب خطوط وجهه وهي تتضح لترسم رجولته وقامته وهي تطول وتتسق .. وعندما لمحت الشعرات الأولى في شاربه الذي بدأ يطلقه ، أحست انه اقترب منها جداً حتى كادت تسمع دقات دفوف « العوالم » وهن يزففنها اليه .. ولكن عبد الحميد بدأ يغيب عنها طويلاً .. ثم بدأت تسمع كلمات متناثرة من فم أبيها يصفه بأنه « ولد بايظ » .. ثم تكررت هذه الكلمات ورددتها العائلة كلها .. وأصبح معروفاً ان عبد الحميد « ولد بايظ » .. حقيقة لا تقبل المناقشة !.. ولم تصدق هذه الحقيقة في مبدأ ظهورها .. لم تجد في عبـــد الحميد شيئاً يستحق أن يصفه بانه « بايظ» .. انه جريء .. وهو طويل اللسان وقد دخن يوماً سيجارة أمامها وهو في الرابعة عشرة من عمره .. وحاول مرتين أن يقبلها فصدته بعنف .. صدته لأن العملية الحسابية التي وعتها في ذهنها كانت لا تسمح له بتقبيلها الا بعد كتب الكتاب .. ولكن كل هذا لا يكفي لأن يكون « بايظ » انه صنف آخر من الشبان غير صنف شقيقها محيي .. وهي في قرارة

نفسها تميل الى هذا الصنف .. انه صنف يفيض بالرجولة .. والذكاء .. والجرأة على الحياة .. صنف يجعلها تقتنع اكثر بالزواج .. حتى عندما بدأت تسمع همسات عن مرافقته للراقصات .. وعن تدخينه الحشيش .. حتى في هذه الفترة كانت لا تزال تعد نفسها له.. وان كان تفكيرها فيه بدأ يشوبه كثير من الهم ، وكثير من الخوف .. الخوف من أن تفقده .. إلى أن جاءها نبأ رسوبه في امتحان التوجيهية .. هنا فقط بدأت العملية الحسابية تختل أرقامها في رأسها.. فقد كان علم الحساب يفترض في عبد الحميد أن ينجح دائماً في الامتحان ، وان يدخل الجامعة وينال شهادة الليسانس ، ثم يتزوجها.. وبدأ الشك يداخلها في مستقبلها.. وبدأت تردد بينها وبين نفسها : « بس لو كانت أخلاقه كويسه » ..!

ثم رسب عبد الحميد في الامتحان مرة ثانية.. فأصبح شكها يقينا .. واعترفت مع بقية افراد العائلة بأنه « ولد بايظ » .. وأخذت ترقبه كأنه رجل يخرج من حياتها ويسير بعيداً عنها .. ولم تفاجأ عندما رسب في الامتحان مرة ثالثة .. وعندما ترك المدرسة والتحق موظفاً صغيراً باحدى الشركات .. وعندما ترك البيت وأصبح يعيش وحيداً يحوطه الشبهات ..

لم تفاجأ ، فقد استطاعت أن تحول أحلامها ومستقبلها بعيداً عنه .. وظلت العملية الحسابية معلقة في رأسها تقيس بها كل من يتقدم اليها خاطباً ..

ولكن عبد الحميد طوال هذه الفترة .. لم ينقطع عن البيت تماماً .. كان يزورها .. وكانت تلمح في عينيه نفس النظرة التي تعودتها .. وكان يعاملها نفس المعاملة .. كأنها لا تزال شريكة مستقبله .. يأمرها .. ويسألها عن مشاكلها الصغيرة .. ويعطي لنفسه حقوقاً عليها .. فكانت تتجاهله صامتة .. ويتجاهله معها كل افراد العائلة .. تستقبله وتودعه كأبن عم لا كزوج المستقبل ..

كل هذا حدث لها دون ان يكون موضع نقاش بينها وبين أحد من العائلة.. فان أحداً لم يفاتحها في خطبتها اليه عندما كانت هذه الخطبة مقررة ، وأحداً لم يفاتحها في فسخ الخطبة عندما أصبح فسخها مقرراً .. انما كانت الخطبة شيئاً متعارفاً عليه دون ان يتخذ أي مظهر رسمي صريح ، وكذلك فسخها ..

ومنذ عامين بدأ عبد الحميد يكثر من زيارته للبيت .. وبدأ الحديث عن رغبته في الزواج بها يتضح ويعلو وتتناقله العائلة .. ثم تقدم بنفسه ليخطبها من أبيها .. فرفض .. رفض بشكل حاسم .. رفضته العائلة كلها .. حتى أبوه رفض أن يتوسط له للزواج من ابنة أخيه.. ورغم ذلك ظل عبد الحميد يتردد على البيت مستغلاً صفته كابن عم .. ونظرته اليها لا تتغير .. النظرة التي عرفتها منه في

طفولتها وصباها . والتي تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن ..

وكانت العائلة كلها تضيق بزياراته وتتهمه بالوقاحة .. أما هي فلم تكن تضيق بها .. كان الحاحه وجرأته يرضيان غرورها الخفي .. كان يرضيها أن يظل عبد الحميد متعلقاً بأحلام صباه .. أن يظل على حبها . حتى لو كان « ولد بايظ » .. وكان يرضيها أن تسمع من شقيقتها نوال قولها « اتفضلي يا ستي .. سي عبدالحميد بتاعك شرف » فتهز كتفيها وتشيح برأسها قائلة : « ياسم .. هيه تلقيحه » !

ولكنه اليوم يعود اليها وفي يده سلاح يهددها به .. يهدد العائلة كلها .. هل تعذره .. لأنه انسان يحب .. يحبها ؟ !

هل تستسلم لغرورها، وهي ترى رجلاً يرتكب جريمة بشعة ليتزوجها ؟!.. أم تحقد عليه .. وتكرهه ؟! ان ما يشقيها هو حيرتها .. حيرتها بين غرورها ، والعملية الحسابية التي تعيش في رأسها .. انهـا ليست خائفة من عبد الحميد .. ليست خائفة من ان تضطر للزواج به .. ولكنها حائرة فيه .. بل حائرة في نفسها .. وهي تبكي حيرتها .. بكت كثيراً .. ثم وجدت بقية من دموع ، فعادت تبكي من جديد .. وانطلق مدفع الافطار .. وانتفض قلبها كأن الطلقة أصابته ..

وفتح الباب وأطلت أمها وقالت وهي ممسكة بيدها طبق طعام، في طريقها لتضعة على المائدة : يا للا يا سامية .. يا للا يا حبيبتي .. المدفع ضرب ! ..

٨

كان افطاراً صامتاً حزيناً .. كان كل فرد منهم يشيع اللقمة الى جوفه كما يشيع فقيداً عزيزاً .. لم يتكلم الأب ولا الام ولا محيي ولا سامية ولا نوال .. ولا ابراهيم .. حتى الكلمات القصيرة التي تعودوا تبادلها سكتوا عنها.. وتحاشوا جميعاً النظر الى ابراهيم .. فانهم يخشون لو نظروا اليه ان يقتلوه بعيونهم .. ما عدا نوال .. اختلست نظرة او نظرتين ثم كفت ، حتى لا تفضحها عيناها ..

وكان افطاراً سريعاً .. كأنهم يهربون بعضهم من بعض .. كأن كلا منهم يريد ان ينتهي من تشييع الجنازة ليخلو لنفسه .. وقامت سامية قبل ان تمـــد يدها الى طبق الكنافة ، وصاحت وراءها أمها : مش تستني لما تحلى ..

وقالت سامية في حدة قاسية كأنها تشتمهم جميعاً : ما ليش نفس! ثم سارت الى غرفتها في خطوات سريعة حتى لتكاد تنكفىء على وجهها .. وتلفتت نوال بعينيها كأنها تستأذن المجتمعين ، وقامت لتلحق بأختها .. لتواسيها .

ثم قام الأب ومحيي في وقت واحد ، وهب ابراهيم واقفاً كأنه يعتذر عن تأخره .. وتركوا الام وحدها على المائدة .. لا تزال تأكل ولكنها لا تنظر الى الطبق الذي تأكل فيه .. وربما اكلت اكثر مما تعودت ان تأكل ، ولكنها لم تحس انها اكلت شيئاً .. كانت ساهمة وعقلها يدور ، ويطحن وساوسها وخيالها .. كأنها كانت تأكل هذه الوساوس والخيالات ..

ودخل الأب الى غرفة « القعاد » ..

ووقف محيي متردداً .. ووقف ابراهيم بجانبه ينتظر من صديقه ان يدعوه إلى الدخول ليلحقا بالأب ، ولما وجده متردداً .. تعداه وخطا نحو غرفته — غرفة محيي — في خطوات حزينة ..

ولحق به محيي ، وقال وهو يغلق الباب وراءه : اظن ناخد الشاي هنا احسن!

وقال ابراهيم في استسلام خافت : زي ما تحب !..

وجلس محيي الى مكتبه وفتح كتاباً ، ثم قال بعد فتره وهو ينظر الى السطور ولا يراها : انا شايف ان ما فيش مانع ان نوال تروح تجيب البدله بكره .. بس .. انما .. وتوقف محيي عن الكلام كأنه قرر ان يخفي في نفسه شيئاً ..

وقال ابراهيم : بس ايه ؟..

وقال محيي وهو لا ينظر اليه : ولا حاجة ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم : انا عايزك تطمئن يا محيي .. تأكد انه مش حيحصل لها حاجة !..

وتمتم محيي : ربنا يستر !.. قالها وسكت .. وبدا مقطب الجبين مكفهر الوجه متهدج الانفاس كأنه يلهث من الصمت .. كان يجري في صمته وراء مخاوفه .. وراء حيرته بين لهفته على اخته من ان يصيبها مكروه ورغبته في ان يساعد ابراهيم في هربه حتى يخرج من البيت ، فيرتاح ويريح البيت منه .. وقد قضى طول فترة ما قبل الافطار وهو يحاول ان يستقر على رأي .. وحاول ابراهيم عبثاً ان يساعده في تكوين رأيه .. ولكنه ظل حائراً .. وهو لا يزال حائراً حتى بعد ان قرر ان تذهب اخته لتتسلم البدلة من فتحي المليجي .

وانقضت فترة طويلة من الصمت .. محيي يتظاهر بالقراءة ، وابراهيم يتظاهر بالتفكير .. وهو الآخر لا يستطيع ان يحصر تفكيره في شيء .. يفكر في

نوال ، فيطغي عليه تفكيره في نفسه وفي خطة هربه ، ثم يطغي عليه تفكيره في عبد الحميد . ثم يعود يحاول ان يحصر تفكيره في نوال ، كأنه يحاول النجاة من نفسه ومن عبد الحميد ومن الدنيا كلها .. يحاول ان ينسى كل شيء ولا تبقى في رأسه الا فكرة واحدة . نوال .. مجرد فكرة !!

وسمعا رنين جرس الباب الخارجي .. وقال محيي وهو يرفع رأسه عن الكتاب ويلوي شفتيه في تقزز : ده لازم سي عبد الحميد شرف !

وسكت ابراهيم برهة وهو يستجمع اعصابه ليواجة بها المعركة القادمة ، ثم قال وهو يخفي عينيه حتى لا يرى محيي فيهما اضطرابه : انا عايزك تفهم عبد الحميد اني حاقعد هنا على الاقل اسبوعين كمان ..

وقال محيي وقد ارتفع حاجباه فوق حافة نظارته دهشة : ليه ؟..

وقال ابراهيم : علشان يطمئن انه حيفضل عارف انا فين .. وما يحاولش يراقبني .. ويراقب البيت ، ويبلغ عني اول ما اخرج من هنا واروح حتة تانية !..

وقال محيي وقد اعاد حاجبيه الى مكانهما : معقول ..

وعاد يقرأ في كتابه فقال له ابراهيم : مش حانقوم تقابله ؟..

ورفع محيي رأسه وفكر قليلاً ، ثم قال : بلاش . احسن نستني لما بابا ينده لنا .

كان رنين جرس الباب قد سقط على اعصاب كل من في البيت ، واحالها الى اسلاك تسري فيها الكهرباء .. وتحرك الأب في جلسته على الأريكة «الاستانبوللي» حركة فيها ألم ، كأنه اصيب بمغص مفاجيء ، وتقلصت اصابعه فوق جريدة الأهرام حتى كادت تمزقها ، ثم قرب الجريدة من وجهه كأنه يهرب فيها من رؤية وجه عبد الحميد .. وانتبهت الام على صوت الجرس في لفتة مفاجئة ، كأنها لم تكن تصدق ان الأجل يمكن ان يحل هكذا سريعاً .. ثم اسقطت رأسها فوق كفها ، ومصمصت شفتيها في حسرة .. ثم كأنها تذكرت شيئاً ، فرفعت رأسها وقالت لزوجها في لهجة تعبر عن التصميم : انا مش حتكلم مش حتكلم ولا كلمه الكلام كله عليك انت .. متهيأ لي لو فتحت بقي مش حاخليله .. حاجيب له القديم والجديد واحطه فوق دماغه واللي يحصل بعد كده يحصل ..

وقال الأب وهو يزفر كلماته : طيب اسكتي .. ربنا يستر ..

وكانت سامية جالسة في غرفتها ساهمة لا تلتفت الى محاولات اختها وهي تسري عنها ، فانتفضت عندما سمعت جرس الباب ، وجحظت عيناها والتفت الى اختها وامسكت بيدها وضغطت عليها في قسوة ، وقالت وصوتها يرتعش وصوتها يرتعش معها : انا مش حا قابله .. قولي لبابا اني مش

حا قابله . . مش مكن . . موتوني احسن !

وقالت نوال وهي تحـاول ان تحتفظ بهدوئها : يا شيخة خليكي عاقله . . ايه كمان حتة الواد اللي عامله له قيمة . . ده بكره ياما نضحك عليه . . حا نعمل فيه فصولات تطلع من نافوخه . . انا حاروح افتح ، وانتي ساوي شعرك . . والا اقول لك خليكي كده ، علشان اما يشوفك يغير رأيه ، رلا يتجوزش !!

وجذبت يدها من يد اختها وهي تضحك ضحكة مفتعلة، ثم خرجت، وما كادت تخرج حتى ضاعت ضحكتها من فوق شفتيها . . وحملت الشفتان ألماً مراً فاض به قلبها . . وفتحت الباب ، واستقبلت عبد الحميد دون ان تنظر اليـه ، وادارت له ظهرها واتجهت نحو الداخل ، وتركته يدخل وراءها . .

وقال عبد الحميد بعد ان اغلق الباب : انتم مش قافلين الباب بالمفتاح ليه ؟!

ولم ترد عليه نوال . . واستطرد قائلاً وكان يجري وراءها: هو عمي فين ؟ . .

وقالت دون ان تلتفت اليه : في أودة «القعاد». وتركته ودخلت غرفتها .

ووقف عبد الحميد على باب حجرة « القعاد » كأنه يستأذن في الدخول . . ورفع الاب اليه وجها صامتاً . . وعينين صامتتين . . ثم أخذ يطوي الجريدة في بطء . . ثم قال وهو يقوم نصف قومه : — اتفضل يا ابني . اتفضل . .

ودخل عبد الحميد وانحنى يقبل يد عمه . . ثم مد يده الى زوجة عمه ، فمدت له يدها وهي تدير رأسها الناحية الاخرى، ثم سحبت يدها قبل أن يقبلها كأنها تخاف من لسع شفتيه . .

وجلس صامتا يدعي الادب ، وهو يحاول أن يخفي ابتسامته التي تزغرد في صدره ، ويحاول ان يهديء من نظرات عينيه حتى لا تكشف عن ذكائه الحاد الذي يبرق فيهما . . ويحاول أن يضع رأسه في وضع يدل على الحياء والتواضع ، فينكسه . . ثم لا يستريح الى هذا الوضع، فيميل بعنقه ناحية اليمين . . ثم يتصور انه من الافضل أن يميل به ناحية اليسار . . ثم تضايقه هذه المحاولات فيرفع رأسه ويواجه به عمه ثم يعود وينكسه من جديد . .

وتنحنح الأب ثم قاب وهو يلم ساقيه تحته ، ويفرد الجريدة من جديـــد : ازي والدك ؟ . .

وقال عبد الحميد في أدب : كويس . . الحمد لله . .

وفتح الأب صفحة من الجريدة وهو يقول : قلت له حاجة ؟ . .

وقال عبد الحميد وهو يتايل برأسه تعاجباً بذكائه : قصد حضرتك يعني . .

وقاطعه الأب في حدة وهو ينظر اليه في تحد :

– أيوه .. قصدي قلت له حاجة عن وجود ابراهيم عندنا ؟ !

وتراجع عبد الحميد ، وعاد الى حالة الأدب التي يدعيها وقال وكأنه يصد عن نفسه تهمة الذكاء : طبعاً لأ .. ما دام حضرتك ما قلتش له !

وقال الأب وهو يعود الى الجريدة : عملت طيب ..

وتمتمت الأم دون ان يسمعها أحد : وده يعمل طيب أبداً ؟.. ثم مصمصت شفتيها ، وعادت تسند رأسها على كفها كأنها تخشى عليه ان يسقط من فوق عنقها

وقال عبد الحميد بعد فترة صمت : أمال فين محيي ؟..

وقال الأب وهو لا ينظر اليه : في أودته ..

ثم استطرد كأنه يريد أن يقنع عبد الحميد بأنه لم يعد يخافه ، ولم يعد يخفي شيئاً : ومعاه ابراهيم ..

وسكت عبد الحميد ، ونظر الى الاب من تحت جفنيه ، كأنه يتسلل بهما الى موضع يطعنه منه ، ثم قال وهو يهم بالقيام ، وكأنه هو الآخر يريد أن يقنع الأب بأنه مصر على ان يتدخل في شئونه : أما أقوم أقعد معاهم !..

وقال الأب وهو يسقط الجريدة عن وجهه : لأ .. خليك هنا ..

ثم استطرد ملتفتاً الى زوجته : اندهي لمحيي يا تحية وخلي الاستاذ ابراهيم يتفضل معاه ! وأسرع عبد الحميد قائلاً كأنه يستمهل زوجة عمه :

– بس فيه حاجة يا عمي أحب أقولها قبل ما ييجي محيي ..

وقال الأب في قرف : قول ..

واستطرد عبد الحميد : قصدي الموضوع اللي كلمت فيـــه حضرتك النارده الصبح .. موضوع سامية .. انا عارف ان الظرف مش مناسب .. انما كل اللي عايزه كلمة من حضرتك ..

وأكفهر وجه الأب وقال كأنه يصفعه بلسانه :

– وتفتكر ان الظرف مناسب علشان تطلب كلمـــة من حضرتي .. أنا ما عرفتش اكلمك النهار ده الصبح في المكتب .. انما ..

وسكت الاب فجأة .. فقد تذكر الخطة التي رسمها لنفسه .. تذكر انه قرر ان يتظاهر بالموافقة على ما يطلبه عبد الحميد ، حتى يتجنب شره ..

وقال عبد الحميد في صوت هادىء كأنه أعد درساً حفظه جيداً :

– يا عمي انت عارف اني عايز ساميـة من زمان .. من يوم ما وعيت .. وسبق طلبتها السنة اللي فاتت .. وجيت امبارح علشان أقول لحضرتك اني اشتغلت شغلة كمان بعد الضهر .. اشتغلت مندوب شركة تأمين .. باطلع منها

بخمستاشر جنيه في الشهر ، أقله .. فوق ماهيتي يبقوا سبعة وعشرين جنيه ولسه .. انما ما قدرتش أكلم حضرتك امبارح .. ماجتش فرصة .. رحت لك النهاردة في المكتب .. الظروف اللي جدت مالهاش دعوة بالموضوع .. وانا مش عايز اكتر من كلمة .. يا آه ، يا لأ .. حضرتك واخد عني فكرة وحشه خالص .. انا صحيح غلطت وأنا صغير ، انما دلوقت خلاص .. عقلت .. لو سألت مدير الشركة بتاعنا يقول لك اني أحسن موظف عنده ..

وكان الاب يستمع اليه ، كأنه يستمع الى قرار اتهام ، لا الى مرافعة دفاع.. واستجمع كل ارادته ليحتفظ بهدوئه ، ويريح وجهه من الألم ، ثم قال :

– على كل حال انت ابن أخويا ، وسامية بنت عمك .. ما خافش عليها معاك .. وربنا يسهل لك ، ويسهل لها ..

وتهلل وجه عبد الحميد ، وقال كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه لذة انتصاره : هيه فين ؟..

ونظرت الأم اليه كأنها تخنقه بعينيها ثم تمتمت : مصايب !..

ولم يسمعها عبد الحميد ، وعاد يقول للأب : – حضرتك قلت لها حاجة ؟..

ورفع الاب عينيه ، وقال في تقزز لا يستطيع أن يخفيه :

– أيوه .. قلت لها !..

وقال عبد الحميد في لهفة : وقالت ايه ؟!..

وسكت الأب قليلاً كأنه لا يستطيع أن يكذب على لسان ابنته ، ثم قال : والله البنات في الحالة دي ما بيقولوش حاجة بيسكتوا !

وعاد عبدالحميد يسأل: إنما ..وقاطعه الأب صارخاً وكأنه لم يعد يطيق :

– أنت بتحقق معايا ولا ايه يا ولد .. اختشي .. عيب ..

وقال عبدالحميد وهو يتراجع ، وفوق شفتيه ابتسامة باهتة آسفة ، كأنه يلوم بها ذكاءه : – أنا آسف .. الحقيقة فرحتي هيه اللي جرأتني ..

وقال الأب في لهجة حازمة ، وقد بدأ يستعيد هدوءه :

– المسألة دي مش عايزك تجيب سيرتها لغاية ما الاستاذ ابراهيم يسيب البيت وهوه بالذات مش عايزه يعرف بيها ، فاهم !..

وقال عبدالحميد ، والابتسامة لم تنسحب بعد من فوق شفتيه الغليظتين : حاضر .. لك حق يا عمي ..

والتفت الأب إلى زوجته وقال كأنه يستنجد بأحد ليساعده على عبدالحميد: قومي اندهي لحيي يا تحيه ..

وقامت الأم ، كأنها تشد معها أطناناً من الحديد ، وقالت :

– وأقوم بالمرة أنام .. مش عارفه الليلة مالي !..

وخرجت الأم ، وهي تسير في خطوات ثقيلة متعبة .. ونظر الأب إلى عبدالحميد ، ثم عاد إلى جريدته ، وهو يقارن بينه وبين ابراهيم .. لا يدري لماذا .. ولكنه تمنى ساعتها لو أن ابن أخيه هو ابراهيم .. حتى لو سجن ، وشنق .. أخف عليه أن يعطي ابنته لرجل مشنوق من أن يعطيها لعبدالحميد ..

وتنحنح عبدالحميد ، ثم قال وهو يتعمد ألا يضفي على سؤاله لهجة الاهتمام : والاستاذ ابراهيم حا يقعد هنا كتير يا ترى ؟

ووضع الأب عينيه عن سطور الجريدة كأنه يستعين بالله ، وقال وهو يغلق أبواب الحديث : ماعرفش .. ربنا يسهل له !..

ودخل محيي ، وخلفه ابراهيم .. وقام عبدالحميد واقفاً .. ولم يتحرك الأب إنما اهتزت الجريدة في يده هزة خفيفة ، ثم عادت ثابتة أمام وجهه ..

ومد محيي يداً طرية باردة إلى عبدالحميد ، كأن دماءه وأعصابه ترفض أن تشاركه في التحية ، وقال في قرف : – أزيك يا عبد الحميد ..

ولم يرد عبدالحميد ، وسحب يده من اليد الطرية وتوجه بها الى ابراهيم ، وقال وهو يصافحه في حرارة تبدو ولا تدفىء ، وبين شفتيه ابتسامة واسعة تفتح فمه ، كأنه يستقبل به طبيب أسنان : أهلا .. أهلا .. ده شرف كبير ..

وقال محيي وهو ينظر ساخراً : الاستاذ ابراهيم حمدي .. طبعاً تعرفه !..

وقال عبدالحميد وهو لا يزال متطلعاً إلى ابراهيم : مين ما يعرفوش ، البطل اللي أنقذ البلد من الخونة .. أهلا وسهلا ..

وقال ابراهيم في برود : تشرفنا ..

وكان ابراهيم ينظر اليه بكل عينيه الواسعتين كأنه يغوص بهما في أعماقه .. وظل ينظر اليه .. لا يخفض عينيه عنه . حتى اضطر عبدالحميد ان يحول نظره عنه ، ويتلفت حوله باحثاً عن مقعده .. وقال عبدالحميد بعد ان جلس :

– أنا أرجوك أنك تعتبرني زي محيي تمام .. وتعتبرني في خدمتك دايما .. أي حاجة تفتكر اني أقدر أعملها قول لي عليها ..

وقال ابراهيم في اختصار : متشكر ..

ومضت فترة صمت ، عاد عبدالحميد بعدها يقول : انما تعرف ان ما حدش كان ممكن يظن أنك هنا .. أنا نفسي ماكنش ممكن أصدق !

وتململ الاب ، ثم قال في حدة وهو يدير رأسه إلى عبدالحميد :

– إيه الكلام البايخ اللي بتقوله ده ما تشوف لك سيرة تانية !

وسكت عبدالحميد ، بعد ان نظر إلى ابراهيم كأنه يشهده على عقلية عمه . . وقال ابراهيم بعد فترة ، وهو يحاول ان يدرس شخصية عبدالحميد أكثر : والأخبار ايه في البلد ؟!

وقال عبدالحميد في حماسة وقد أشرق وجهه ، كأنه كسب اطمئنان ابراهيم : البلد حالتها زفت ، دول حيودوا البلد في داهيه حايبيعوها بيع للانجليز . . الواحد مش عارف يعمل إيه . . نفسي أتلم على شوية شبان ، ونعمل حاجة ننقذ بها البلد .

وابتسم ابراهيم كأنه عرف حقيقة عبدالحميد . . وقال محيي ساخراً :

– يا سلام . . من أمتى بأه يا سي عبدالحميد الوطنية دي كلها ؟!

وقال عبدالحميد كأنه غضب : أنت ما تعرفنيش يا محيي ، ما تعرفش أنا عملت ايه ولا باعمل ايه . : أرجوك تسكت !

وهز محيي كتفيه تمادياً في السخرية وسكت . . وسكت كل من بالغرفة . .

وبدأ عبدالحميد يحس أن الثلاثة ينظرون اليه كأنهم يضربونه بعيونهم . . وأنهم يحاصرونه بأنفاسهم كأنهم يبصقونها في وجهه . . وأحس أنه أخطأ في تقديم نفسه إلى ابراهيم . . كان يجب أن يبدو أمامه أكثر رزانة ، وأكثر تعقلاً وان يبدو كأنه مقدر لخطورة الظروف التي تحيط بالعائلة . . وأخـــذ يحادث نفسه : « ويجب ان أغير الاتجاه . . سأبدو صامتاً . . مقطباً . ولن أسأل عن شيء . . سأتركهم يقولون لي كل شيء بلا سؤال . . يجب ان استعمل ذكائي . . كل ذكائي » . . وكانت قسمات وجهه وهو يحادث نفسه تتغير حسب ما يقرره فاختفت ابتسامته ، وهدأت عيناه ، وبدا رزيناً وقوراً ، مفكراً ، كأنه يفكر في موضوع خطير . . وفي نفس الوقت كان ابراهيم يحس بأن العائلة تخطىء في معاملة عبدالحميد هذه المعاملة الجافة . . يجب ان يشعروه بثقتهم فيه . . يجب أن يدعوه يطمئن اليهم وان يتجاهلوا نياته السيئة حتى لو بدت صريحة . . وأخذ يفكر في كلمة يقولها تقربه من عبدالحميد . .

وقبل ان يقول شيئاً ، وقف عبد الحميد وسار متجهاً إلى خارج الغرفة ، ولحقه صوت الأب : رايح فين ؟..

والتفت اليه عبدالحميد دهشاً ، كأنه يعاتبه على سوء ظنه ، وقال في أدب وقور : رايح أشرب يا عمي . .

وخرج عبدالحميد . . ومال ابراهيم برأسه إلى محيي وهمس في أذنه :

– حسن معاملتك له شويه !؟

ورفع الأب رأسه على صوت الهمس ، ثم عاد ووضعه ثانية في الجريدة ..

لم يكن عبدالحميد يريد ان يشرب .. كان يريد ان يبتعد عن الغرفة ريثما يبدل شخصيته وأسلوبه ، ويعود اليها في شخصية جديدة وأسلوب جديد .. وكان يريد ان يبحث عن سامية ليطمئن على أحلامـــه .. وليتزود من عينيها بالدعة والبراءة والهدوء .. كل ما لا يجده في نفسه يجده في عينيها ..

وسار نحو المطبخ ، وهو يدق الأرض بقدميه ، كأنـــه يوقظ النائمين .. وخرجت نوال من غرفتهـا على وقع قدميه ، ونظرت إليه كأنهـا تقيس طوله وعرضه ، ووقف قبالتها وهو يهمس ،بينما يطل بعينيه داخل الغرفة : فين سامية؟

وقالت نوال ،وهي تبتعد عنه كأنها تزيح نفسها من أمام عينيه : أهي قدامك!

ثم سارت إلى داخل المطبخ ، وهي تتعمد ان تترك سامية تواجهه وحدها .. وخطا عبدالحميد خطوة ووقف يسد باب الغرفة ، وقـــال في صوت خافت : أزيك يا بنت عمي ؟!

وكانت سامية واقفة في وسط الغرفة مرتكزة على حافة السرير ، ورأسها مدلى فوق صدرها كأنها تبحث في قلبها عن مزيد من الدموع .. ورفعت عينيها اليه بغتة وقد فوجئت به .. وهمت ان تغضب وتثور ، ولكنها التقت بنظرته اليها .. النظرة التي تعودتها منه في طفولتها وصباها ، والتي تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن ..

وضعف غضبها ، وخفت ثورتها .. وأشاحت عنه بوجهها كأنها تفر منه .. تفر من طفولتها وصباها .. وتفر من غرورها وهي تواجه الرجل الذي يلهث وراءها .. وعاد عبدالحميد يقول في صوته الخافت كأنه يخفى أحلامه في طياته : أنت مش قاعده معانا ليه ؟!..

ولم ترد عليه .. إنما ارتفعت الدماء إلى وجنتيها كأنها عادت اليها لتحميها .. من نفسها ! وخطا عبدالحميد خطوة داخل الغرفة وهو يقول :

– ما بترديش ليه .. مالك مبوزة كده ؟!

والتفتت اليه سامية ، وقالت وهي تحاول محاولة يائسة ان تحتفظ بهدوئها : من فضلك سيبني .. دلوقت !؟

وقال ، وهو يخطو خطوة أخرى نحوها : ايه بس اللي مزعلك ؟!..

وصرخت في وجهه كأنها لم تعد تحتمل : أبعد عني .. أوعى تقرب لي .. أنا باقولك أهو .. أحسن والله .. والله .. أنده لبابا !

وقال في جد كأنه يستعمل حقه عليها .. الذي تعوده في طفولته وصباه :

سامية .. جرى لك ايه .. هو عمي قالك ايه؟..

وقالت وهي تنكس رأسها من جديد كأنها على وشك البكاء :

– يا ريته ما قال لي حاجة !

وقال كأنه يربت بصوته على قلبها : مش ده اللي كنا عاوزينه طول عمرنا ؟

قالت و كأنها أُهينت : أنا ما كنتش عايزاك . مين قالك اني كنت عايزاك .. أعوز واحد ما كملش تعليمه وأخلاقه زفت وقطران !

قال وهو يبتسم و كأنه يهزأ من عقليتها :

– واللي كملوا تعليمهم عملوا ايه يعني . عمي ما هو كمل تعليمه ، وبعد تلاتين سنة لسه موظف درجة خامسة !

وقالت تقاطعه في حدة : ضفر بابا برقبتك ..

واستطرد كأنه لا يأبه بكلامها :

– ومحيي عاش طول عمره يمسح عينيه في الكتب ، وبكره يتوظف باتناشر ولا خمستاشر جنيه .. ما تبقيش عبيطة .. التعليم مش مهم ، المهم الشطارة .. والمهم انا وأنت .. احنا طول عمرنا مكتوبين لبعض .. طول عمري حاسس انك ليه وأنت حاسه أني لك .. فاكره لما كنت باجيب لك البسكويت ونقعد ناكله سوا .. النهار ده حاجيب لك كل حاجة .. حاجيب لك بيت بحاله .. وكل لقمة حنا كلها سوا ..

وقاطعة سامية وهي تهز رأسها في عنف تحاول ان تسكته ، فيتأرجح شعرها خلف رأسها كأنه يقول « لا .. لا » قاطعته قائلة وهي تدق الأرض بقدمها :

– البسكويت اللي كنت بتجيبولي كنت بتسرقه من بتاع الدندرمة .. حتسرق لي البيت منين يا ترى ؟

وأرخى عبدالحميد عينيه كأنه يكبت جرحاً إنشق في قلبه ، وقال : ما تطوليش لسانك يا بنت عمي ، أنا مطول بالي عليكي ، لأني عارف ان الكلام ده ما بتقوليهش بلسانك .. بتقوليه بلسان عمي .. لسان العيلة كلها .. العيلة اللي ظلمتني وظلمتك معانا ..

وقالت سامية وهي لا تزال تتحداه :

– وكان مين ظلمك لما سبت المدرسة قبل ما تاخد الشهادة ؟!

وقال عبدالحميد وهو لا يزال صابراً : رجعنا للشهادة .. يا ستي مستعد أبتدي أذاكر من جديد وآخد لك ميت شهاده !

وسكتت سامية ، وأشاحت عنه بوجهها ..

واستطرد وهو يقترب منها أكثر :

– بس على شرط تذاكري معايا ، وتسمعيلي درس بدرس !

ومد يده يحاول ان يمسك بيدها ، فابتعدت عنه قائلة في حدة : أوعى تلمسني .. أبعد عني .. مش عايزه أشوفك ، مش عايزه يا أخي. هوه بالعافية !

وسكت عبدالحميد ، وأرخى عينيه فترة ، ثم عاد ورفعهما ، وقال كأنه يتنهد : سامية ..

قالت وهي لا تزال محتدة : عايز ايه عاوز مني ايه خلصني ..

قالد وهو يبتسم في يأس : ولا حاجة .. عايزك تضحكي .. تبتسمي على الأقل !

وفتحت سامية شفتيها عن اسنانها في حركة مفتعلة، وقالت : أهو .. أديني ابتسمت .. اتفضل بأه ! ..

وقال عبد الحميد وهو يهم بالتحرك ولا تزال النظرة في عينيه لا تتغير .. النظرة التي تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن :

– انا حتفضل دلوقت .. وبكره حاتشوفيني تاني !

وقالت سامية في صوت ضعيف كأنها تأسف لذهابه :

– مش عايزه أشوفك لا بكره ولا بعده ..

قال وبين شفتيه ابتسامة الواثق : حاتشوفيني بكره وبعده وكل يوم من عمرك

واستدار لها وخرج من الغرفة ، وعيناها تلهثان وراءه ..

وذهب الى غرفة « القعاد »، وتمهل قليلاً على بابها وهو يدير عينيه في الجالسين ثم كأنه اكتشف انه تعب من النظر الى وجوههم وتعب من الجو المضطرب الذي يحيط بهم ، فتقدم وهو يقول : تسمح لي يا عمي ..

ومد يده ليلتقط يد الأب، فأعطاها له دون تردد ، قائلاً : سلم على والدك ..

وانحنى يقبل يد عمه ، ثم مد يده الى ابراهيم وقال في وقار : شد حيلك !

ورد ابراهيم وهو يبتسم له ابتسامة حاول ان تكون كبيرة : الشدة على الله.

وقال محيي كأنه يتودد الى عبد الحميد : ما تخليك شوية .. لسه بدري !

وقال عبد الحميد وهو لا يزال محتفظاً بوقاره :

– اصل ورايا ميعاد .. تصبحوا على خير ..

وخرج وراءه محيي زيادة في التودد اليه ، وقال له عبد الحميد وهما عند الباب : اعتمد علي يا محيي .. انا دلوقت بقيت مسئول معاك .. لازم تقوللي كل حاجة أول بأول .. علشان اكون جنبك .

وقال محيي وهو يفتح له الباب : طبعاً .. ما انت حاتكون معانا كل يوم ..

وضغط عند الحميد على الباب حتى لا يفتحه محيي ، ثم همس قـــائلاً : هوه حايقعد هنا اد ايه . . ما تعرفش ؟!

وقال محيي في لهجة طبيعية : اقله اسبوعين . . هوه عامل حسابه على كده!

وهز عبد الحميد رأسه ، ثم خرج وهو يقول : ما تنساش تقفل الباب بالمفتاح!

ونزل السلم وهو لا يزال متقمصاً الشخصية الوقور التي قرر ان يبدو بها امام العائلة . . ثم ما كاد يصل الى الشارع حتى عاد الى طبيعته . . والتمعت عينـــاه بالذكاء النشط . . وارتفعت الى شفتيه ابتسامته الساخرة التي تتسلل من تحـت شاربه الرفيع كأنها تتسلل من الظلام . . واسرعت خطواته كأنه يريد ان يصل الى نهاية الحياة قبل غيره . وسار الى محطة الاوتوبيس وهو يفكر في سامية . . انها تريده ان يأخذ شهادة . الغبية . . مـاذا تجديه او تجديها الشهادات ؟ لقد عاش طول حياته معتمداً على ذكائه . . واخذ كل ما يريد من الحياة بالذكاء . . الذكاء وحده . ولو عـاد الى صباه والى مدرسته مرة ثانية لما فكر في ان ينـال شهادة . . ولما اراد ان يكون مثل اخيهـا محيي . . ان هؤلاء الناس من امثال محيي لا يعيشون الحياة ، ولكنهم يوجدون فيها فقط . . انهم لا يساوون اكثر من قصاصة الورق التي يحملونها ويسمونها شهادة . . اما هو . . فانه يساوي الحياة كلها . . كل ملذاتها ، وكل جمالهـــا ، وكل نشاطها . . وهو يساوي سامية ايضاً . . وسيأخذها بدون شهادة . . سيأخذها بذكائه . .

انه يحبها . وحبها يختلط بكبريائه ، وباعتداده بنفسه . . فهي الشيء الوحيد الذي خسره بسبب ذكائه ، ولكنه سيستردها بالذكاء ايضاً . . سيستردها وينتصر بها على عائلته كلها التي لا تؤمن بطريقته في الحياة . . سيستردها ويأخذ معها خمسة آلاف جنيه . . انهناك خمسة آلاف جنيه بين يدي عمه . . ولكنه يترفع عنها ! لماذا يترفع عنها؟ الوطنية ! ! ولكن ما دخل الوطنية هنا . ان ابراهيم حمدي سيقبض عليه حتماً ان لم يكن اليوم فغدا . . ولن تنقذه وطنية عمه . . فالموضوع ليس موضوع وطنية ولكنه موضوع خمسة آلاف جنيه . . من يأخذها . . اذا لم يأخذ هو ، فسيأخذها غيره . . وهو اولى بها . . انه يستطيع ان يبدأ بها مشروعاً تجارياً ضخماً . . وان يصبح من كبار الاثرياء وان يبني لسامية فيلا . . ويشترى لها سيارة . . وخدم وحشم . . ومصاغ ومجوهرات . . ولن يكلفه كل ذلك اكثر من مكالمة تليفونية لضابط البوليس السياسي . . او للنائب العام . . وبعدها يقبض المكافأة السخية . . الخمسة آلاف جنيه . . بعد اسبوعين فقط . . عندما يخرج ابراهيم حمدي من بيت عمه ، سيرفع سماعة التليفون ويطالب بالخمسة آلاف جنيه . . ولو كان عمه اكثر

ذكاء .. لو رأي الدنيا على حقيقتها ، لما أحوجه الى الانتظار هذين الأسبوعين ولاشترك ممه في تسليم ابراهيم حمدي للبوليس ثم اقتسم معـــه المبلغ .. ولكنه غبي .. هذا العم .. وما اكثر الاغبياء في هذا البلد ..

ونزل من الاوتوبيس ، وسار متجهـــاً الى شارع سيمان باشا ، وهو لا يزال سادراً في افكاره .. ثم جلس الى مائدة في المقهى الذي تعود التردد عليه وصفق منادياً الجرسون ، وطلب منه ان يأتي اليه بدفتر التليفون .. ثم اخذ الدفتر بين يديه في لهفة وبدأ يقلب صفحاته في اهتمام .. ووقف عند اسم « الاميرالاي محمد بك همام – رئيس البوليس السياسي » .. ثم اخرج من جيبـه مفكرة صغيرة وسجل فيها نمرة تليفون الاميرالاي محمد همام . ثم عاد يقلب الصفحات ، ووقف عند اسم « النائب العام » وسجل في مفكرته رقم تليفونـــه .. وطوى دفتر التليفون .. وجاء احد اصدقائه وخبط على كتفه قائلاً : الليلة فين باذن الله ؟!.

وقام ضاحكاً في قهقهة عالية كأنه يعلن بها انتصار ذكائه : الليلة للصبح ، واللي خلقك !! وقام يحتفل بالذكاء ..

٩

يوم آخر !!.. انه اليوم الثالث منذ طرق ابراهيم باب البيت .. اليوم الثالث فقط .. ورغم ذلك فكل من في البيت يحس انه عاش عمره كله وسط المشكلة .. يأكل المشكلة ، ويشرب المشكلة ، وينـــام ويصحو في المشكلة .. ويتنفس المشكلة .. كأنهم لم يعيشوا ابـــداً الا وبينهم بطل هارب تطارده الحكومة ، وتضع للقبض عليه مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه ، وتهـــدد كل من يؤويه بالسجن ثلاث سنوات .

وجاء الصباح الجديد ، وكل فرد في العائلة يعرف دوره ، ويعرف احساسه وعواطفه ، ويعرف ما يدور برأسه .. لا شيء جديد .. وليسوا في انتظار شيء جديد . لا شيء يزيد من همهم ، فقد تشبعوا بالهم حتى لم يعد فيهم منفذ لهم جديد .. ولا شيء يريح .. فلن يريحهم الا ان يخرج البطل من البيت ..

وكل منهم يتحرك في بطء كأنه يخشى ان أسرع في حركته ان يوقظ البوليس وكل منهم قد أرخى جفونه فوق عينيه كأنه يتجاهل ما حوله وما في نفسه ..

وكل منهم قد تهدل كل ما فيه كأنه استسلم للقدر . . وكانت نوال أول من استيقظ.

ربما لم ينم أحد في البيت ، وربما لم تنم هي ايضاً . . ولكنها كانت أول من فتحت عينيها ، وأبقتهما مفتوحتين وكفت عن محاولة النوم . .

وكانت الساعة الخامسة صباحاً عندما فتحت عينيها . . وأخذت تستعرض العمل الذي تقرر ان تقوم به . . ستذهب لاستلام بدلة الضابط من فتحي المليجي ستقابله في ميدان الكوبري . . بجانب دكان بائـــع السجائر . . و . . وأخذت تستعرض كل التفاصيل . . تفاصيل كثيرة يصورها لها خيالها . . وكانت تكاد ترى بعينيها ميدان الكوبري . . كل شبر فيـه . . وترى عربات الترام والناس الجالسين في العربات . . وعسكري البوليس الذي يروح ويغدو هناك . . وطفلاً يجمع أعقاب السجائر . . وعربـــة كارو محملة بالخضار . . وسيارة كاديلاك تمرق وفيها شاب . . والشاب يلتفت اليها ويطلق صفيراً يعبر به عن اعجابه . . وشحاذ يقترب منها وتنهره بشدة . . وبعض طلبة الجامعة يتسكعون حولها . .

كل هذه الصور تمر امام عينيها ، وهي تعبس حينا ، وتهدأ حينا ، وترتجف حينا ، وتبتسم حينا . . ولم تكن تعبس أو تهدأ أو ترتجف أو تبتسم للصور التي تمر بخيالها ، انما تبعاً لاحساسها وكأن احساسها غير مرتبط بخيالها ، كأن احساسها يتحرك وحده في ناحية ، وخيالها يتحرك في الناحية الاخرى . . وكان المجهود الذي تبذله ، وتتألم في بذله ، هو محاولة الربط بين هذا الخيال وهـــذا الاحساس . . كانت تحس بالخوف بينما ترى في خيالها صورة العربة الكارو المحملة بالخضار . . ثم يخف احساسها فجأة فتكاد تبتسم كأنها مقدمة على لعبة مسلية ، ثم ترى في خيالها صورة عسكري البوليس ينظر اليها شزراً . وكانت خـلال هذه الحيرة تنجح في محاولتها الجمع بين خيالها واحساسها لبرهة قصيرة تتساءل خلالها : « لماذا حدد لها فتحي المليجي موعداً في هذا الميدان المزدحم بالحركة . أما كان الأجدى ان يلتقيا في مكان منزو اكثر هدوءاً وأكثر أمناً ؟ »

ثم كانت تجيب نفسها : « لا بد ان هذا المكان أكثر درءاً للشبهات ، وأبعد عن مراقبة البوليس ! »

وكانت عندما تجد هذا الجواب تبتسم كأنها تهنىء نفسها ، وكأنها أصبحت فعلاً عضوة عاملة في جمعية سرية وطنية !

ثم كان خيالها يعود ويفترق عن احساسها ، وتعود ثانية الى حيرتها وتخبطها الى ان تنجح مرة ثانية في السيطرة على تفكيرها ، فيقفز أمامها سؤال آخر : « ماذا يحدث لو طلب منها فتحي المليجي ان تركب معه في السيارة بدعوى

الذهاب لاحضار البدلة ، كما حذرها أخوها ؟ هل تطيعة وتركب معه ؟! »

وكانت تزم شفتيها وتجيب نفسها في اصرار : « لا .. لن اركب معه .. مستحيل! » ثم كانت شفتاها تنفرجان وخلجات وجهها تلين وهي تقول لنفسها: « ولكن ابراهيم هو الذي ارسلني اليه . وابراهيم رجل نبيل .. لا يمكن ان يرسلني الى شاب لا يطمئن اليه .. لا يمكن ان يعرضني لما يرضاه لي .. لا بد انه واثق من فتحى المليجي ، ويجب ان أثق به انا ايضاً ، سأركب سيارته لو طلب الي ، سأذهب معه الى آخر الدنيا لو اراد في سبيل ابراهيم » !

وظل هذا هو حالها الى ان تركت الفراش . وتركت فيه اختها لا تنام ولا تستيقظ .. وبدأت الحياة تدب في ارجاء البيت .. حياة بطيئة متوترة كأن البشرية كلها تجتاز الصراط المستقيم .. وخرج الأب الى عمله .. وامسكت الام بالمقشة وانحنت في تثاقل وألم تكنس الارض .. وهم محيي بالذهاب الى الجامعة ، واقترب من نوال وهي تساوي الفراش ونظر اليها من وراء نظارته في اسى ، وقال : خدي بالك من نفسك !.. ثم استدار لها قبل ان يسمعها ترد عليه ..

واستطاعت سامية ان تترك الفراش .. وسارت كسولة متعبة الى المطبخ لتبدأ في اعداد الاواني ، دون ان تغسل وجهها أو تصلح خصلات شعرها المدلاة فوق جبينها.. ولحقت بها الام بعد قليل .. واتجهت نوال ونقرت على باب غرفة محيي لتفرج عن ابراهيم وتدعه يذهب الى الحمام ، وقالت وبين شفتيها ابتسامة طيبة تحمل في طيبتها تنازع خواطرها : صباح الخير ..

ورد ابراهيم وكأنه يرى في وجهها نور الصباح : يسعد صباحك . وتركته ليدخل الحمام ، ويعود .. ثم عادت اليه تحمل صينية الافطار كعادتها منذ التقيا .. وقال لها وهو يبحث عن نفسه في عينيها : انا باتعبك يا نوال ..

قالت في حياء : لا .. ابداً ..

قال كأنه يذكرها : أنا لولا اني متأكد ان مش حيحصل لك حاجة ، ما كنتش ممكن أبعتك لفتحي !

قالت كأنها مطمئنة : انا مش خايفه ..

قال وهو يجد في نفسه جرأة عجيبة ليظل مركزاً عينيه على وجهها : تنزلي من هنا الساعة اتناشر الا ربع .. علشان ما تقفيش في الميدان كتير !

قالها في صوت متنهد كأنه يحدثها عن حبه !

وقالت ولا يزال حياؤها يربكها امام عينيه المسلطتين عليها :

– بس مش عارفه أقول لماما ايه علشان تخليني أنزل ؟

وقال ابراهيم : آه صحيح . حاتقوليلها ايه ؟

قالت بعد تفكير : مش حاقول لها حاجة .. حانزل من غير ما تعرف !

قال وهو دهش : ازاي .. مش معقول .. ما تقوليلها انك رايحه لواحده صاحبتك ، زي امبارح !

قالت في هدوء كأنها تعرف جيداً ما تقول : لو قلت لهـا ، ومارضيتش .. حتفضل حاطاني جنبها طول النهار .. بلاش أقول لها أحسن !

قال وكأنه يتكلم بشفتيه بينما قلبه يتكلم حديثاً آخر : وبعدين .

فالت وهو تبتسم : ما تخافش .. أنا حانزل واجي من غير هيه ما تعرف !

وانسحبت من أمامه وقلبه ينسحب وراءها ، والتفتت اليه قبل ان تخرج ، وقالت كأنها تبحث عن حجة لتتزود منه بنظرة اخرى : مش عايز حاجه !..

وتعلقت نظرته بها كأنه يقيدها اليه برموش عينيه .. ولم يجب .. انما ابتسم ابتسامة صغيرة صامتة ، في صمتها رجاء كبير .. وكأنها تلقت رجاءه ، فارتجفت عيناها ، وانصهرت وجنتاها .. وأغلقت الباب وراءها !

وتسللت الى حجرتها ، وفتحت دولابها وأخرجت منه حذاءهـا وجوربها وحقيبهـا و « بلوز » و « جيب » .. ثم حملت كل ذلك وذهبت الى حجرة « الضيوف » وهي تسير متسللة ، ووضعت ما حملته على أحـد المقاعد .. ثم عادت ودخلت المطبخ .. كانت سامية واقفة امام الحوض تغسل الأواني .. والأم واقفة مديرة لها ظهرها ترتب دولاب المطبخ .. وأشارت نوال الى أختها اشارة خفيفة من وراء ظهر الأم ، لتلحق بهـا .. وتلقت سامية الاشارة بدهشة ، ثم جففت يديها ، وخرجت وراء اختها لتلحق بها في غرفتها ، وقالت نوال في همس :

– أنا لازم أنزل دلوقت ..

وقالت سامية في حدة وبلا همس : ليه .. رايحه فين !

وقالت نوال وهي لا تزال تهمس : ما تزعقيش .. محيي طلب مني اني أروح مشوار علشان حاجه مهمه خالص ! ..

وقالت سامية وقد انتقلت اليها عدوى الهمس : ايه هيه الحاجة المهمة دي .

قالت نوال : بعدين تعرفي .. المهم لازم انزل دلوقت ..

قالت سامية : ولما انتي مش عايزه تقوليلي .. عايزاني ليه ؟

قالت نوال : علشان مش عايزه ماما تعرف اني نازله !

وقالت سامية في تحد : ليه ؟ ..

قالت نوال : لأنها مش حترضى .. انتي عارفه ماما !

وقالت سامية في تهكم مر :

– وعايزه خدامة السيادة ، اللي هيه أنا .. تعمل ايه ؟

قالت نوال كأبها تشرح خطة : أنا حاقول لماما اني داخله الحمـــام اغسل الشرابات والمناديل المتكومة .. وانتي عليكي تخلي ماما في المطبخ .. ما تخليهاش تخرج منه ، ولا تدور علي بنفسها أبداً .. واذا تأخرت عن كده قوليلها اني بعد ما خلصت غسيل .. ابتديت استحمي !!

وقالت سامية في غيظ : لا ماليش دعوة. أنا مش طرطوره ولا شخشيخه ، يا تقوليلي انت نازله رايحه فين يا تتفضلي تنزلي واللي يحصل يحصل ..

وقالت نوال في توسل : والنبي يا سامية .. علشان خاطري .. ده محيي هو اللي عايزني أنزل .. وبعد ما ارجع حاتعرفي كل حاجة . أصلي حلفت اني مـا أقولش حاجة أبداً .. محيي حلفني على المصحف ..

وقالت سامية وقد عادت الى تهكمها : محيي والا ابراهيم ؟!..

وقالت نوال وقد بدأت تحتد :

– وحياة بابا وحياة ماما .. وحياة شرف النبي انه محيي ..

وقالت سامية : خلاص .. خلي محيي ينفعك ! ..

وتركتها وعادت الى المطبخ ..

وانتظرت نوال قليلا وهي تلهث من الغيظ.. ثم احتدت نظراتها كأنها صممت على شيء .. وسارت وراء اختها الى المطبخ وقالت وهي تحـاول ان تتكلم في لهجة طبيعية : ماما أنا داخله اغسل شوية الشرابات والمناديل المتكومين دول!

وردت الام دون ان تنظر اليها ، طيب بس شهلي قوام .. وتعالي علشان تنضفي الفاصوليا مع أختك .

ونظرت نوال الى اختها كأنها تتحداها ان تفضحها.. وردت سامية النظرة ، بنظرة ضعيفة كأنها لا تستطيع ان تفضح اختها .. وتسللت نوال الى « حجرة الضيوف » ، وبدأت ترتري الثياب التي حملتها اليها .

وكانت حجرة الضيوف منعزلة تقريباً عن بقية الحجرات ، وأقربهـــا الى الباب .. وكانت مغلقة دائماً .. لا تفتح ، ولا تفتح نوافذها الا اذا جاء الى البيت ضيف غريب .. فخرجت منهـا نوال متجهة الى الباب الخارجي وحذاؤها في يدها ، دون ان يحس بها أحد . وفتحت الباب في حذر شديد فلم يسمع لفتحه صوت .. ثم فكرت قليلا قبل ان تخرج .. ووضعت الحذاء من يدها عـــلى الأرض وعادت تتسلل على أطراف اصابعها الى داخل البيت ..

ودخلت حجرة «القعاد» والتقطت جريدة كانت ملقاة هناك . . جريدة الأمس . . وعادت ووقفت امام الباب الخارجي . . ونزعت قصاصة ورق من الجريدة وكورتها بعد أن بللتها بشفتيها ، ثم حشرتها في قفل الباب ، فحالت دون خروج لسان القفل . . ثم حملت حذاءها وتعدت الباب وهي تتلفت حولها ثم أغلقته وراءها . . فانغلق دون أن يقفل بالقفل . . ووضعت حذاءها في قدميها . . ونزلت السلم ، وهي لا تزال دون وعي منها – تسير على أطراف أصابعها . . وأصبحت في الشارع . . وأسرعت خطاها نحو محطة الاوتوبيس ولم تكن تفكر في المهمة الوطنية التي تقوم بها ، كانت تفكر في أمها . . انها المرة الاولى في حياتها التي تتسلل فيها من وراء امها . المرة الأولى التي تخرج فيها من البيت بدون اذن . . وكانت خائفة . . خائفة من امها ومن ابيها . . وكان خوفها يحمل في طياتة تأنيب ضميرها . . تأنيباً قاسياً كأنه صفعات كف ظالمة . . وحاولت كثيراً ان تقنع ضميرها . . أن تهدئه . . كانت تقول لنفسها انها ذاهبة لتنقذ انساناً . . لتنقذ بطلاً . . لتساهم في عمل وطني . . وان هذا العمل يبرر تسللها من البيت ، ويبرر خروجها بدون اذن . . ولكن ضميرها كان يرفض ان يصدقها ، وصوت من أعماقها كان يقول لها : « يا كذابة . . انك ذاهبة من اجل ابراهيم . . ابراهيم بالذات . . لا لأنه بطل . . بل لأنه ابراهيم ! » . . وكانت تسمع هذا الصوت ، فتتثلج أطرافها . . ويمتقع وجهها . انها الحقيقة . . انها تفعل كل ذلك من اجل ابراهيم . . ماذا يمكن ان تفعله ايضاً من اجله . . أشياء كثيرة . . ان الطريق طويل وهي منقادة فيه بلا ارادة . . شيء قوي يدفعها . . تيار جارف لا تستطيع ان تقاومه . . وهي خائفة . . خائفة من نفسها . . خائفة من ذكائها . . خائفة مما تستطيع ان تفعله بهذا الذكاء خلال اندفاعها في هذا الطريق . . وخائفة على امها ، وعلى ابيها . . خائفة عليهما من نفسها . . وأحست كأنها تعتذر لهما . . كأنها واقفة امامهما منكسة الرأس تعترف بأنها تسللت من البيت بدون اذن وانها خانت ثقتهما فيها ، وأحست أنها تبكي . . انها فعلا تريد ان تبكي ، لعل دموعها تعتذر لها لدى امها . . وظلت سادرة في هذه الأفكار والأحاسيس ، وهي راكبة في الاوتوبيس وبعد ان نزلت منه . .

ثم وقفت في ميدان الكوبري ، بجانب بائع السجائر ، وهي تتعجل الوقت لتعود الى البيت قبل ان تتنبه أمها الى غيابها . . لم يعد يهمها أن يراها أحد . . لم تحاول ان تتلفت حولها لترى من يمر بها . . لم تر عربات الترام ولا الناس الجالسين في العربات . . ولم تر عسكري البوليس الذي يروح ويغدو . . ولا الطفل الذي يجمع اعقاب السجاير . . ولا الشحاذ الذي يمد لها يده . . ولا الشاب الذي يركب

السيارة ويصفر اعجاباً بها .. ولا عربة الكارو المحملة بالخضار .. لم تر شيئاً مما تخيلته قبل ان تصل الى الميدان .. ولم تر أن هناك في جانب بعيد من الميدان عند ناصية شارع من الشوارع المتفرعة منه ، تقف عينان تنظران اليها من خلال نظارة .. عينان ملهوفتان ، فيهما جزع ، وفيهما تربص ، وفيهما خوف .. انة محيي .. شقيقها .. واقف هناك .. وقد قضى محيي طول ليله ، وطول صباحه يحاول ان يطمئن نفسه على اخته وهي ذاهبة لملاقاة فتحي المليجي .. ويحاول ان يقنع نفسه بان فتحي لن يدعوها الى ركوب سيارتة ليغرر بها ..

ولكنه لم يطمئن ، ولم يقتنع .. ووجد نفسه يخرج من الجامعة ويذهب الى الميدان قبل الموعد الذي يعرفه بفترة طويلة .. ووقف هناك منزوياً عند الناصية يبحث عن اختة ، ويرقب وصولها .. وهو لا يدري بالضبط ما يمكن ان يفعله عندما يراها .. ولا يدري مـــا يمكن ان يفعله اذا رآها تركب سيارة فتحي المليجي ، ولو رأى السيارة تختفي بها. ماذا يفعل ؟.. هل يصرخ ويجري وراء السيارة ؟.. هل يبلغ البوليس ؟! ربما لم يستطع ان يفعل شيئاً من ذلك .. ربما تجمد في مكانه ، وبكى حتى تغيم الدموع على زجاج نظارته فلا يعود يرى شيئاً.

ولكنه يجب ان لا يتجمد .. ويجب ان لا يبكي .. يجب ان يستعد لانقـاذ اخته .. انه يستطيع عـلى الأقل ان يأخذ رقم السيارة ويبلغ عنها البوليس ، بتهمة اختطاف اخته .. ان معه قلماً .. ومعه مفكرة .. وتحسس القلم والمفكرة في جيبه .. ان كل شيء معه ليلتقط رقم السيارة .. ولكن ماذا يجديـــه رقم السيارة .. ستكون اخته قد تلوثت قبل ان يعثر عليها البوليس . سيكون هو قـد تلوث .. شرفه .. كرامته .. لا .. ليذهب ابراهيم الى الجحيم .. ليشنق الف مرة . انة يستحق الشنق .. أما هو – محيي – فلا يستحق ان يتلوث شرفه .. سيذهب ويقف بجانب اخته ، سيحميها من الذئاب .. وسواء سلمها فتحي المليجي البدلة وهو بجانبها ، أو لم يسلمها ، فلا يهم .. المهم الا يترك اخته للذئاب .. الذئاب الذين يعرفهم جيداً !!

ورغم ذلك فلم يتحرك عندما رأى اخته .. لقد رآهـــا وهي تنزل من الاوتوبيس .. ورآها وهي تسير لتقف قريباً من بائع السجاير .. ورغم ذلك فلم يتحرك من مكانه .. ان قلبه يضطرب وعينيه جاحظتان خلف نظارته متجهتان اليها .. ومخاوفه تشتد .. ورغم ذلك فهو لا يتحرك من مكانه ..

وربما لو انتبهت نوال وتلفتت في انحاء الميدان ، لرأته ، هنـــاك منزوياً ، ملتصقاً بجدار اول بيت عند قمة الناصية .. ولكن نوال لم تتلفت .. أو تلفتت

غير منتبهة .. فلم يكن في خيالها سوى صورة واحدة.. وجه فتحي المليجي.. وأي وجه كان يصادف عينيها غير هذا الوجه ، لم تكن تراه ..

وكان احساسها كله موجها الى مرور الوقت .. كانت متعجلة لا يهمها شيء الا ان تعود سريعاً قبل ان تكتشف أمها غيبتها .. والوقت يمر بطيئاً .. بطيئاً جداً .. والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة .. انهـــا الآن الثانية عشرة وخمس دقائق . ربما لن يجيء .. وتذكرت انـه اتفق معها اذا لم يحضر ، ان تذهب لملاقاته في بيته في الساعة الثالثة بعد الظهر .. هل تعود الى بيتها.. وهل تستطيع أن تتسلل من وراء أمها مرة اخرى .. و ..

وقبل أن تجيب على تساؤلها .. رأته .. فتحي المليجي ..!!

تنبهت على بوق سيارة تحاذيها وتتحرك امامها ببطء .. ورأته فيها .. وكان يقود السيارة ، ورفع ذراعه عن عجلة القيادة وأشار اليها بان تتبعه .. ثم انحرف بسيارته الى شارع النيل .. وتحركت من مكانها وقلبها يضطرب ، وخطواتهـا مرتبكة ، وهي تحاول ان توقف عقلها عن التفكير .. لا تريـــد ان تفكر في شيء .. كأنها لو فكرت لعدلت عن خطتها .. ورأت السيارة قد وقفت عند أول الشارع ، فاقتربت منها ببطء .. خائفة .. كأنها تقترب من قفص الأسد.. وما كادت تحاذيها حتى أطل عليها فتحي المليجي من نافذة السيارة .. ثم مـد اليها ذراعيه بلفافة كبيرة ، اسقطها بين يديها وقال في سرعة : العربية حتكون جاهزة بكره .. وفي لفتة من عينيها كان قد انطلق بسيارته .

هكذا في ثانية واحدة ، انتهى كل شيء ..

ولم يحدث شيء .. ما أبسط البطولة .. !

انها كالقبلة ، تخافها البنت الى ان تكتشف بساطتها ومتعتها ..

وحملت اللفافـــة الكبيرة وسارت منكسة الرأس ، دون ان تلتفت وراء السيارة المنطلقة ، وعلى جانب شفتيها ابتسامة ساخرة كأنها تأسف عـلى هذه الأوهام التي كانت تتخيلها .

وكان محيي في الجانب الآخر من الميدان قد سقط قلبه عندما رأى أخته تتبع السيارة وتختفي وراءها في شارع النيل.. أحس ان الذئب قد أنشب أنيابه في لحم أخته ، في شرفه .. في كرامته .. وأحس ان كل قطعة من جسده قد حملت آثار الانياب ، وتنزف دمـاء .. وأحس ان شيئاً في داخله يعوي كأنه أصيب بالسعار .. وتحرك من مكانه ، وكل شيء فيـــه يلهث ، الا قدميه .. وكان يسير ببطء .. لا يدري لماذا ؟.. لا يدري الا انه لا يستطيع ان يجري ،

كأنه يخاف انجرى ان يثير ثائرة الذئاب فتجري وراءه ..

ولكنه لم يكد يعبر الشارع ، ويخطو خطوات حتى رأى اخته تعود حاملة اللفافة بين يديها ، متجهة الى محطة الأوتوبيس ..

وتوقف عن السير .. ولم يحس بالراحة . انمـا أحس بخيبة أمل .. أحس باحساس كأنه النقمة .. النقمة على نفسه .. لماذا انقاد الى كل هذه الأوهام التي أحاطت به ، ولماذا عجز عن مواجهة الأوهام عندما خطرت له !!

وهم ان يتجه الى اخته ليصحبها الى البيت ولكنه عدل .. واستدار .. وسار يائساً تعيساً ، متجهاً الى الجامعة دون ان يحاول الوصول اليهـا .. ولم تره اخته ايضاً .. ركبت الاوتوبيس وهي تطمئن نفسها الى ان مهمتها قد نجحت .. وانها ستصل الى البيت قبل ان تكتشف أمها غيبتها .. وأخذت تستعيد اللحظات التي مرت بها ، واستعادت قول فتحي : « العربية حتكون جاهزة بكره » .. وفجأة انفتحت عيناها كأنها انتبهت الى شيء .. ان معنى هذا ان ابراهيم سيغادر البيت غداً .. غداً لن يكون ابراهيم في البيت .. لن تراه .. لن تنقر على بابه لتفسح له الطريق الى الحمام .. ولن تقدم له طعام افطاره .. ولن تحس بانفاسه حولها .. ولن يمتلىء صدرها بهذا الاحساس المثير .. سيعود كل شيء في البيت راكداً .. مملاً .. وسيعود الحديث تافهاً ، وستعود الهمسات بينهـا وبين أختها حول خطابها .. الطويل ، والسمين ، والدكتور ، والمهندس .. وسيعود خيالها لا يمثل واقعاً ، ولا يتجسد في أحد .. وستعود تنتظر .. تنتظر دائماً .. تنتظر موعد الافطار .. وموعد السحور وتنتظر خروج أبيها ، وعودة أبيها .. وتنتظر العيد .. وتنتظر ان تتزوج اختها .. ثم تنتظر من يتقدم ليتزوجها .. ستعود كل هذه الحياة الراكدة الضحلة .. ولن يكون فيها ابراهيم . لن تراه .. لن تراه ابداً .. ان ابراهيم لا يعيش في الحياة الراكدة الضحلة .. وانقبض قلبها .. أحست كأن الاوتوبيس وهو يهتز ينفض عنها الحياة ، ليتركها انسانة هامدة .. تعيش بلا حياة .. ونزلت من الاوتوبيس وسارت الى بيتها وهي تحمل اللفافة وصعدت السلم على أطراف أصابعها ..

ودفعت الباب برفق فانفتح .. ودخلت والبيت كله صامت .. وألقت اللفافة على الأرض في حرص .. ونزعت الورقة الصغيرة من قفل الباب ، ثم أغلقته في هدوء .. وخلعت حذاءهـــا ، وحملت اللفافة والحذاء ودخلت بهما حجرة « الضيوف » .. ثم بدلت ثيابها بسرعة .. وتركت كل شيء ملقى على مقاعد الحجرة ، وخرجت منها وأغلقت بابها .. ثم اتجهت عـلى أطراف أصابعها إلى

المطبخ .. ووقفت تنظر الى امها والى اختها ، كأنها لا تصدق عينيها .. انهما كما تركتهما .. سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأواني والصحون ، وامها لا تزال ترتب في الدواليب .. كأن كل شيء يتجمد في هذا البيت حتى الزمن .. ولكن .. انه لم يمر عليها منذ خروجها من البيت أكثر من نصف ساعة .. كل هذا حدث في نصف ساعة .. ولمحت أمها خيالها ، فقالت لها : خلصتي الغسيل ؟

وقالت في صوت متهدج : أيوه يا ماما ..

واستطردت الأم : طيب ياللا اقعدي نضفي الفاصوليا ..

ونظرت سامية الى نوال غاضبة كأنها تهددها بافشاء سرها ، ونظرت اليها نوال في حنان كأنها تشكرها لأنها لن تفشي سرها .. ثك دخلت وحملت قرطاساً كبيراً فيه الفاصوليا ، وهمت خارجة ، فاستوقفتها امها قائلة : على فين !؟

قالت نوال : رايحه اقعد في أودة « القعاد » .. بجنب الراديو !

وقالت الأم وهي تعود بوجهها الى الدولاب : والنبي دي مياصة . يعني ماتعرفيش تنضفي الفاصوليا الا على الراديو ..

وخرجت نوال قبل ان تتم الأم كلامها .. ووضعت قرطاس الفاصوليا على المائدة الصغيرة في حجرة « القعاد » ثم عادت الى حجرة « الضيوف » وحملت ملابسها واللفافة الكبيرة .. ومرت على حجرتها فالقت فيها بثيابها .. ثم تسللت الى الحجرة التي يجلس فيها ابراهيم ، ونقرت الباب نقرة خافتة ، ثم دخلت ، واللفافة بين يديها ، وبين عينيها نظرة حزينة كأنها دمعة معلقة بين جفنيها .. وقال ابراهيم وهو يتناول اللفافة من يدها ويبتسم لها ابتسامة كبيرة كان قلبه يهم بأن يقفز من بين شفتيه : أنا مش عارف أشكرك ازاي ..

وقالت وهي تنظر اليه : فتحي بيقول لك العربية حتكون حاهزه بكره !

قال وهو حائر أمام نظرتها الحزينة : مرسيه ..

وسكتت ، فقال وقد اشتدت لهفته على حزنها : حصل حاجة ؟

قالت واحدى يديها تشد في أصابع اليد الاخرى كأنها تريد ان تنزعها :

— انت حاتروح فين بعيد ما تسيب بيتنا ؟..

قال وكأنه عرف سبب حزنها : والله ما اعرفش ..

قالت وهي تنظر اليه كأنها تطالبه بحق لها : وحنطمن عليك ازاي ؟

قال كأنه يتهكم من يأسه : لو مسكوني حتعرفوا من الجرايد !

ونظرت اليه في عتاب جاد .. ثم استدارت له وخرجت ..

وعادت الى حجرة « القعاد » وعقلها تائه لا تستطيع أن تجمعه في رأسها ..

وفردت قرطاس الفاصوليا .. وأخذت تلتقط الواحدة بعد الاخرى وتنظفها.. ثم فجأة أحست بدموعها تنهمر فوق خديها.. كان فكرها قد عاد اليها دموعا !

١٠

عاد محيي الى البيت في موعد خروجه من الجامعة ..

ولم يقل شيئاً لأخته ولا لابراهيم .. لم يقل لهما انه تتبع نوال وراقبها وهي في انتظار فتحي المليجي لتتسلم منه بدلة الضابط . دخل صامتاً ذليلاً منكس الرأس ، وهو يشعر بالسخافة . سخافته لأنه كان يشك في أخـــلاق فتحي المليجي .. بل وفي اخلاق كل الشبان المشتغلين بالسياسة.. وقد حمل هذا الشك طول عمره .. كان طول عمره يعتبر اشتغال الطلبة بالسياسة مجرد « شقاوة » ، ولم يكن يعتقد ان هناك فارقاً بينه وبين هؤلاء الطلبة الا انهم يمتازون بالوقاحة ، والصفاقة . كان يعتقد ان حماستهم لوطنهم لا تزيد عن حماستهم في ملاحقة أية فتاة تمر بهم .. وان الهتافات الصاخبة التي يهتفون بها لا تصل الى واحد منهم الا بقدر ما تصل كلمات المغازلة التي يهمسون بها في آذان الفتيات .. لم يكن يعتقد أنهم رجـــال ، وان فيهم خلق الرجولة .. وصحيح انه كان يثق في ابراهيم .. كان يثق فيه من قبل أن يلجأ اليه .. ولكن ابراهيم كان دائماً صنفاً آخر من الشبان .. كان صموتاً متحفظاً ، لا يقحم نفسه ، ولا يدعي زعامة ، ولا يتظاهر بوطنيته .. ولكن .. يبدو أن هناك كثيرين غير ابراهيم كلهم رجـــال .. وكلهم على خلق .. و .. وهو يشعر بأنه ظالمهم .. ظـــلم زملاءه المشتغلين بالسياسة.. بل يشعر انه يراهم في خياله كما لم يرهم من قبل.. شرفاء ، مخلصين .. ويسمع هتافاتهم كما لم يسمعها أبدا .. صادقة قوية كأنها طلقات مدافع تقذف القلوب من الافواه ..

ودخل الى حجرته وحيا ابراهيم دون أن يرفع اليه عينيه كأنه يخفي تحت جفونه خجله من نفسه .. وقال له ابراهيم كأنه يبلغـــه خبرا سارا : البدلة جت . جابتها! وقال محيي وهو يتلفت حواليه حتى لا ينظر اليه : هيه فين؟..

وقال ابراهيم : في الدولاب . وقال محيي كأنـــه يبحث عن أي شيء يقوله حتى يستعيد هدوء نفسه : قستها !؟

وقال ابراهيم :مظبوطه . متفصلة عليّ .بكره باذن الله حابقي ملازم اول . .

وسكت محيي . . لم يستطـــع حتى ان يبتسم ، واستطرد ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة يحاول ان يطمئن بها صديقه : — يكره العربية حاتكون جاهزة . . والعملية حتم !

والتفت اليه محيي وقال وهو يتكلم في حماسة واخلاص كأنه يحاول أن يعوض ابراهيم عن الشكوك التي كان يحملها في صدره : — اسمع يا ابراهيم . . تأكد اني مش عايزك تسيب البيت . . لا انا ولا بابا . . اذا كنت مش متأكد من العملية بتاعة بكرة . . بلاش . . خليك قاعد معانا لغاية ما تطمئن . .

وسكت ابراهيم برهة وهو ينظر الى محيي كأنه يقيس اخلاصه واستطرد محيي كأنه أحس بأنه تمادى في حماسته : — يوم ولا يومين زيادة . . مش حايفرقوا ! !

وقال ابراهيم : — متشكر يا محيي . . انما أحسن لي اني أسيب البيت بكره . . وتأكد اني مش حانسى اليومين اللي قعدتهم معاك . . اليومين دول أنقذوا حياتي . وأنا عارف المتاعب اللي سببتها لـكم . . عارفها كويس . . ومس حانسى جميلكم علي أبدا . .

وقال محيي في صوت مبحوح : ده واجب . . المهم انك تكون مطمئن على نفسك ، ونكون مطمئنين عليك . .

وقال ابراهيم وهو يهز كتفيه كأنه يسخر من نفسه ، ومن نصيبه في الدنيا : أنا عمري ما حاطمئن على نفسي . . ولا حد حايطمئن علي . . خليها على الله !

وقال محيي في أسى : ما تقولس كده . . ربنا معاك ! . . وسكت ابراهيم . .

وبدأ محيي يبدل ثيابه . . ثم مرت بهما الساعات وكل منهما يحاول أن يرفه عن الآخر . . يتناقلان حديث الجامعة . . والحوادث السياسية ويحاولان الضحك . . ضحكا ثقيلا كأنهما يجذبانه من صدريهما بآلات رافعة . .

وجاء الاب في موعده . . وهم محيي بأن يخرج من الغرفة ليستقبله فقال له ابراهيم : بلاش تقول لعمي على حكايـــة بكره ! وسأله محيي وهو دهش كعادته : ليه ؟ . . قال ابراهيم : — علشان كل حاجه تفضل ماشيـه طبيعي وعلشان عمي يعرف ينام كويس . . أصل انتظار ساعة الافراج اسوأ حالات السجن . . وخروجي من البيت معناه الافراج عنكم . .

وقال محيي دون أن يقتنع : طيب . . مش حاقول له ! . .

وقال ابراهيم : ما تقولس لحد أبدا . . لا لطنط ولا ساميه . . وقول لنوال ما تقولش هيه كمان . .

وقال محيي ، وهو ينسحب : طيب !

وخرج .. ثم عاد بعد قليل وفي يـــده جريدة الاهرام دون ان يبدو على وجهـه شيء جديد .. واختطف ابراهيم الجريدة من يـده ، وأخذ يبحث عن نفسه بين السطور .. كان يقرأ أخبـــار نشاط البوليس في تتبعه .. وأخبار الاعتقالات .. وكان يحاول ان يقرأ في كل سطر أكثر مما يحمله .. وكانت تعابير الاهتمام التي تبدو على وجهه تنطفىء رويداً رويداً ، وتحل محلها تعابير الارتياح ان البوليس لا يزال بعيداً عنه .. بعيداً جداً !

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة مساء والأب نائم .. وفجأة دق جرس الباب ..

وارتعش قلب ابراهيم في صدره ، هذه الرعشة التي بدأ يحس بها منذ انقلب إلى بطل فار بعد ان كان بطلاً مهاجماً .. وخفقت جفون محيي كأنها جناحا عصفور محبوس خلف زجاج نظارته .. ونظر كل منهما للآخر برهة .. ثم كأنهما اتفقا على الخطة .. فخرج محيي من الغرفة وأغلق بابها وراءه .. وما كاد يخرج حتى التقى بنوال خارجة من المطبخ ، ممتقعة الوجه وضفيرتها تكاد تلتف حول عنقها كأنها تحاول ان تخنقها ..

وقال لها محيي في همس : ما تفتحيش الباب إلا لما تعرفي مين ..

قالت : حاضر :

وسارت في خطوات متعثرة نحو الباب .. بينما ظل محيي في مكانه منتظراً ان تعود اليه أخته بالنبأ .. وسمع أخته تفتح « شراعة » الباب .. ثم سمعها تفتح الباب نفسه .. ثم عادت .. وخلفها عبد الحميد ..

وانقلبت شفتا محيي امتعاضاً ، كأن شيئاً بدأ ينقلب في معدته ..

وقال عبدالحميد في همس وهو يصافح ابن عمه : عمى نايم ؟

قال محيي وهو لا يتحرك من مكانه : أيوه ..

وقال عبدالحميد وهو يضحك ضحكة مكتومة : أحسن .. !

ولم يضحك محيي مع ابن عمه ، إنمـــا ظل صامتاً ، وهو يكتم غيظه .. واستطرد عبدالحميد : انتم قاعدين فين ؟؟

وتحرك محيي نحو غرفته ، وفتح بابها ، وهو يقول في قرف : اتفضل !

واستقبله ابراهيم ، وقـــد استرد هدوء نفسه ، وسلط عليه كل عينيه ، وصافحه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، يحاول ان يبدو من خلالها مرحباً به ..

وجلس الثلاثة يتحدثون .. وحاول عبدالحميد ان يبدو في الشخصية الجديدة التي رسمها لنفسه .. الشخصية الوقورة المتحفظة التي تقدر خطورة الموقف ..

حاول ألا يتحدث كثيراً .. وان يجيب اجابات قصيرة فيها بعض الغموض كأنه يخفي شيئاً .. وحاول ألا يسرف في الابتسام والضحك ..

ولكنه تعب من هذه الشخصية بعد فترة قصيرة .. ووجد نفسه يتحدث كثيراً ، ويجيب على كل سؤال بقصة ، ويبتسم ويضحك بلا حساب .. أنه من هـــذا الصنف الذي لا يستطيع ان يسكت عن استعمال مواهبه .. لسانه ، وذكائه ، وسرعة خاطره ، وخفة دمه .. واعتاد ان يتباهى بهـــذه المواهب ويجربها مع كل من يصادفه .. وكان أحياناً يتنبه إلى أنه أسرف في الحديث ، وأنه خرج عن الشخصية التي يريد ان يبدو بها .. فيسكت فجأة ، ويعاني الكثير من محاولته التمسك بالسكوت ، ومن اخفاء القصص والآراء والملح التي يزدحم بها رأسه وتكاد تقفز على لسانه ..

وكان ابراهيم لا يريده ان يسكت .. فإذا رآه ساكتاً لاحقـــه بالاسئلة .. ويتحايل على سكوته بان يفتح أمامه أكثر من موضوع يغري بالنقاش .. حتى يضعف عبدالحميد ، فينفلت لسانه ، ويعود يتكلم .. ويتركه ابراهيم يتكلم كأنه يراه على حقيقته من خلال حديثه ..

وفجأة سأله ابراهيم : ما تعرفش حد في البوليس ؟!..

وبوغت عبدالحميد بالسؤال ، وتردد قليلاً ، ثم قال باهتمام وكأنه بدأ يلعب دور شطرنج : ليه ؟..

وقال ابراهيم بلا اهتمام :

– عايز اسأل عن جماعه أصحابي أشوفهم اعتقلوهم ولا لأ !؟

وقال عبدالحميد ، وفي عينيه نظرة ذكاء :

– انا أعرف ضابط من المحافظة بيقعد معانا في القهوة !..

وقال ابراهيم وهو ينكس رأسه حتى لا يرى عبدالحميد عينيه :

– ما تعرفش تجيب منه أسماء المعتقلين ؟!

وقال عبدالحميد وقد اشتد لمعان الذكاء في عينيه : أظن الأسهل تقول لي عايز تسأل عن مين .. وانا أسأل لك عليهم !..

ورفع ابراهيم عينيه الى محيى كأنه يستشيره .. وقال محيي وعلامة استفهام كبيرة تبدو على وجهه :

– عبد الحميد مالوش دعوه بالحاجات دي !..

وقال عبد الحميد وهو يخفى لهفته : على كل حال انا مستعد أقوم بأى حاجة يكلفني بيها الاستاذ ابراهيم ..

وسكت ابراهيم كأنه يفكر .. وطال سكوته .. وقـــال عبد الحميد وهو يبتسم :

– أرجوك تثق في يا استاذ ابراهيم .. أنا ما بطلبش اني أعرف حاجة .. انما باطلب اني اكون محل ثقتك !!

وقال ابراهيم في صوت خافت وكلمات بطيئة ، كأنه يصرح بسر خطير :

– اصحابي اللي عايز اسأل عليهم ، واحد منهم أسمه محمد المرتضى، والثاني اسمه سمير أيوب ..

وصرخ محيي مـنزعجاً : ايه ده .. مين عرفك بالجـدع ده علشان تقول له حاجات زي دي ؟!..

ونظر ابراهيم الى محيي ثم نكس رأسه وقال في صوت مؤثر :

– أنا النهار ده محتاج لكل انسان .. وانا واثق في عبد الحميد وسكت محيي.. وفهم .وان كان لم يفهم تماماً ما يرمى اليه ابراهيم .. وقال عبدالحميد في حماسة :

– اطمئن .. بكره حارد عليك !!

وقال ابراهيم في صوته الخافت الهادىء:

– بس حا تسأل صاحبك الضابط ازاي ؟.. أوعي يحس انك مهتم أكثر من اللازم .. اسأله بالراحة ومن غـــير اهتمام .. وخد يومين ثلاثة أربعـــة .. ما تستعجلش عليه ، أحسن يشك فيك !.

وقال عبد الحميد وهو يبتسم كأنه يأسف لأن ابراهيم لا يقـــدر ذكاءه : سيب الحكاية دي علي انا .. دي حاجات بسيطة !!

واستأذن عبد الحميد وخرج من الغرفـة ، بعد ان شد على يد ابراهيم في حرارة .. خرج وهو يعتقد انه وضع ابراهيم في جيبه .. وكاد يرفـع يده الى رأسه ليصافح ذكاءه مهنئاً ..

وقال محيي لابراهيم وهو يكاد يهمس : ايه اللي عملته ده !؟ ..

وقال ابراهيم وقد قاد يخفي عينيه عن صديقه حتى لا يرى فيهما سره : ما هو كان لازم أكسب ثقته علشان اضمن انه مش حيراقب البيت ويشوفني وأنا خارج من هنا .. وقال محيي :

– ما يمكن يروح يبلغ عن اصحابك اللي قلت له عليهم ؟.. قال ابراهيم : ما يهمش ..

قال محيي وكأنه يتهم صديقه بالقسوة : ما يهمش ازاي ؟..

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

– ما ليش اصحاب بالاسم ده .. ويمكن ما فيش حد بالاسم ده ابداً . ولو بلغ عنهم البوليس يبقى من مصلحتنا لأنه في الحالة دي حيساعدني في تضليل البوليس .. وفغر محيي فاه كأنه يلتقط به شيئاً من الهـــواء ، ثم ضم شفتيه وقال : انا برضه استنتجت انك كنت بتضحك عليه ..

قالها محيي وهو يحس بمرارة .. فلم يكن يعتقد ان الابطال يلجأون الى الكذب والخداع .. كانت البطولة في نظره مجرد اندفاع وتضحية وثورة صريحة . ولم يكن يحس بهذه المرارة وهو يرى ابراهيم يخـدع البوليس .. كان يرى في خداعه للبوليس بطولة . ولكنه يحس بالمرارة الان ، وابراهيم يخدع ابن عمه . لماذا ؟.. هل اشفق على ابن عمه . هل كان يفضل في قرارة نفسه الا يرى ابن عمه مغفلا مخدوعاً .. هل كان يفضل ان يراه ذكياً خطيراً ، لا يستطيع احد ان ينتصر على ذكائه حتى لو كان المنتصر هو ابراهيم ؟ انه لا يدري ..

وهو حائر في تفسير احساسه .. لا يدري الا انه يحس بمرارة ينضح بها قلبه وتسيل مع لعابه حتى تصل الى شفتيه ..

ولم يخرج عبد الحميد من البيت ، انما تلكأ في انحائه باحثـا عن ساميه .. ووجدها في غرفتها ، جالسة فوق حافة السرير ، وقد بدلت ثيـابها وعقصت شعرها ، وفي يدها مجلة ترفعها أمام وجهها .

ولم تكن تقرأ .. كانت تنظر فقط الى السطور .. وكانت تعـــلم ان عبد الحميد في البيت .. وكانت تنتظر خروجه من غرفة محيي ليبحث عنها .. وكانت تعد نفسها ليجدها .. وتعد كل شيء للقائه .. تعد « تبويزتهـــا » .. وتعد نظرتها الساخرة .. وتعد الكلمات الجارحة .. وتعد غرورها الذي يتغذى على ملاحقة عبد الحميد لها واصراره على الزواج بها .. ولو كان عبد الحميد قـد خرج من البيت دون ان يبحث عنها ، لصعقت بحسرتها .. ولكنها كانت مطمئنة ان الشيء الوحيد الثابت في حياتها مذ كانت صبية هو حب عبد الحميد لها ..

ووقف عبدالحميد يسد باب غرفتها بقامته ، وقال في صوت خفيض وابتسامة حلوة ، ليس في حلاوتها افتعال .. ولا ذكاء : لسه زعلانة مني ؟!..

وأنزلت المجلة من أمام وجهها ، وبدت كأنها فوجئت به ..

ثم قالت وهي تهز كتفيها : حازعل منك ليه ؟ وأنا أقدر ؟!

وتقدم عبد الحميد وجلس بجانبها على حافة الفراش .. وأزاحت نفسها من جانبه حتى التصقت بحاجز الفراش ..

وقال في هدوء : أنا عايز أكلمك في صراحة يا بنت عمي . أنا عارف انتي زعلانة مني ليه .. فاكرة ان الظروف ماكنتش تسمح بأني أطلبك من عمي اليومين دول انما الظروف دي مالهاش دخل في الموضوع تأكدي من كده ، انمـــا اللي خلاني أطلبك اني أقدر أسعدك ..

وقاطعته سامية : مافيش لازمه للكلام ده دلوقت مش بابا وافق ، خلاص!

وقال عبد الحميد في اصرار :

ـ لا .. مش خلاص .. أنا عايزك انتي تكوني مطمئنة ..

ثم استطرد في صوت ناعم كأنه يحلم :

ـ أنا مش سافل زي ما انتي فاكرة .. لو كنت سافل كان زمان في ايدي دلوقت خمسة آلاف جنيه .. كان زماني غني .. بدل ما أعملك شقة ، ابني لك فيلا .. وبدل ما خليكي تمشي على رجليكي أجيب لك عربية .. وكنت عملت لك فرح كبير .. أم كلثوم .. وتحية كاريوكا .. وزيطة ..

وسكت وهو ينظر الى عيني سامية ، كأنه يحاول أن ينقل احلامـــه الى رأسها بالايحاء ..

وقالت سامية وعيناها في عينيه ، وكأنها بهرت بأحلامه :

ـ وكنت حاتجيب الفلوس دي منين ؟

قال وهو يهز كتفيه كأن الأمر بسيط : ولا حاجة .. تليفون للنائب العام ولا للبوليس .. تليفون واحد .. واقبض خمسة آلاف جنيه ، حتة واحدة ..

وقالت سامية في جزع ، وكأنها أفاقت على هاوية تحت قدميها : يا خبر .. انت مجنون .. تودينا كلنا في داهية علشان خمسة آلاف جنيه !

وقال عبد الحميد وهو يتراجع :

ـ الكلام ده لو كنت سافل زي ما انتي فاكرة .. أنا صحيح ما أعرفش ابراهيم ، ولا حد فيكم يعرفه .. وصحيح انه حينقبض عليه حتماً ، اذا ماكنش النهارده حيبقى بكره .. انما مش ممكن طبعاً اني أعمل حاجه زي دي ..

وقالت سامية في حده : ده يبقى اجرام ..

وقال عبد الحميد وهو لا يزال يحاول ان يؤثر عليها، كما اعتاد ان يؤثر عليها وهي صبية : فعلاً .. مع ان ممكن كل ده يحصل من غير ما حد من عيلتنا يجري له حاجه ..

وقالت سامية وهي تحاول ان ترى الى أين يحاول أن يقودها :ازاي؟!

قال: بسيطه ،نستنى عليه لما يخرج من هنا، ونشوفه حايروح فين.. نمشي وراه ..

وقالت سامية محتدة وقد احتدت معها عيناها وقسمات وجهها : عبد الحميد قصدك ايه .. فهمني عايز تقول ايه .. ايه لزوم الكلام ده دلوقت ؟!

وقال عبد الحميد دون ان ينظر اليها كأنه يخفي ذكاءه عنها :

– عايز أقول لك اني مش سافل زي ما انتي فاكرة .. اذا كان فيه واحد في العيلة دي عنده أخلاق يبقى أنا .. وكل الفرق اني مشيت في سكة لوحدي. ماخدتش شهادة لأني كنت عارف اني مش محتاج للشهادة ، واني أقدر أكسب من غير شهاده أكثر من اللي بيكسبه أي واحد فيهم ، وأحب أقول لك ان ابراهيم نفسه بيثق في .. بيثق في أكتر منكم كلكم .. أكتر من عمي .. وأكثر من حضرتك كمان .. ولسه دلوقت أهو كلفني بشغلانة حاتنقذ حياته ..

وكان عبد الحميد يتكلم بحماسة ، كأنه يحاول أن يمسح من فوق سبورة كل ما كتبه عليها .. كان يحاول أن يمسح من رأس سامية كل ما قاله لها .. لقد أراد أن يضمها الى جانبه .. أراد أن يقنعها برأيه في الحياة .. أراد ان يقدم لها الثراء والنعيم .. ولكنها غبية هذه الفتاة ، كأبيها وأخيها .. وهو يحب هذه الفتاة الغبية .. لماذا يحب الأذكياء أمثاله هؤلاء الفتيات الغبيات. لماذا لا يكف عن محاولة الزواج بها .. لا .. سيتزوجها .. وسيقدم لها الثراء والنعيم رغم أنفها ، ودون ان تعلم من اين أتى به .. وهو ليس في حاجة اليها لتنفيذ خطته سينفذها وحده .. وسيصل .. انه يرى طريقه واضحاً ينيره الذكاء..

ورفع عبد الحميد عينيه على صوت سامية قائلة : وكلفك بايه ابراهيم ؟

قال وهو ينظر اليها كأنه لا يزال يسائل نفسه لماذا يحبها .. وماذا يحب فيها : ما اقدرش اقول لك .. سر ..

ثم قفز من فوق حافة السرير وهو يقول : أما أقوم بأه قبل ما عمي يصحى، ويقول لي كلمتين مالهمش لازمه !..

واتجه إلى الباب .. ثم استدار إلى سامية وقال في ضعف .. يستغربه من نفسه : خليكي معايا يا سامية .. واطمني ..

وودعته سامية بعينين تختلجان بالحيرة .. الحيرة بين العملية الحسابية التي اقتنع بها عقلها والتي ترفض قبول عبد الحميد زوجاً ، وبين عواطفها التي تربطها بصباها مذ كانت تعد نفسها زوجة له .. وودعته صامتة بلا كلام .. وخرج عبد الحميد ..

وعاد اليوم يسير مع دقات الساعة كما تعود أن يسير منذ جاء ابراهيم .. بطيئاً . غاية في البطء .. مرهقاً ، غاية الارهاق .. والقلوب مثقلة .. لم يجد

عليها عذاب جديد، الا عذاب قلبين يقف كل منهما على حافة هاوية تفصله عن الآخر.

كانت نوال لا تستطيع أن تنسى أن ابراهيم سيترك البيت غداً. ولا تطيق ان تتصور البيت وليس فيه ابراهيم .. بل لا تطيق ان تتصور نفسها بعيدة عن ابراهيم .. ليس بجانبها .. ولا تراه .. ولا تنشغل به .. ولا تلتقط أنفاسه .. وحاولت كثيراً ان تنسى الغد .أن تنسى ابراهيم وتنسى نفسها .. كانت تتحرك كثيراً بين حجرات البيت .. وكانت تحاول ان تشغل نفسها بكل كبيرة وصغيرة تصادفها .. ولكن رأسها وقلبها كانا دائماً مع الغد .. وكانت ترى الغد يوماً أسود يفغر فاه مخيفاً كأنه باب الجحيم .. وحاولت ان تقنع نفسها بأن عواطفها مجرد اوهام .. وحاولت أن تتصور نفسها اكبر من سنها ، عاقلة رزينة ، لا تتعلق بالاوهام .. ولكنها فشلت .. وعشرات الافكار تطرأ على رأسها .. افكار مجنونة طائشة .. انها تفكر في أن تهرب معه من البيت .. وتفكر في أن تمزق البدلة التي حملتها له .. انها تكره هذه البدلة .. تكرهها كأنها كفن سيلف ابراهيم .. سيلف حبها ، قبل أن يدفن .. وتفكر في أن تصرخ .. وتفكر في أن تنتحر .. لا تريد ان تراه يبتعد عنها .. انه ليس حلماً من احلامها التي تصبر عليها .. انه حقيقة لمسته بيديها .. انه اول طارق يفض غلاف القلب البكر .. لا .. لن تتركه يذهب .. ولكن .. ان كل افكارها تتحول إلى دموع .. دموع تنسكب في قلبها .. ثم يفيض بها القلب فتنسكب على وسادتها .. والليل من حولها صامت ثقيل ، كأنه صحراء سوداء ..

وفي الحجرة الاخرى كان يرقد ابراهيم .. انه أيضاً يتعذب .. ولا يستطيع أن يحد سر عذابه .. بل لا يريد أن يجده ويعترف به .. وهو يحاول يائساً أن يستجمع ارادته ليفكر في خطة هربه .. في الغد .. ويحاول ان يتحمس لهذا الغد .. وان يفرح به .. لقد نجح في أول مراحل الهرب ، ومن حقه ان يفرح ، وأن يتفاءل ، وان يتحمس .. لكنه لا يستطيع .. انه يحس بفتور وهو يستقبل غده . ويحس بتكاسل كأنه لا يريد أن يرى الغد .. كأنه يريد أن يكون هذا اليوم هو الأبد .. لا يوم آخر بعده .. كأنه لا يريد أن يغادر هذا البيت ..

وكل ما في البيت تتوالى صوره في رأسه .. مكتب محيي .. وحنفية الحمام .. والسندرة التي اختبأ فيها مرة .. وحجرة القعاد .. وكوب الشاي .. و .. صور أهل البيت تتراءى أمامه كالخيالات .. صورة الأب وقد اختلطت بصورة أبيه .. ولا يستطيع ان يفرق بينهما .. وصورة الأم وقد اختلطت بصورة أمه .. وسامية .. ومحيي .. و .. لا .. انه لا يريد أن يراها .. لا يريد أن

يرى نوال حق في خياله .. انها ليست من حقه .. ليست من حق خيـاله ولا قلبه .. ولكن قلبه وخياله يلحان عليه .. ويتغلبان على إرادته ، فيطلقها وراءها ...ويتجرع مزيداً من العذاب .. عذاب الحرمان حتى من الأمل .. ثم يعود مرة أخرى يحاول ان يتغلب على عذابه .. يحاول ان يقنع نفسه بانه لا يحب .. ولا يمكن ان يحب .. ان حياته كلهـا لم يكن فيهـا مكان للبنات .. وهي الآن أضيق من ان تتسع لنوال .. ولكن قلبه وخياله أوسع من حياته . وهما يتسعان .. ويتسعان .. إلى أن يفسحا مكاناً كبيراً لنوال .. بـــل هو يستطيع ان يتصور نفسه زوجاً لها .. ويستطيع ان يرى نفسه يخرج في الصباح إلى عمله ويعود ساعة الغداء ، ونوال تودعه في خروجه ، وتستقبله في عودته .. ما أسعد هؤلاء الناس البسطاء الذين يذهبون إلى أعمالهم ويعودون منها ، وما أهنأهم وما أطيب حياتهم . ثم يضم أصابعه فوق كفه ، ويضغط عليها بكل أعصابه كأنه يحاول ان يخنق نفسه ، يخنق قلبه وخياله وآمالاً ليست من حقه.

وأتى الغد .. ودخلت نوال إلى ابراهيم ، بعد ان خرج أبوها وأخوها ، تحمل له صينية الافطار .. كان السهر يرسم حول عينيها هالتين من السواد ، كأنهما عشان للأرق .. وكأنها لم تنم طول عمرها . وكانت غاضبة .. غاضبة من نفسها ومن ابراهيم ومن عذابها ..

وقال لها ابراهيم وهو يحتضنها بعينين يائستين : مالك ؟

قالت وهي تضع الصينية على المكتب ودون ان تستدير إليه : ما ليش !!

وسكتت .. وسكت معها .. وترددت برهه ، ثم استدارت لتخرج فقال ابراهيم كأنه يتعلق بها حتى لا تتركه وحده : أقدر أطلب منك خدمة ؟

قالت وظهرها له وهي تبدو كالثائرة : أتفضل ..

قال بعد تردد كأنه يبحث عن الخدمة التي يطلبها منها :

– والله البدلة اللي جبتيها امبارح جيبها مقطوع .. ممكن تخيطيه ، أصلها بدلة ضابط وما يصحش يكون فيها حاجة مقطوعة .

وحاول أن يضحك .. فبدا كأنه يبكي ..

وقالت نوال وهي تستدير له : هيه فين ؟.

وفتح ابراهيم الدولاب وأخرج سترة البدلة ، وناولها لها ..

وأخذتها نوال وهي تبحلق فيها كأنها ترى الكفن الذي تخيلته في ليلتها .. وظلت واقفة لا تتحرك ، والسترة في يدها تبحلق فيهـا بعينين فزعتين .. ثم فجأة .. انهمرت دموعها .. ثم تدلى ذراعها إلى جانبها حتى سقطت السترة على

الأرض .. وارتمت فوق الدولاب ، ورأسها فوق ذراعها الثاني .. وأصبحت دموعها نشيجاً حاداً ، تحاول ان تكتمه فلا تستطيع ..

وبهت ابراهيم .. ونضح وجهه بالعذاب ، كأنه هو الآخر يهم بالبكاء ..

واقترب منها ، ورفع ذراعيه كأنه يهم بأن يحتضنها ليتلقى دموعها فوق صدره .. ولكنه عاد وخفضهما .. ووقف حائراً مرتبكاً لا يدري ما يقول ولا ما يفعل .. ثم قال وكلماته تتمزق بين شفتيه : ليه بس يا نوال ؟؟

والتفت اليه ، وقالت من بين دموعها :

– طبعاً انت ما يهمكش حاجة .. حيهمك ايه يعني ؟

قال في أسى : أزاي ما يهمنيش يا نوال .. أنا ما بقاليش حاجـــه تهمني في الدنيا إلا أنت ..

قالت وهي تنظر اليه كأنها لا تصدقه :

– لو كان يهمك ما كنش تسيب البيت من غير ما تقول لي رايح فين ، ولا أقدر أطمن عليك ازاي ، زي ما تكون خايف مني .

قال وهو يطأطىء رأسه كأنه يلقيه من فوق عنقه :

– أنا خايف عليكي .. خايف عليكي مني .. أنا حياتي كلها خطر .. واللي بيدخل فيها بيعيش معايا في خطر . كفاية اللي استحملتوه علشاني اليومين دول ..

قالت في حنـــان وهي ترفع رأسها اليه : أنا ما يهمنيش الخطر .. إنمـا يهمني اني أطمن عليك .. يمكن تكون عايز حاجة أقـــدر أعملها لك .. مش جبت لك البدلة !! يمكن أقدر أجيب لك حاجة تانية ..

قال وهو يهرب من عينيها :

– أحلف لك أني مش عارف حا أخرج من هنا أروح فين ..

قالت وقد عادت تتحدث كأنها تهم بالبكاء مرة ثانية :

– ما ليش دعوة .. لازم فيه طريقة توصلني لك .. قول انك مش واثق مني .. قول اني ما همكش ..

وسكت .. وألقى برأسه مرة ثانية من فوق عنقـــه .. وقطب ما بين حاجبيه يفكر ، وكان الوقت أضيق من ان يتسع للتفكير الهادىء ، فيزداد تقطيب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يعصر مخه كله في لحظة واحدة ..

ونظرت إليه برهة طويلة ، ثم استدارت لتخرج وهي تنتفض كالعصفور الجريح ؛ ورفع رأسه وراءها ، وقال كأنه يبتهل اليها : نوال .

وتوقفت .. والتفتت اليه وهي تكاد تنهار ..

وقال كأنه عدل عن رأيه ،واختار شيئاً آخر يقوله : مش حتصلحي البدلة ؟

وتقدمت نحوه خطوات .. وانحنت تلتقط سترة البدلة من على الأرض ، وانحنى معها في نفس الوقت .. وتلامست أيديهما فوق السترة ، فسرت في كل منهما رعشة كأن الحياة تتدفق في عروقهما لأول مرة ، لتروي جسديهما بالحب ..

وتباعدت الأيدي سريعاً .. وقال في صوت مبهور كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم : إسمعي .. الطريقة الوحيدة .. اني بعد ما أسيب البيت ، تروحي كل يوم اثنين وكل يوم أربع تستني في ميدان عبدالمنعم الساعة حداشر الصبح .. وأنا لو قدرت ، ولو كنت لسه في مصر ، حا أقابلك هناك ، ولا حابعت لك واحد يطمنك علي ويقول لك اني فين .. ما فيش قدامنا إلا الطريقة دي ..

وأضاءت وجهها ابتسامة . واحمرت وجنتاها ، كانها أطلتهـا من وراء الليل مع نور الفجر .. ورفعت اليه عينيها ثم خفضتهما سريعاً كأن الحب أقوى من أن تراه بعينيها ..

وقال كأنـه يبرر خطته : أنا اخترت ميدان عبد المنعم علشان قريب من البيت .. وما تبقيش تستنى كتير .. ربع ساعة بس .. إذا مـا جيتش تعرفي اني ما قدرتش آجي ..

قالت كانها تعاتبه لأنه يشككها في آمالها : لأ .. حاتيجي باذن الله !

وحملت السترة .. وخرجت تسير كانها تسبح في أحلامها .. وقلبها البكر ينبض باول موعد غرام ..

١١

عقرب الساعة يدور ..

وقلب نوال يخفق بأول موعد غرام في حياتها ، وهي جالسة في حجرتهـا فوق فراشها تصلح سترة البدلة التي سيرتديهـا ابراهيم في هربه .. بدلة الضابط.. ولم تعد تتصور هذه البدلة كفناً لابراهيم .. أو لحبها.. انها تضمها بأصابعها كأنها تحتضن أحلامها ، وتمرر ابرتها في نسيجها بحنان وحرص كأنها تخشى على النسيج ان تجرحه الأبرة ، وتنظر اليها بعينين مبتسمتين كأنها تنظر إلى ثوب عرسها .. هل سيأتي ابراهيم للقائها وهو مرتد هذه البدلة .. كيف يبدو بها .. وابتسمت وهي ترى في خيالها قامته الطويلة النحيفة ، وعينيه الواسعتين ، وشفتيه الرقيقتين فوق فكه العريض القوي ، وانفه الكبير كأنه رأس سهم موجه إلى صدر عدوه ..

وكل ذلك في بدلة ضابط .. واتسعت ابتسامتها ثم احمرت وجنتاها وهي تسمع أجراساً رقيقة عذبة تدق في صدرها كأن خيالها قد انتقل من أمام عينيها وسرى في جسدها كله ، وأصبحت تحس بابراهيم ملتصقاً بها .. ملتصقاً بها جـــداً .. صدره فوق صدرها .. وشفتاه قريبتان من شفتيها .. وأنفاسه تملأ أذنيها .. وانحنت فوق البدلة في خفر كأنها تميل فوق عنق ابراهيم .. وكتمت ابتسامتها بين شفتيها حتى لا تفضح خيالها .. ولكن كل شيء فيها ظل يبتسم .. انها سعيدة .. سعيدة جداً .. ولا شيء يمكن أن يقلل من سعادتها .. لقد اختفت المأساة من حياتها ومن تفكيرها ، ولم يخطر على بالها ان ابراهيم قد لا يأتي إلى لقائها .. قد يقبض عليه .. وقد يستمر في هربه حتى يتجاوزها ويتجاوز مكان اللقاء .. كانت ثقتها فيه اقوى من كل الاحتمالات ، انه أقوى من البوليس وأقوى من أن يخلف وعداً لها ، ستلقاه يوم الاثنين ويوم الاربعاء .. وكل يوم اثنين واربعـــاء .. ورغم ذلك فهناك في أغوار نفسها ظل يتحرك .. وهي تخاف على سعادتها من هذا الظل . انه ليس خوفاً من البوليس .. ولا خوفاً على مصير ابراهيم .. لن يحدث له شيء .. هذا مؤكد .. ولكن السعادة عندما تفيض إلى هذا الحد يخاف المرء أن يفقدها .. كأن من طبيعة القدر ألا يمنح السعادة الا ليأخذها بعد حين .. لا يعطي الا لياخذ .. وكأننا نحن البشر قطع من الحديد قضى علينا ان نصهر في الحوادث حتى نموت .. يلقى بنـــا القدر في أفران الشقاء .. ثم يرفعنا ويلقي بنا في المـاء البارد العذب ليطفىء نارنا وننفث في ارتياح أبخرة الشقاء .. ثم تتوالى علينا المطارق .. ثم نصهر من جديد في الافران .. ثم الماء العذب والراحة .. ثم المطارق . ثم .. الموت .. كلنا في هذه الحياة سواء لا مفر لواحد منـا .. لكل نصيبه من الشقاء ونصيبه من السعادة .. كل شيء بميزان .. اشتراكية الهيه توزع السعادة والشقاء بالأقة والدرهم. لا سعادة « مشفية » ولا شقاء « مشفى » .. انما لحم على عضم !!

ووجدت نفسها تتوجه إلى الله ، وتتوسل اليه أن يصون سعادتها .. أن يعفيها من نصيبها من الشقاء .. وسمعت صوتاً من داخلها يتمتم : « اللهم اجعله خير » . ثم عادت تنعم بخيالها .. نعيماً صافياً لا يعكره خوف ولا شك ..

وحملت السترة بعد أن أتمت اصلاحها وذهبت إلى ابراهيم في الحجرة المجاورة .. طرقت الباب ، ودخلت وهي تسير في خفر كأنها تزف اليه .. ومدت له يدها بالسترة ، ورفعت عينيها اليه فالتقتا بعينيه تضمانها برفق ورحمة .. ولم يتكلما .. مد يده وأخذ منها السترة .. ولم يستطع حتى أن يلفظ كلمـة شكر ..

كأنه وضع لسانه وقلبه وذهنه في عينيه اللتين تضمانها برفق ورحمة ..

واستدارت في بطء كأنها لا تستطيع أن تخلص نفسها من عينيه .. وخطت خطوتين نحو الباب .. ثم توقفت .. وعلت شفتيها ابتسامة صغيرة كأنها تطلق رنين الاجراس من صدرها .. وفكرت قليلاً .. ثم استدارت مرة ثانية وواجهته وقالت في صوت خافت وفي حياء : معاك قلم !؟ ..

قالتها واتجهت الى مكتب اخيها واخذت تبحث فوقه عن ورقة بيضاء .. ونظر اليها ابراهيم دهشاً ، وهو يبتسم ، ثم بدأ يبحث معها فوق المكتب عن قلم ، دون ان يسألها عما تنويه ..

ونزعت نوال ورقة بيضاء من احدى كراسات أخيها ، ثم وضعتها امـــام ابراهيم والقلم في يده ، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها كأنها ترشوه بها : أكتب هنا « لا اله الا الله » !! وازدادت دهشة ابراهيم وقال وقد ارتفع حاجباه : ليه؟!

قالت وهي لا تزال تبتسم : أكتب لي . علشان خاطري ! وانحنى ابراهيم وكتب « لا اله الا الله » ..

وأخذت نوال الورقة ، ثم اخذت القـــلم من يده ، وانحنت تكمل السطر وكتبت « محمد رسول الله » ..

ودون ان تتكلم ، القت القلم فوق المكتب ، ثم أمسكت الورقة وقطعتها الى ورقتين .. ورقة تحمل « لا اله الا الله » التي كتبها بخط يده ، وورقة تحمل « محمد رسول الله » التي كتبتها بخط يدها .. ثم اعطته الورقة التي تحمل خط يدها وشهادة ان « محمد رسول الله » وقالت وهي تبتسم :

– خللي دي معاك دايما . اوعى تضيعها !!

واحتفظت لنفسهـــا بالورقة الاخرى التي تحمل شهادة « لا اله الا الله » ، واستطردت قائلة في خفر وهي تطوي الورقة بأصابعها في حرص ، دون أن تنظر اليه : أصل بابا كل ما يسافر ، بيكتب هوه وماما ورقة زي دي .. علشان يرجعوا لبعض تاني !!

ولم ينتبه ابراهيم الى سذاجة الفكرة .. بل لم يشعر بالفكرة نفسها .. انما شعر بحب كبير . والتمعت عيناه كأنها تشعان حباً . ودون ان يتعمد امتدت ذرعاه ، وأمسك بكتفي نوال ، وقال كأنه يشهد : نوال ..

ولم تجبه .. ولم ترفع جفنيها عن عينيها . ولم تحس بكفيه وقد ألقـــاهما فوق كتفيها .. انما أحست بدمائها تتسابق الى وجنتيها ، وكأن الدماء في سباقها فاضت عن عروقها . وأحست بحبها اكبر من قلبها حتى لم يعد يستطيع ان يسعه .. وأحست بروحها اكبر من جسدها حتى يرتج جسدهـــا من ضخامة الروح ..

وصحب نشوتها أحساس بانها يجب ان تقاوم . حتى لا يفيض حبها عن قلبها ، ولا تفيض روحها عن جسدها ، ولا تفيض دماؤها عن عروقها ..

لماذا تقاوم ؟! . لماذا تقاوم نفسها ؟!..

لا تدري .. ولكنها يجب ان تقاوم ..

وسحبت نفسها في رفق من بين كفيه وسارت بخطوات سريعة مرتبكة نحو الباب ، كأنها تهم ان تطير فلا تستطيع .. ثم التفتت اليه قبل ان تخرج ، وقالت وهي تتزود منه بنظرة اخيرة ، وفي صوتها رنين الاجراس الصغيرة : مش عايز حاجه !

ونظر اليها في ابتهال ، وعيناه تسألانها في رجاء : « لماذا تتركيني ؟ » ثم ارتد السؤال اليه ، وحملت عيناه شحنة كبيرة من اليأس ووجد نفسه يتساءل : « لماذا اتركها . لماذا أغادر هذا البيت .. لماذا لا ابقى فيه بجانبها .. متى استريح ، واهدأ . واستقر .. لماذا لا اكون واحداً من هذه الملايين الهادئة ، المستريحة ، المستقرة . واحداً من سكان هذا البيت .. انها لا تدري .. لا تدري انها ستفقدني ، وسأفقدها » ..

ونظر اليها كأنه يشفق عليها من مصيره ، وقال في صوت خافت : متشكر.

ثم كأن ماردا استيقظ في صدره .. المارد الذي جعل منه بطلا.. فاستطرد وقد تغيرت نبرات صوته ، واصبحت اكثر قوة : بالحق .. بلاش تقولي لحد اني حاسيب البيت النهار ده الا بعد عمي ما ييجي وينام ويصحى من النوم ..

قالت مبتسمة : حاضر ..

ثم استطردت وهي تشير بعينيها الى الورقة الصغيرة التي لا يزال يحملها بين أصابعه : أوعى تضيع الورقة اللي معاك !؟ ..

قال وقد عاد صوته حنوناً : مش ممكن !؟..

وخرجت نوال.. وهرعت إلى غرفتها وهي لاتزال تحاول ان تطير فلاتستطيع ثم فتحت دولابها وأخرجت علبة صغيرة من الذهب بداخلها مصحف صغير .. وحملتها وجلست على سريرها ، وفردت الورقة التي كتبها ابراهيم .. وأخذت تقرأ « لا اله الا الله » كأنها تقرأ خطاب غرام للمرة العاشرة وتقبل كل حرف فيه بعينيها.. ثم عادت وطوت الورقة ،وفتحت العلبة الذهبية الصغيرة ووضعتها فيها .. تحت المصحف الصغير .. ثم أغلقت العلبة وعلقتها حول رقبتها ، وتركتها تتدلى فوق قلبها ..

* * *

وعقرب الساعة يدور .. والحياة في البيت تسير كما تعودت ان تسير .. الأم في المطبخ وسامية تتحرك متكاسلة كعادتها . تقف فترة بجانب أمها في المطبخ، ثم تتذكر انها لم تعقص شعرها ، فتدخل إلى غرفتها وتقف أمام المرآة ، وقبل ان تتم عقص شعرها ، تعود ثانية إلى المطبخ والمشط في يدها .. ثم تضع المشط بين أسنانها ، وترفع غطاء وعاء وابور الجاز .. وتقلب ما فيه .. ثم تعود إلى مرآتها، وتتم عقص شعرها ، ثم تتذكر انها يجب ان تبدل ثيابها فتفتح دولابها .. وبدل ان تخرج الثوب الذي تريديه ، تجلس على الارض بجانب الدولاب وتأخذ في ترتيب محتوياته .. وابراهيم سجين في غرفته ، والورقة الصغيرة بين يده ، يقرأها ويحقق في خط نوال .. الالف طويلة.. والحاء مضحكة .. ويبتسم .. ثم تنتابه نوبة من اليأس ، تعقبها نوبة من التصميم على تحدي الحكومة ، والبوليس والانجليز ، حتى ينقذ حياته .. من اجلها.. ثم يتنهد كأنه يتنفس من تحت جبل .. ونوال نشوى بسعادتها .. لا تكف عن الحركة .. تطوف بحجرات البيت ، وكل ما تلمسه تحيله نظيفاً أنيقاً مرتباً . وتدخل المطبخ فتنشط «وابورات الجاز» وتزداد حرارة الحلل .. والعلبة المذهبة التي تحمل ايمانها وأحلامها تتأرجح فوق صدرها ، وتلتصق حيناً بثوبها ، وتهتز حيناً فتتخبط بين نهديها كأنها تبحث عن مكان تنفذ منه إلى القلب .. وجاء محيي في موعده .. لا جديد .. ولكنه يبدو أكثر قلقاً .. كأن دقات الساعة تنقر فوق اعصابه .. وهو يحاول ان يخفي قلقه .. ان يخفي تعجله للساعة التي يخرج فيها ابراهيم من البيت .. وكلما أمعن في محاولته ازداد اضطراباً وتعثر في تصرفاته وكلماته.. وأوصاه ابراهيم الا يبلغ والده خبر مغادرته البيت الا بعد ان يعود الوالد وينام ، ويصحو من نومه .. ولم يكن ابراهيم يرمي من وراء ذلك الا ان يحصر الخبر في أقل عدد من أفراد البيت .. حتى لا يتسرب إلى عبد الحميد .. أو حتى لا يضطرب سير الحياة في البيت اضطراباً قد يثير انتباه عبد الحميد — اذا جاء — فيداخله الشك ويعود إلى مراقبة البيت .. وقال محيي كأنه يواجه مشكلة عسيرة : واذا بابا سألني ازاي عرفت تتصل بأصحابك.. أقول له ايه ؟!..

واجاب ابراهيم بعد تفكير :قول له انك قابلت واحد منهم في الجامعة .. وانك اتفقت معاه على أنه يستناني بعربية ..

وقال محيي في اقتضاب : معقول ..

واستطرد ابراهيم : وأكد لعمي ان ماحدش من اصحابي عرف اني متسخبي عندكم

وهز محيي رأسه موافقاً .. ثم كأنه تذكر شيئاً ، فعاد يقول :

– ولما يشوفك خارج وانت لا بس بدلة ظابط ؟!..

وقال ابراهيم : قول له انك انت اللي جبت البدله من صاحبي !

وسكت محيي ، كأنه لا يملك الا السكوت .. وجاء الوالد .. في موعده أيضاً .. يسير على مهل وهو يزحف بقدميه ، وكأنه يخفي ابراهيم في ثيابه ويخشى ان تسقط عنه ثيابه فيبدو ابراهيم من تحتها . وهو أكثر من قلق .. انه بائس .. حزين .. ممتعض من الحياة كلها .. وهو متعب من طول التفكير في المشكلة التي يعيش فيها ، ففضل أن يتخلص من التعب باليأس والاستسلام .. واصبح كل ما يبذله من مجهود ، هو مجهود لوقف تفكيره وتجاهل كل ما يدور حوله . وحيا أولاده وأعطى جريدة الاهرام إلى محيي ليحملها إلى ابراهيم .. ودخل غرفته وأغلق بابها وراءه ..

وجاء عبد الحميد كما توقع ابراهيم .. جاء يفوح ذكاؤه من حوله .. ولم يبق طويلاً .. دخل وجلس مع ابراهيم ومحيي ، وأكد لابراهيم انه اتصل بصديقه ضابط البوليس الذي يعمل في المحافظة وانه سيعرف منه اسماء المعتقلين غداً.

وقال ابراهيم في رزانة : انشاء الله .. شد حيلك .. ده انت بتعمل لي خدمة كبيرة قوي !..

ولم يكن عبد الحميد قد اتصل بضابط البوليس .. ولا حاول الاتصال به بعد ولكنه اراد أن يربط نفسه بابراهيم وان يشعره باخلاصه .. ثم قام وبحث عن سامية ، ونظر اليها بعينين ضاحكتين وقال : ازيك يا بنت عمي !..

وقالت ، وهي تشيح عنه بدلال : الله يسلمك ..

قال ، وهو يبتسم : وحشتك ؟!

قالت ، وهي تنظر اليه بطرف عينيها : يا سم !..

واتسعت ابتسامته كأنه تلقى منها اعترافاً بحبها .. وخرج من البيت وهو يسير على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ عمه من نومه ، وحتى لا ينبهه إلى وجوده في البيت .. واستيقظ الأب في الساعة الخامسة .. وكانت يقظته بمثابة يقظة البيت كله .. عادت الحركة ، وبدأ الأستعداد لطعام الافطار .

ودخل الأب إلى الحمام . وخرج ليؤدي فريضة صلاة العصر .. ثم جلس على الأريكة في حجرة « القعاد » وهو ساهم .. لا يفكر ، ولكنه يحاول ان يهرب من أفكاره ..

وجاء محيي يحمل جريدة الاهرام .. وتناولها منه الأب . وأسقط عينيه تواً فوق صفحاتها . وظل محيي واقفاً قبالته متردداً حائراً ، حتى اضطر والده

ان يرفع رأسه إليه، قائلاً في تساؤل عصبي: ابه .. فيه ايه ؟ مالك واقف كده ؟

وقال محيي بسرعة كأنه يحاول ان يتخلص من حمل ثقيل :

– ابراهيم حايسيب البيت النهار ده !..

واتسعت عينا الأب حتى صغرت بينهما نظارته، وقال في شهقة كأنه ابتلع حفنة من ماء : بتقول ايه ؟!

وعاد محيي قائلاً : ابراهيم حايسيب البيت و ..

وقاطعه الأب : أمتى .. الساعة كام ؟!

وقال محيي : ساعة ما المدفع يضرب !..

وأحس الاب انه ينفس عن عذاب كبير .. وأحس بابتسامة كبيرة تملأ صدره .. ولكنه قدر أن المناسبة تقتضي منه ان يخفي ابتسامته، وان يكبت الراحة التي يحس بها .. فسيطر على تعابير وجهه حتى يظل محتفظاً بامارات الجد، وقال وهو يدعي اللهفة : انما هو عمل حسابة كويس . مطمئن انه حايسيب البيت من غير ما يجري له حاجة ؟!.. ولم يكن الاب يتظاهر بهذه اللهفة أمام ابنه، انما كان يتظاهر بها أمام نفسه .. كان يريد ان يرضي بها عواطفه، وشهامته، واحساسه الطبيعي بخلقه الكريم.. ولذلك لم يهتم كثيراً برد محيي عليه قائلاً :

– أيوه .. هو عامل خطة وماشي عليها !..

وقال الاب وهو لا يزال يدعي اللهفة : وحايروح فين بعد مايخرج من هنا؟.

وقال محيي وهو لايزال واقفاً أمام أبيه كأنه موظف يقدم تقريره الى رئيسة :

– ما اعرفش والله .. كل اللي أعرفه ان فيه جماعة أصحابه منتظرينه ..

ورفع الاب عينيه الى ابنه وقال كأنه يوجه اليه اتهاماً : واتصل باصحابه دول ازاي؟

وقال محيي وهو يخفي عينيه عن أبيه : قابلت واحد منهم في الجامعة .. واتفقت معاه

ونظر الاب اليه نظرة اختلط فيها الغضب بالذعر .. وقبل ان يتكلم استطرد محيي قائلاً كأنه يدافع عن نفسه : انما ماحدش منهم عرف انه قاعد عندنا ..

وظل الاب ينظر إلى ابنه بعينيه الغاضبتين المذعورتين برهة .. ثم حول عينيه عنه، كأنه قدر ان الوقت ليس مناسباً لتأنيبه، أو كأن فرحته الخفية بمغادرة ابراهيم البيت قد كفرت عن تمادي محيي في مساعدته .. وزم شفتيه وقال :

– هيه .. بأه كده !.. وسكت ..

وشجع سكوته محيي، فقال، مستطرداً : وجبت له منهم بدلة ضابط .. علشان يلبسها وهو خارج! وعاد الأب ينظر إلى ابنه في دهشة كأنه لا يصدق انه يستطيع ان ينغمس في المؤامرة إلى هذا الحد .. وبذل مجهوداً كبيراً حتى لا

يصرخ في وجهه مؤنباً ثم قال بعد برهة صمت : ربنا يكتب له السلامة ..

وأحس انه لا ينافق وهو يدعو لابراهيم بالسلامة .. أحس انـه مخلص فعلاً بالدعاء له ، وان سلامة ابراهيم متعلقة بسلامته شخصياً وبسلامة بيته .. ثم بدأ شعوره بالراحة يطغى عليه .. شعر انه أدى واجباً وانتهى منه سالماً .. ثم شعر ببصيص من الزهو والفخر يملآن نفسه .. ألم ينقذ بطلاً وطنياً .. ألم يحم في بيته رجلاً التجأ اليه .. ألم يكن شهماً .. أليست هذه هي الرجولة .. لقد قام بعمل سيسجل له طول عمره .. ان لم يسجل في التاريخ فسيسجل على صفحات نفسه .. وسيكون فيه درس لابنه .. درس يعلمه ان الوطنية ليست هتافات ، ولا مظاهرات ، ولا منشورات ، ولا اغتيالات .. ولكنها خلق ، ورجولة وشهامة ..

وكان محيي قـــد خطا خطوتين وجلس فوق مقعده المفضل .. المقعد « الأسيوطي » .. ولكنه ما كاد يجلس ، حتى قام والده من جلسته ، وقـال له وهو يتحسس موضع الشبشب بأصابع قدمه : تعال معايا !!

وسار الوالد إلى غرفته وخلفـــه محيي . ثم بحث عن حزمة من المفاتيح موضوعة فوق « الكومدينو » بجانب السرير .. واتجه إلى « الشيفونيرة » وفتح درجاً من أدراجها وأخرج محفظة صغيرة قديمة ، فتحها فظهرت فيهـــا مجموعة صغيره من أوراق النقد ، التقط من بينها ورقة من ذات الخمسة جنيهات أعطاها لمحيي قائلاً : أدي دول لابراهيم .. يمكن يحتاج لهم !

ونظر محيي إليه في دهشة ، كأنه لا يصدق ان والده يمكن ان يتمادى في كرمه وعطفه إلى هذا الحد ، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة كأنه تذكر طيبة قلب أبيه ، وقال : ربنا يخليك للناس كلها يا بابا ..

وأدار الأب وجهه عنه متشاغلاً باعادة وضع المحفظة في الدرج حتى لا يرى ابنه ضعفه أمام عواطفه .. وقال : والدتك عرفت بالموضوع ؟..

وقال محيي : لسه .. حضرتك أول واحد يعرف !

وقال الأب : مش حاتقول لها ؟!

وقال محيي : حاضر ..

ودخلت الأم ، آتيـــة من المطبخ وقطرات من العرق تتناثر فوق وجهها كحبات من النور المتبلور ، وقالت وهي تتحدث في عجلة :

– ايه اللي مقعدكم هنا في أودة النوم ؟..

ثم استطردت دون ان تنتظر جواباً : النهار ده ما تعملوش حسابكم على حاجة .. احنا مهيفين .. ما فيش إلا عدس وكشري .. أصلي خلاص عدمت

من المطبخ وشغل البيت .. من بكره تشوفوا لـكم حل . سامع يا زاهر ..
وقال الأب وهو يبتسم : قول لها يا محيي ! .
وتردد محيي وقد علت شفتيه ابتسامة هو الآخر ، وعادت الأم تقول :
– يقول لي ايه .. يا اختي ما تتكلموا ؟.. أنتم مخبيين أيه ؟
وقال الأب وهو ينظر اليها في حنان : ابراهيم حايسيب البيت دلوقت !..
وردت الأم في عجلة : بركه ..!!
ثم تنبهت إلى أنها تسرعت في الإفصاح عن عواطفها ، فاستدركت قائلة : وماله مستعجل ليه؟ .أوعى يكون زعل من حاجه. ده خلاص بقي واحد منا!
وقال محيي : ما زعلش ولا حاجه .. هوه كان عامل حسابه على كده ..
وجلست الأم على الكنبة الموضوعة في مواجهة فراشها، كأنها تريح عواطفها.. وصمتت قليلاً واكتشفت خـــلال صمتها موجة حزينة تتجاوب في أعماقها .. شعرت بنوع من الأسف والحسرة ، كأن كل شيء قد صمت من حولها فجأة بعد ضجيج كبير كان يملأ حياتها ، ويثير فيها الاهتمام والنشاط .. كأن المدعوين في فرح ، أو المعزين في مأتم ، قد انصرفوا ولم يتركوا لها إلا ذكريات نشاطها في إقامة الفرح أو تنظيم المأتم ، وتمتمت في صوت حزين : والنبي صعبان عليه ..
وهم محيي ان يغادر الغرفة فاستوقفته والدته قائلة :
– ألا قولي لي يا محيي .. هو ابراهيم مش شايل مصحف ؟
وقال محيي : ما أظنش ..
وقامت الام من جلستها وفتحت درج « الكومدينو » وأخرجت مصحفاً صغيراً ناولته لمحيي قائـلة : خد يا بني ، أديـله المصحف ده .. ربنا يحميه .. وينجيه ، ويرجعه لأمه بالسلامة .. يا رب ..
وقال محيي وهو يتناول المصحف : قلبك فيه الخير يا ماما ..
ثم خرج من الغرفة ، وسار في خطوات سريعة إلى غرفته ، متلهفاً لاعطاء ابراهيم الهدايا التي يحملها اليه ..
وكان ابراهيم قد انتهى من ارتداء بدلة الضابط ، وبدا فيها فتى أنيقاً ..وكان واقفاً أمام المرآة ينظر إلى نفسه وبين شفتيه ابتسامة صغيرة .. لم تكن ابتسامة اعجاب بنفسه ، بل كانت ابتسامة أقرب إلى السخرية من نفسه .. كأنه يأسف بها على حظه في الحياة .. واستدار إلى محيي عندما دخل إلى الغرفة .. وقال محيي مبتسماً وهو يناوله الخمسة جنيهات : بابا باعت لك دول يمكن تحتاج لهم !
وتردد ابراهيم في أن يمد يده ..

وقال محيي وهو يقترب منه أكثر : مؤكد انك محتاج لهم . ده مش وقت كسوف يا ابراهيم !

وكان ابراهيم مقتنعاً فعلاً بأنه محتاج إلى هذه النقود .. بل ان احدى المشاكل الهامة التي كانت تصادف تفكيره وهو يضع خطة هربه هي مشكلة النقود .. كان وهو في السجن تصله النقود عن طريق والديه ، أمـا وهو هارب فكيف يعثر على والديه والنقود ؟

ومد يداً مترددة وأخذ الورقة ذات الخمسة جنيهات ووضعها في جيبه دون أن ينظر اليها ، وهو يقول في صوت متأثر : أنا مش عارف اشكركم ازاي ؟..

وقاطعه محيي وهو يمد اليه يده بالمصحف : وده من ماما !!..

وتناول ابراهيم المصحف ، ورفعه إلى شفتيه ، ثم وضعه في جيب سترته العلوي ، وهو يقول في حنان : ربنا يخليها .

وسكت قليلاً كأنه لا يستطيع أن يتكلم لبشكر . ثم رفع رأسه وقـال وهو يتنهد : فاضل اد ايه على المدفع ؟..

ونظر محيي إلى الساعة في يده وقال : خمس دقايق ..

واتجه ابراهيم إلى المكتب ، وفتح الدرج وأخرج مسدسه الصغير ، ونظر اليه في أسى .. كأنه يأسف لاضطراره لحمله .. بل كأنه يأسف لأنـــه عرف المسدسات يوماً .. انه لا ينظر اليه اليوم كما كان ينظر اليـه قبل أن يسجن .. ليس في نظرته حب .. ولا لهفة . ولا احساس بالقوة .. انه ينظر اليه كأنه زوجة لم يعد يربطه بها الا عقد الزواج .. وجذب خزان الرصاص من المسدس ، ونظر اليه كأنـه طبيب اسنان ينظر في أسنان مريضه . ثم حرك الزناد مرة ومرتين .. ثم أعاد وضع خزان الرصاص ، واخفى المسدس في جيب سترته الخارجي .. ومحيي وأقف خلفه ينظر اليه في حذر وخوف كأنه ينظر إلى أحد الحواة يلعب بالثعابين ..

والتفت اليه ابراهيم قائلاً . أقدر اسلم على عمي قبل المدفع ما يضرب ؟.

وقال محيي ، وهو واقف ينظر اليه كانه ينتظر أن يتحرك القطار بـــه ليلوح بيده مودعاً : اتفضل ..

وتحسس ابراهيم الجيب الصغير الذي يضع فيه الورقة التي تحمل خط نوال .. يريد أن يتأكد من وجودها .. ثم خرج من الغرفة مع محيي ، وفي طريقهما إلى حجرة « القعاد » التقت بهما سامية ، فشهقت شهقة حادة وقد رأت بدلة الضابط قبل ان ترى فيها ابراهيم ، ووضعت يدها على صدرها وهمست همسة حادة :

– بسم الله الرحمن الرحيم ..

ووقف ابراهيم قبالتها برهة ومد لهـــا يده مبتسماً ، وقال وهو يصافحها وينظر اليها في حنان وشكر : نشوف وشك بخير !..

وصافحته سامية مذهولة .. ولحقت به اختها نوال وهمست في أذنها :

– أصله حايخرج دلوقت .

واستردت سامية أنفاسها وهي تقول : ده انا اتخضيت .. انما تعرفي ان البدلة لايه عليه .. منتهى الوجاهة !..

وابتسمت نوال كأن الثناء موجه اليها . إلى رجـل تملكه .. ونظرت إلى ابراهيم وهو في بدلة الضابط وهي مبهورة يكاد قلبها يقفز من بين شفتيها ليستقر فوق كتفه بجانب النجوم . وسارت الاختان خلف الشابين إلى غرفة «القعاد» .

وانحنى ابراهيم يحاول ان يقبل يد الوالد منه قائلاً : استغفر الله .. اتفضل يا بني !.. وانحنى ابراهيم مرة ثانية يحاول ان يقبل يد الوالدة ، فجذبتها منـه قائلة : العفو يا بني .. ربنا يحميك ويحرسك !..

وجلس ابراهيم خجلاً مرتبكاً ، وبدا كأنه يهم بالقاء خطبة .. وابتلع ريقه مرة ومرتين ، وقال : الواقع يا عمي انا مهما قلت مش حا قدر اشكرك .. كفاية اني اقول لحضرتك اني جيت هنا وانا خايف تطردوني .. انما لقيت في البيت ده وطنية وشهامه ما لقيتهاش في أي حتة تانية ..

وقاطعه الاب قائلاً دون أن ينظر اليه : ما فيش لزوم يا ابني للكلام ده .. انا عملت الواجب ، وأقل من الواجب .. المهم سلامتك .. لازم تحترس .. انت ظروفك صعبة .. صعبة قوي !. وقال ابراهيم في ارتباك : ربنا يستر ..

وقالت الام : ربنا معاك يابني .. ربنا مع كل مظلوم .. وعلى كل ظالم ..

وصمت ابراهيم . واستدار تباكه .. كانت عواطفه اكبر من ان يعبر عنها. واكبر من أن تدعه يصمت .. ورفع عينيه يتنقل بهما بين وجوه أفراد العائلة كأنه يبحث فيها عن كلمة يقولها .. وتوقفت عيناه برهة على وجه نوال كأنه يستغيث بها . فلم يجد في عينيها سوى الحب . حب يزيد في عذابه .. ويستنفد كل طاقته في الضغط على أعصابه حتى لا ينهار أمامها . وحول نظره عنها .. ونظر إلى سامية لعلها تقول كلمـة يستطيع أن يرد عليها . ولكنها كانت صامتة .. وفي عينيها حزن عميق كأنها تنظر بهما إلى جثـة شهيد .. ومحيي .. انه ينظر إلى الأرض .. والوالد . انه يجهد نفسه هو الآخر في البحث عن كلمة .. وقد وجد كلمة هو نفسه مقتنع بعدم جدواها وقال :

– مش لازمك حاجه يا ابني .. أقدر أعمل لك حاجه ؟..

وقال ابراهيم في صوت مخلص :

– متشكر يا عمي .. حضرتك عملت لي اكثر مما استحق ..

وقال الوالد : العفو ..

ودوى صوت مدفع الافطار .. وقامت الأم قائلة :

– أما أقوم أغرف الشوربه .. ياللا يا جماعة !

وقام أفراد العائلة .. ووقف محيي فوق مسند المقعد وجذب سجادة الصلاة من فوق الدولاب ، وفردها على الارض .. ووقف الوالد متوجهاً إلى الله ..

وانتظر محيي وسامية ونوال أن يتقدمهم ابراهيم إلى غرفة الطعام، ولكنه ظل واقفاً ، وقال: اتفضلوا انتم .. انا حاسلم عليكم دلوقت، حانزل وانتم بتفطروا .. ولم يتحرك واحد منهم ونظر كل منهم إلى الآخر يدعوه إلى الكلام. واستطرد ابراهيم قائلاً : أرجوكم .. اتفضلوا انتم .. كل حاجة لازم تمشي طبيعي ..

وقالت سامية وهي تنظر اليه في شفقة : وانت مش حاتاكل ؟..

وقال وهو يشكرها بعينيه : لا ..

قالت في لهفة : ده انت ما كلتش من الصبح ..

وقال : معلش .. ما انا فاطر !..

وقالت نوال : طيب .. أعمل لك ساندويتش تاخده معاك ..

قال وهو يبتسم في حنان : مرسيه .. أصل ممنـــوع على الضباط يا كلوا ساندويتشات في الشارع .

وعادت الام من المطبخ وأطلت عليهم وهي تحمل سلطانية للشوربة ، وقالت وقد سمعت مايقوله ابراهيم : لا والنبي مش ممكن تنزل من بيتي وانت جعان ده حتى حرام

وقال في أدب : معلش ياطنط .. انا شبعان ..

ثم اتجه اليها والتقط يدها في يده .. واحتفظ بها حتى لا تجذبها منه ، وانحنى يقبلها كأنه يضع عمره فوق الكف الكريم وقالت : ربنـــا يحميك يا ابني ، ويكتب لك في كل خطوه السلامة ..

ثم صافح محيي في حرارة .. ونظر كل منهما إلى الآخر .. كأن في عيونهما كل ما يريدان قوله .. ثم صافح سامية وهو يبتسم لهـا ابتسامة كبيرة ، وقالت له وهي أقرب إلى البكاء : ربنا معاك .. ثم وضع يـده في يد نوال .. وتمنى ان لا يسحبها ابداً .. وأرخى جفنيه فوق عينيه كأنه لا يريد أن يرى أمنيته .. وسمعها تهمس : خد بالك من نفسك .. ثم بصوت اضعف : علشان خاطري .. وخرج أفراد العائله الواحد بعد الآخر إلى غرفة الطعام .. في خطوات حزينة بطيئة

كأنهم يشيعون فقيداً .. وجلس ابراهيم على مقعد وهو يتنهد كأنه تحمل في هذه اللحظة . لحظة الوداع اقسى ما تحمله في عمره . إلى ان انتهى الوالد من صلاته .. ولم يكن قد صلى الا بجسده .. كان عقله وقلبه متعلقين بما يدور حوله في الغرفة وبعد ان انتهى من الصلاة مد يده مصافحاً وهو يقول : مـــع السلامة ، واعتبر البيت دايماً بيتك وانا والدك ؟.. وانحنى ابراهيم يقبل اليد التي تصافحه ثم قال : أنا حاستنى دقيقة وحاخرج ، متشكر يا عمي ، متشكر جداً !..

وهز الوالد رأسه في صمت ، وخرج ليلحق بعائلته حول المائدة ..

ولم يبدأ أحدهم في الأكل .. ولم يتكلم أحد .. ظلوا واجمين ثم سمعوا وقع قدميه .. ولمحوا خيالاً يمر بهم .. ثم صوت الباب يفتح في حرص .. ويغلق في هدوء.. خرج ابراهيم .. والعائلة لا تزال واجمة .

وفجأة سقط رأس نوال فوق المائـدة واجهشت بالبكاء .. وانحنت سامية فوقها تربت على ظهرها .. واذا بها تبكي معها .. وازاحت نوال مقعدها بساقيها في عصبية .. وقامت تجري إلى غرفتها ودموعها تجري أمامها ..

وجرت سامية وراءها .. والأب ، والأم ، ومحيي صامتون ..

ومدت الام يدها ، وأمسكت « بكبشة » الشوربة وحركتها في السلطانية . ثم توقفت ومسحت بمعصمها دموعاً بدأت تتساقط فوق خديها .. ثم قالت وهي تعود وتمسك بالكبشة : والنبي دي حاجة تقطع القلب !..

١٢

دخل أفراد العائلة كل إلى غرفته . واستلقى كل منهم على سريره .. وقـد ارتخت أعصابهم بعد ان ظلت متوترة طوال الأيام الأربعة التي قضاها ابراهيم في البيت .. كان كل منهم يحس بنوع من الراحة كأنهم عادوا جميعـاً من رحلة شاقة متعبة ، أو كأنهم اجتازوا بسلام فترة مرض خطير ألم بهم ، وانتقلوا إلى دور النقاهة .. ضعف لذيذ واسترخاء واطمئنان ..

كان الأب مستلقياً على ظهره في فراشه ينظر إلى السقف وبين شفتيه ابتسامة صغيرة طيبة ، وأنفاسه منتظمة هادئة ، واحساسه بالزهو لا يفارقه .. احساس رب العائلة الذي قاد السفينة بمهارة وسط الامواج حتى وصل بهـا إلى شاطىء

الأمان .. ثم كان يستعرض في مخيلته الأيام الأربعة الماضية ، ويتبين مدى الأخطار التي كان معرضاً لها هو وبيته ، فتتسع ابتسامته ويهز رأسه تعجباً من نفسه .. كيف قبل ان يعرض بيته لهـذه الأخطار .. أنه لا يدري .. ربمـا لم يتبين هـذه الأخطار عندما سمح لابراهيم بالاختباء في بيته .. لم يفكر ساعتها تفكيراً منطقياً .. ولا حسب حساباً دقيقاً لكل الظروف .. إنما سمح لابراهيم بالاختباء في بيته ، نتيجة احساس .. ربما كان احساساً بالعطف ، أو شهامة ، أو وطنية .. وقد أعماه هـذا الاحساس عن كل ما يمكن ان يتعرض له من أخطار .. أخطار لم يحس بها فعلاً إلا بعد أن أصبح ابراهيم مختبئاً في بيته ، وبعد ان سمع بيان الحكومة يذاع في الراديو برصد مكافأة خمسة آلاف جنيه للقبض على ابراهيم ، وعقاب كل من يساعده على الهرب .. وهو لم يفعل شيئاً لدرء هذه الأخطار .. كل ما فعله أنه استسلم .. ولكن الله أنقذه ، وأنقـذ بيته .. الله وحده . ووجد نفسه يتوجه إلى الله ويتمتم في صدره : « الحمد لله .. لك الحمد والشكر يا رب » ..

ولكنه عاد وصعب عليه ان يحرم نفسه من مقومات الزهو ، ألم يقبـل ابراهيم في بيته وهو يعلم انه هارب من السجن ، والحكومة تطارده .. ألم يقاوم المكافأة .. ألم يقاوم التهديد بالسجن .. ألم يتحمل سماجة عبدالحميد ويتحايل عليه .. لماذا يحرم نفسه من الاحساس بالبطولة ؟ لماذا لا يزهو ؟ لقد قضى عمره كله يطل على الحركة الوطنية دون ان يلقي بنفسه في غمارهـا .. كان يحفظ خطب سعد زغلول ولا تتعدى حماسته لهـا دائرة نفسه ، ومناقشاته مع زملائه القلائل .. ويواظب عـلى تتبع الحوادث الوطنية في الصحف ويحكم عليها أحكاماً مختلفة دون ان يعلن حكمه أو يشترك في تنفيذ الحـكم .. وكان يحس وهو يقرأ أشعار حافظ ابراهيم وشوقي ومقالات الكتاب الوطنيين أنها كلها تعبر عن احساسه ، كأنه هو الذي نظم هـذه الأشعار ، وهو الذي كتب هذه الآراء .. ولكنه لم يحاول أبداً ان يعبر عن احساسه بنفسه .. كان دائماً في حاجة لمن يعبر له عن إحساسه .. في حاجة لمن يكتب ، ولمن يثور ، ولمن يستشهد ، حتى يفرج عن احساسه .. ان السلبية لا توجد إلا حيث توجـد الايجابية .. المتفرجون لا يوجدون إلا حيث توجد الحركة .. ورغم ذلك فهو لا يقل وطنية عن كل هؤلاء .. لا يقل وطنية عن المتظاهرين ، أو عن هؤلاء الكتاب ، بل لا يقل وطنية عن الشهداء .. وقد جاءته الفرصة التي أثبت فيها لنفسه أنه ليس اقل من غيره وطنية .. فلماذا ينكرها .. لماذا لا يزهو ، ويملأ

صدره بعبير البطولة؟.. واتسعت ابتسامته. واستدار في رقدته ناحية زوجته، وهي راقدة بجانبه وظهرها له. ونظر إلى الجسد المكتنز العـــالي، بعينين مبتسمتين، كأنه يهنئها بزوجها !!

وكانت الزوجة قد انتهت من تفكيرها في يومها..لم تعد تفكر في ابراهيم.. الا انه ضيف حل وارتحل.. واختفت من ذهنها بسرعة كل المشاكل التي صحبت وجود ابراهيم، وكل الأخطار التي أحاطت بالبيت بسببه.. ولم تعد تخـــاف شيئاً.. كأنها نسيت أيضاً أن تخاف المستقبل.. انما كانت تفكر في الغد تفكيراً عادياً طبيعياً.. في الغد ستنظف البيت كله.. وستفتح النوافذ عـلى سعتها.. وستبدل مفارش السراير.. وستدعو عم عـــلي البواب ليساعدها في تنفيض السجاجيد.. ثم كأنهـــا تذكرت شيئاً، فقالت في همس دون أن تتحرك من رقدتها: زاهر، زاهر، انت نمت ؟ !

وقال زوجها في صوت هادىء وهو يبادلها الهمس: لأ.. لسه !

قالت وهي لا تتحرك ايضاً من رقدتها: أظن بكره نبعت بأه للبت سنية.. احنا داخل علينا عيد، وما حدش يقدر يسد الا هيه ؟!

قال وهو يبتسم: ما فيش مانع..

قالت وظهرها له: بس على الله أمها ماتكونش ودتها بيت تاني.. أصلهـا وليه طماعه، ما تصبرش..

قـال وهو لا يزال يبتسم: وهي حتلاقي بيت أحسن من بيتنا.. ولا ست أحسن من ستنا !

وابتسمت الام في دلال.. دلال داخلي، لم يبد منـه شيء.. ثم أغمضت عينيها في سعادة، ولم تمض لحظات حتى ارتفعت أنفاسها ثقيلة، كأنهـــا تجرها بعنف من تحت أثقال الشحم واللحم.

وغمض الأب عينيه ليهم بالنوم.. ثم فجأة فتح عينيه بسرعة وقـــد تذكر شيئاً مزعجاً.. أخافه.. محيي.. ابنه.. هـل يتمادى في الطريق الذي دفعه اليه ابراهيم ؟ هل يشتغل بالسياسة كباقي الطلبة المشتغلين بالسياسة ؟ هل يشترك في المؤامرات والاغتيالات ؟ هـــل يخرج في المظاهرات ليعود اليه جريحاً وربما شهيداً ؟ هل يسجن ؟ وهل يكون يوماً هارباً كابراهيم، تطارده الحكومة..؟ لا.. مستحيل.. ولكن محيي ذهب والتقى بأصدقاء ابراهيم في الجامعة ودبر معهم خطة الهرب، وقد أخفي عليه الخبر.. انهـــا المرة الأولى التي يخفي عنه شيئاً.. لقد كان دائماً يعرف عن ابنه كل شيء.. كل حركاته وكل سكناته،

وكل ما يدور برأسه .. ولكنه أخفى عليه خبر التقائه بأصدقاء ابراهيم .. ماذا يخفي عنه أيضاً .. وماذا يمكن أن يخفي عنه في المستقبل ؟ وماذا وضع ابراهيم في رأسه من آراء وخطط ؟ ومن أدراه ، ربما كانت الخطة الموضوعة أن يظل محيي على اتصال بابراهيم ، وفي خدمته .. لا .. مستحيل .. مستحيل قطعاً .. انه لا يمكن أن يدع ابنه يغامر بمستقبله ، وينقاد الى هؤلاء الطلبة المهرجين .. انه هو الذي صنع هذا المستقبل لابنه .. صنعه يوماً بيوم . كأنه كان ينسج له ثوب الحياة .. ولن يدع الثوب يتمزق بعد أن كاد ينتهي من صنعه .. سيسير ابنه في الطريق الذي رسمه له ، سينال الليسانس هذا العام ، ويكون ترتيبه الأول بين زملائه ، ويعين معيداً في الجامعة .. لا شيء يمكن أن يحدث .. سيقتلع من رأس ابنه كل ما يمكن ان يكون ابراهيم قد وضعه فيه .. انه لم يؤو ابراهيم في بيته ليسرق منه ابنه ، ما كان أغباه يوم أن آواه ، ووضعه بجانب محيي .. في حجرة واحدة وفي فراش واحد ، كأنه كان يقرب زجاجة السم من ابنه .. فيم كانا يتحدثان طوال الليل؟ في السياسة طبعاً .. في المؤامرات . في الخطط .. ولا بد ان ابراهيم قد حشا صدر محيي بأوهام البطولة .. البطولة الفارغة .. شقاوة العيال .. ولكن محيي أعقل من ذلك .. انه يعرف ابنه جيداً .. انه رصين لا ينقاد بسهولة .. والوقت لم يفت .. سيحادثه بحزم .. سيحادثه غداً صباحاً .. لا ، سيحادثه عقب طعام السحور بحزم ، وسيفتح عينيه جيداً على ابنه ، لن يضيع منه .. وحاول ان يغمض عينيه وينام .. ولكنه أغمضهما ولم ينم .. ظل قلقاً في انتظار جرس المنبه ، يعلن ساعة السحور ..

وفي الحجرة الاخرى ينام محيي .. انه يحس ان سريره قد اتسع جداً بعد ان تركه ابراهيم ولم يعد ينام بجانبه فيه .. كأن السرير لم يكن أبداً بهذا الاتساع ، وهو لا يستطيع أن يغمض عينيه .. انه يعيد ثم يعيد ذكريات الايام الأربعة التي مرت به كأنه يجترها ليشبع احساسه منها .. وقد حاول عبثاً أن يوقف تفكيره في هذه الذكريات .. حاول أن يتناساها باستذكار دروسه ولكنها كانت تطل عليه من بين سطور الكتب ، فطوى الكتب ومنح نفسه اجازة من الاستذكار .. ثم استلقى على فراشه يحاول ان ينام .. ولكنه لا يستطيع . ورغم ذلك فهو لا يشعر بالقلق ، وقد زايله شعور الخوف والحنق الذي صاحبه في الايام الماضيه .. لم يعد يفكر في الأخطار التي كان يعيش فيها الا على انها ذكريات .. ما أروع البطولة .. انك لا تكاد تنتهي من العمل العظيم حتى تنسى الأخطار التي صحبته .. انها كعملية الوضع .. لا تكاد الام تنتهي من الولادة

حتى تنسى آلامهـــا .. وتتأهب لولادة جديدة .. ان الولادة عملية بطولة .. والامهات بطلات .. وابتسم وهو يكتشف هذه الفلسفة .. ثم اتسعت ابتسامته وهو يكتشف في نفسه الاحساس بالبطولة .. ترى هل يعرف زملاؤه في الجامعة يوماً انه بطل .. هل يعرفون انه أخفى ابراهيم في بيته ، بينما الحكومة كلهـــا تطارده وتبحث عنه ؟..

ورأى في خياله صورة زملائه يلتفون حوله .. وهو يروي لهم ذكرياته .. ويبالغ قليلاً في روايتهـــا . ورأى زملاءه يصفقون له .. ثم رأى نفسه في خياله محمولاً على الاعناق .. والطلبة من تحته .. طلبة يعرفهم ، وطلبة لا يعرفهم ، والجميع يهتفون « عاش محيي بطل الجامعة » !!

ثم تنبه الى نفسه .. وانكمش ..

انكمش كل شيء فيه ، كأنه يخاف هذا الخيال .. وهز رأسه فوق الوسادة كأنه يقول لا .. لا .. لا يجب أن يعرف زملاؤه شيئاً .. لو عرفوا فستعرف الحكومة .. وسيقبض عليه ، ويزج به في السجن . لا . انه لا يريد ان يسجن. لن يسجن .. عليه ان يضع كل ارادته فوق لسانه ، حتى لا يقول شيئاً لزملائه .. لا يريد منهم ان يصفقوا له ، ولا ان يحملوه عـلى الأعناق ولا أن يهتفوا باسمه ، لأنه لا يريد ان يسجن ..

وفي الحجرة المجاورة تنام الأختان ..

كانت نوال قـــد انقشعت دموعها عن أحلامها . أحلام مشرقة مغردة كاليوم الصحو عقب اليوم المطير . وكانت صورة ابراهيم وهو مرتـــد بدلة ضابط تمـــلأ خيالها كله . وكان خيالها يسبق عمرها الى يوم الاثنين القادم .. ستلقاه يوم الاثنين في ميدان عبـــد المنعم .. وارتسمت صورة الميدان أمام عينيها ، ورأت نفسها واقفة في وسطه تتلفت حواليها في انتظار ابراهيم . أي ثوب ترتديه .. البني .. لا . الأبيض .. والقفاز الأبيض في يديها .. وحقيبتها البيضاء .. لا . حقيبتها السوداء .. وحذاؤها الأسود .. انها واقفة وسط الميدان مرتدية ثوبها الأبيض في انتظار ابراهيم .. ها هو آت من ناحية شارع عبد المنعم ، مرتدياً بدلة الضابط وعلى عينيه نظارة سوداء .. وهو يصافحها ثم يسير ان جنباً الى جنب في الشارع الضيق الظليل المتفرع من الميدان .. لا .. انه آت في سيارة يقودها بنفسه .. والسيارة تقف أمامها ، وهو يبتسم لها ابتسامته الضيقة القوية التي تميل قليلاً عـــلى جانب شفتيه .. وهي تتردد كثيراً في الركوب بجانبه .. وقلبها يضطرب .. هل تركب ؟ وماذا يقول عنها ان قبلت ان تركب بجانبه ..

لعله يعتقد انها بنت سهلة .. لا .. ان ابراهيم ليس من هذا النوع ، ولا يمكن أن يسيء الظن بهـــا .. يجب ان تطيعه .. وتركب بجانبه .. والسيارة تمرق بسرعة .. سرعة جنونية .. وتأخذها الى بعيد .. ثم تقف فجأة في مكان ليس فيه أحد .. بل ليس فيه أرض .. كأنها وقفت بها في السماء .. وهو يلتفت اليها ويحدثها .. انه يحدثها عن الزواج .. ثم تطل عليهما صورة أبيها .. هل يوافق على الزواج ؟!! وتعبس قليلاً وهي تتخيل أباهـــا يهز رأسه علامة الرفض .. ولكنها تبتسم فهي واثقة من طيبة قلب أبيها ، سيوافق أخيراً !

وتغرق في خيالها .. والصور تتوالى أمـام عينيها .. وتتغير .. وأصابعها ممسكة بالعلبة الذهبيه الصغيرة التي تضم المصحف وتضم الورقة التي كتبهـــا ابراهيم بخط يده .. العلبة التي لاتزال معلقة في صدرها فوق قلبها ، كأنها تحمل فيها ابراهيم نفسه .. وأفاقت من خيالها على صوت اختها سامية وهي تقول :

– نوال .. نوال .. انتي سرحانه في ايه ؟

وقالت نوال دون وعي منها : يا ترى ابراهيم فين دلوقت ؟

وقالت سامية كأنها تطيب خاطر اختها :

– ما تخافيش عليه .. ده من الصنف اللي ما يتخافش عليه !

وسكتت الاختان .. وقبل أن تندمج نوال في خيالها سمعت صوت سامية قائلة : تعرفي أنا بافكر في ايه .. بافكر في عبد الحميد لمـا حايعرف ان ابراهيم ساب البيت ، ده حيتجنن وحاشمت فيه شماتة !

وقالت نوال وهي تعلم ان اختها لن تشمت في عبد الحميد :

– ولا حيتجنن ولا حاجة .. دول بقوا أصحاب ..

وقالت سامية كأنها لم تسمع كلام أختها : تفتكري بابا حيطرده لو جه بكره؟

وقالت نوال : ماظنش .. يطرده ليه ؟!..

وسكتت سامية ، وعادت تفكر في عبدالحميد.. وهي تفكر فيه منذ خرج ابراهيم من البيت .. خيل اليها ان الذي خرج هو عبد الحميد لا ابراهيم .. خرج من حياتها .. لن يعود يلاحقها ويلح في زواجها .. سيطرده أبوها من البيت .. وستعود حياتها راكدة ، تستعرض اسماء وأشكال رجال غرباء يتقدمون للزواج بها .. وليس بينهم من تتدلل عليه ، ويشبع غرورها ويربط صباها بشبابها .. وهي ليست سعيدة .. لماذا .. أليس هذا ما تريده .. ألم تكن تريد ان يخرج عبد الحميد من حياتها !! ولكنها رغم ذلك ليست سعيده ، انها لا تريده أن يخرج ، وقد بكت بحرقـة عندما خرج ابراهيم .. بكت مع أختها ، ولكنها

كانت تعلم انها لا تبكي ابراهيم بل تبكي عبد الحميد ..

وعادت تقول لاختها في صوت ضعيف كأنها تتكلم خلال سحب تحيط برأسها: انما تفتكري عبد الحميد يقدر يعمل حاجه ؟!

وكانت تتمنى ان تجيبها اختها بأن عبدالحميد يستطيع ان يفعل شيئاً ليتم زواجه بها ، ولكن نوال قالت : ولا يقدر يعمل جنس حاجة .. حايعمل ايه يعني ؟!

وقالت سامية كأنها تتعلق بالأمل : يعني حاينسحت كده من سكات بعد ما يعرف اننا كنا بنضحك عليه لغاية ما ابراهيم يخرج ؟!

وأدارت نوال رأسها ناحية اختها، وقالت مبتسمة في حنان : تعرفي أنا متهيأ لي ايه يا سامية ، متهيأ لي انك لسه بتحبي عبد الحميد زي زمان ؟!

وقالت سامية في حدة كأنها تدافع عن سرها :

— طب نامي أحسن لك .. باين انك حاتبتدي تخرفي ؟!

وأدارت ظهرها في عصبية ناحية أختها ، ودفنت رأسها في وسادتها كأنها تخفي حبها في طياتها .. تخفى نفسها .. ودق جرس المنبه معلناً ساعة السحور .

وكانت الأم أول من تنبهت ، ولكنها لم تفتح عينيها .. وقالت دون ان تتحرك من رقدتها ، وهي لا تزال مغمضة العينين : زاهر .. زاهر .. يا زاهر .. السحور ؟! وسكتت كأنها عادت الى النوم .. ثم رددت بعد قليل وهي لم تتحرك بعد : زاهر ، قوم يا زاهر ، ياللا ياخويا ، السحور !!

وقال الأب وهو يفيق من نومه القلق : ما تسيبيني على بال ما تسخني الأكل!

وتحركت الأم في كسل ، واعتدلت جالسة فوق الفراش ، وهي لا تزال مغمضة العينين ، ثم فتحت عينيها ببطء ، ونزلت من فوق الفراش ، في تثاقل .. وهي تقول كأنها تتألم : هيه .. مش عارفة مالي .. جسمي كله سكاكين !

ثم سارت ، وهي ترفع قدميها بصعوبة ، واتجهت الى غرفة ابنتيها، ونقرت فوق الباب ، وسمعت صوت نوال قائلة : صاحيين يا ماما ..

فلم تلح عليهما، وتركت بابهما، ثم اتجهت الى غرفة الطعام، وجلست في تكاسل وهي لا تزال تتألم ، وأشعلت وابور السبيرتو ووضعت فوقه طبق الفول ..

وبعد قليل اجتمعت العائلة حولها ، بعد ان تولى افرادها ايقاظ بعضهم البعض .. وبدأوا يتناولون طعام السحور في تكاسل ..

وشرب محيى كوباً من عصير قمر الدين وهم بالقيام عائداً الى غرفته .. ونظر اليه الوالد في تردد كأنه يشفق عليه من ان يحرمه من نومه ، ثم قال كأن لسانه سبقه الى الكلام : استنى يا محيي شويه .. عايزك !

ونظر محيي إلى أبيه وهو يرسم بعينيه علامة استفهام ، ثم جلس في مكانه ، وتبادلت البنتان نظرة وتحركتا لتنسحبا الى غرفتهما .. فقالت لهما أمهما كأنهـا تحثهما على سرعة الانسحاب : كل واحدة منكم تشيل طبقين وتحطهم في الحوض، وتسيب عليهم شوية ميه .. وتسيبهم لغاية النهار ما يطلع ..

وخرجت الاختان .. ولحقت بهما الأم وهي تتنهد ألماً ..

ونظر محيي الى أبيه كأنه يستعجله الكلام ، وقال الأب في صوت هادىء بعد أن رشف آخر ما في كوب عصير قمر الدين :

– ما قلتليش .. انت قابلت أصحاب ابراهيم ازاي ؟

وأحنى محيي رأسه ينظر الى سطح المائدة وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته في حركة عصبية كأنه يخشى ان يقع منه .. لقد كان ينتظر ان يفاتحه والده في هـــذا الموضوع ، ولكنه لم يكن ينتظر ان يفاتحه الآن .. في هذه الساعة .. وقال في صوت خافت : قابلت واحد منهم في الجامعة، وقلت له ان ابراهيم عايز عربيه تستناه وبدلة ضابط يلبسها ..

وقاطعه الأب : وما سألكش ابراهيم قاعد فين ؟..

وقال محيي بسرعة : سألني .. وقلت له ما اقدرش أقول لك !

وقال الأب : ورضي بكده !؟ ..

وقال محيي وهو يشعر بثقل التحقيق : أيوه سكت على طول !

وعاد الأب يسأل : وجبت منه البدلة ازاي ؟

قال : قابلته تاني يوم وأنا خارج من الجامعة وخدتها منه !!

وابتلع محيي ريقه ، كأنه يبتلع كذبته ..

وقال الأب وعيناه كلهافوق وجه ابنه : وايه عرفك ان ما فيش حد كان مراقبكم؟!

قال محيي : دي الحكايه ما خدتش دقيقة واحدة ..

وسكت الأب كأنه يتهم ابنه بالغباء .. وقال في امتعاض : وما قلتليش ليه قبل ما تروح ؟!

وارتبك محيي قليلاً ،ثم قال وهو لا ينظر الى والده: ماحبتش ازعج حضرتك!

وقال الأب في تهكم : وما حبتش تزعجني في ايه كان ؟!..

قال محيي : ما فيش حاجه تانيه والله يا بابا !..

قال الأب : مين عارف .. يمكن عامل خطة مع ابراهيم .. ما انت خلاص بقيت بتاع سياسه ؟! وسكت محيي .. وقال الأب في حدة : ما تتكلم ..

وقال محيي بصعوبة : مش عامل خطه ولا حاجه ، مـا فيش حاجه مخبيها على حضرتك ! وسكت الأب قليلاً ،ثم قال وهو يفتعل الهدوء : اسمع يا محيي.. انا اذا كنت سمحت لابراهيم يقعد عندنا ، فمش معنى كده اني باشتغل بالسياسة.. ولا اني اسمح لك تشتغل بالسياسة.. ده راجل استجار بينا واجرناه .. انما احنا مش زيه ولا مستعدين نعمل العمايل اللي بيعملها ، مفهوم ؟

وقال محيي : مفهوم يا بابا ..

وعـاد الأب يقول في حزم : انت فاضل عليك شهرين وتتخرج وبعد كده تبقى تعمل اللي تعمله .. انما قبل ما تتخرج انا المسئول عنك .. وعايزك توعدني دلوقت انك ما تتصلش بحد من اصحاب ابراهيم. وانك ما تخبيش عني حاجة..

قال محيي وهو يريد ان ينتهي : اوعدك يا بابا ..

وقال الأب مؤكداً : توعدني بايه ؟

ورد محيي : اوعدك اني مـا خبيش عنك حاجه .. واني مـا ليش دعوه بالسياسة .. ولا بأصحاب ابراهيم ..

وقال الأب : انت راجل .. وانا واثق بلمتك .. ثم ازاح كرسيه ، ووقف وهو يقول لابنه : تصبح على خير .. واتجه الى غرفتـه .. وسار محيي وراءه الى غرفته ..

١٣

وجاء الصباح .. وكان أول مـا فعله الوالد ان ارسل بواب البيت في شراء جريدة الأهرام ، وكانت المرة الأولى التي يشتري فيها جريدته قبل ان ينزل من البيت .. وتلقاها في لهفة كأنه كان ينتظر ان يقرأ على صدر الصفحة الاولى خبر القبض على ابراهيم .. أو خبر مقتله .. ولكنة لم يجد شيئاً في الصفحة الاولى .. وقلب بقية الصفحات بسرعة ، ولمـا لم يجد شيئاً .. القى الجريدة على الأريكة وبدأ يستعد للذهاب الى عمله . وتسلل افراد العائلة الواحد بعد الآخر – ما عدا الأم – كل منهم ينظر في الجريدة خفيـة عن الأب .. ووجدت نوال نفسها بعد ان نظرت في الصفحة الاولى، تقلب بقية الصفحات ثم تستقر عيناها فوق صفحة الوفيات . وتأخـذ في قراءة الاسماء .. ثم تنبهت الى نفسها قبل ان تتم

قراءة الأسماء، فانقبض قلبها، والقت الجريدة من يدها كأنها تدفع خاطراً اسود عن رأسها . . وخرج الأب الى عمله . . وخرج محيي الى الجامعـــة . . وفتحت النوافذ كلها . . وبدأت عملية تنظيف هائلة في البيت كلـه . . واستدعى عم علي البواب ليساعد في تنفيض السجاجيد وتركوه يتنقل في انحاء البيت . . كأن هناك تعمداً لاشهاده على ان ليس في البيت رجل غريب . .

ودخلت نوال غرفة شقيقها محيي . . لقد اصبحت تعتبرها غرفة ابراهيم . . وهي ترى ابراهيم في كل مكان فيها . . هنا كان يتناول طعام افطاره . . وهنا كان ينام . . وهي تحس به كأنه قريب منها . . قريب جداً . . وتسير في انحاء الغرفة في خطوات بطيئة مرتبكة كأن عيني ابراهـــيم تراقبها . . وفتحت الدولاب ، ووجدت البنطلون والقميص اللذين كان يرتديهما ابراهيم ، وتركهما بعد ان خرج مرتدياً بدلة الضابط . . وأمسكت بالقميص بين يديها في رفق وحنان كأنها تهم بأن تضمه إلى صدرها . . تضم ابراهيم . . ثم وضعت القميص جانباً ، وأمسكت بالبنطلون وطوته في عناية وعلقته على مشجب داخـــل الدولاب . . ثم عادت وحملت القميص وذهبت به الى غرفتها ووضعته في دولابها ، وقد قررت بينها وبين نفسها ان تغسله بيديها ، وتكويه بيديها ، وتحفظه في دولابها بين ثيابها . . وانتهت عملية تنظيفات البيت في الساعه الثانية عشرة . . وذهب عم علي البواب يبحث عن سنية الخادمة عند أمها . . وبدأ كل شيء لامعاً ، مرتباً ، مشرقاً . . كأن البيت يبتسم بعد طول عناء . . وكادت الساعة تقترب من الواحدة عندما دق جرس الباب . . وفتحت نوال . . ودخل عبد الحميد مسرعاً ، وحياها دون ان ينظر اليها : أزيك ! واجابت نوال وهي تبتسم ابتسامة ساخرة : الله يسلمك ! . ولم ير ابتسامتها . . انما سبقها إلى الداخل مهرولاً ، كأنه يحمل نبـأ خطيراً . . وسارت خلفه وهي تضحك في سرها كأنها ترى صورته عندما يسمع المفاجأة التي تنتظره ، ثم دلفت إلى المطبخ لتنضم إلى أمها . . والتقى عبد الحميد بسامية في طريقه وهي لا تزال في ثياب البيت ، وقال دون ان يحييها : ابراهيم بيعمل ايه ؟ وهم ان يتخطاها متجهاً إلى الغرفة التي تعود أن يجد فيها ابراهيم — غرفة محيي — ولكنه سمع اجابتها : خرج . . ! والتفت اليها كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال وهو لم يستوعب بعد المفاجأة : بتقولي ايه ؟ ! . . ونظرت اليه سامية بعينين حزينتين مشفقتين ، وقالت في صوت ضعيف كأنها تطيب خاطره : ابراهيم خرج . . ساب البيت ! واتسعت عينا عبد الحميد وقد التقى بالمفاجأة كلها ، فبـدا كالمجنون . . واستطاع بلمحة من ذكائه ، ومن تعوده اساءة الظن بالناس ان يكتشف الخطة

التي دبرت حوله ، وقال وهو يفح كأنه حيوان جريح : خرج ، خرج ازاي ؟. مش معقول !.. ثم تركها ، واندفع الى غرفة محيي . وألقى بنفسه على بابهـا ، وفتحه ، واجال فيها عينيه المجنونتين .. ووجنتاه ترتعشان .. وفتحتا انفـــه ترتعشان .. وقال وصوته يرتعش : راح فين .. قوليلي راح فين ؟

وقالت ساميةوهي مذعورةمن جنونه: ما اعرفش.. والله العظيم ما اعرفش

وارتفع الصوت المحشرج حتى كاد يصبح صراخاً: طبعاً ما تعرفيش ..والمغفل الكبير اللي هو انا ما يعرفش راخر .. ضحكتم عليّ .. مش كده ، خلاص ، اتفضل ياسي عبد الحميد من غير مطرود.. ما فيش جواز..ما فيش فلوس .. انما ده بعدكم .. والله لوديكم كلكم في داهيـــة .. والله لضلمها عليـكم . والذنب مش حيكون ذنبي .. ذنب أبوكي اللي حب يضحك علي . انما انا لحمى ما يتكلش حاف .. أنا لحمي مر .. انا حاوديكم في داهية .. حاهبب عيشتكم ..

واندفع نحو الباب الخارجي ..

وجرت وراءه سامية وهي تصرع : عبد الحميد ، عبد الحميد ولم يتوقف ، وفتح الباب وخرج منه ، وصفقه وراءه قبل أن تلحق به ..

وعادت سامية الى غرفتها مهرولة وفتحت دولابها.. وبدأت تبدل ثيابها في عجلة .. دون أن تلتفت الى نفسها في المرآة.. وشفتاها لا تزالان ترددانبصوت خافت « عبد الحميد.. عبد الحميد » كأنهما ترددان صدى صرخة مفزعة انطلقت من صدرها .. وتفكيرها مرتبـــك .. لا تستطيع أن تحصره في شيء ، ولا تدري ما ستفعله .. وكل ما فيرأسها انها تذكرت حديث عبد الحميد لها بالأمس عندما كان يتحدث عن تبليغ البوليس عن ابراهيم ..

وانتهت من ابدال ثيابها .. ووضعت قدميها في حذائها ، بلا جورب .. ثم جذبت حقيبتها في يدها ، وهرولت خارج الغرفة دون أن تساوي شعرها .. والتقت بأمها خارجة من المطبخ وهي تقول : هوه عبد الحميد ماله بيزعق كده ليه ؟!.. ولم ترد عليها وجرت نحو باب الشقة ..

ولحقت بها نوال صارخة : ساميه .. ساميه .. رايحه فين ؟ ولم ترد عليها سامية ، وخرجت وأغلقت الباب وراءها ..

وأعادت نوال فتـــح الباب ، وأطلت من فوق حاجز السلم وهي تصرخ : طيب استنى لما اجي معاكي يا ساميه !..

ولم تسمعها سامية.. اصبحت في الشارع.. وتلفتت بعينين مذعورتين تبحث عن عبد الحميد .. ومدت عينيها الى آخر الشارع الذي يقع فيه البيت فلم تره ..

وسارت في خطى سريعة مهرولة الى شارع الجيزة، وكل شيء فيها مذعور .. قلبها ، وعيناها ، وشفتاها ، وساقاها ، ويداها .. وخصلات من شعرها تتطاير في الهواء ، وتتدلى فوق وجهها كأنها تصرخ من الذعر .. وهي لا تزال تتمتم في صدرها « عبد الحميد .. عبد الحميد .. عبد الحميد » ..

وهي لا تدري ما ستفعله عندما تجد عبد الحميد .. كل ما تدريه .. انها يجب ان تجده .. انه ذاهب لتبليغ البوليس عن ابراهيم .. ابها تعلم ذلك .. تحسه .. واحساسها يصل إلى حد اليقين .. ويجب ان تمنعه .. لا لتنقذ ابراهيم .. ولا لتنقذ عائلتها .. ولكن لتنقذ عبد الحميد من نفسه .. تنقذ حبها الخفي له .. تنقذ صورته التي رسمتها له في قلبها ... كأنها تخاف ان تفتضح سفالته ، فيتحطم الأمل الذي يعيش في أعماق صدرها .. ويتحطم غرورها بملاحقته لها .. ويتحطم زهوها امام العائلة كفتاة مرغوبة .. يرغبها عبد الحميد الى حد الالحاح الثقيل ..

ووصلت الى شارع الجيزة .. وتلفتت بعينيها المذعورتين تبحث عن عبد الحميد ثم شهقت شهقة حادة عندما رأته على الرصيف المقابل ، واقفاً امام دكان بائع سجائر ، يتحدث في التليفون .. هل ابلغ البوليس عن ابراهيم . بالتليفون ؟!

وصرخت كالمجنونة : عبد الحميد .. عبد الحميد ..

وكان عبد الحميد أبعد من أن يسمعها .. فقفزت من فوق الرصيف ، وهمت بأن تعبر الشارع اليه .. ولكن الترام قطع عليها الطريق .. فوقفت في وسط الشارع تنتظر أن يمر بها الترام وهي تحاول ان تتبع عبد الحميد بعينيها من خلال عرباته .. وخيل اليها أنه أطول ترام التقت به في حياتها .. خيل اليها أن الثانية التي استغرقها مرور الترام أمامها هي ساعة ..

وعندما مر الترام لمحت عبد الحميد ينزع سماعة التليفون من فوق أذنه ، ويعيدها مكانها .. ثم يسير في الطريق متجها الى ميدان الجيزة .. وجرت لتلحق به .. وصرخت عندما فاجأتها سيارة كادت تدهسها ..

ووقعت حقيبتها من يدها عندما كادت تصطدم بدراجة .. والتقطت حقيبتها ، وأتمت عبور الشارع وهي تلهث كأنها كانت تخوض في النار ..

وجرت وراء عبد الحميد وهي لا تزال مركزة عينيها عليه .. ورأته يتجه نحو موقف سيارات الاجرة ، عند طرف الميدان .. ثم يركب في احدى هذه السيارات ..

وانطلقت به السيارة .. ومرت من أمامها .. فصرخت كأنها تلفظ قلبها من فمها : عبد الحميد !..

ولكن عبد الحميد لم يسمعها ولم يلتفت اليها، ورأته في لمحة وهو ساهم مقطب الجبين ، وقد ركز عينيه الغاضبتين في قفا السائق ، وانطلقت ساميه نحو موقف السيارات ووضعت نفسها في احداها وهي تقول للسائق في صوت يكاد يكون نشيجا : حصل التاكسي اللي قدامنا ده ..

وانطلقت بها السيارة.. واستطردت في توسل: قوام والنبي يا أسطى..قوام !

وقال السائق ، وهو يتراقص بسيارته بين بقية السيارات والعابرين : عنيه يا ست هانم .. حانحصله ، وحانحصل أبوه كمان عيب علي . ما أكونش الأسطى أبو سريع في زماني ..

وقهقه السائق ، وهو يتراقص بسيارته ، مطارداً السيارة الأخرى، وسامية جالسة داخل السيارة الأخرى مبهوتة لا تدري ما تفعله.. كل تصرفاتها تلقائية.. تصرفات غريبة عليها .. ولو فكرت قليلاً لما أقدمت عليها ..

انها المرة الأولى في حياتها التي تنطلق من البيت وتخرج بلا اذن من والدتها ولا تنبىء أحداً بوجهتها لأنها لا تدري وجهتها .. وهي المرة الأولى التي تركب فيها سيارة أجرة وحدها .. ولكنها لا تحس أنها راكبة في سيارة .. أنها تحس بأنها تجري فعلاً وصدرها يلهث كأنها تجري فعلاً .. وعيناها زائغتان من نوافذ السيارة تبحثان عن السيارة التي يركبها عبد الحميد ، وكلما وجدتها تعلقت بهـــا بعينيها ، إلى أن تضيع من أمامها مرة أخرى .. فتعود تبحث عنها .. وهي لا تزال تردد : قوام .. قوام والنبي يا أسطى !

ثم أصبحت تردد كلمة « قوام » بشكل آلي ، دون أن تعى معناها ،وكأنها محمومة تهرف من لسع نار الحمى ..

والسائق لا يزال يتراقص بسيارته ويقترب من السيارة الأخرى فيصيح في فرح : جيبتك يا أسطه حسنين !!

وانطلقت السيارتان .. إحداهما تتبع الأخرى فوق كوبري عباس.. ثم في شارع القصر العينى .. ثم في ميدان عابدين .. ثم في شارع السلطان حسين .. ثم في ميدان باب الخلق .. ثم اتجهت السيارة الأولى إلى المدخل الخلفي لبنـــاء المحافظة ووقفت أمام الباب الكبير .. بينما السيارة الثانية لا تزال عنـد أول الميدان . ولكن سائقها لا يزال يتبع السيارة الأولى بعينيه .. فجرى وراءها إلى ان وقف بجانبها ، وهو يقول مقهقهاً : — برضه حصلتك يا أسطى حسنين !

وبحثت سامية بعينيها في السيارة الثانية ، وهي لا تزال مكانها ، فلم تر فيها عبدالحميد فصرخت : هو فين .. راح فين الافندي اللي كان راكب معاك ؟؟

وقال سائق السيارة الأولى وهو ينظر اليها في دهشة : دخل جوه ..

وأشار بيده إلى مبنى المحافظة .. وفتحت سامية باب السيارة بيد مرتعشة مرتبكة ، وألقت نفسها منهـــا ، واتجهت تجري داخل المحافظة فقفز وراءها الأسطى أبو سريع ، ولحق بها وأمسكها من ذراعها ، وهو يقول كأنه يهدد : الفلوس يا ست ؟!..

وقالت وهي تحاول ان تنتزع ذراعها من يده: استناني شوية . خليك مستني!

ونظر السائق إلى شعرها المهوش فوق رأسها ، وإلى عينيها المذعورتين ، وإلى ثيابها المرتبكة فوق جسدها ، وقال بعد ان ترك ذراعها ووقف يسد طريقها :

– ما استناش !..

وقالت في توسل : اعمل معروف يا اسطى .. انا راجعه حالاً !

وقال الاسطى في برود : برضه بصح تدفعي .. تمنتاشر قرش!

ونظرت اليه وهي تكاد تبكي، ولمحت في عينيه نظرة تصميم اخافتها.. فنكست رأسها في ذل ، ثم فتحت حقيبتها بأصابع مرتعشة ، ودست يدها فيها ، تبحث عن كيس نقودها.. ثم برقت عيناها كأنما خطرت لهـــا فكرة .. واعادت اغلاق حقيبتها، ثم دفعتها في وجه السائق ، وقالت في حزم ، وهي تضغط الحروف بين شفتيها : خد .. خلي الشنطة معاك لغاية ما ارجعلك وتوصلني البيت تاني !.

وتغيرت نظرة السائق.. أصبح ينظر اليها في اشفاق ورثاء.. ومد يده ليأخذ الحقيبة ، ولكنه عاد وانزل يده ، وقال وهو يفسح لها الطريق :

– ما فيش لازمه ، انا حاستناكي ، بس ما تتأخريش !..

ودخلت سامية إلى مبنى المحافظة .. ووجدت نفسها في فناء كبير مرصوف. تقف فيه مجموعة من السيارات الخاصة ، وسيارات البوليس ، وسارت في خطى مهزوزة مترددة كأنها تقتحم وكر لصوص.. وعيناها قد ازدادنا اتساعاً ، واشتد الذعر في نظراتها . كأن وجوه السائقين والناس الذين تراهم في الفناء ، وجوه غريبة .. ليست وجوها آدمية .. ووجدت باباً ضخماً على يسارها ، يؤدي إلى سلم عريض قليل الدرجات.. فاتجهت اليه وقدماها تزحفان في حذر ..وصعدت وهي تنظر إلى الداخل كأنها تنتظر ان تجد عبد الحميد واقفاً في انتظارها ..ولم تجده .. ووقفت حائرة.. وناس ، وجنود بوليس ، يمرون بها دون ان يأبه واحد منهم بها ، أو يثيره منظرها المرتبك ، والحيرة التي تطل من عينيها .. ومالت على جندي بوليس جالس على مقعد بجانب أحد الأبواب يتحدث مع رجل واقف قبالته ، وقالت في صوت مبحوح مرتجف : من فضلك .. وانتظرت ان يلتفت

اليها . . ورفع اليها الجندي رأسه ونظر اليها نظرة سريعة ، ثم عاد يتم حديثه مع الرجل وكأنه لم ير شيئاً . . واقتربت منه خطوة أخرى ، وقالت وصوتها أشد ارتباكاً : من فضلك يا شاويش . .

ونظر اليها الجندي بتعال ، قائلاً : خير . . فيه ايه ؟!. .

وقالت في رجاء : من فضلك ما شفتش واحد طويل ، ولابس بـــدلة بني ، دخل هنا دلوقت ؟!. .

وقال الشاويش وهو يعتدل في جلسته ويتخذ هيئة الحكام : واسمه ايه الافندي ده ؟

قالت في عجلة : اسمه عبد الحميد زاهر . .

ورفع الجندي يده ومسح بها على شاربه المشعث ، واخذ يزوم بشفتيه ، ثم فكر قليلاً ، كأنه يحاول ان يتذكر هذا الاسم . .

وقال : هيه . . ويبقى لك ايه عبدالحميد زاهر ؟

قالت : ابن عمي . .

وطأطأ الشاويش رأسه ، ثم عاد ورفعه ، وقال في لهجة آمرة كأنه وكيل نيابة محقق : وجايه ورا ابن عمك في المحافظة ليه ؟!

قالت وهي تكاد تنفجر باكية : كان مديني ميعاد هنا . .

وقال الشاويش : بأه كده . . هيه . . كويس والله !

وقالت سامية وهي تكاد تيأس : والنبي ما شفتوش ، يا شاويش ؟

وصمت الجندي قليلاً دون ان يتحرك من مقعده أو يبدو عليه تأثر ، ثم انطلق قائلاً : هو مش جدع أسمر كده ، وعنده حتة شنب صغير ؟

وقالت سامية في لهفة : أيوه . . هوه . . راح فين ؟!.

قال الجندي ، وهو يشير إلى الباب الجالس قبالته : دخل . .

قالت في عجلة : أقدر أشوفه ؟

قال في برود : ممنوع . .

قالت في توسل : ده عايزني ضروري ، حاجه مهمة خالص !

قال ، وهو يمسح بيده على شاربه مرة ثانية : معاكي اماره ؟

قالت في حدة : بس قول له ، وهو حايعرف !

قال ، وكأنه يحادث نفسه : أقول للباشا ؟. .

قالت : باشا ايه . . قول له هوه !. .

قال ، كأنه يتباهى بذكائه : ما هو عند الباشا . . اللوا الكبير !

قالت في حدة كأنها تأمره : طيب قول للباشا . .

ونظر اليها الجندي ملياً ، ثم قام متكاسلاً قائلاً : طيب استني عندك شوية!

ودخل الجندي الى الحجرة، ورفعت سامية عينيها، فاصطدمتا بلوحة كتب عليها «القلم السياسي».. وعاد الجندي بعد قليل وقال في لهجة أكثر أدباً: اتفضلي.

ودخلت سامية وهي لا تزال تزحف بقدميها في خطوات مترددة خائفة .. وقلبها ينتفض في صدرها ، ويدق دقات عنيفة متوالية كأنها دقات الطبول التي تسبق تنفيذ حكم الاعدام.. ووجدت نفسها في حجرة متوسطة الاتساع.. هادئة .. رطبة، بها مكتبان ، يجلس إلى أحدهما ضابط من ضباط البوليس ، ويجلس إلى الثاني رجل في ثياب مدنية .. ووقفت حائرة في وسط الغرفة ، إلى أن سمعت صوت الرجل الذي يرتدي ثياباً مدنية يقول لها في صوت مهذب :

– اتفضلي يا هانم .. أي خدمة ؟!..

واتجهت اليه كالتلميذة المذنبة وقالت في صوت كالبكاء :

– هو فين عبد الحميد .. أنا عايزه عبدالحميد !

ونظر الرجل إلى ورقة أمامه : قصدك عبدالحميد افندي زاهر ؟!

قالت في فرح : أيوه .. هوه !..

قال : بس هوه دخل عند سعادة الريس دلوقت ؟

قالت ، وقد عادت تتوسل : اعمل معروف خليني أدخل له .. ضروري أشوفه دلوقت .. دلوقت حالاً !

قال ، وهو ينظر إليها نظرات فاحصة : حضرتك تبقي ..

وقاطعته في عجلة كأنها تقطع الزمن : انا بنت عمه .. وخطيبته !..

وعاد الرجل ينظر إليهـــا نظرات فاحصة .. إلى حالها المرتبك ، وإلى النظرات المضطربة في عينيها .. ثم جذب طربوشه من فوق المكتب ووضعه فوق رأسه ، وأماله في عناية ، وقـــال وهو يقوم من على مقعده متكاسلاً : طيب أتفضلي استريحي شويه ..

وجلست سامية على حافة المقعد الذي أشار لها عليه ، وهي تتبع الرجل بعينين مبتهلتين كأنها تنظر بهما إلي السماء ..

ودفع الرجل باباً جانبياً ، واختفى وراءه .. وعاد بعد قليل .. وقال وهو لا يزال واقفاً بجانب الباب الذي خرج منه ، اتفضلي يا أفندم ..

وأبقى الباب مفتوحاً لتمر منه ..

كان عبدالحميد في ثورة غضبه قد أحس أنه فقد كل شيء.. فقد كل آماله التي علقها على وجود ابراهيم في البيت .. فقد المكافأة السخية التي كان يمني نفسه

بقبضها ، وفقد سامية .. لن يتزوجها .. وفقد أحساسه بأنه سيد الموقف .. أحس أنه أهين في ذكائه عندما خدعوه وأقنعوه ان ابراهيم سيبقى في البيت على الأقل أسبوعين .. وأعمته كل هذه الأحاسيس عن التفكير السليم .. أعمته عن ذكائه .. وبدأ يتصرف كالمجنون متصوراً انه لا يزال يستطيع ان يستخلص شيئاً من آماله، ولو على حساب خراب العائلة كلها ..

وهرع إلى الشارع واتصل بالتليفون باللواء محمد بك همام رئيس القلم السياسي، وابلغه ان لديه معلومات اكيدة تؤدي إلى القبض على ابراهيم حمدي ، فطلب اليه همام بك ان يأتي لمقابلته حالاً .. واستقل عبد الحميد سيارة الاجرة ، وظل طول الطريق وهو لا يفكر فيما سيقوله لهمام بك .. بل كان يفكر في خطته التي فشلت، وكان الغضب واليأس يشعلان في رأسه ناراً يرى من خلالها وجوه عائلته التي خدعته .. عمه .. وزوجة عمه ، ومحيي ، ونوال .. حتى سامية اشتركت في خداعه .. ثم يرى صورة ابراهيم بابتسامته الهادئة التي تميل إلى جانب شفتيه ، فتزداد النار اشتعالاً في رأسه ، ويمتلىء صدره بالحقد الأسود ، ثم يقطر الحقد في اعصابه فيرفع قبضته يدق بها على ركبته وهو جالس في السيارة ، كأنه يدق رأس ابراهيم ليخمد ابتسامته التي تغيظه !.. وعندما دخل فناء المحافظة بدأ يكبت ثورة غضبه ، وبدأ يشعر بالحيرة والارتباك .. بدأ يسائل نفسه : لماذا جاء ..؟ ولكنه استمر في طريقه مدفوعاً بغيظه وثورته .. ودخل إلى حجرة السكرتارية .. وعندما طلب اليه السكرتير ان يجلس ريثما يسمح رئيس القلم السياسي بمقابلته ، بدأ يعد في رأسه ما سيقوله .. وفجأة اكتشف أنه لن يستطيع ان يقول شيئاً .. أنه لا يدري أين اختفى ابراهيم ، فلن يستطيع ان يرشد البوليس اليه .. ربما كان محيي أو عمه يعلم أين ذهب ابراهيم .. ولكن هل يستطيع حقاً ان يبلغ البوليس عن عمه أو ابن عمه ؟! وتحرك في صدره شيء كالسكين يشق لحمه .. انه لا يستطيع .. انه يعلم انه لا يستطيع .. ان هذا الشيء الذي تحرك في صدره طالما منعه عن الأقدام على تصرفات كثيرة .. لولا هذا الشيء لكان اليوم من أغنى الاغنياء أو لكان في السجن .. وهو يكره هذا الشيء.. يكره ضميره .. لكنه لا يستطيع أن يقاومه .. انه يتجاهله أحياناً ، ولكن هذا الشيء الملعون يتحرك في اللحظة الاخيره..دائماً في اللحظة الاخيرة وعندما يتحرك لا يستطيع ان يقاومه ..

ربما يستطيع ان يبلغ البوليس عن الصديقين اللذين طلب اليه ابراهيم ان يتحرى عنهما ، وان يبحث عما اذا كانت الحكومة قد اعتقلتهما أم لا .. وعن

طريق هذين الصديقين يستطيع البوليس ان يجد ابراهيم .. ولكن ..

سيسأله البوليس ، من اين عرف هذين الاسمين .. فاذا قال انه عرفهما من ابراهيم شخصياً ، سيعود البوليس ويسأله : أين التقى بأبراهيم !.. ولن يستطيع ان يقول انه التقى بابراهيم في بيت عمه والا خرب بيت عمه ..وضميره – الشيء الذي يتحرك في صدره كالسكين – يأبى عليه ان يخرب بيت عمه ..

وندم لأنه جاء الى المحافظة ..

وفكر في أن يهرب .. ان يعدل مقابلة همام بك !! ولكنه لا يستطيع والا وضع نفسه موضع الاشتباه من البوليس وقرر ان يلفق أي كلام يقوله ، ولا يهم بعد ذلك ان يثبت كذبه . ودعاه السكرتير الى الدخول ..

ودخل الى حجرة متسعة خافتة الضوء في نهايتها مكتب ضخم يجلس وراءه همام بك .. رقيقا ، مهذبا ، لم تستطع الرقة المفتعلة ولا التهذيب المفتعل ان يخفيا الخبث الذي يطل من عينيه الضيقتين. وقام همام بك ولف من وراء مكتبه وجاء اليه ماداً يده في ترحيب كبير ، كأنهما اصدقاء قدماء..وصافحه عبدالحميد بيد مرتعشة ، والهيبة والحيرة تكادان تقتلعان قلبه..

وأجلسه همام بك على أريكة من الجلد وجلس بجانبه ، بلا تكلف ، وبدأ يحادثه في بساطة..ولم يكن يحدثه عن ابراهيم حمدي..بل كان يحدثه في مواضيع عامة كانهما جالسان في قهوة يتباسطان ويلعبان عشرة طاولة..وفعلا بدأ عبدالحميد يهدأ ، وبدأ يلم أطراف تفكيره الممزق ..

وبعد دقائق قليلة، وقبل ان يصل الحديث الى ابراهيم حمدي دخل السكرتير ، وهمس في اذن همام بك ببضع كلمات ، فابتسم همام بك وقال بصوت مسموع : خليها تتفضل !.. ودخلت سامية .. ووقفت جامدة في وسط الحجرة ، وعيناها متحجرتان فوق عبد الحميد .. ونظر عبد الحميد اليها فزعا ، كأنه رأى السكين الذي يتحرك في صدره ، منتصباً أمامه .. رأى ضميره !! وقال وهو مبهوت : ايه اللي جابك ؟..

وقالت سامية في صوت ضعيف وهي تحاول ان تتمالك نفسها :

– جيت وراك .. حد يسيب خطيبته بالشكل ده ؟.. وضغطت على كلمة « خطيبته » كأنها ترشوه بها ..

ونقل همام بك عينيه الخبيثتين بينهما ثم قال لسامية ، وهو يقوم واقفاً في أدب مفتعل : اتفضلي يا هانم . وجلست ساميه على الاريكة بجانب عبدالحميد بينما جلس همام بك على مقعد عريض ، وهو يقول :

– ما شاء الله .. ومخطوبين بقي لكم زمان ؟!

والتفتت سامية الى عبد الحميد ، وقالت دون أن تدير رأسها الى همام بك : بقي لنا اسبوع واحد بس !.. وظلت معلقة عينيها بعبد الحميد كأنها تحاول ان تذكره بنفسها .. بحبه لهـا .. بأمله في الزواج بها .. بكل ذلك ، ان يصون سرها ، وسر عائلتها ..

ورفع عبد الحميد عينيه اليها ، ثم خفضهما سريعاً .. وقد احتقن وجههواخذ يضغط احدى يديه باليد الاخرى في عصبية كأنه يحبس الدم في يده .. حتى لا ينسكب من اطراف أصابعه .. كان ثائراً.. وكانت ثورته منصبةعلىسامية. كيف تتبعه .. وكيف تدخل المحافظة وحدها.. كيف سمحت لنفسها بانتخرج الى الشارع بهذا الشكل .. كيف واتتها الجرأة .. انها مجنونة قليلة الحياء ؟!.. وأحس انه أهين في عرضه .. في شرفه .. لأن بنت عمه .. حبيبته .. دخلت المحافظة وحدهـــا ..! ولكن ثورته ما لبثت ان انقلبت على نفسه .. انه هو السبب .. هو الذي دفعها الى هذا السلوك .. هو الذي مرمطها في الشوارع وفي المحافظة .. ترى ماذا فعل بها رجال البوليس قبل ان يسمحوا لها بالدخول ؟..

واشتدت ثورته ، وكلما تمادى في محـــاولة كبتها ، ازداد وجهه احتقانا ، وازدادت عصبيته ، ورعشة يديه.. وهمام بك لا يزال ينقل عينيه الخبيثتين بين الفتى والفتاة ، المهذبة : احنا كنا بنقول ايه ؟!

وانطلق صوت عبد الحميد مرتفعاً كأنه لم يعد يستطيع ان يكتم ثورته ، ولم يعد يحتمل هذا الأسلوب المهذب الذي يحادثه به همام بك ، وقال في لهجة حادة دون ان ينظر الى سامية التي لا تزال تعلق عينيها فوق وجهه :

– انا يا افندم كنت جـاي ابلغك معلومات عن ابراهيم حمدي اللي قتل عبد الرحيم باشا شكري .. وقاطعته شهقة حادة صدرت من سامية ، اعقبتها بتمتمة خافتة : عبد الحميد ..

وانتبه همام بك الى صوت الشهقة في يقظة.. واكمل عبد الحميد كلامه بسرعة كأنه يريد ان يسكت سامية حتى لا تتدخل في الموضوع : انا شفته النهار ده ماشي في الشارع .. شارع .. شارع العباسية !

وسكت كأنه انتهى مما يريد قوله ، واطمأن إلى أن سامية قد عرفت أنه لن يفشي السر .. وتنهدت سامية في ارتياح .. تنهدة عميقة كأنها أطلقت أبخرة كثيفة كانت تملأ صدرها .. أبخرة الخوف والجزع !

ولاحظ همام بك ، علامات الارتياح التي بدت على وجه سامية ، وقالوبين

شفتيه ابتسامته خبيثة يحاول ان يخفيها : وبعدين ؟..

ورفع عبدالحميد حاجبيه فوق عينيه في دهشة ، كأنه فوجىء بهذا السؤال وقال ، وهو لم ينته بعد من رسم الأكذوبة في خياله :

– وبعدين ؟.. وبعدين مشيت وراه ..

وسكت كأنه يلتقط أنفاسه ، وتعجله همام بك قائلاً :

– كويس خالص .. وبعدين !..

وقال عبدالحميد ، وقلبه يرتعش : وبعدين شفته ركب عربيـــة .. رحت ضارب لسعادتك تليفون على طول !..

وقال همام بك : وشفت نمرة العربية ؟..

وقال عبد الحميد : لا والله .. أصلي كنت ماشي وراه من بعيد ما قدرتش أشوف نمرة العربية .. حتى كانت النمرة متآكلة وأرقامها ممسوحة .. وأول ما حط رجله فيها جريت على طول ..

قال همام بك وهو لا يصدقه : ما شفتش ولا رقم من النمرة ؟

وقال عبدالحميد وهو يبتلع ريقة : أيوه شفت رقم ثمانية .. ورقم واحد !

وابتسم همام بك كأنه يحاول أن يقنعه بأنه يصدقه رغم كذبه وسأله : والعربية كان لونها ايه ؟..

وقال عبدالحميد في عجلة : سوده !..

وقال همام بك : والهانم خطيبتك كانت معاك ؟

قال عبدالحميد في حدة ، كأنه مصر على إبعـــاد سامية من الموضوع : لا .. لا .. ما كنتش معايا !

وأدارت سامية رأسها ناحية همام بك وهزت رأسها علامة الموافقة ، وفي عينيها نظرة ساذجة .. وابتسم لها همام بك وعاد يسأل عبدالحميد : وحضرتك ساكن في العباسية ؟

قال عبدالحميد : لا .. في شبرا ..

قال همام بك وهو يحاول أن يدفعه إلى التمادي في الكذب :

– لازم خطيبتك هيه اللي ساكنه في العباسيه ؟

وقال عبدالحميد : لا .. أنا كنت في العباسيه ، لأني كنت رايح لواحـــد صاحبي أعمل له تأمين !..

وقال همام بك وهو لا يزال محتفظاً بهدوئه وابتسامته المهذبة :

– واسمه ايه صاحبك ؟

وتردد عبد الحميد ريثما يبحث في رأسه عن اسم احد اصدقائه .. ثم قال : اسمه محمد نوفل !.. ثم استطرد كأنه خشى أن يبحث البوليس عن صديقه في حي العباسية فلا يجده : الحقيقة هو ساكن في مصر الجديدة .. لكن انا نزلت في العباسية علشان آخد الترامواي الأبيض من هناك !..

وسكت عبد الحميد . وقام همام بك ودق جرساً صغيراً موضوعاً فوق مكتبه ، ثم قال وهو لا يزال واقفاً : الواقع دي معلومات قيمة جداً يمكن تساعدنا فعلاً ..

وقبل ان يرد عبد الحميد ، دخل السكرتير .. ولاقاه همام بك في وسط الغرفة ثم انتحى به جانباً ، وهمس في اذنه ببضع كلمات . خرج بعدها السكرتير تواً .. وعاد همام بك وجلس على مقعده .. وقال له عبد الحميد :

ـ انا في الخدمة دايماً يا أفندم ..

وقال همام بك وابتسامته بين شفتيه : على كل حال احنا متشكرين قوي .. لو عرفت أي حاجة تانية لازم تيجي تقول لي .. ولا يمكن تفتكر حاجة يمكن نسيت تقولها .. على طول تيجي .. احنا بنعتمد كتير على أمثالك من اللي قلبهم على البلد

وأحس عبد الحميد احساساً خفياً بأن همام بك يتعمد اهانته وقام واقفاً ووقفت معه سامية وقال : تسمح لي يا أفندم ..

وقام همام بك واقفاً وهو يقول : متشكر .. مع السلامة .. بس سيب عنوانك عند السكرتير يمكن نحتاج لك علشان نكتب الكلمتين اللي قلتهم في محضر .. ولا مش ضروري .. انا الكلام اللي باسمعه بينكتب في رأسي .. رأسي فيها ييجي مليون محضر !!

وأشار همام بك بيده إلى رأسه متباهياً ، ثم مد يده وصافح عبد الحميد وسامية ، وتبعهما حتى باب غرفته ..

وحياهما السكرتير في الغرفة المجاورة باحترام كبير .. وخرجا إلى النور .. والتفتت الية سامية بعينين فرحتين ، كأنه كان غائباً عنها وعاد اليها .. عاد سالماً .. بطلاً .. ولكنها اصطدمت بعينيه غاضبتين ، وقال في صوت غاضب مبحوح وهو يمسك بيديها ويضغط عليهما بقوة : أزاي تسمحي لنفسك تيجي ورايا بالشكل ده .. انتي اتجننت ، ما حدش رباك .. ده شكل تخرجي بيه في الشارع .. من أمتى بنات العيلة بتدخل المحافظة ؟

قالت وهي تبتسم كأنها تتباهى بغضبه : أصلي خفت لتكون زعلان ..

قال في حدة : لا يا شيخة ، بأه كده خايفه لأكون زعلان ، لا والله ما كنش لازم أزعل .. أنتي جايه علشان كنت خايفه على بيتكم وعلى سي

ابراهيم بتاعكم .. مش خايفة لأكون زعلان !!

– لا .. والله العظيم أبداً .. أنا كنت خايفه عليك !

قال في حدة : من ايه بقي يا ستي ؟..

قلت في خفر : خايفه ما ترجعليش تاني .. الكلام اللي قلته مش صحيح يا عبدالحميد..إذا كانت الدنيا كلها تضحك عليك..انا مش ممكن أضحك عليك.

قال وهو يسحبها من يدها ناحية ميدان باب الخلق : طيب تعالي .. أنا خلاص مش ناوي أتجوز .. ومش ناوي أدخل لكم بيت !

ونظرت اليه سامية وهي تمد خطاها حتى لا يسبقها :

– ما تقولش كده يا عبدالحميد ..

وقاطعها الأسطى أبو سريع سائق سيارة الأجرة التي جاءت فيها قائلاً وهو يشير إليها بيده : أنا هنا يا ست ..

وتوقفت وقالت لعبد الحميد : ده التاكسي اللي جيت فيه .. أصل نسيت أجيب فلوس من البيت علشان أدفع له !!

وتردد عبدالحميد قليلاً كأنه يعد في عقله ما يحمله من نقود .. ثم اتجه نحو السيارة ، وهو يقول لسامية : اتفضلي !..

وركبت سامية ، وركب عبدالحميد بجانبها .. وعادت تنظر اليه بعينين فرحتين كأنها ذاهبة معه إلى بيتها ، عقب حفلة الزفاف.. وعبد الحميد غاضب.. يزفر أنفاسه في قسوة .. كان يستعيد كل كلمة قالها لهمام بك ويحاول أن يعثر على الثغرات التي قد يفتضح منها كذبه .. وكان يشعر بغلطته .. ويشعر انه كان غبياً .. ويستسخف نفسه .. وشعوره بالسخافة يمزق قلبه .

وقالت سامية ، وهي تمد يدها في حياء وتضعها فوق يده : ما تزعلش نفسك خلاص كل حاجة حاتمشي كويس باذن الله .

وجذب يده من تحت يدها ، وهو يقول : سيبيني وحياة أبوكي .. أنا مش فاضيلك دلوقت .. ولا فاضي للكلام ده !

وسكتت سامية في استسلام ، وهي لا تزال تنظر اليه بعينيها الفرحتين ، وقد لمع فيهما الحب.. انها لم تعد تجاهد لتخفي حبها .. وهي تعتقد انه لم يكذب على البوليس الا من أجلها .. لأنه يحبها .

ووصلت بهما السيارة إلى البيت .. ونزلا منها .. وقرأ عبد الحميد العداد ، ثم نظر إلى سامية كأنه يحملها مسؤولية هذه المصيبة الجديدة .. ثم وضع يده في جيبه ، ودفع .. وابتعد السائق بسيارته وهو يقول : متشكرين .

وقالت سامية وهي تنظر إلى عبد الحميد كأنها تهبه نفسها :
– مش حاتطلع معايا ؟.. قال في اختصار : لأ ..
قالت : انا مش حاقول لحد احنا كنا فين ! ..
قال : وهو ينظر اليها : احسن ..
قالت كأنها تتوسل : وحاتيجي امتى ؟.. قال : ما اعرفش ..
قالت : لازم تيجي .. علشان ما حدش ياخد باله ..
قال : أما اشوف .. سعيدة .. وادار لها ظهره وسار متجهاً إلى شارع الجيزة ولم يشعر أن هناك رجلاً يتبعه .. لم يشعر بأنه اصبح مراقباً من البوليس ! ..

١٤

يوم الاثنين .. ونوال حائرة أمام مرآتها ، لا تكاد تنتهي من زينتها حتى تبدأ من جديد .. تضع ضفيرتها فوق صدرها ثم تعود وتلقيها خلف ظهرها ، ثم تلفها فوق مؤخرة رأسها ، ثم تسدلها من جديد وتمسك بالقلم الأسود تزجج به حاجبيها ثم تعود وتبلل اصبعها بريقها وتمسح ما خطته فوق حاجبيها .. وتدس يديها في قفازها الأبيض ، ثم تسحب احدى يديها من القفاز ، وتمسك بحقيبتها .. وتبتعد قليلاً عن المرآة لترى نفسها على بعد ، ثم تقترب من المرآة مرة ثانية ، وتبدأ زينتها من جديد .. زينة بسيطة بريئة ليس فيها الوان .. الا الوان عينيها السود وبشرتها التي تختلط سمرتها بحمرة دمائها النشطة الشابة .. وظلت في حيرتها حتى سمعت دقات الساعة في الراديو تعلن العاشرة والنصف فارتبكت وظنت انها تأخرت .. تأخرت كثيراً عن موعد ابراهيم .. والقت نظرة سريعة إلى المرآة ، ولوت شفتيها كأنها غير راضية عن جمالها .. وخطفت حقيبتها وأسرعت بالخروج ، وهي تصيح : انا نازلة يا ماما ..

وقالت أمها من الغرفة المجاورة ، دون ان ترفع رأسها : ما تتأخريش .. الساعة اتناشر تكوني هنا .. وسلمي على تفيدة هانم ، وقولي لها ماتنساش الأمانة

ولم تنتظر نوال لتسمع بقية كلام أمها .. واغلقت الباب وراءها وقفزت الدرجات قفزاً لتجد نفسها في الشارع .. وركبت الاوتوبيس ..

ولم تعد تفكر في نفسها ولا في زينتها .. أصبح كل ما تفكر فيه هو

ابراهيم .. هل ستراه مرتديا بدلة الضابط .. أم سيأتي اليها بالقميص والبنطلون كما رأته اول مرة ؟! هل سيأتي في سيارة ، أم سائرا على قدميه ؟! هل سيأتي مبتسما كما كانت تراه احياناً ، أم جادا مفكرا كما كانت تراه غالباً ؟!

وكانت تفرح وتحزن تبعاً للحال الذي تتصور ابراهيم فيه .. وعندما تفرح ترتسم ابتسامة فوق شفتيها دون ان تدري بها ، وعندما تحزن يتقطب جبينها دون ان تدري .. كانت ملامحها تنفرد وتتقلص تبعا لاحساسها ، كأنها تحادث انساناً آخر في داخلها .. وكان احساسها يستبد بها حتى يكاد يصبح همساً .. وهمسها يحتد حتى يكاد يصبح كلاماً واضحاً تنطق به مـــلامحها .. ونزلت من الاوتوبيس .. واشتد وجيب قلبها ..

انها تقترب .. تقترب من ابراهيم ..

وسارت نحو ميدان عبد المنعم في خطوات مرتبكة ، ورأسها منكس ، ووجنتاها مصهورتان بالخفر .. وجفناها يضطربان فوق عينيها .. وهي لا تنظر الى احد ، ولا الى شيء .. كأن الناس والجدران واسفلت الشارع ، كأن كل شيء يعلم انها ذاهبة لملاقاة ابراهيم . لملاقاة رجل !

ووقفت في الميدان تحت ظل شجرة .. ورأسها لا يزال منكسا ، وعيناها تنظران من تحت جفنيها الى بوز حذائها ، كأنها عروس في انتظار أملها ليرفع عن وجهها النقاب .. نقاب الحياء والخفر ..

واشتد وجيب قلبها عندما سمعت صوت سيارة تقترب منها .. ولم ترفـع رأسها .. انما انتابتها رعشة سرت في اعصابها كلها .. وحاولت ان تشد قامتها ، وان تعتدل في وقفتها ، ثم تعمدت ان تدير رأسها الناحية الاخرى حتى لا يرى ابراهيم لهفتها ، وقفزت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها كأنها تنفس بها عن حياتها واضطرابها .. واصبح صوت السيارة فوق اذنها تماماً .. وانتظرت ان تسمع صوت وقوفها . ثم صوت بابها يفتح .. ثم صوت ابراهيم يقول لها « صباح الخير » .. ولكن السيارة لم تقف .. مرت بها دون ان تخفف من سرعتها ..

ورفعت رأسها في دهشة وتبعت السيارة بعينين ملهوفتين كأنها تتبع أملا ضاع منها .. ثم عادت ونكست رأسها في حسرة .. وعادت تنتظر ..

وبدأت تنقل قدميها في وقفتها ، كأنها فرس مشدودة الى عربة أتعبهاطول الوقوف والانتظار ..

ثم تسللت بعينيها الى الساعة الفضية الصغيرة المربوطة الى معصمها .. نظرت اليها خفية كأنها تخشى ان يضبطها احد وهي تنظر الى الساعة ..

ان الساعة الحادية عشرة ، وعشر دقائق .. ما الذي أخره ؟! .

وبدأت تتلفت حولها في حذر .. انها ترى هناك رجلامرتديا جلبابا..وفي الناحية الاخرى أما تسحب طفلها .. ولكنها لا ترى ابراهيم . وتنهدت ..

وسارت بضع خطوات ، ووقفت تحت ظل الشجرة التالية ، واخـــذت تلتفت من جديد .. ما الذي أخره ؟! ..

ربما اتبع طريقاً طويلا حتى يضلل البوليس !

وأرتجفت عندما تذكرت البوليس.. كان قد غاب عنها منذ استيقظت في الصباح ان ابراهيم انسان هارب ، وان البوليس يبحث عنه .. نسيت هـــذه الحقيقة في لهفتها الى لقائه. هل يكون البوليس قد قبض عليه؟ الا .. مستحيل.. لا يستطيع احد ان يقبض على ابراهيم! وسمعت صوت سيارة اخرى تقترب منها. وفي هذه المرة استدارت بجسدها كله ناحية السيارة ، ونظرت الى داخلها بكل عينيها ، ثم ردت عينين خائبتين ، لم تر ابراهيم داخـل السيارة . ونظرت الى ساعتها مرة اخرى .. انها الحادية عشرة والثلث .. وبدأت تحس بالضيق .. وتحركت من وقفتها ، وبدأت تسير حول الميدان الواسع في خطوات بطيئة ضيقة ، كأنها تزفر خطواتها من صدرها .. وتتلفت في كل شارع جانبي تمر به من الشوارع التي تصب في الميدان كأنها تنتظر ان تجد ابراهيم مختبئاً فيه او آتيا منه..ثم تعود وتتلفت خلفها بين كل خطوة واخرى كأنها تخشى ان يفاجئها ابراهيم من الخلف .. واتمت دورة الميدان ، وعـادت الى حيث كانت واقفة تحت ظل الشجرة.. عادت متعبة يائسة وقد تهدل كل شيء فيها.. تهدل ذراعها الى جانبها فلم تعد تمسك حقيبتها برشاقة كما كانت تتعمد عندما جاءت ، انما اصبحت تمسكها في اهمال كأنها تكاد تقع منها وتهدلت نظراتها فلم يعد فيها هذا النشاط والبريق. وتهدلت شفتاها فلم تعد بينهما هذه الابتسامة الضيقة الخجول ، انما أصبحت تبدو كأنها «مبوزة» وتهدل قوامها فلم تعد تشده وتسيطر على حركاته ، انما انحنى ظهرها وانتهت ركبتاها كأنها تكاد تنهار على الارض..ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى..انها الثانية عشرة الا ربعاً .. انه لن يأتي .. وأحست بصوت يرتفع من صدرها يؤكد لها انه لن يأتي .. ويردد في الحاح « لن يأتي . لن يأتي .. لن يأتي » كأن هـــذا الصوت يتعمد اغاظتها.. وتحطيم آمالها ، واظلام حياتها .. ثم أحست برغبة في البكاء .. كل شيء فيها اصبح يتجمع للبكاء .. اعصابها بدأت تعصر نفسها لتزف الدموع .. وعيناها بدأتا تلتهبان .. ورفعت رأسها كأنها تقاوم دموعهـــا .. وتلفتت حولها كأنها تستغيث من اليأس..وفي تلفتها التقت بوجه أسمر ينظر اليها

نظرات ساخرة وبين شفتيه ابتسامة جارحة.. انه رجل يقف مستنداً على جدار سيارة .. لعله سائق .. لعله يراقبها هكذا منذ فترة طويلة .. ولعله استنتج انها جاءت لملاقاة رجل .. وان الرجل تخلى عنهـــا ولم يأتِ .. وانقلب يأسها إلى غضب .. ثم إلى ثورة.. أحست ان كرامتها اهينت .. انها اصبحت سخرية بين الناس في الشارع .. كيف يدفعها ابراهيم إلى هذا الموقف ؟

كيف يرضى ان يتركها للناس يسخرون منها هكذا !.. وتحركت .. وقد قررت ان تعود إلى بيتها .. وسارت في خطى سريعة نحو محطة الاوتوبيس .. ولكنها ما لبثت ان خففت سرعتها ، والتفتت إلى الوراء كأنها ترشف بعينيها آخر قطرة من الامل .. ولم تر الا الوجه الاسمر ينظر اليهـا النظرة الساخرة ، وبين شفتيه الابتسامة الجارحة.. فعدلت رأسها ، وعادت تخطو خطوات سريعة نحو محطة الاوتوبيس .. وركبت الاوتوبيس وثورتها تكاد تقتلع قلبها ، وقـــد جمعت كل ارادتها فوق عينيها حتى تحبس بهادموعها .. انها لن تعود مرة ثانية .. لن تعرض نفسها لمثل ما تعرضت له اليوم .. ستقاوم نفسها ، وتقاوم حبهـا ، وتقاوم ابراهيم .. وكانت لا تكادتتصور انها وصلت إلى قمة المقاومة ، حتى يبدو لهاوجه ابراهيم جاداً ، مضطرباً ، وهو يهرب بعينيه منها حتى لا تكشف اضطرابه ومشاعره.. فتحس بالحنين اليه.. حنين فيه أشفاق بقدر ما فيه اعجاب .. كأنه حنين أم لابنها الذي ذهب إلى ميدان القتال.. وتبدأ في تلمس الاعذار له ..ربما حال تهربه من البوليس دون حضوره .. ولكنه لاشك حاول ان يحضر للقائها. ربما .. ربما .. وأطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهي تتصور انه ربما استمر في الهرب حتى ترك مصر كلها .. ابتعد عنها .. لن تراه أبداً ..ولكن.. لا .. انه لن يتركها ، لن يخرج من مصر ، ان مكانه بجانبها.. وتنساق في خيالها ..وترتفع اصابعها لتحتضن العلبة الذهبية الصغيرة المعلقة فوق قلبها والتي تضم المصحف والكلمة التي كتبهاابراهيم بخط يده..ثم لا تلبث ان تفيق من استسلامها وتتذكر الوجه الاسمر الذي ينظر اليها ساخراً ، فتعود وتقرر المقاومة .. مقاومة نفسها وحبها .. وظلت في هذه الحيرة بين المقاومة ، والاستسلام.. حتى وصلت البيت ومر بقية اليوم ، ويوم الثلاثاء .. وحيرتها تشتد .. حتى انقلبت عذاباً ..عذاباً يبكيها وهي تحاول ان تقاوم عواطفها ويبكيها وهي تستسلم لهذه العواطف .. وهي في حيرتها مبتعده عن كل من في البيت .. لا تطيق ان تحادث أختهاسامية ولا تطيق ان تناقش أمها.. ولا تطيق ان تجلس في غرفة «القعاد» خلال الاجتماع العائلي الذي يعقب طعام الافطار .. ولا تطيق أن ترى اخاها محيي .. انه يزيد

من عذابها وحيرتها كلما رأته .. يزيد من عذابها لأنها تخفي عنه ما بينها وبين ابراهيم فلا تستطيع ان تسأله عنه ، ولأنه لا يعلم بعذابها فيحاول ان يخفف منه ولا تطيق ان ترى عبد الحميد الذي لا يزال يتردد على البيت كل يوم ، وأعمتها حيرتها عن الحال الجديد الذي يبدو فيه عبد الحميد .. لم تلحظ انه يبدو صامتاً أكثر مما تعود ، ولم تلحظ انه لم يفاتح أباها في موضوع الزواج ، وانه لا يتحدث عن ابراهيم الا في اشارات غريبة ، ولم تلحظ الهمسات الكثيرة التي تدور بينه وبين اختها سامية كانهما يخفيان شيئاً .. لم تلحظ كل شيء ..

وهي ايضاً لا تطيق ان تجلس مع الضيوف الذين بدأوا يترددون على البيت بكثرة كأن أباها يتعمد ان يدعو كل العائلة والاصدقاء ليشهدوا ان ليس في بيته رجل غريب .. ولا تطيق ان ترى سنية الخادمة وقد عادت الى خدمة البيت ، فلا تكاد تراها حتى تصرخ في وجهها كأنها تصب عذابها عليها. كل ما كانت تفيق له وهي في حيرتها هو ان تتطلع على جريدة الاهرام ، وتسمع نشرة الاخبار في الاذاعة ، علها تقرأ أو تسمع خبراً عن ابراهيم .. ووجدت نفسها صباح الاربعاء تفتح دولابها وتلبس ثوب الخروج ، وتقف اماء مرآة لتتزين.. لم تفكر كثيراً.. انما وجدت نفسها منساقة ، كأن هاتفاً يدعوها اليه .. الى ابراهيم ! . ولم تتزين كثيراً كما كانت تزينت اول مرة .. لم تحتر في زينتها انما وقفت امام مرآتها كأنها تنظر فيها الى انسانة اخرى لا تعرفها ولا تقر تصرفاتها .. وقالت لأمها ، بعد ان بلغت الساعة العاشرة والنصف : انا رايحة لوفاء يا ماما !..

وقالت الام في حزم : لأ .. كفاية خروج !..

وتنبهت نوال إلى انها ستخوض معركة .. كأن اعتراض أمها على خروجها كان احتمالاً بعيداً لم تفكر فيه ، وقالت في تردد ، وهي تمنح أمها اجمل ابتساماتها :

– ده انا لبست خلاص يا ماما ؟..

قالت الأم دون أن تحتد : قلنا ما فيش خروج !..

وقالت نوال وهي تقترب من أمها كأنها تحاول ان تلمس قلبها :

– والنبي يا ماما ، الله يخليكي ، انا مش حاتأخر ، ربع ساعه بس .. أصلي عايزه اتعلم منها قصه فستان جديد !..

ونظرت اليها أمها ملياً ، ثم قالت كأنها تقاوم حنانها :

– يا بنتي هو كل يوم خروج .. حتى أبوكي يزعل ؟..

وقالت نوال : ما انا قاعدة في البيت ماخرجتش بقالي يومين .. ويعني انا رايحة فين؟

وقالت الأم وهي تدير رأسها حتى لا يبدو ضعفها :

– تعرفي تتأخري عن نص ساعة .. بقطع رقبتك ؟..

وقالت نوال في فرحة لانتصارها : حاضر .. وخرجت نحو الباب .. وما كادت تصل إلى الشارع حتى زايلتها فرحتها .. وسارت مستسلمة كأنها منقادة إلى مأساة .. وعندما نزلت من الأتوبيس، لم تتعمد أن تخفي عينيها عن الناس .. بل كانت في قرارة نفسها تسخر من الناس الذين يعتقدون انها في طريقها لملاقاة رجل ..لا.. لن تلاقيه .. انه لن يأتي .. استريحوا ايها الناس .. فلن نلتقي بابراهيم .. ووقفت تحت ظل الشجرة نفسها في ميدان عبد المنعم .. وهي تحس بيأس كبير .. كأنها تؤدي مهمة واثقه من فشلها.. ونظرت سريعاً إلى ساعتها.. كأنها تريد ان تهرب من الفشل وكانت الساعة الحادية عشرة ودقيقتين ..وقررت بينها وبين نفسها ان تنتظر حتى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق .. ثم مدت الاجل – بينها وبين نفسها أيضاً– حتى الحادية عشرة وعشرة دقائق ..ولكنها ما كادت تنزل ذراعها الذي يحمل الساعة ، حتى بوغتت بسيارة تقف أمامها فجأة بعد أن زحفت عجلاتها على الأرض وأطلقت صوتاً حاداً ، كأن الأرض نفسها هي التي توقفت عن الدوران .. ونظرت داخل السيارة بعينين مبهورتين .. لم يكن ابراهيم .. ولكنه كان صديقه فتحي المليجي ..

وكان يبتسم يحييها ، وقالت في عجلة قبل ان تلتقط ابتسامته : فين ابراهيم؟

ثم كأنها ندمت على تعلجها فاستطردت في صوت خفيض خجل :

– ازيك يا أستاذ فتحي ؟..

وقال فتحي وابتسامته لا تزال بين شفتيه : الله يسلمك .. ابراهيم ماقدرش ييجي .. الظروف الـ .. وقاطعته في لهفة : ازيه ؟..

قال وقد اتسعت ابتسامته : كويس الحمد لله .. بيسلم عليكي وبيقول ..

وقاطعته مرة ثانية : هو فين .. قاعد فين ؟ .

قال وهو ينظر اليها في حنان كأنه يشفق عليها من سذاجتها : في أمان .. وبيقول لك انه حا يحاول ييجي الدور الجاي .. والدور الجاي ماتستنيش هنا .. عارفة ميدان «فني» اللي جنبنا ، تستنى هناك عند الناصية اللي فيها مستشفى عانوس

وقالت في استسلام عجيب : حاضر ..

واستطرد فتحي : وقولي لعبد الحميد ياخد باله ، أحسن البوليس مراقبه .. وقولي له مايتكلمش كتير في القهوة !

وقالت نوال في دهشة : عبد الحميد ! ماله عبد الحميد !..

وقال فتحي ويداه فوق عجلة القيادة : ما اعرفش .. جات لنا معلومات

ان البوليس بيراقبه .. حاظط له واحد ماشي وراه !

وفغرت نوال فاها ، كأنهـا لا تستطيع أن تبتلع دهشتها ، وقبل ان تهم بالكلام ، قال فتحي : أنا آسف .. لازم أمشي دلوقت .. اطمني !!

ثم انطلق بسيارته قبل أن تفيق من دهشتها وقبل أن تحييه ..

وظلت واقفة مكانها جامدة واجمة ، كأنها تمثال جميل من الحجر الأسمر ..

ثم بدأ وجومها يذوب .. وأحست بفرحة خفيفة تنساب الى قلبها .. ان ابراهيم بخير وهو يذكرها وهو حريص على لقائها .. وأحست كأن كل حيرتهـا وعذابها قد تبخر .. وان النور قد أشرق من جديد .. وان حياتها قد عادت نضرة نشطة مثيرة .. ومدت أصابعها واحتضنت العلبة الذهبية ، كأنها تصافح ابراهيم تهنئه بسلامة العودة .. العودة اليها !

وتذكرت ما قاله فتحي عن عبدالحميد .. لماذا يراقب البوليس عبدالحميد !

لماذا عبد الحميد .. لماذا لا يكون أخوها محيي ؟!

وعادت الى بيتها في حركات نشطة مسرعة لتؤدي المهمة التي كلفها بهـا ابراهيم .. لتقول لعبد الحميد ان يحترس من البوليس الذي يراقبه .. كيف تقول له ؟!.. وبماذا تجيب اذا سألها ، كيف عرفت ان البوليس يراقبه ؟!

انها قطعاً لن تقول انها تذهب كل يوم اثنين ، واربعاء ، لتلقى ابراهيم .. ولن تقول له ان ابراهيم أرسل لها فتحي المليجي ليطلب منها ان تحذر ابن عمها من البوليس .. ودخلت بيتها وذكاؤها كله محصور في البحث عن الوسيلة التي تنبيء بها عبد الحميد ، حتى بدت كالتائهة .. تتحرك كالتائهة .. وتنظر كالتائهة .. وتتكلم كالتائهة .. وجاء عبد الحميد في الساعة الثالثة بعد الظهر .. كعادته ان يأتي عندما يكون الأب نائماً ..

وما كادت تراه يدخل البيت ، حتى أسرعت الى الشرفة ، وأطلت منهـا تبحث عن رجل البوليس الذي قال لها فتحي انه يتبعه ..

وأدارت عينيها في الرجال القلائل الذين تراهم في الطريق .. عم عثمان بواب البيت المقابل .. والأسطى حنفي الكواء .. ومحمود بائع السجائر والحلوى .. و .. هناك رجـل يقف بعيداً عن البيت مستنداً الى عمود النور مرتدياً ثياباً مدنية ، ويقرأ في جريدة .. رجـل غريب لم تره من قبل في هذا الشارع .. غريب في مظهره ، وغريب في وقفته ، وغريب في نظراته التي يطلقها بين الحين والحين ناحية البيت .. وغادرت الشرفة ، ومرت بعبد الحميد وهو جالس مع سامية في حجرةالقعاد دون أن تقول له شيئاً .. وانتظرت الى ان خرج عبدالحميد

وأسرعت مرة ثانيـــة الى الشرفة وأطلت منهـا .. وراقبت عبد الحميد وهو يبتعد عن البيت .. وراقبت الرجل الآخر .. لقد طوى الجريدة بيديه ، ثم سار خلف عبد الحميد محتفظاً بمسافة كبيرة تبعد عنه .. وانحرف عبد الحميد الى اليمين عندما وصل الى آخر الشارع ، فانحرف الرجل الآخر خلفه ..

وتركت نوال الشرفة ، وقلبها يضطرب خوفاً ، كأنها رأت عبد الحميد يذبحه البوليس .. ولم تتكلم .. وعانت كثيراً حتى تمنع نفسها من الكلام .. كانت تريد أن تقول لسامية كل شيء .. أن تطلعها عـلى سرها الخطير .. ولكنها خافت أن تفشي سامية سرها لعبد الحميد .. ان سامية كتومة ، ولكنها تحب عبد الحميد ، ولم تعد تخفي حبها في الأيام الاخيرة ، وقد تفزع للنبأ فينهار لسانهـا أمام حبهـا .. ولذلك فضلت نوال أن تحمل سرها وحدها وتعاني ضغطه على صدرها وعلى أعصابها .. وجاء عبد الحميد في اليوم التالي .. وأطلت نوال من الشرفة فرأت نفس الرجـــل .. يقف نفس الوقفة ، مستنداً الى عمود النور ، مرتدياً نفس البدلة ، والجريدة في يده .. وتركت الشرفة ، ووقفت أمام عبد الحميد قائلة وهي تتروى في كلماتها حتى لا يسقط منها سرها :

– اسمع يا عبد الحميد .. أنا ملاحظة حاجة غريبة قوي !

ورفع عبد الحميد رأسه المهموم ، الذي لم يبد همـــه الا في الايام الأخيرة ، وقال بصوت خافت ، لم يخفت الا اخيراً : خير انشاالله !

وقالت نوال : انا ملاحظه أنك كلما تيجي هنا ، فيه راجل بييجي وراك ، ويفضل مستنى في الشارع لغاية ما تخرج يبتدي يمشي وراك .. انت تعرفه الراجل ده ؟

واتسعت عينا عبدالحميد ، وقال في دهشة يختلط بها الفزع :

– راجل .. راجل ايه ؟!

وقالت نوال ، وهي لا تزال تختار الفاظها : أنا عارفه .. متهيأ لي أنه زي ما يكون عسكري داوريه ، بس لابس بدلة أفندي !

وقالت سامية فجأة كأنها تنفي تهمة تحرص على نفيها :

– عسكري ، وأحنا مالنا ومال العساكر ، احنا ما نعرفش عساكر !

وقال عبدالحميد وهو يكاد يرتجف : فين هو ده . هو واقف دلوقت تحت ؟!

قالت نوال : ايوه .. تعال حتى شوفه !..

وقام عبدالحميد ، ووقف في الشرفة مبتعداً عن حاجزها ، وأشارت نوال إلى الرجل الغريب الواقف مستنداً إلى عمود النور ، ودخل عبدالحميد بسرعة إلى الحجرة وهو يقول لنوال : وبقي لك اد ايه وانتي بتشوفي الراجل ده ؟

قالت ، وهي تنظر اليه في إشفاق : من مدة أربع أيام !!..

وسكت عبدالحميد ، وأخذ يروح ويجيء في الغرفة وهو يفرك إحدى يديه بالأخرى في عنف ، وسامية تنظر إليه مبتهلة كأنها تستجديه كلمة يطمئنها بها..

وقالت نوال ، وهي لا تزال تنظر إليه في إشفاق : تفتكر أنه بوليس ؟؟

وقال عبدالحميد في حدة : ما عرفش .

ثم خرج من الحجرة مسرعاً وسامية خلفه تصيح : عبدالحميد ، رايح فين؟

ورد عليها عبدالحميد وهو متجه نحو باب الشقة :

— رايح أشوف الراجل ده ماشي ورايا ليه !

وخرج وصفق الباب وراءه ..

وشهقت سامية كأن قلبها قد اختنق بين ضلفتي الباب !

نظر عبدالحميد إلى الرجل الذي أشارت عليه نوال ، ثم سار متجهـــاً إلى شارع الجيزة ، وتلفت خلفه فإذا بالرجل يتبعه عن بعد .. ووقف عند محطة الترام ، فإذا بالرجل يلحق به ويقف على الجانب الآخر من المحطة ؟

وركب الترام نمرة « ١٥ » ونظر خلفه فإذا بالرجل يركب خلفه في نفس العربة .. ونزل من الترام في ميدان العتبة الخضراء ، ورأى الرجل ينزل خلفه ويتبعه .. وركب الترام نمرة « ٨ » المتجه إلى شبرا ، وركب معه الرجل .. ونزل عند شارع شيكولاني فنزل الرجل خلفه..وسار إلى بيته والرجل يتبعه .

ودخل بيته ، وأطل من النافذة ، من خلال ألواح « الشيش » فإذا بالرجل واقف قبالة البيت مستنداً إلى جدار ، وقد فرد جريدته أمام وجهه ..

وترك النافذة ، وانهار على مقعد ، وأسقط رأسه بين يديه .. وأحس بمرارة حارة تقطر من قلبه ويكاد يذوق طعمها بلسانه ..

أنه يحس بهذه المرارة منذ ذهب إلى المحافظة وقابل الاميرالاي همام بك .. مرارة الفشل .. مرارة الاهانـــة المضاعفة التي لحقت بذكائه ، عند ما خدعه ابراهيم وترك البيت دون ان يعلم ، ثم عند ما تسرع وقابل همام بك واكتشف أنه لا يستطيع أن يقول له شيئاً ، واضطر ان يكذب عليه ..

وكان يحاول ان يتغلب على هذه المرارة .. ان يبتلعها ويهضمها ، كما استطاع ان يهضم كثيراً من الأخطاء التي ارتكبها في حياته .. كان يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس انساناً فاشلا ، ولكنه انسان ذو ضمير .. وان ضميره هو الذي غلبه !

وكان في حاجة إلى سامية ، أكثر من حاجته إليها في أي وقت مضى.. أنها تمثل اقتناعه بأنه لم يفشل..وهي الوحيدة التي تمده بالثقة في نفسه ، وتشعره

بغروره .. وهي لم تعد تتدلل عليه ، ولا تصده ، ولا تتهمه بسوء الخلق ، بل منذ لحقت بـه في « المحافظة » وهي تنظر إليه كإنسان كبير ،وتعتقد أنه كذب على همام بك من أجلها ..من أجل حبها ..أنقذ البيت كلها كراماً لخاطرها .. ومنذ ذلك اليوم وهي تتودد اليه ، وتعطيه اهتمامها وحنانها أكثر مما أعطته طول حياتها..وتدفعه إلى الاصرار على الزواج بها ..تدفعه بكلمات ملفوفة في طيات حيائها..ولكنه رغم ذلك لم يعد يستطيع ان يحتفظ باصراره ، لم يعد يشعر بالقوة والذكاء اللذين يصر بهما على مطالبه .. كان يشعر بالضغف ، ومن خلال ضعفه بدأ يعترف لنفسه بنقائصه..بدأ يحس بالندم على حياته كلها .. الندم على عربدته .. والندم لأنه لم يتم تعليمه وينل شهادته..ومن خلال ضعفه أيضاً أصبح حبه لسامية أكثر رقة ، وبدأ يشفق عليها من نفسه ، ومن مصيرها معه..لم يعد في حبه هذا التحدى ، وهذا العنف ، وهذا الذكاء .. وكلما أشتد احساسه بضعفه ، اشتد احساسه بحاجته الى سامية .. فيذهب اليها مستسلماً ، مستكيناً ، صابرا .. لا يحاول ان يقحم نفسه على قلبها ، ولا يحاول ان يفاتح عمه في موضوع الزواج. عمه الذي تجاهل هذا الزواج منذ خروج ابراهيم من البيت ، وكأنه لم يعط به وعداً .. وكان يعتقد ان فشله سينتهى عند هـذا الحد .. لن يكون له عواقب اخرى .. فقط سينتظر فترة ما ، الى ان تمتص الايام ما يحس به من مرارة ، والى ان يتقرر مصيره مع سامية .

ولم يكن يعتقد ان البوليس سيتعقبه ، ويراقبه ، لم يكن يعتقد ان همام قد اكتشف كذبته ، فقد كان يبدو امامه مصدقاً مهذبا ، كأنهما اصدقاء .. هـذا الثعلب .. هذا المجرم .. هذا السفاح وشعر ان له عدوا..عدواً قاسيا ظالماً .. همام .. البوليس .. كل رجال البوليس ..

ورفع رأسه من بين يديه ، وقام واقفاً وأخذ يطوف في انحاء الشقة الصغيرة البسيطة الكالحة الاثاث التي يقطنها وحده .. وهو يفكر .. كيف يهرب من همام .. كيف يهرب مـن البوليس .. انه هو الآن الذي يهرب من البوليس لا ابراهيم .. وخبط مقعداً صادفه في طريقه ببوز حـذائه .. ثم اسند رأسه على الحائط وأخذ يخبط عليه بقبضتيه ، كأنه انسان وجد نفسه في السجن ، وجدران السجن تنطبق على جسده حتى تكاد تحطم ضلوعه .

ودخل الخـادم الذي عاش معه في عربدته منذ استقل بالسكن بعيداً عن اهله .. خادم من اولاد البلد ، كل شيء فيه نشط وتحس انه يستطيع ان يفعل كل شيء .. ينكس ، ويطبـخ ، ويغسل ، ويرتق الجوارب ، ويعـد جلسات

الحشيش ، ويتفاهم مع الصنف الرخيص من النساء ، وفيه نعومة وتثن ، كأنه نصف رجل .. وفيه صفاقة كأن ليس في الحياة كلها ما يستوجب الحياء . وفيه ذكاء مريب .. وفيه أيضاً اخلاص عاطفي ، وشهامة لا ترتكز على اخلاق .. نوع من الخدم تجده دائماً في بيوت الطلبة وصغار الموظفين العزاب ..

ونظر الخادم في جزع الى سيده ، وهو يضرب الحائط بيده ، وقال في لهفة نسائية وبلهجته المتميعة : خير يا سي عبد الحميد .. كفي الله الشر .. حصل ايه يا سيدي !.. ورفع عبد الحميد رأسه وصرخ فيه : أبعد عني غور من وشي وقال الخادم في توسل : ايه بس يا سيدي ، ايه اللي جرى !..

وصرخ عبد الحميد مرة ثانية وهو يتقدم نحوه كأنه يدفعه من أمامه : بأقولك غور من وشي .. غور .. وطأطأ الخادم رأسه دون ان يتحرك من مكانه ، ثم رفعه وقال : مش حاتفطر يا سي عبد الحميد .. المدفع قرب يضرب أحنا ما طبخناش حاجة النهارده .. حضرتك نزلت من غير ما تديني فلوس !

ورفع عبد الحميد كفه وهوى بها على صدغ الخادم .. وفي نفسه احساس يدفعه الى ان يضرب اي شيء .. الحائط ، الخادم ، نفسه ، أي شيء .. وصرخ :

— مش حاتسمم النهارده .. ما فيش سم النهار ده .. فاهم . انزاح من قدامي . انزاح باقول لك ، قبل ما شرحك !

وتلقى الخادم الصفعة ، وانسحب من الغرفة ذليلاً كالكلب . وقرر عبد الحميد الا يخرج من البيت .. وظل حائراً .. ودوى مدفع الافطار .. وصرخ في خادمه يأمره باحضار قطعة من الجبن ورغيف عيش .. والقى بالطعام في جوفه دون ان يحس بطعمه .. ثم لم يستطع ان يبقى في بيته .. وقرر ان يخرج .. بأي ثمن ومهما حدث ، انه سيختنق ان لم يتحد البوليس وهمام بك ! ودخل الحمام .. وفتح الدش فوق رأسه كأنه يستغيث بالماء من النار التي تندلع في صدره .. وارتدى ثيابه ، ثم نزل .. وسار في الشارع متجها الى شارع شبرا . ونظر خلفه ليجد نفس الرجل يتبعه .. وسار في شارع شبرا طويلا فوق الرصيف .. ثم نزل من الرصيف فجأة ، وجرى خلف عربة ترام وتعلق فيها ..

ونظر خلفه .. كان رجل البوليس واقفاً فوق الرصيف ينظر اليه ويبتسم ..

وأحس أنه ضلل البوليس ، هرب من همام بك ..

ولكن لماذا كان رجل البوليس يبتسم ؟!

وهز كتفيه بلا مبالاة .. واكتفى بأن اتهم رجل البوليس بالبلاهة !.. واتجه إلى المقهى الذي تعود ان يجلس فيه .. ولم يعد ينظر وراءه خلال سيره .

وصافح أحد زملائه في المقهى ، وجلس معه ، وطلب صندوق الطاولة ، وأخذ يلعب الطاولة، وفكره كله مشغول بالبوليس..

ورفع رأسه فجأة .. وشهق .. ان رجل البوليس واقف هناك .. قريباً جداً من المقهى .. وهو ينظر اليه ، وبين شفتيه ابتسامته البلهاء .. اذن ، لقد عرف البوليس كل الأماكن التي يتردد عليها .. أصبح محاصراً ..

وابتلع شهقته ، واعتذر لصديقه عن الاستمرار في اللعب .. ثم قام منكس الرأس واتجه إلى بيته . ولم ينظر وراءه ..

فقد كان يرى ظل رجل البوليس يسبقه .. يرى خيالاً أسود ينطلق من أفكاره المشوشة ، ويفرش أمامه الطريق ..

١٥

ولم ينم عبدالحميد .. أخذ يتقلب فوق أفكاره السود .. والظلام يملأه .. ظلام في قلبه ، وظلام في رأسه ، وظلام في عروقه .. وينتابه الفزع من هـذا الظلام ، وتجحظ عيناه كأنه مخنوق، ثم يغمض عينيه ليهرب من الظلام ،فيجد الظلام تحت جفنيه !.. وكانت كل فكرة تخطر له ، تغزه في جنبه كالشوكة ، ويكاد يصرخ منها .. يصرخ غيظاً ، وحقداً ، وخوفاً ..

فكر ان يذهب مرة ثانية إلى همام بك ، ويروي له القصة كاملة ، ويطلب منه أن يعفيه من هذه المراقبة ، وهذا الحصار المفروضين عليه ..

ولكنه لا يستطيع . لم يعد ضميره وحده الذي يمنعه من ان يبلغ البوليس عن ابراهيم وعن عمه ، وعن أولاد عمه .. انه الحقد أيضاً .. الحقد على همام .. أنه يشعر بكراهية عجيبة له .. كأنه اختزن طاقته الثورية كلها طول عمره ليصبها اليوم حقداً على همام ، وعلى البوليس ..

لقد أصبح همام يمثل أمامه شاهد فشله ، وغبائه .. وفكر ان يقتل هـذا الشاهد .. ان يقتل همام .. حتى لا يعود أحد يشهد على انـــه انسان فاشل ، جشع ، ضعيف .. ولكنه أضعف من أن يقتل همام ..

وفكر ان يهرب من القاهرة كلها . ان يختفي في مكان ما بعيداً عن عين همام .. ولكن لماذا يهرب ؟ ولماذا يراقبه البوليس ؟..

ان ما يغيظه ويحنقه أنه لا يجـد شيئاً يقنع بـــه نفسه أنه يستحق مراقبة البوليس .. لا يستطيع ان يقنع نفسه بانه بطل وطني يطارده البوليس . انه ليس بطلا .. وليس وطنيا . بالعكس .. لقد كان اقرب الى البوليس ، منه الى الابطال الوطنيين !..

واحس بالندم لانه لا يستطيع ان يحس باحساس البطل .. لا يستطيع ان يجد شيئاً يؤمن به ويتحمل في سبيله مراقبـة البوليس ! وقام في الصباح مقرح الجفنين مشتت الذهن خائر الاعصاب . وأطل من النافذة بعينين مضطربتين ، يبحث عن الرجل الذي يراقبه ، فلم يجده .. لم يجـد الرجل الذي كان يراه بالامس .. ماذا حدث ؟! اين ذهب ؟! هل اعفاه من اهتمامه ؟.. هل تأكد انه برىء وانه لا يستحق المراقبة ؟

ولم يفرح .. ولم يطمئن .. ان قلبه لا يزال منقبضاً، ولا يزال الظلام يملأه.. واغتسل ولبس ثيابه ، وهو ساهم ،حتى نسى ان يحيى خادمه بالسب كما تعود ان يحييه كل صباح ..

وخرج من البيت في طريقه الى الشركة التي يعمل بها .. وبحركة تلقـائية التفت خلفه ، فلم ير انسانا معيناً يتبعه .. وسار بضع خطوات والتفت خلفه مرة ثانية ، فخيل اليه ان هناك من يتبعه .. انسان آخر غير الذي كان يتبعه بالامس .. والتفت مرة ثالثة .. انه انسان يرتدي جلبابا وفوقه معطف ، وعلى رأسه طربوش طويل كطرابيش رجال البوليس .. ووقف على محطة الترام ، فوقف الرجل على الناحية الاخرى من رصيف المحطة .. وتأكد ان هذا الرجل يتبعه ، ان هماماً بك استبدل عينه بعين اخرى وبدأت نوبة من الاضطراب الشديد تسرى في اعصابه .. اخذ دمه يرتعش داخل عروقه.. ثم يبرد .. كأنه تجمد.. وكأنه يرى الموت .. وركب الترام ثم قفز منه اثناء سيره..وقفز الرجل الآخر خلفه .. ولم يكن لعبد الحميد خبرة الشبان الثائرين الذين يوضعون تحت مراقبه البوليس .. لم يكن يعلم ان دليل الاتهـام لدى البوليس هو محاولة الهرب مـن رقابته ، وان المتهم الذي يتظاهر بعدم شعوره بمراقبة البوليس ، تعلن براءته.. لا لشيء الا لأنه لا يشعر بأنه متهم وبالتالي لا يشعر بانه مراقب .. فهو برىء !

لم يكن عبد الحميد يعلم ذلك ، فأخـذ يتهرب من الرجل الذي يتبعـه . يقفز من ترام الى ترام .. يركب سيارة اجرة ، ثم يتركهـا .. ويدخـل مبنى الشركة ثم يخرج منها .. ويتجه الى الجيزة ثم يعود يتجه الى مصر الجديدة .. فاذا غاب الرجل الآخر عن عينه ، خيل اليه ان هناك غيره .. ان أي رجل في

الطريق يتبعه .. كل الرجال يتبعونه .. كلهم من رجال البوليس سلطهم عليه همام بك .. واصبح كالمجنون .. يجرى في الطريق وكل شيء فيه يلهث في فزع كأن النار وراءه وامامه ومن حوله ..

وجاء المساء وهو منهك .. أغبر الوجه . وخصلات من شعره تتطاير فوق رأسه كأنها اكثر فزعا منه .. وثيابه تهدلت فوق جسده .. طار رباط عنقه في ناحية ، واتسخت ياقة قميصه ببقع من عرقه ، وانكمشت سترته .. وأحس بالتعب .. تعب شديد .. أحس ان قواه كلها قد تخلت عنه .. لم يعد يستطيع أن يجر ساقيه .. ولم يعد يستطيع أن يقف .. ولم يعد يستطيع أن يفتح عينيه .. أنفاسه بدأت تتهدج في صدره كأنه أيضاً لا يستطيع أن يتنفس .. ولم يكن قد ذهب إلى بيته طول يومه ، خاف أن يذهب اليه فيجد همام بك في انتظاره .. ولم يكن قد اكل شيئاً الا « ساندوتش » بالفول ، التهمة وهو واقف ، وعيناه تدوران حوله تبحثان عن رجال البوليس الذين يتبعونه .. وأراد ان يذهب إلى سامية .. ليستريح !..

أحس انه في حاجة لأن يضع رأسه فوق كتفيها ، ويبكي . انها الوحيد التي تفهمه .. وتحبه .. كل الدنيا تكرهه وتسيء فهمه ، ما عدا سامية .. وهو يجد في فهمها وحبها ، راحته وثقته بنفسه ورجولته .. انها الناحية الوحيدة من حياته التي ظلت نظية طاهرة هادئة ، لم يلوثها بذكائه !.. وقرر أن يذهب إلى بيت عمه .. وركب الترام حتى وصل إلى ميدان الجلاء ، ثم نزل منه وسار على قدميه .. وهو دائماً يشعر بأن هناك من يتبعه .. ودائماً يتلفت خلفه .. والنظرة المذعورة المضطربة لا تفارق عينيه .. وسار في شارع الجيزة طويلاً ، ثم جرى خلف سيارة اوتوبيس وتعلق بها .. ووصل إلى بيت عمه .. ونظر خلفه ، واعتقد ان لا أحد يتبعه .. ودخل البيت ..

وهمست سامية في أذنه وهي تنظر في اشفاق إلى حاله المضطرب : مالك ؟..

قال وهو يحاول ان يبتسم : مافيش ..

قالت وهي لا تصدقه : حصل حاجة ؟!..

قال وهو يرفع اليها عينيه كأنه يستغيث بها : لا .. ما فيش حاجة !..

قالت وهي لا تزال تهمس : عرفت حكاية الراجل اللي بيمشي وراك ؟..

قال وهو يدير عينيه عنها حتى لا يفضحه اضطرابه : يعني حا يعمل ايه اللي يمشي ورايا .. يتفضلوا يمشوا ورايا .. أما نشوف حيحصل ايه !..

ونظرت اليه سامية وهي لا تصدقه ثم نكست رأسها كأنها تكبت ألما ..

وعاد عبدالحميد يرفع اليها عينيه كأنه يستجديها الا تزيد من متاعبه .. ويستجديها

أن تدعه يضع رأسه على كتفها ، ويبكي .. ثم هز رأسه في حسرة ، كأنه يطرد حاجته إلى البكاء.. ودخل حجرة « القعاد » حيث تعودت ان تجتمع العائلة عقب الافطار .. ونظرت اليه الأم في دهشة ، وقالت : مالك يا عبد الحميد يا ابني .. مالك معفر كده ؟!..

وقال عبد الحميد ، وهو ينحني يقبل يدها ، ويحاول ان يشد من صدره المظلم ابتسامة : أصلي ما رحتش البيت النهارده .. قعدت طول النهار في الشغل !..

وقالت الأم : وفطرت ؟!..

قال وهو يستدير ليصافح عمه : ايوه فطرت في الشارع !..

ومد الاب يده اليه دون ان يرفع وجهه عن الجريدة التي يقرأ فيها ، فالتقطها عبد الحميد وانحنى يقبلها.. دون ان يتكلم.. وقام محيي من المقعد «الاسيوطي» العريض الذي يجلس عليه ، وقال وهو يخرج من الغرفة : ازيك يا عبده؟..

ثم استطرد وهو يدير ظهره اليه : أما أروح أذاكر لي كلمتين !..

ونظرت اليه نوال بلهفة ، وهي تحاول ان تقرأ اخباره على وجه المضطرب ، ثم سكتت ، كأن ماقرأته شل لسانها.. وجلس عبد الحميد في المقعد «الاسيوطي» العريض الذي تركه محيي .. واحس بالراحة .. راحة كبيرة ، كأن روحه المصهورة بالنار تنفث أبخرتها ، لتعود باردة هادئة.. وشعر بالاطمئنان .. والأمان. كأن هذه العائلة البسيطة الطيبة تستطيع ان تحميه من أخطائه .. وأحس انه يريد أن ينام .. نوماً طويلاً عميقاً ، لا يزعجه فيه شبح همام بك .. ومال بظهره إلى الوراء ، وأغمض عينيه برهة كأنه سينام فعلاً ثم ما لبث ان فتحهما على صوت جرس الباب الخارجي .. ولم يتحرك أحد من العائلة لسماع رنين الجرس .. ظل الأب مسقطاً رأسه في صفحات جريدته .. والأم تفرد بين يديها ثوباً قديماً ثم تطويه وهي تفكر في طريقة تحيل بها هذا الثوب إلى شيء آخر جديد .. وسامية تنظر إلى عبد الحميد وتتنهد .. ونوال تطلق خيالها وراء ابراهيم .. ثم تتنبه لتقلب في صفحات مجلة ، ثم تعود وتجري وراء ابراهيم .. ثم تتعب من الجري ، فتمد يدها وتلتقط بعض حبات البندق من الطبق الموضوع بجانب أكواب الشاي الفارغة ، وتبدأ في تكسيرها بأسنانها .. وسمعوا صوت قدمي سنيه الخادمة ، وهي تتجه نحو الباب.. ثم سمعوا صوت الباب يفتح.. وسمعوا صوتاً غليظاً يتحدث ، وان لم يتبينوا كلامه.. ثم عادت واجتازت غرفة « القعاد » في طريقها إلى غرفة محيي ، ولكن الأم أوقفتها صارخة دون ان ترفع رأسها عن الثوب القديم : مين يابت؟.

واطلت سنية برأسها الصغير عليهم قائلة: دول جماعة بيسألوا على سيدي محيي !

وازاح الأب الجريدة من أمام وجهه وقال : جماعة ايه ؟!..

وقالت سنية : ما اعرفش ياسيدي .. تلات رجاله كبار .. شكلهم كده ما ما اعرفش ازاي !.. وقفز عبد الحميد إلى مقدمة المقعد الذي يجلس عليه وقد فتح عينيه على سعتهما ورفعت الأم رأسها عن الثوب القديم ، وتبادلت العائلة نظرات حائرة مضطربة ثم اتجهت الانظار كلها إلى الأب .. وصمت الأب فترة وقد قطب ما بين حاجبيه كأنه يحاول ان يخترق الجدران بعينيه .. من يا ترى بالباب .. ليس من عادة اصدقاء محيى ان يزوروه في البيت .. وسنية الخادمة تصفهم بأنهم رجال كبار .. وليس لمحيي اصدقاء كبار ؟.. وتحركت سنية الخادمة لتكمل طريقها الى غرفة محيي ، ولكن الأب أوقفها قائلاً في صوت عميق يجذبه من بين أفكاره المضطربة : أدخلي انتي المطبخ ..

ثم استطرد مخاطباً نوال : قومي انتي يا نوال شوفي مين! واستفهمي كويس!

وقامت نوال .. وما كادت تجتاز باب الغرفة حتى فوجئت برجل طويل يرتدي جلباباً وفوقه معطف أسود ، وعلى رأسه طربوش ، يقف في عرض الباب الذي يفصل بين الصالة الخارجية والممر المؤدي إلى باقي غرف البيت .. وينظر إلى الداخل نظرات وقحة جريئة .. وشهقت نوال .. وارتدت خطوة .. ثم كتمت شهقتها ، وتقدمت في خطوات مهتزة ، وقلبها ينتفض بعنف في صدرها وتنتفض معه رموش عينيها.. وقالت وهي تحاول ان تسيطر على انتفاضة صوتها:

– حضرتك عايز مين ؟..

ولم يتكلم الرجل .. ظل واقفاً ينظر اليها من عل .. ثم رفع ذراعه وأشار لها بأصبعه إلى رجل آخر يقف في وسط الصالة مرتد بذلة مدنية أنيقة ويضع يده في جيب سترته كأنه يقبض على شيء.. وتقدمت نحو الراجل الآخر بعينين متسائلتين ، فابتسم لها ابتسامة لزجة مفتعلة ، وقال في لهجة حاول ان يجعلها مهذبة : الاستاذ محيي زاهر موجود ؟..

وقالت نوال وهي تضغط بكل أعصابها على رعشتها : نقول له مين ؟..

ونظر اليها الرجل ملياً ، كأنه يشفق عليها ، ثم قال ويده لا تزال في جيب سترته : البوليس !!!...

وشهقت نوال شهقة حادة لم تستطع ان تحبسها ، ورفعت يدها ووضعتها فوق شفتيها ، كأنها تكتم أنفاسها ، ثم قالت بصوت لاهث : بولبس.. بوليس.. ليه ؟.

وقال الرجل وابتسامته اللزجة تسيح فوق شفتيه : مافيش حاجة .. بس أديله خبر!

وجرت نوال إلى الداخل كأن النار أمسكت بثيابها ، ودخلت غرفة «القعاد»

وهي تصيح كأنها تنعي ميتاً : البوليس !!..

وهب الاب واقفاً وهو يمسك بنظارته الذهبية بكلتا يديه حتى لا تسقط فوق أنفه ، وقال وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه : بتقولي ايه.. بوليس ؟!..

وخبطت الأم على صدرها وهي تصيح كأنها تعدد وراء نعش : يامصيبتي .. بوليس .. يامصيبتي.. يامصيبتي .. آدي آخرتها يا زاهر .. قلت لك من الأول يا زاهر .. و .. ونهرها الأب في صوت خافت : بس يا تحية .. أمسكي نفسك اعملي معروف ، أحسن نروح كلنا في داهية ، ما فيش حاجة حاتحصل ، احنا خايفين ليه ؟!. وشد قامته وساوى فتحة جلبابه حول عنقه ، ومد يده يصلح من وضع الطاقية فوق رأسه ، كأنه يحاول أن يعطي مثلاً بشجاعته لباقي أفراد العائلة .. وظل عبد الحميد جالساً .. وانكمش في مقعده وقال بصوت خافت :

– دول عايزيني انا .. انا عارف .. عايزيني انا !..

وقالت نوال في حسرة وقد سمعته : لا دول بيسألوا على محيي !..

وأخذت سامية تدير عينيها بين أفراد العائلة ، وتلتقط كلماتهم ، ثم أسقطت رأسها فوق صدرها ، وأخذت تنشج بالبكاء ، وقالت في كلمات ممزقة :

– انا قلبي كان حاسس بكده كنت عارفة ان كل ده حيحصل لنا !..

ونهرها الأب وهو يهمس في صوت خافت محتد : بس بلاش عياط.. ماتودناش في داهية .. اعملوا نفسكم ما تعرفوش حاجة !..

ثم وضع قدميه في الشبشب ، وقال لنوال : روحي اندهي لأخوكي وخليه يحصلني !

ثم خرج من الغرفة ، والتقى بالرجل الطويل الذي يقف على عرض الباب بين الصالة والممر الداخلي .. فتوقف قليلاً . وشعر كأن هذا الرجل قد صفعه .. كأنه أهين . كأن شرفه وكرامته قد سلبا منه.. كيف يسمح هذا الرجل لنفسه بأن ينظر إلى داخل البيت بهذه الوقاحة .. بأي حق يعتدي على حرمة البيت؟ وداري احساسه بالصفعة التي لطمت كرامته ، وتقدم بضع خطوات وهو يبحث بعينيه عن الآخرين .. واجتاز الرجل دون أن يحييه ، كأنه يرد له الاهانة ، ووجد نفسه في الصالة أمام الرجل الآخر الذي يرتدي البدلة المدنية الأنيقة ، والتفت فرأى رجلاً ثالثاً يقف بجوار باب الشقه يرتدي جلباباً بلدياً ..

وقال الرجل الأنيق ، وابتسامته اللزجة لا تزال فوق شفتيه ، ويده لا تزال في جيب سترته : حضرتك والد محيي زاهر ؟..

وقال الأب وهو يحاول أن يبدو هادئاً : ايوه فيه خدمة ؟..

وقال الرجل : امال فين محيي ؟!..

ونطق اسم محيي بلا تكلف كأنه صديقه ..

وقال الأب : بيذاكر .. جاي حالاً !..

وجاء محيي .. ممتقع الوجه ، يسير في خطوات مترددة مرتعشة ، ونظراته حائرة خلف نظارته كأنها حبيسة في قفص من زجاج ، ووقف ملتصقاً بوالده كأنه يحتمي به .. ونظر إلى الرجل دون أن يتكلم ..

وقال الرجل الانيق ، وهو يحاول أن يكون انيقاً في كلماته : ازيك يامحيي؟

وقال محيي وهو يبدو كالأبله : الله يسلمك !..

وقال الرجل ملتفتاً إلى الأب ، في لهجة أكثر جدية : تسمحوا لنانفتش البيت؟

وتنهد الأب كأن هماً ثقيلاً انزاح من صدره .. انه واثق انهم لن يجـــدوا احداً في بيته .. وقال متعجلاً : اتفضلوا ..

ثم اكتشف تعجله ، فاستطرد قائلاً : ليه ؟!..

وقال الرجل وهو يبتسم : مجرد إجراء .. روتين!..

وقال الأب كأنه يدافع عن بيته : حضرتك تبقى..

وقاطعه الرجل في زهو : انا اليوزباشى محمود الدباغ ، من القلم السياسي ..

وارتعش محيي رعشة خفيفة ، ونكس الأب رأسه .. فقد كان اسم محمود الدباغ ، اسماً خطيراً مخيفاً يقترن دائماً باسم هام بك ، ويتردد دائمـــاً في حركة وطنية كعدو للطلبة وعدو للناس ..

وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس : تسمحوا تبتدوأ بأودة الضيوف لغاية ما أدى خبر للستات ؟..

وقال الضابط في أدب سمج : اتفضل يا أفندم ..

واتجه الضابط إلى غرفة الضيوف التي أشار اليها الأب ، وفتح بابها ، ونظر فيها بلا مبالاة دون ان يدخلها .. بينما كان محيي قد استرد بعض شجاعته واخذ ينظر اليه كأنه أسطورة مجسمة .. هذا هو محمود الدباغ .. الرجل الذي يطالب زملاؤه الطلبة برأسه في كل مظاهرة .. انه اقصر ممـا كان يعتقد .. وأعرض قليلاً مما كان يرسمه في خياله .. وهو يبتسم ، ولم يكن يعتقد انه يبتسم .. وهو يتحدث في هدوء ، وقد كان يعتقد انه لا يتكلم الا سباباً وصفعاً ..

وأحس برغبة خفية في أن يتحدى هذا الضابط .. محمود الدباغ .. انه مطمئن إلى أن هذا الدباغ لن يجد شيئاً ولا أحداً في البيت .. لن يجـــد ابراهيم حمدي .. ورغم ذلك فالشعور باطمئنان لا يكفيه .. انما هناك شعور آخر يدفعه إلى التحدي .. كأنه يريد أن يثبت لنفسه انه لا يخاف .. كأنه يحاول ان يمثل قصة يرويها لزملائه

يوماً ما .. ولكن كيف يتحداه ؟.. واستغرق في حديث بينه وبين نفسه : « لماذا لا يسأله عن أمر التفتيش .. أن البوليس لا يستطيع ان يقتحم بيتاً ويفتشه الا بأمر النيابة .. فهل استصدر محمود الدباغ أمراً من النيابة ؟.. ان من حقه أن يطلع على هذا الأمر قبل ان يسمح له بالتفتيش .. ومن حقه ان يمنعه من التفتيش اذا لم يكن معه هذا الأمر. فليسأله عنه وليطالبه بأن يبرزه له مكتوباً، مختوماً بختم النيابة » .. واحس محيي بالزهو – بينه وبين نفسه – وهو يكتشف هذا الاستشكال القانوني.. وتصور نفسه استاذاً كبيراً من أساتذة القانون .. يحتمي بالقانون ولا يستطيع أحد ان يخدعه فيه .. ورفع عينيه إلى اليوزباشى محمود الدباغ ، فواجهته الابتسامة اللزجة ،تطل من تحت نظرة ساخرة مستهترة كأنه يستهين به ويحتقره !.. وارتعشت عينا محيي ، ورفع اصبعه يضغط به على قنطرة نظارته ، ولم يتكلم .. شيء يمنعه من الكلام .. كأنه يخاف ان تكلم ان يغضب اليوزباشى الدباغ ، فيصفعه ، أو يطلق عليه الرصاص ، ولكنه يجب ان يتكلم ، أن يتحرر من الخوف ويتكلم !.. وكان لا يزال يحاول الكلام ، عندما عاد الأب ، وقال لضابط البوليس : اتفضلوا ..

وتقدم الرجال الثلاثة إلى الداخل .. ومحيي خلفهم ، وهو لا يزال يمني نفسه بالكلام ، ويحاول ان يتحين فرصة يتكلم فيها.. ودخل اليوزباشى الدباغ حجرة الأب وهو يسأل : دي أودة سعادتك !..

وأجاب الأب في استسلام ، وقد اكتسى وجهه المتقمع حمرة حقيقية .. كأن دماءه ثارت لدخول رجل غريب إلى غرفته .. الغرفة التي ينام فيها هو وزوجته : ايوه ..

وأجال الدباغ عينيه في انحاء الغرفة في استهتار ، ثم خرج منها سريعاً دون ان يعلق بشيء ..

ومر الجميع بالمطبخ – وهو على الناحية المقابلة من باقي الغرف – فأشار الدباغ الى أحد الرجلين ، فدخل ليفتشه وحده .. واستمر هو في طريقه ، ووصل الى غرفة « القعاد » ووقف على بابها ينظر الى الأم وبنتيها والى عبد الحميد نظرات وقحة ، وهو يقول : لا مؤاخذة ..

وأشاحت عنه الأم برأسها .. ونظرت الى سامية نظرة واحدة ثم خفضت عينيها ، وهي تبذل جهداً كبيراً في حبس دموعها.. وكانت نوال واقفة مستندة الى باب الشرفة ، فأدارت رأسها ناحية السماء ، وهي تحاول ان تحتفظ بعينيها ناحية الرجال .. ووقف عبد الحميد .. ورفع يداً مترددة بتحية مرتجفة صامتة ،

وهو يبدو شاحباً كأن اضطرابه قد امتص روحه..واتسعت الابتسامة اللزجة، وقال اليوزباشي الدباغ في سخرية : ازيك يا سي عبد الحميد ؟!..

والتفت الأب في حدة ناحية الضابط كأنه يسأله كيف عرف اسم عبدالحميد؟! ولم يجبه الضابط على نظرته المتسائلة ، انما ظل محتفظاً بابتسامته اللزجة كأنه يتلذذ بهذه الدهشة التي أصابت الأب .. ثم التفت الى الرجل الآخر الذي يصحبه وقال له هامساً : شوفه !

وخطا الرجل داخل الغرفة ومد كلتا يديه الى عبد الحميد ، فابتعد عنه عبد الحميد ، وقال في فزع ايه .. عايز ايه ؟!..

وقال الدباغ وهو لا يزال واقفاً عند الباب :

– سيبه يفتشك يا سي عبد الحميد .. دي حاجات بسيطة !!

وتحسس الرجل ثياب عبد الحميد من تحت ابطيه حتى ركبتيه والعائلة تنظر اليه في فزع مشوب بالدهشة ، ولما اطمأن الى أن عبد الحميد لا يحمل سلاحاً تركه وعاد يقف خلف ضابطه بينما سقط عبد الحميد على المقعد كأنه لم يعد يستطيع الوقوف .. وانتقل الجميع الى غرفة البنتين ، ووقف الضابط على بابها دون أن يدخلها أيضاً ، وسأل : ودي أودة مين ؟!..

وأجاب الأب مستسلماً : أودة البنات !!..

وتحرك الجميع ، ومحيي لا يزال يسير في الخلف ، يشجع نفسه على اثارة الاستشكال القانوني الذي خطر له .. ولم يعد يمني نفسه بمنع التفتيش ، بل كل ما يتمناه أن يتباهى أمام اليوزباشي الدباغ بمعلوماته القانونية ، ويتحداه بها .. وكان في نفس الوقت يتعجب من البساطة واللامبالاة التي يجري بها تفتيش البيت.. لقد كان يتصور عندما يقرأ عن بيت هاجمه البوليس ليفتشه ، ان كل شيء في البيت قد قلب رأساً على عقب .. لم يكن يتصور ان التفتيش هو مجرد هذه النظرات التي يطلقها الدباغ من بعيد .. ووقف اليوزباشي الدباغ ، أمام غرفة محيي قائلاً : أظن دي تبقى أودة محيي ؟!

وأجاب الوالد ، وهو يزفر : أيوه ..

وقال الدباغ : طيب نقعد هنا شويه !!

وقبل أن يدخل الى الغرفة ،لحق به معاونه الذي أمره بتفتيش المطبخ والحمام ونظر الى قائده نظرة ذات معنى ، كأنه يقول له ان التفتيش لم يسفر عن شيء..

ودخل الدباغ الى الغرفة .. وترك الرجلين اللذين يصحبانه يعبثان فيها في اهمال وجلس هو الى مكتب محيي يفتش فيه بنفسه .. ولم يكن الدباغ ينتظر

أن يجد شيئاً .. ولم يكن يبحث عن شخص ابراهيم حمدي .. فقد كانت تحرياته خلال اليومين السابقين قد دلته على ان ليس في هذا البيت رجل غريب .. انما كان يفتش عن اي شيء يفسر الدوافع التي دفعت عبد الحميد الى تقديم بلاغ كاذب الى همام بك عن ابراهيم حمدي .. وهو بلاغ أثار ريبة همام .. أثارها الى حد كبير .. الى حد لم يقره عليه معاونه محمود الدباغ .. ورغم ذلك فقد راقب عبد الحميد ، ثم بدأ يرتاب فيه حين بدأ عبد الحميد يحاول الهرب من المراقبة وانتهى من مراقبته بأن هاجم بيته في شبرا – أثناء غيبته عنه – ثم جاء الى هذا البيت .. وقرر ان يفتشه ايضاً ، دون ان يكون على ثقة بأنه سيجد شيئاً .. انما مجرد اجراء لا ضرر منه .. وأخذ يفتح أدراج المكتب واحداً بعد واحد ، ويفتح الكتب والكراسات بأصابع خبير في فنون التفتيش .. قد يعثر على منشور مما يحتفظ به الطلبة في أدراجهم .. قد يعثر على مذكرات .. قد يعثر على أي شيء يدل على وجود صلة بين محيي واحدى الجمعيات السياسية ..

وتقدم منه محيي متردداً ، واستجمع شجاعته ، ثم انطلق مرة واحدة قائلاً : حضرتك معاك أمر من النيابة بالتفتيش ؟..

وقال الدباغ وقد انتهى من تفتيش الادراج ، وبدأ يعبث في الأوراق الموضوعة فوق المكتب : يا سيدي ما تدقش !..

وقال محيي ، وقد بدأ يتعود الكلام : إنما القانون بيحتم ان ..

وقاطعه الدباغ قائلاً في سخرية : هوه فيه قانون ؟!..

وقال محيي وقد تشجع : أيوه فيه قانون ..

وقال الدباغ وهو ينظر في الأوراق التي يعبث بها :

– عندكم بس .. في الكلية .. في كراسة المحاضرات .. إنما البلد ما فيهاش قانون .. على كل حال اطمن .. ما فيش حاجة ..

وأحس محيي أنه لا يستطيع ان يقول أكثر مما قال ، فسكت وهو مغتاظ .. ومرت فترة قصيرة والدباغ يعبث في الأوراق الموضوعة فوق المكتب ..

وفجأة ، التفت في حدة إلى محيي ، وهو ممسك بورقة في يده ، وقال في صوت قوي كطلقة مدفع الافطار : أنت تعرف جميل عزت منين ؟..

وارتبك محيي ، وقد فوجىء بلهجة الضابط ، والنظرة الخطيرة التي تطل من عينيه وقال : جميل عزت مين ؟.. ما اعرفوش !

ونظر اليه الدباغ ملياً .. نظرة فاحصة ، قاسية ، كأنه يحاول أن يشج رأسه بعينيه ليرى ما فيها ، ثم أشاح عنه ، وأخذ يقرأ الورقة التي في يده للمرة

الثانية ... وقرأ في همس :

« عزيزي الملازم أول جميل عزت ..

« بعد التحية .. كان يجب ان أكتب اليك لأبرر ما فعلته و .. » ..

واستدار اليوزباشي الدباغ ناحية المكتب ، وفتح كراسة من كراسات محيي وأخذ يقارن بين خطه والخط المكتوب في الورقة .. ثم التفت إلى محيي وفي إحدى يديه الكراسة ، وفي اليد الأخرى الورقة التي عثر عليها ، قـــال وهو بقرب الكراسة من وجه محيي : مش خطك ده ؟!..

وأجاب محيي ، وهو يرفع اصبعه ويضغط على قنطرة نظارته : أيوه ..

وأزاح الدباغ الكراسة من أمام وجهه وقرب اليه الورقة التي يحملها في يده الأخري وقال : وده يبقى خط مين ؟!..

وامتقع وجه محيي ، وقال وهو يرتعد : ما أعرفش ، ما اعرفش .. مش خطي !

وقال الدباغ وهو يركز عينيه فوق وجهه :

ـ عارف أنه مش خطك .. إنما خط مين ؟

وقال محيي ، وهو يبتعد عنه كأنه يهم بالفرار :

ـ ما اعرفش .. ما شفتش الخط ده قبل كده !

واقترب الأب منهما ، وفي عينيه دهشة مرتجفة ، وقال : ايه الحكاية ؟!

ونظر إليه الدباغ نظرة اتهام قائلاً : لسه ما تعرفش الحكاية ؟..

وعـــاد ينظر إلى محيي ، نظرة مليئة بالاحتقار ، وقـــال وهو يهز رأسه في تعجب : عجيبة .. مين كان يصدق ؟!

ثم وضع الورقة التي عثر عليها في جيب سترته ، والتفت إلى معاونيه قائلاً في لهجة أمر : فتش كويس يا أومباشي !..

وفي لحظة واحدة انقض الرجلان على أثاث الغرفة ، وأخذا يقلبانه رأساً على عقب .. فتحا الدولاب .. وكل الأدراج .. ورفعـــا السجادة عن الأرض .. وأزاحا السرير من مكانه .. ونقرا بأيديهما على الجدران لعل فيها مكاناً أجوف سرياً . ثم أخرج أحدهما مطواة من جيبه وشق مرتبة السرير ومد يده وبعثر ما فيها من قطن مندوف .. ثم شق بالمطواة كسوة المقاعد ثم بدأ الرجلان يدبان على الأرض بأقدامهما ليختبرا صلابتها .. وكل ذلك يجري بسرعة عجيبـــة ، وبقسوة ، وبلا رحمـــة .. بلا حساب لأي شيء ! والأب واقف مشدوه وقد أذهلته المفاجأة .. ومحيي واقف يرتعش ، ويتمتم تمتمات مبهمة ، كأنه يرى حلماً مخيفاً يحاول أن يفيق منه .. والدباغ يشرف على عملية التفتيش بيقظة خبيثة

كأن في وجهه الف عين .. وجاء بقية أفراد العائلة على صوت الضجيج الذي تثيره عملية التفتيش .. وما كادت الأم تلمح الرجل يشق مرتبة السرير بمطواة حتى هجمت عليه بكل ثقلها وهي تصرخ :

— يا خرابي ، بيتي ، عفشي ، ابعد يا راجل يا ابن الكلب ..

وترنح الرجل تحت ثقلها ، ثم أزاحها عنه بذراعه في قسوة .. وظل قابضاً على كتفها بكفه ، فهجم عليه الأب واختطف زوجته إلى صدره ، وهو يصيح في صوت مرتعش : نزل ايدك يا قليل الأدب ..

ونظر اليه الرجل في تحد ثم عاد يشق مرتبة السرير بمطواه ..

وابتعدت الأم عن صدر زوجها وأخذت تلطم خديهـــا لطمات متتالية ، وهي واقفة في وسط الغرفة ترتعش ، وتدق الأرض بقدميها كطفلة عنيدة ، وهي لا نزال تصيح : يا خرابي .. بيتي يا خراب بيتي .. يا اخواتي ..

وتقدمت منها نوال وأحتضنتها بين ذراعيها ، وقالت وهي تحاول ان تسحبها خارج الغرفة : بس يا ماما ، بس يا حبيبتي ، كله يتعوض ، ربنا معانا ..

وأسندت سامية رأسها إلى الجدار فوق ذراعيها ، واجهشت بالبكاء ، بكاء حاداً ، ونشيجاً مذعوراً .. وكفت الأم عن الصراخ ، واجهشت هي الاخرى بالبكاء ، وهي تنشج نشيجاً ممزقاً تقتطعه من لحمها .. ولم تستطع نوال ان تقاوم أكثر من ذلك ، فألقت برأسها فوق صدر أمها وشاركتها دموعها ، وهي لاتزال تردد : بس يا ماما .. بس يا حبيبتي !..

كأنها تحاول ان تهدىء نفسها لا أمها .. وعبد الحميد واقف ممتقع الوجه ، حائر ، وعيناه جاحظتان .. واليوزباشى الدباغ يشرف على التفتيش في يقظـة صامتة .. كأن كل هذا الصراخ لا يصل إلى أذنيه .. وكل هذه الدموع لا تبلل قلبه .. كأنه يستمع إلى الحان تعود سماعها وهو يؤدي مهمته .. وكأنـــه لا يستطيع أن يؤدي مهمته الا وسط الحان العذاب .. لم ينهر أحداً .. ولم يطالب بالهدوء .. ظلت ابتسامتة اللزجة لاصقة بشفتيه .. وربما أحس بنقص كبير لو لم يفلح في اثارة هذا البكاء وكل هذا العذاب .. ومد يده إلى الدولاب المفتوح ، والتقط بأصابع الخبير ، بنطلوناً معلقاً وجده على مشجب .. لاحظ بسرعة ان مقاسة أطول من قامة محيي ؟.. وتقدم به إلى محيي وسأله : البنطلونده بتاعك؟

ونظر محيي إلى البنطلون في ذعر وقال متردداً : أيوه.. لأ ..أيوه..أصل ..

وقاطعه الدباغ قائلاً : ايوه والا لأ ؟..

وقال محيي في ضعف : لأ ..

وقال الدباغ : امال بتاع مين ؟..

وقال محيي كأنه يصرخ : ما اعرفش .. ما أعرفش !..

ونظر اليه الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة : ده بنطلون رمادي ، ما تفتكرش كده واحد صاحبك .. واحد مهم قوي..كان لابس بنطلون رمادي!

وقال محيي في ذعر : لأ .. ما افتكرش انا ماليش أصحاب !..

وقال الدباغ وهو ينظر اليه ساخراً: كده.. بأه مالكش أصحاب..والله كويس!

وطوى البنطلون في حرص واحتفظ به تحت ابطه .. ثم نظر إلى الرجلين ، وسحبهما بعينيه خارج الغرفة .. ودخل بهما إلى غرفة البنتين،ثم أشار لهما بعينيه، فبدأت عملية التفتيش كالعملية الأولى .. وانقلب كل شيء في الغرفة ، كأن محراثاً يمر فيها ويشق كل ما عليها .. ورفع أحدالرجلين « سوتيان » من دولاب سامية وأخذ ينظر اليه في وقاحة مستترة ، فهجم عليه عبد الحميد ، كأن ريحاً عاصفة هبت في صدره ودفعته اليه ، واختطف « السوتيان » من يده وألقى به في الدولاب وقال وهو يتحدى الرجل بعينيه : خليك مؤدب !..

وقال الدباغ يرد عليه : ماتزعلش نفسك كده ياسي عبد الحميد..أمسك نفسك!

وركزت نوال عينيها على قميص ابراهيم الذي تحتفظ به في دولابها .. وقلبها واجف .. وكلما اقتربت منه يد ، اشتد وجيب قلبها ، وأغمضت عينيهـــا ، وأخذت تهمس في صدرها « يارب .. يارب .. يارب » ..

ولم تمتد يد إلى القميص .. ولم يجد إلدباغ شيئاً يهمه في هذه الغرفة ، فانتقل إلى غرفة أخرى .. وجرت عملية التفتيش العنيف في البيت كله .. والدموع ، وأصوات النشيج ، والوجوه الممتقعة ، تصاحبها ..

ومال الدباغ على أذن محيي ، وقد كادت عملية التفتيش تنتهي ، وقال هامساً كأنه يتودد اليه : روح البس هدومك ، علشان تيجي معانا ..

ورفع محيي عينيه المذعورتين خلف نظارته، وقال في صوت مرتجف :

– آجي معاك فين ؟..

وقال الدباغ من خلال ابتسامته اللزجة : حناخـــد منك كلمتين اطمن .. مجرد روتين ، وانت راجل قانون وفاهم !..

ونكس محيي عينيه .. ولم يشعر بالخوف .. كأنه خاف ما فيه الكفاية ، حتى لم يعد فيه شيء يحتمل مزيداً من الخوف .. شعر باستسلام تام ، كأنه أصبح جثة هامدة يحملها الدباغ فوق ذراعيه ..

ونظر إلى والده ، وقبل ان يتلقى جواب نظراته ، انسحب من بين الجميع

إلى غرفته .. وأخذ يرتدي ثيابه ، وهو ساهم ، لا يستطيع ان يفكر في شيء، ولا يستطيع ان يتصور ما يمكن أن يحدث له ، إنما امتلأ رأسه بأفكار مشوشة لا يستطيع ان يفهمها ، وصور مهزوزة لا يستطيع ان يتبينها .

وأكمل ارتداء ثيابه ، وهو لا يدري ماذا ارتدى..وعاد ينضم إلى الجمع ..

ونظر اليه والده في دهشة مذعورة وقال : لبست هدومك ليه ؟

ولم يجبه ، إنما أشار بعينيه إلى الدباغ ، فالتفت الأب إلى الضابط وقال كأنه يبرز أظافره ويكشر عن أنيابه : أنتم واخدين محيي معاكم ليه ؟

وقال الدباغ في هدوء : كلمتين .. حانعمل محضر !

وقال الأب وهو يهم بالتحرك إلى الداخل : طيب استنى لما آجي معاكم !

وقال الدباغ في صوت حازم : لأ .. خليك انت . الحكاية ما تستاهلش!..

ورفع الأب صوته : ما تستاهلش ازاي .. تاخدوا ابني البوليس ، وتقوللي حكاية ما تستاهلش !..

وقال الدباغ في لهجة أكثر حزماً : خليك ما تبهدلش نفسك !

وقبض أحد الرجلين على ذراع محيي ، وبدأ يجره نحو الباب . ولاحظت الأم ما يجري حولها ، فاندفعت بجسدها المكتنز تحتضن ابنها وهي تصرخ :

– ابني .. حياخدوا ابني .. مش ممكن .. الحقوني .. الحقوني يا ناس .. حياخدوا ابني مني !

وقال محيي،وهو يبتعد عن صدر أمه : ما تخافيش يا ماما ، أنا راجع تاني !

ولم يأبه الدباغ بصراخ الأم ، ونظر إلى عبدالحميد قائلاً :

– اتفضل معانا يا سيد عبدالحميد ..

وقال عبدالحميد وقد انقلب كمده إلى تحد : ليه .. أنا مش ساكن هنا ؟!

وقال الدباغ : ما انا عارف ، كنت عندك من قيمة شويه ! وقال عبدالحميد في دهشة : عندي .. عندي فين ؟! قال الدباغ مبتسما :

– في شبرا.. زرتك زي الزيارة دي كده.. بس للأسف ما كنتش موجود. الزيارة الجاية حابقي آخد منك ميعاد ! ونظر الى معاونه ، فتقدم ، وقبض على ذراع عبد الحميد واخذ يجره نحو الباب .. ونزع عبد الحميد ذراعه من الرجل ، وهو يقول في حقد :

– سيبني .. ما تحطش ايدك علي .. انا جاي لوحدي ! وصرخت ساميه : عبد الحميد .. ثم كتمت صرختها كأنها تخاف ان يفتضح حبها ، اكثر مما تخاف على عبد الحميد نفسه .. ونظر اليها عبد الحميد صامتاً ، ثم حول عينيه عنها في

يأس .. وتقدم الدباغ وخرج من باب الشقة وهو يقول دون ان يسمعه احد : لا مؤاخذة .. السلام عليكم ! وتبعه محيي ثم احـــد الرجلين ثم عبد الحميد ثم الرجل الآخر .. وتقدم الاب في لهفة الى الرجل الذي يسير خلف عبد الحميد وقال في توسل وهو يكاد يبكي :

– اعمل معروف يا ابني .. قول لي رايحين فين ! ونظر اليه الرجل في اشفاق واجابه هامساً كأنه يخاف ان يسمعه ضابطه : المحافظة .. وخرجوا ..

واطلقت الام صرخة حادة كأنها لقطت قلبها، ثم سقطت على الارض وهي تنتفض وتتقلب كأن النار اشتعلت فيها . وهرع الاب الى غرفته ليرتدي ثيابه. وارتفع نشيج سامية ، ثم أسقطت نفسها بجانب امها واخذت تربت عليها دون ان تنطق حرفا ، كأن لسانهـــا سجن وراء قضبان من دموعها .. وانهمرت الدموع على خدي نوال ثم مالت على امها كأنها تطفيء نارها بدموعها واخذت تردد : ما تعمليش كده يا ماما .. ثم سكتت فجأة .. وانبثق في ذهنها اسم ابراهيم .. ابراهيم .. انه وحده الذي يستطيع ان ينقذ اخاها .. كيف .. انها لا تدري .. ولكنه يستطيع .. يستطيع كل شيء.. انه بطل..انه يعرف هذه الاشياء .. انه اقوى من البوليس .. واقوى من هذا الضابط المجرم ..

ولكن اين ابراهيم ؟! .. كيف تستطيع ان تجده ؟!.. اين هو ؟ وارخت عينيها كأنها لا تجد ابراهيم الا عندما تنظر الى قلبها .

١٦

وركب محيي وعبد الحميد في المقاعد الخلفية من سيارة البوليس « البوكس» وركب معهما الجنديان ..وركب اليوزباشي محمود الدباغ بجانب السائق ..وكان محيي يرتعش .. كل شيء فيه يرتعش .. قلبـه ، وركبتاه وعيناه ، وشفتاه .. ولكنه لم يكن يحس برعشته .. كأن هـــذه الرعشة صاحبته طول عمره حتى أصبحت من طبيعته، حتى اصبح لا يحس بها .. وكانت افكاره ترتعش أيضاً .. وقد ركز كل ارادته ليسيطر عليها ، محاولاً ان يتبين مصيره..

ان البوليس سيسأله عن ابراهيم حمدي .. وقد يتهمه باخفائه في بيتـــه .. وفي يد الدباغ دليل قاطع على أن ابراهيم كان في البيت .. في يده بنطلون

ابراهيم الذي تركه وراءه في الدولاب .. وفي يده هذه الورقـــة المكتوبة بخط ابراهيم .. وهو يذكر ان ابراهيم طلب منه ورقة وقلماً في ثاني يوم من وصوله إلى البيت .. وجلس يكتب ولكنه لم يعرف ماذا كان يكتب .. لم يقل له ابراهيم شيئاً .. ولم يذكر له شيئاً عن هذا الاسم الذي واجهه به الدباغ .. اسم الملازم اول جميل عزت .. من يكون جميل عزت هذا .. وكيف يترك ابراهيم وراءه ورقة مكتوبة بخط يده .. كيف اختفت هذه الورقة عن كل من في البيت حتى وقعت في يد الدباغ ؟!.. وماذا يقول للبوليس؟!

هل يعترف ؟.. انه لا يدري اين ذهب ابراهيم .. ولن يؤدي اعترافه الى القبض عليه !.. ولكنه يستطيع ان يبلغ البوليس عن فتحي المليجي.. صديق ابراهيم الذي أعد له بدلة الضابط ، واعـد له السيارة التي هرب فيهـا .. وعن طريق فتحي المليجي يستطيع البوليس ان يعثر على ابراهيم ، ويقبض عليه .. ولكن لماذا يعترف ؟.. لماذا يضع نفسه في خدمة البوليس ؟ وكيف يستطيـع ان يواجه زمـــلاءه الطلبة بعد ذلك .. كيف يستطيع ان يواجه نفسه ؟!.

وأحس بقشعريرة تسري في بدنه ، كأنه يتقزز من نفسه لمجرد فكرة طرأت على ذهنه بأن يعترف للبوليس؟! ولكنهم سيسجنونه .. ولن يدخل الامتحان. لن يكون اول دفعته ، ولن يعين معيدا في الجامعة ؟! سيضيـع مستقبله .. هل ينقذ مستقبله ، لو اعترف ؟! من ادراه؟ ربما كان اعترافه سبباً قويا في استمرار سجنه ؟! انه حائر .. مرتبك .. لا يستطيـع ان يصمم على شيء .. وحيرته تمزق في نفسه ، اكثر مما يمزق فيها الخوف ..

ربما كان الاجدى عليه ان يترك نفسه لله ، يفعل به ما يشاء!! واحس ببعض الراحة عندما تذكر الله والتجأ اليه ، كأنه القى بهمومه كلها على كتف قوي .. ولكن ما لبثت هذه الراحة ان تبخرت ، عندما امعن في مناقشة الله .. لماذا يتركه الله لهذا المصير .. ما ذنبه اذا كان انساناً شهماً اجار انساناً هاربا . لقد حرص طول عمره على ان يبتعد عن السياسة حتى يتجنب مصير المشتغلين بها من زملائه الطلبة .. فلماذا يلقي الله في وجهه بابراهيم ثم يعرضه للسجن ، ويعرض مستقبله للدمار .. وهل كان الله يعفيه من هذا المصير لو انه رد ابراهيم خائباً ، ورفض ان يؤويه في بيته .. هل يعاقب الله الوطنيين ؟! وهل هـــذا الضابط الدباغ رسول من الله لمعاقبة الوطنيين وتشريدهم ؟ اذن لماذا يترك الله رجـــال البوليس احراراً يسلطون العذاب على النـــاس ؟! ولماذا لا ينقذه الله الآن .. حالاً .. قبل أن يبدأ البوليس في سؤاله ؟!

وخاف من أفكاره .. واشتدت قشعريرته .. وأحس بنفسه يستغفر ربه ، ويتلو في سره آية الكرسي ، كأنه يخشى أن يتخلى عنه أمله الوحيد .. الله !

ثم اتجهت أفكاره الى عبد الحميد .. هل يعترف عبد الحميد ؟.. ورفع عينيه الحائرتين اليه .. وأحس بالاطمئنان .. أحس انه ليس وحـده .. وأحس — لأول مرة — انه قريب جداً من عبد الحميد ، وانه يحبه .. لم يحس به كابن عم كما يحس به الآن .. وخيل اليه ان عبد الحميد انسان قوى يستطيع أن يحميه .. أن عبد الحميد لن يعترف وهو ذكي وجريء ويعرف كيف يتصرف مع البوليس.

وتبدد بعض الخوف الذي يشعر به .. وقـال في صوت ضعيف متوسل : عبد الحميد !..

وكان عبد الحميد جالساً في السيارة ورأسه منكس ، وهو يقضم في أصابعه بأسنانه ، كأنه يمزق نفسه .. وسمع نداء محيي ، فرفع رأسه ، ونظر اليه نظرة قوية وقال فوراً كأنه يعرف ما يعانيه : ما تخافش ..

وقال أحد الجنديين بصوت آمر : ممنوع يا افندي !.. ورد عبد الحميد في تحد : ايه هوه اللي ممنوع ؟!.. وقال الجندي باستهتار : الكلام ..

وعاد عبد الحميد يتحدى : لأ مش ممنوع .

ونظر اليه الجندي في تعجب ثم قال : — بلاش لماضة أحسن لك ..

وقال عبد الحميد وهو يشد وسطه : اتكلم بأدب .. وقـال الجندي وهو يزفر كأنه يرفض أن يدخل في معركة : — حاضر .. حقـــك علي يا سيدنا الافندي .. بس اعمـــل معروف اسكت .. الأوامر اللي عندنا انه ممنوع الكلام ..

وظل عبد الحميد ينظر الى الجندي في تحد .. فأدار الجندي رأسه عنه كأنه يبتعد عن شر ..

ثم عاد عبد الحميد ونكس رأسه وأخذ يقضم أظافره .. كأن تعبه وخوفه ، قد انقلب الى نوع من التحدي الصارخ بعد أن وجد نفسه في أيدي البوليس .. وكان يحس في قرارة نفسه انه هو الذي تسبب في كل هذا ، عندما تسرع وذهب لمقابلة همام بك .. وكان يحاول أن يتخلص من احساسه هذا .. أن يغطيه .. فاندفع في تصميمه على تحدي البوليس .. لعل تحديه يكفر عن خطيئته ..

ورفع عبد الحميد عينيه ، ونظر من خلال الباب الخلفي للسيارة فوجد انهم يسرعون في شارع الملكة نازلي ، في اتجاه ميدان المحطة .. طريق آخر غير الطريق الذي يؤدي الى المحافظة .

وقال كأنه يسأل نفسه : احنا رايحين فين ؟!.. وأجاب الجندي الآخر : دلوقت تعرف !!..

وقال محيي : بيقولوا حياخدونا المحافظة ..

قال عبد الحميد وهو يحاول أن يتبين الطريق : — دي مش سكة المحافظة..

وظلت السيارة مسرعة في اتجاه ميدان محطة مصر ، ثم انحرفت السيارة في شارع ضيق قبل ن تصل الى الميدان ، ووقفت أمام سور من الحديد لبناء معتم..

ورفع عبد الحميد عينيه ثم قال وقد امتقع وجهه : — دول واخدينا سجن الاجانب ..

ونظر محيي من خلال باب السيارة وعيناه بارزتان تكادان تحطمان زجاج نظارته وقال : السجن .. مش يسألونا الاول ؟!

ولم يجبه عبد الحميد.. وقفز الرجلان من السيارة . وأشارا الى عبد الحميد ومحيي بالنزول ..

وتقدم اليوزباشي الدباغ الجميع ، واجتاز السور الحديدي ، ثم وقف أمام باب ضخم من الخشب المصفح ، ومد ذراعه وضغط على جرس كهربائي مثبت في الحائط ، ففتحت كوة صغيرة في الباب أطل منها وجه غليظ جامد ينتشر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين ..

وما كاد الوجه الغليظ يرى اليوزباشي الدباغ ، حتى أغلق الكوة بسرعة ، وشد مزلاج الباب الحديدي ، فارتفع صوت حاد كأن الحديد يصرخ .. ثم فتح باب صغير في الباب الكبير ، ووقف الحارس منتصباً كالتمثال رافعاً ذراعه بالتحية العسكرية ..

واجتاز اليوزباشي الدباغ الباب الصغير وخلفه صيده الثمين ومعاوناه ، وقفل الباب خلفه بسرعة وارتفع صوت صراخ الحديد عندما تحرك المزلاج مرة ثانية .. والتفت محيي وعبد الحميد خلفهما بحركة تلقائية وفي عيونهما نظرات فزعة كأنهما يودعان الدنيا .

واتجه الدباغ الى غرفة على اليمين بعد الباب مباشرة..غرفة فيها مكتب يجلس خلفه « كونستابل » ، وبضعة مقاعد وأريكة « استامبولي » وخزينة ملتصقة بالحائط ، ومجموعة من الكلبشات والبنادق .. ووقف الكونستابل رافعاً ذراعه بالتحية العسكرية .. ورد الدباغ تحيته بطرف اصبعه .. ثم اشار إلى محيي وعبد الحميد بأن يجلسا متباعدين وقال لمعاونيه بلهجة آمرة: خليهم بعيد عن بعض!

ثم ترك الغرفة واتجه الى غرفة أخرة في الناحية المقابلة علقت على بابها لوحة

كتب عليها : « المأمور » .. ودخلها وهو يتحرك بسرعة .. غرفة اكثر هدوءاً ونظاماً وفخامة من الغرفة الأولى .. وكان يجلس وراء المكتب العريض الذي يتوسطها ضابط شاب ، قفز واقفاً بمجرد ان رأي الدباغ ..

وقال الدباغ ، وهو يتجه ليجلس مكان الضابط الذي بدأ يخرج من وراء المكتب : البيه المأمور هنا ؟..

وقال الضابط كأنه يهم بالدفاع عن المأمور : لا يا أفندم ، راح البيت من مدة خمس دقايق بس ، ننده له يا افندم ؟..

وقال الدباغ ساخراً وهو يضع البنطلون الذي يحمله فوق المكتب :

ـ لا يا سيدي خليه مستريح .. كفايه احنا صاحبين !..

ثم جلس على المقعد خلف المكتب ، وأمسك بسماعة التليفون وأدار رقماً ، ثم قال وقد تغيرت لهجته ، وأصبحت لهجة مهذبة رقيقة : ايوه يا افندم ، اظن احنا محتاجين لسعادتك هنا ، رأى سعادتك كان في محله .عمر نظرتك ماتخيب..

وقال بعد أن سمع رد الطرف الآخر : لأ .. انما لقيت اثباتات مهمة جداً.. حتوصل باذن الله !.. وأعاد سماعة التليفون مكانها ..

ثم مال بظهره على المقعد ، وأخرج من جيبه الورقة التي عثر عليها بين أوراق محيي واخذ يعيد قراءتها ، وهو يدلك جبهته بيده كأنه يحاول ان يفتح طاقة جديده في ذهنه .. ثم رفع رأسة وقال للضابط الذي كان لا يزال واقفاً منتصباً أمامه : اطلب لنا قهوة .. يظهر حانقعد الليلة للصبح !..

ونادى الضابط على أحد الجنود وأمره ان يحضر قدحاً من القهوة .. وقبل أن تأتي القهوة ارتفع صوت صراخ الحديد .. وفتح باب السجن .. ودخل إلى الغرفة همام بك .. وهو يخطر في خطوات سريعة نشيطة .. ورفـــع الضابط الشاب يده بالتحية .. وقفز اليوزباشى الدباغ واقفاً وانسحب من وراء المكتب ، ليترك مكانه للقادم الجديد .. ولم يرد همام بك التحية وقال على عجل : خير ، لقيت ايه ؟.. وقبل ان يتكلم الدباغ ، التفت همام بك إلى الضابط الشاب ونظر اليه نظرة ذات معنى ، فتحرك الضابط وهو يقول : عن اذنك يا أفندم !..

ثم خرج من الغرفة !.. وجلس همام خلف المكتب ، وبدأ الدباغ يروي له تفاصيل مهاجمة بيت عبد الحميد وبيت محيي.. ثم عرض عليه الورقه والبنطلون اللذين عثر عليهما .. وقال همام : وماتكاموش ؟..

وقال الدباغ وهو يبتسم ابتسامة لزجة :

ـ لأ .. انما حيتكلموا .. باين عليهم ناس طيبين !..

وقال همام وهو يرد ابتسامة الدباغ بابتسامة ابرد منها : طب خد انت محيي وابعت لي عبد الحميد ، ده صاحبي ! وقهقه همام .. كأنه يتثاءب ! خرج الدباغ إلى الغرفة المقابلة ، واستدعى عبد الحميد ومحيي فقاما اليه وخلفهما الجنديان ، وقال لعبد الحميد : خش انت هنا .. همام بك مستنيك .. عايزك في كلمتين ، وانتم طبعاً أصحاب . ثم التفت الى محيي قائلاً : تعال انت معايا يا محيي !.

وسار الدباغ متجهاً إلى داخل السجن ومحيي خلفه يسير مبهور الأنفاس ، قلبه يدق دقات تضج في أذنيه ضجيجاً يغطي على صوت وقع خطاه ..

ووقفا أمام حاجز من قضبان حديدية رفيعة ، يصل من الأرض حتى السقف المرتفع ، ويفصل بين القسم الخارجي من السجن ، والقسم الداخلي .. وفتح باب من بين القضبان الحديد .. ووجد محيي نفسه يسير في ممر يدور حول فنـــاء صغير ، وعلى جانب الممر ابواب كثيرة من الحديد كلها مغلقة . وفتح أول باب من هذه الأبواب .. ودخل الدباغ وخلفه محيي ، والجندي الذي يصحبهما .. ووجد محيي نفسه في حجرة ضيقة جـداً .. أرضها من الاسفلت .. وجدرانها نصفها الاسفل مطلي باللون الاسود ، ونصفها الأعلى مطلي بالجير الأبيض .. ولها نافذة واحدة .. مرتفعة جداً ، مثبت فيها اسياخ من الحديد . وبها مكتب صغير ، وثلاثة مقاعد .. وعرف محيي انه في زنزانة !

وكان القلم السياسي منذ هرب ابراهيم حمدي ، قد اتخذ من سجن الاجانب مكاناً للتحقيق في حادث هربه .. يجمع فيه كل الشبان المشتبه فيهم ، ويحقق معهم ويواجههم بعضهم ببعض .. وكان التحقيق مع أكثر من شاب في وقت واحد ، خصصوا احدى زنزانات السجن ، كغرفة أخرى للتحقيق ..

وجلس الدباغ وراء المكتب الصغير ، وأشار لمحيي ليجلس على مقعد مواجه ، وشد الجندي الذي يصحبهما مقعدا وجلس مستندا على أحد جوانب المكتب .

وأخرج الدباغ بضعة أوراق بيضاء وضعها أمام الجندي ، ثم قال لمحيي في لهجة حاول أن تكون رقيقة : — احنـا نتكلم بصراحة بأه يا محيي .. وأنا عايزك تكون مطمئن .. ساعدني وانا أساعدك !

وانطلق محيي كأنه يقول كلاماً أعده من قبل : أنا ماتكلمش الا قدام النيابة .

وابتسم الدباغ ابتسامته اللزجة وقال : النيابة ما لهاش لازمـــة .. اعتبر أننا حانتكلم كلام خاص .. حتى بلاش كتابة محضر ..

ثم التفت إلى الجندي قائلاً : بلاش تكتب يا أومباشي ..

وعاد بعينيه قائلاً وهو ينظر اليه نظرات نافذة :

– قول لي بأه .. أنت تعرف جميل عزت منين ؟!

وقال محيي صادقاً : جميل عزت مين ؟ مـــا أعرفوش .. دي أول مرة اسمع بالاسم ده !..

وركز الدباغ عينيه على وجه محيي ، وقال : خلينا أصحاب آمـــال .. ده اسمه مكتوب في ورقة لقيتها على مكتبك !..

دقال محيي في اصرار : ما اعرفوش ..

وقال الدباغ كأنه يصدقه : تحب تعرفه ؟.. جميل عزت يا سيدي يبقى الضابط اللي هرب منه ابراهيم حمدي !

واتسعت عينا محيي كأنه فوجىء ، ثم قال كأنه يردد كلمة لا يحس لهـا معنى : ما اعرفوش .. ما اعرفوش ..

وقال الدباغ وهو لا يزال مركزاً عينيه عليه : طيب تعرف ابراهيم حمدي ؟

وصرخ محيي على الفور : ما اعرفوش .. عمري ما شفته !

وقال الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة : وما لك بتزعق كده ليه ؟

ثم استطرد وهو يلوح بالورقة المكتوبة بخـط ابراهيم حمدي أمام عينيه : والورقة دي تبقى ايه ؟..

وقال محيى وقد بـــدأت قطرات من العرق تنتفض فوق جبينه : – ما شفتهاش .. ما اعرفش حاجه عنها !

وقال الدباغ كأنه تعود على الصبر الطويل : أمال ازاي لقيتها على مكتبك؟!..

وقال محيى وهو يتنفس بصعوبة : – ما كانتش على مكتبي .. يمكن أنت اللي حطيتها بايدك ؟!

ولاول مرة يفقد الدباغ أعصابه ، وصرخ في وجه محيي : انت حاتعمل زيهم .. ما هي أصل المودة بين الطلبة اليومين دون ان كل حاجة نلاقيها عندهم ، نبقى احنا اللي جايبينها معانا .. قديمة ياسي محيي .. شوف لك حكاية تانية .. ده أنا كنت فاكرك ولد طيب .. أتاريك منهم !

ولم يرد محيي .. انما اشتدت رعشته ..

وكتم الدباغ ثورته ، ثم قال بصوت أكثر هدوءاً : وطبعا البنطلون أنا اللي جايبه من بيتنا برضه .. مش كده .. تعرف البنطلون ده يبقى بنطلون مين ؟.. يبقى بنطلون ابراهيم حمدي .. ابراهيم لما هرب كان لابس بنطلون رمادي ، والمقاس مقاسه !

ولم يرد محيي .. ظل يرتعش ! وأشعل الدباغ سيجارة ، وشد منهـا نفساً

عميقاً ، وقذف الدخان في الهواء كأنه يقذف ثورته في وجه محيى ، ثم قال وقد سيطر على أعصابه : اسمع يا محيي .. احنا مش عايزين منك حاجة .. قول لي ابراهيم حمدي يبقى فين ، ولا راح فين .. واقسم لك بشرفي انك تنام في بيتكم الليلة دي !

وقال محيي وقد احتقن لون وجهه من كثرة ما احتبس في عروقه من دم : ما اعرفش .. ما اعرفش حاجه !..

قال الدباغ وهو يتنهد كأنه بدأ يفقد صبره : — انت صعبان علي يا محيي.. اتكلم أحسن .. أنت ما لكش دعوة بالحاجات دي .. لغاية دلوقت مالكش دوسيه عندنا .. والمعلومات اللي عندي انك عمرك ما اشتغلت بالسياسة .. ما تخليش شوية العيال دول يضحكوا عليك ، ويودوك في داهية .. ارحم ابوك وأمك .. واسمع كلامي !..

واهتز محيي عندما تذكر أباه وأمه ، كأن قطرات من الندي وقعت على عود الحطب الجاف . ووجد نفسه يتساءل : هل يريده أبوه ان يعترف . هل لو كان ابوه بجانبه الآن يأمره بالاعتراف ؟ وتحركت شفتاه ، وردد وهو ساهم كأنه يتلقى أمراً من بعيد .. أمراً من أبيه :

— ما اعرفش .. ما أعرفش .. ما عنديش حاجة أقولها !..

وسمع وقع أقدام في الممر الخارجي ، ثم برز همام بك في باب الزانزانـــة ، واشار إلى الدباغ ، فقام اليه ، وأخذ الاثنان يتهامسان طويلاً ، ثم اختفى همام بك ، وعاد الدباغ يجلس وراء المكتب الصغير ، وقال وهو يبتسم ابتسامته التي تسيل فوق شفتيه كبقعة الزيت : خلاص يا سيدي .. أهو عبد الحميد اعترف !

وقفز رأس محيى من فوق عنقه ، وقال والمفاجأة تمزق كلماته :

— اعترف .. اعترف .. قال ايه ؟!..

وقال الدباغ وهو يتلذذ بوقع المفاجأة على محيي : اعترف بكل حاجـه .. وزمانه دلوقت راجع بيتهم !.. وألقى محيي برأسه فوق صدره ..

هل صحيح اعترف عبد الحميد ؟ أم ان هذا الرجل يخدعه ؟ واذا كان قـد اعترف ، فلماذا يصر البوليس على ان يعترف هو الآخر .. لمـــاذا لا يكتفي باعتراف عبد الحميد ؟!.. واستطرد الدباغ كأنه يشجع محيي: ياللا اتكلم انت راخر علشان تروح معاه .. ساكت ليه .. مستني ايه ؟..

وقال محيي في ضعف : انا ما عنديش حاجه اعترف بيها !..

قالها وفي نفسه نازع يراوده على الاعتراف .. ونازع اقوى يمسك لسانه عن

الاعتراف .. كأنه يقاوم في نفسه جريمة يخافها كما يخاف المؤمن من النار .. ولم يكن يفكر في ابراهيم ..ولا في موقفه الوطني.. لم يكن ما يمنعه من الاعتراف هو خوفه على ابراهيم ، ولا تشبثه بموقف وطني .. ولكن كان ما يمنعه هـــو أحساسه بأن الاعتراف جريمة لايستطيع ان يقدم عليها .. جريمة لا تقرها مبادئه الخلقية ، ولا ضميره النظيف . كان كالطالب الذي يأبى ان يقفز من سور المدرسة حرصاً على الدراسة ، ولكن لأن اباه وضع في نفسه ان الهرب من المدرسة عيب ! . وبدأ الدباغ يفقد أعصابه مرة ثانية وقال في حدة : يعني انت حاتكون أحسن من ابن عمك . ما تتكلم . قول لي ابراهيم حمدي راح فين ؟!..

وفجأة أرتفع ضجيج كبير منبعث من القسم الخارجي للسجن وتبين محيي وسط هذا الضجيج صوت عبدالحميد وهو يصرخ صراخاً حاداً : « آي. يااولاد الكلب .. ما تضربونيش . الحقوني .. يا مجرمين يا أولاد الكلب .. آي .. »

وابتسم محيي .. ابتسامة انبعثت رغماً عنه .. انهم يضربون عبد الحميد.. انه لم يعترف .. ورفع محيي رأسه وواجه الدباغ بابتسامته .. واشتدت حدة الدباغ وقال للجندي الجالس بجانبه : قوم اقفل الباب ده يا أومباشى !..

وقام الاومباشى ، وقبل ان يصل إلى الباب ، استوقفه الدباغ قائلاً كأنه غير رأيه : استنى .. ثم قام من وراء المكتب الصغير ، وخرج من الغرفة بعد أن همس في أذن الاومباشى : جرب معاه !..

واغلق الاومباشى الباب وراء الدباغ ثم عاد إلى محيي ووقف قبالته ،وقال وهو يبتسم من بين أسنانه : انت ما تعرفش تشوف من غير النضارة دي ؟..

ورفع اليه محيي رأسه وهو جالس على مقعده ، كأنه لا يفهم معنى السؤال. واستطرد الاومباشى قائلاً : وريني كده !.. ومد يده يحاول ان يخلع النظارة من فوق عيني محيى .. فتراجع محيي برأسه إلى الخلف ، وقد بدأ يرتجف ، واستطرد الاومباشى ويداه ممدودتان إلى وجه محيي : وريني كده أمال !..

ولم ينزع محيي نظارته .. فنزعها الرجل في حركة سريعة خفيفة ، ثم قال وهو يصر على أسنانه كأنه يحاول ان يثير نفسه : انا اصلي ما تعجبنيش الطريقة بتاعة الضباط بتوعنا دول انتم اصلكم ما تجوش بالذوق .. مـــا تتكلموش الا بالعافية .. انت حاتتكلم ولا لأ ؟!

ونظر اليه محيي وشفتاه ترتعشان ،وفي عينيه نظرة توسل كأنه يصدها شراً لايدريه.

وصرخ فيه الرجل : ما تتكلم باقول لك ؟!.. ثم رفع كفه الثقيل الجاف وهوى به على صدغ محيي .. وارتفع صوت الصفعة كأن أما مكلومة تصرخ !!

وفغر محيي فاه .. وبدأ مذهولاً ..

ورفع يدا مرتعشة تهتز أصابعها كأوراق الشجر الجافة ، ووضعها مـــكان الصفعة . وهو لا يزال مذهولا ..

ولم يكن يحس بألم في مكان الصفعة ولكنه أحس بلسعات كلسع النار تسري في بدنه كله ، ثم تتجمع اللسعات في مـــكان ما من صدره .. وأحس بشيء في صدره ينزف .. كرامته .. آدميته كبرياؤه ..

وضاق صدره .. ضاق حتى بدأ يحس بالاختناق .. ثم اغرورقت عيناه بالدموع .. وبدأ يبكي ..

وقال الاومباشي وهو يرفع يده الثانية : — الله .. احنا حانعيط .. مـا تخليك راجل .. طب خد !.. وهوى بكفه على الصدغ الثاني كأنه يهوي فوقه بمطرقة من حديد .

وانحرفت الصفعة فوق صدغ محيى فشقت شفته السفلى وانبثق منها الدم.. وعالجه الرجل بصفعة ثالثة أشد ، فمال المقعد الذي يجلس عليه محيي ، ووقع به على الارض .. وهو يبكي .. يبكي في استسلام دون أن يتأوه ..

وركله الاومباشي بقدمه وهو ملقى على الارض ، وصرخ فيه : — مالك خرع كده.. ما تقف على حيلك زي الرجالة.. ورجالة ايه دون يا خويا ؟!..

ثم جذبه من قميصه وأوقفه على قدميه ، ورفع محيي ذراعيه فوق وجهه يحمي بهما نفسه من الصفع ، وهو لا يزال يبكي .. وقد أصبح بكاؤه نشيجا ..

وصرخ الاومباشي: ما تتكلم انطق.. ده ماله عامل زي البرغوت كده.. انت ما بتاكلش في بيتكم ؟..

ثم لكمه في جنبه بقبضة يده لكمة قويه، فصرخ محيي صرخة حادة : آه..

ثم سقط صدره فوق ساقيه .. ومال في وقفته حتى سقط على الارض .. وبدأ ممتقع الوجه.. كأنه نزف دماءه كلها .. كأنه مات!! وفي هذه اللحظة دخل اليوزباشي الدباغ مندفعاً ، وهو يصرخ في وجه الاومباشي صراخاً مسرحياً :

— ايه ده يا اومباشي. مين أداك أوامر بالضرب .أنتم ايه ؟..متوحشين؟.. بهايم ؟.. والله لأخرب بيتك!! وانحنى الدباغ فوق محيي .. وأحاطه بذراعه، وعاونه على الوقوف، ثم أجلسه على المقعد ، وهو يقول للأومباشي : روح هات قطنة بمركر كروم قوام الله يخيبك .. بشرفي لادخلك السجن !..

وخرج الجندي من الغرفة.. واستدار الدباغ لمحيي قائلاً: أنا آسف يا محيي.. جايبين لنا بهايم يشتغلوا معانا .. كان فـاكرك زي الباقيين .. انما برضه الحق عليك لو كنت اتكلمت ما كانش حصل ده كله !..

ورفع محيي وجهه الأصفر المذهول وأخذ يردد من بين دموعه :

– ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما اعرفش ..

ثم ارتفع صوته حتى أصبح صراخاً كأنه جن ، وعاد يردد :

– ما اعرفش !.. ما اعرفش !.. ما اعرفش ! .

ودخل الاومباشي يحمل قطنة ملوثة بسائل أحمر ، أخذها منه الدباغ وبدأ يمر بها على الشفة المشقوقة التي تنزف دماً ، وهو يقول: بلاش كلمة « ما اعرفش » دي .. خلينا ننتهي على خير .. أنت مش قد « ما اعرفش » !..

ونزع محي وجهه من بين يدي الدباغ ، وصرخ صرخة طويلة حـادة كأنه يطلق روحه في صدر عدوه : ما .. عر .. فشي !..

ثم وضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء .ونظر اليه الدباغ في احتقار..وقال:

–ده أنت باين عليك تعبان قوي .. قوم استرح لك شويه .

ولم يتحرك محيي من مقعده ، ولم يرفع رأسه .. فجذبـه الدباغ من تحت أبطه وحاول أن يوقفه ، ولكن محيي لم يستطع الوقوف .. كان منهاراً ، ولا يزال يبكي ، وكل شيء يسيل منه مع دموعه حتى لم يعد فيه شيء صلباً ..

وقال الدباغ : تعال يا اومباشي أسند معايا ..

ووقف الامباشي على الجانب الثاني من محيي ، ووضع يده تحت أبطه.. ثم تعاون مع الدباغ، في رفعه ، وأخذ يشدانه وقدماه تزحفان على الأرض ، كأنهما يجران جثة قتيل.. وخرجا من الغرفة.. واستقبلهما عند الباب أحد السجانين، فصاح فيه الدباغ : افتح نمره ثمانيه ..

وسارا في الممر الطويل الذي يحاذي الأبواب المغلقة ، وهما يجران محيي ..

ولم يكن محيي يرى شيئاً أمامه .. كان غارقاً في ظلام دامس .. وكان منهاراً ، متخاذلاً يحس كأن معدتـه تنقلب .. ولكنه كان واعياً .. كان عقله هو كل ما بقي فيه صاحياً .. وسمع صوتاً ينبعث من وراء أحد الأبواب المغلقة:

– شد حيلك .. خليك جامد !

وسمع صوتاً ينبعث من وراء باب مغلق ثان: أنت مين يا أخينا قول اسمك؟!

وسمع صوتاً ثالثاً يصيح : سيبوه يا مجرمين .. يا أنذال . يا جبنا ..

وسمع من وراء الباب الرابع أنيناً .. خيل اليه انه أنين عبد الحميد !! وسمع من وراء الباب الخامس صوتاً ثائراً غليظاً يهتف بأبيات من الشعر :

« حطموا الاقلام ، هل تحطيمها يمنع الأيدي أن تنقش صخرا ؟ »

قطعوا الأيدي ، هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزرا ! »

وأحس بكل هذه الأصوات، كأنها أصوات أصدقاء يرحبون به بينهم .. كأنه داخل إلى الجنة والملائكة ينشدون له ويزفونه إلى عرشه .. ومست هذه الأصوات أعصابه فشدتها وأحس كأن الروح ترتد إلى صدره . وكأن طيفاً حانيا يمسح على شفته المجروحة ، ويربت على مكان الصفعات فوق وجنتيه .. ويجفف دموعه .. أحس أنه مع كثيرين .. ينظرون اليه في اعجاب . ويهتفون له .. ويشدون أزره ..

وبدأ يحاول التملص من الأيدي التي تمسك به .. وشد ظهره .. وثبت قدميه على الأرض .. وسار معتمداً على نفسه .

ووقفوا به أمام بات مغلق .. وفتح السجان الباب ..

وفجأة ارتفع ضجيج صاخب اهتزت له جنبات السجن .. طرقات عنيفة فوق الأبواب الحديدية المغلقة .. كأنهم يطرقونها بأيد من حديد .. كانت هذه هي تحية الشبان المسجونين لزميل جديد لا يعرفونه .. يطرقون أبواب الزنازين بالأطباق والملاعق والأكواب المصنوعة من الصاج ..

وأسرع الدباغ ودفع محيي داخل الزنزانة .. ثم هرول خارج السجن يفر مرتعداً من هذا الضجيج المخيف .. وأدار السجان مفتاحه في القفل ..

ومد محيي ذراعيه يتحسس في الظلام .. وتقدم بضع خطوات .. فاصطدم بسرير صغير ، القى نفسه عليه وهو لا يرى شيئاً ثم تحسس وجهه وهمس: نضارتي!!.

وقام وتحسس الأرض بخطاه ، حتى وصل إلى الباب المغلق ، وأخذ يطرقه بكلتا يديه ، وهو يصرخ : نضارتي .. نضارتي ..

وضاع صراخه وسط الضجيج الذي كان لا يزال ينبعث من وراء الأبواب الاخرى .. ثم سكت الضجيج شيئاً فشيئاً .. ومحيي لا يزال ملتصقاً بالباب ، وبدأ يعيد الطرق ويصرخ بأعلى صوته : نضارتي .. نضارتي ؟!..

ولم يجبه أحد . وساد الصمت .. صمت ثقيل رهيب ..

فعاد يتحسس الأرض بقدميه : والقى بنفسه على السرير الصغير الجاف ..

وبدأ يحس بآلام .. آلام لم يحس بها من قبل .. أحس كأن سكيناً يشق شفته الجريحة .. وكأن ناراً تلهب خديه المصفوعين .. وكأن شيئاً يتلوى ويتقلص في جنبه مكان اللكمة التي أصابته .. وتأوه .. وشعر انه لا يستطيع الحراك .. كأن جسده شد فوق السرير بسلاسل ثقيلة من الحديد .. وهو يريد أن ينام .. ليستريح!

اغمض عينيه .. وما كاد يغمضهما حتى سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب ، فرفع رأسه متحفزاً ..

ولكن الباب لم يفتح .. وظل رافعاً رأسه مدة طويلة . ولكن الباب لم يفتح ..

وأعاد رأسه مكانه .. وأغمض عينيه .. انه متعب . انه قطعة من التعب .. ويريد أن ينام . وفجأه سمع صوت المفتاح يدور في القفل من جديد .. ورفع رأسه في اعياء .. بلا تحفز . وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح .. انتظر مدة طويلة ، ولم يفتح الباب . وسقط رأسه فوق السرير اعياء .. وشعر بالخوف .. وكان أضعف من أن يقاوم خوفه فبدأ يرتعش ، كأنه اصيب فجأة بالحمى . وحاول أن يغمض عينيه ، انه يتعذب ، يكاد يموت من العذاب .

وفجأة أضاء النور داخل الزنزانة .. وارتجفت جفناه فوق عينيه ، كأنهما جناحا عصفورة مذعورة ..

وأدار بصره حوله .. ورأى زنزانته لأول مرة .. قاتمة ، موحشة .. ورأى سريره .. وجردلين احدهما مليء بالماء والآخر فارغ .. والباب لايزال مقفلاً .. وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح . وفجأة انطفأ النور ، كما اضاء فجأة .. انهم يعذبونه .. انهم لا يريدونه أن ينام . انهم يتلفون أعصابه .. وأحس بنفسه يتجمع للبكاء .. ولكنه لم يبكِ .. لم تعد فيه قوة تكفي لقذف الدموع من عينيه .. ولا يدري كم مضى عليه من الوقت ولكن الدنيا لا تزال ظلاماً .. إلى ان بوغت بالباب يفتح ، والنور يضاء داخل الزنزانة .. ورأى من بين رموشه المرتعشة اليوزباشي الدباغ واقفاً أمامه وفوق شفتيه ابتسامته اللزجة وسمعه يقول في لهجة مفتعلة الرقة : انت لسه صاحي يا محيي ، حبيت اطمئن عليك قبل ما أروح .. مش عايز حاجة ؟! .

ونظر اليه محيي في ضعف كأنه يتوسل اليه أن يرحمه ، وقال في صوت متهدج خفيف ، وهو لا يزال راقداً : نضارتي !..

وقال الدباغ وهو يدعي الحنان : بس كده ..؟

ثم التفت إلى خارج الزنزانة وصاح : روح يا عسكري هات النضارة لمحيي من فوق المكتب اللي في أودة التحقيق !.. ثم عاد ينظر إلى محيي قائلا : تحب أسيب لك الباب مفتوح ؟..

وقال محيي في ضعف : متشكر ..

وقال الدباغ : وتحب اسيب لك النور مولع .. يمكن تكون بتخاف من الضلمة؟

وردد محيي : متشكر ! .

وجلس الدباغ على حافة السرير بجانب الجسد المعذب ، وقال : تعرف .. انا مش هاين عليّ أروح وأسيبك هنا .. نفسي انك ترجع البيت الليلة دي .. دلوقت .. ولم يرد محيي .. وعاد الدباغ يقول : أنا كل اللي عايز أعرفه .. ابراهيم

حمدي راح فين بعد ما كتب الورقة دي وقلع البنطلون اللي لقيته عندك .. مش عايزك تقول لي أكتر من كده .. مش عايز أعرف كان بينك وبينه ايه ، ولا قابلته فين .. بس قول لي راح فين ؟..

وقال محيي كأنه يتأوه : انا تعبان ، اعمل معروف سيبني ..

وقال الدباغ : ما أنا عايز اريحك ، بس اتكلم ، كلمة واحدة !..

وقال محيي وهو يدير رأسه فوق الوسادة القذرة : ماعرفش .. ماعرفش حاجه !

وصرخ الدباغ : ماتقولش ماعرفش .. مش عايز اسمع منك الكلمة دي تاني فاهم !

ثم سكت قليلا ، واستطرد بعد ان ضبط اعصابه : خلينا اصحاب يا محيي .. طيب انا حاقول لك حكاية .. انت عارف مين دلنا عليك ؟ .عبدالحميد ابن عمك !.

ورفع محيي رأسه في فزع من فوق الوسادة ، ثم عاد وألقى به مكانه ، كأنه تذكر ان الدباغ لا يمكن ان يكون الا كاذباً ..

وأستطرد الدباغ قائلا : مش مصدقني .. طيب بص . مش دي نوتة عبدالحميد بص مكتوب فيها ايه .. نمرة تليفون همام بك رئيس البوليس السياسي .. ونمرة تليفون النائب العام كمان .. مش تعرف خط عبد الحميد . بص كده ؟!..

وقرب الدباغ المفكرة الصغيرة التي كان يحملها عبد الحميد في جيبه ، والتي عثر عليها عندما فتشت ثيابه بعد دخوله السجن .. قربهـــا من أنف محيي ، فرأى فيها نمرة تليفون همام بك النائب العام مكتوبة بخط عبد الحميد .. ففغر فاه .. ورفع عينيه إلى وجه الدباغ كأنه يحاول ان يكذبه . ثم سكت !..

واستطرد الدباغ قائلا : حضرته يا سيدي ضرب تليفون لهمام بك وراح قابله ، علشان يبلغ عن ابراهيم ويقبض المكافأة .. خمسة آلاف جنيه .. مش انت أحق بيهم في ذمتك .. ثم اذا كان ابن عمك ناوي يوديك في داهية ، ما تنفد بجلدك وتتكلم قبل ما يلبسك المصيبة كلها ..

وشعر محيي بقلبه ينقبض .. كل شيء فيه ينقبض الا ذهنه .. هل صحيح ان عبد الحميد هو الذي بلغ البوليس ؟.. وماذا أبلغهم ؟.. ولماذا لم يقبضوا عليه منذ أبلغهم ؟.. ولماذا يضربون عبد الحميد .. كما يضربونه ؟.. ولكن هذه نوتة عبد الحميد .. وهذا الخط خطه ، وهذه نمرة همـــام بك !.. أحس بحيرة تمزق عقله .. أحس انه يريد ان يكون وحيداً .. يريد أن ينام ..

وقال في صوت أشد ضعفاً : انا ما أعرفش حاجه .. أرجوك أرحمني .. انا تعبان .. عايز أنام .. وأدار رأسه فوق الوسادة !..

وقام الدباغ منتفضاً من فوق حافة السرير ، ومد يده وقبض على محيي من

قميصه ثم رفعه من فوق الفراش ، وجذبه إلى الارض وهو يصرخ : انت باين عليك غبي .. حمار .. ما بتفهمش .. الحمير اللي زيك لهم طريقة نعاملهم بيها ..

ثم تركه وصرخ منادياً الجنود الذين يقفون عند الباب ، قائلا :

– خش يا عسكري انت وهوه .. شيلوا السرير ده بره .. ما تخلوش حاجة في الزنزانة .. وأدلقوا له جردلين ميه !..

ودخل جنديان وحملا السرير خارج الزنزانة ، وحملا الجردلين ..

لم يعد في الزنزانة شيء الا أرضها السوداء .. ثم عادا بصفيحة مملوءة بالماء وسكباها على الارض الاسفلت .. وخرجا وعادا بصفيحة أخرى . وسكباها وصفيحة ثالثة .. حتى أصبحت أرض الزنزانة كمستنقع صغير رطب ..

وقال الدباغ وهو واقف عند باب الزنزانة :

– أما اشوف حتتكلم ولا لأ .. اقفل الباب يا عسكري !..

وقفل باب الزنزانة .. وعاد الظلام يغمرها ..

ومحيي واقف مستند على الجدار ، وقدماه في الماء .. انه لا يحس بالماء .. ولكنه يحس بالتعب .. ويريد أن ينام .. وأغمض عينيه ..

ووقع فوق الارض .. في المستنقع الرطب .. مغشياً عليه !..

١٧

كانت الساعة الخامسة والنصف صباحاً عندما بدأت الحركة من جديد في سجن الاجانب .. وكانت التعليمات المشددة التي وضعها القلم السياسي لتطبق في السجن طوال فترة التحقيق في حادث هرب ابراهيم حمدي ، تقضي بألا يجتمع المسجونون تحت التحقيق ، بعضهم ببعض ، والا يرى احدهم الآخر .. وأن يظل كل منهم حبيساً داخل الزنزانة طول الليل والنهار .. حبساً انفراداً .. إلى أن يجن أو ينهار فيعترف ويدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض على ابراهيم حمدي ..

وكانت هذه التعليمات المشددة تقضي بأن تفتح كل زانزانة في الصباح لمدة عشر دقائق ، ليخرج منها السجين ويذهب إلى دورة المياه ، يصحبه عسكري .. على الا تفتح زنزانتان في وقت واحد ، والا تفتح الزنزانة الثانية الا بعد أن

تغلق الزنزانة الأولى على سجينها .. وبـدأت الابواب المصمحة تفتح ، ويخرج المساجين إلى دورة المياه الواحد بعد الآخر ..

وبدأ المساجين يلتقطون أخبـــار الأمس من أفواه العساكر .. والأخبار تتناقل داخل السجون أسرع من تناقلها خارج السجن .. وتتسرب إلى الزنازين من تحت الأبواب المغلقة ، ومن بين الثقوب الضيقة .. كل الاخبار .. سواء كانت خبراً عن زوجة مأمور السجن أو خبراً عن اعتراف متهم .. انه عالم صغير لا يخفي فيه شيء !..

وكان الخبر الذي التقطه المساجين هذا الصباح ، خبراً مثيراً .. مذهلاً .. لقد قبض البوليس على شاب .. لا أحد يعرف اسمه .. وجاء به اليوزباشي الدباغ الى السجن .. ثم عذبوه ليعترف .. ومات أثناء تعذيبه .. وجثته لا تزال ملقاة في الزنزانة رقم «٨» . وصاح صوت قوي من خلف باب الزنزانة رقم « ١٦ » .. ولم يكن صاحبها قد جاء دوره ليفتح بابه ويخرج إلى دورة المياه .

– يا نمرة تسعة .. يا نمرة تسعة . سمعت اللي حصل ؟.. وأجاب صوت من خلف باب الزنزانة نمرة « ٩ » : خير على الصبح ؟!..

وعادت الزنزانة رقم « ١٦ » تتكلم بصوت عال : دول موتوا واحد في نمرة تمانية .. مش سامع حاجه في الزنزانه اللي جنبك ؟!..

وبعد برهة ارتفع صوت الزنزانة رقم « ٩ » : لأ .. مش سامع حاجـة .. زي ما يكون فيها قتيل ! وصرخت الزنزانة رقم «١٦» : عملوها ولاد الكلب .. الدور علينا . مش حنخرج من هنا إلا على التربة .. ما تعرفش مين اللي جابوه ليلة امبارح ؟.. وقالت الزنزانة رقم «٩» : لأ .. استني لما اسأل نمرة حداشر ..

وارتفع صوت الباشسجان وهو واقف في الفناء الصغير الذي يتوسط الزنازين : بس يا مسجون انت وهوه ، يا فتاح يا عليم .. ولم تأبه به الزنزانة رقم « ٩ » واستطردت تصرخ : يا نمرة حداشر .. يا نمرة حداشر .. ما تعرفش مين الـلي جابوه في نمرة تمانية ؟ وارتفع صوت من وراء باب الزنزانة نمرة «١١» .. صوت قوي غليظ : لأ . ما أعرفوش .. بيقولوا قتلوه !. وقالت الزنزانة نمرة «٩» :

– سمعتهم امبارح في الليل بيفتحوا عليه .. وفجـأة ارتفع صوت مرتعش مذعور من خلف باب الزنزانة رقم «١٢» وصرخ : قتلوه ؟.. قتلوا محيي ؟!..

ثم ارتفع صوت ضربات عنيفة فوق نفس الباب ، والصوت المرتعش يصرخ : افتحوا يا مجرمين . افتح يا عسكري .. أنا لازم اشرب من دمكم .. حاوديكم في داهية .. وقاطعه صوت حاد من الزنزانة رقم « ١٦ » :

– محيي مـــين يا أخينا .. اسمه الكامل ايه ؟ وصرخ الصوت المرتعش من خلف باب الزنزانة : محيي ابن عمي ، قتلوه ، قتله الدباغ .. قتلوه .. قتلوه ..

ثم ارتفع صوت نشيج حاد من خلف الباب المصفح . وصرخ صوت الزنزانة رقم «١١» : الموت للقتـــلة .. ورددت باقي الزنازين . الموت للقتلة .. وعادت زنزانة أخرى تهتف : نموت وتحيا مصر .. ورددت باقي الزنازين نموت وتحيـــا مصر .. وهتفت زنزانة ثالثة : إلى الجحيم يا همام .. نريد رأس الدباغ ..

ورددت الزنازين : الى الجحيم يا همام .. نريد رأس الدباغ .. وهتفت زنزانة رابعة : يسقط المجرمون .. ! ورددت الزنازين : يسقط المجرمون .. !

واوتفعت دقات عنيفة صاخبة فوق أحد الأبواب المصفحة .. وكانت هذه إشارة متفق عليها، فأمسك كل سجين بالجردل الموضوع داخل الزنزانة .. وأخذ يطرق به بابه المصفح طرقات منتظمة عنيفة كأنه يحـاول تحطيمه .. وترددت هذه الطرقات في جنبات السجن .. فهزته هزات قوية ، وعلا ضجيج صاخب مخيف ، كأن السماء تزمجر غاضبة .. ودخل الضابط النوبتجي في فنـاء السجن مهرولاً ، وهو لا يزال يضم أطراف سترته ، وصرخ في وجه الباشسجان :

– ايه اللى حصل يا شاويش .. فيه ايه ؟! واقترب منه الباشسجان ، وقال في صوت هامس : بيقولوا فيه واحد مات في نمرة تمانيه ..

وارتسم الاهتمام في عيني الضابط . ثم قال : اقفل الزنازين كلها .. ما حدش يروح الدورة .. وأخر توزيع الأكل لغاية ما أقولك .. ثم خطا داخل السجن، والتفت إلى الباشسجان كأنه يقاوم خوفاً بدأ يتسرب إلى قلبه ، وقـال : تعال معايا .. ثم اتجه إلى الزنزانة رقم « ٨ » ..

وكان المتهمون قد اعتلى كل منهم حافة سريره داخل زانزانته ، واخذ ينظر من خلال الفتحة الرفيعة الضيقة جداً التي تفصل بين ضلفة الباب والحائط المثبت فيه .. ورأوا الضابط متجهاً إلى الزنزانة رقم «٨» فكفوا عن الضجيج ولصق كل منهم عينيه بالفتحة الضيقة يحاول ان يتتبع الضابط ، وقد بدأ التطلع يغلب غضبه .. وفتح الضابط الزنزانة .. ورأى محيي .. رآه جثة مكومة على الأرض السوداء .. وسط مستنقع الماء الذي صنعه له اليوزباشى الدباغ ..

وانحنى الضابط فوق الجثة في فزع وتسمع دقات القلب .. ان القلب لا يزال يدق .. انه لم يمت .. وأمسك الضابط بيد « الجثة » .. انها باردة .. قطعة من الثلج .. والنبض ضعيف .. ضعيف جداً ..

وقام الضابط وهرول خارج الزنزانة .. وأغلق بابها على الجثه التي تلفظ

الروح .. واتجه في خطوات سريعة نحو مكتبه في البناء الخارجي للسجن ..

وصرخت احدى الزنازين : قتلوه .. قتلوه .. وبدأت الطرقات العنيفة فوق الأبواب المصفحة تتوالى من جديد .. ونظر أحـــد جنود السجن إلى زميله . وبصق على الارض .. دون أن يتكلم ! .

ووصل الضابط إلى مكتبه ، ووضع طربوشه فوق رأسه ، ثم أمسك بسماعة التليفون في لهفة ، وأدار رقماً ثم قال في صوت مرتبك : سعادة اللواء هم بك موجود؟ ثم استطرد : أرجوك تصحيه .. هنا سجن الاجانب .. وقال بعد ان سمع صوت همام بك : ايوه يا افندم .. المتهم في نمرة تمانية اللي وصل امبارح .. حالتـه .. خطرة جداً .. بيموت .. لسه ما ماتش .. وأخذ يستمع الى تعليمات همام بك وهو يردد : حاضر .. حاضر يا افندم .. حاضر .. ايوه يا افندم ..

والقى سماعة التليفون ، وعاد مسرعاً الى داخل السجن ، ثم فتح الزنزانة رقم «٨» وصرخ في الباشسجان الذى كان يقف بجانبه : هات سرير توام يا شاويش .. وهات اتنين عساكر ينشفوا الميه دي .

وفي دقائق ، حمل جنود السجن سريراً الى داخل الزنزانة ، ثم حملوا محيي ووضعوه فوق السرير .. وبدأ اثنان من الجنود يجففان المياه الراكدة على الأرض بمناشف من الخيش .. نفس الجنديديين اللذين سكبا المياه على الارض في الليل. وانحنى الضابط مرة ثانية يتسمع دقات قلب محيي .. انه لا يزال يدق . لم يمت بعد . وأمسك بيده .. انها باردة .. قطعـــة من الثلج .. والنبض ضعيف .. ضعيف جداً .. وقرب من أنفه قطعة من القطن معبأة بمحلول النشادر .. فـلم يتحرك محيي . وقرب منه قطعة القطن مرة ثانية حتى كاد يدسها في فتحة أنفه ، فاهتز رأس محيي هزة خفيفة ، ثم عاد وتصلب .. وخاف الضابط أن يقرب قطعة القطن مرة ثالثة من أنف محيي ، فقام من جانبه وهو حائر مرتبك ..

ووقف احد جنود السجن ملتصقاً بباب الزنزانة رقم «٩» ، وقال في صوت يكاد يكفي ليخترق الباب المصفح وسط هذا الضجيج : ما متش .. لسه فيه روح!

وصرخت الزنزانة لتبلغ باقي الزنازين : ما متش ، لسه ما متش !..

وسكت الضجيج .. وكفت الطرقات فوق الأبواب ، احتراماً للزميل المعذب المريض .. ومرت ربع ساعة .. وفتح باب السجن الخارجي .. الباب الكبير .. ودخل اليوزباشي الدباغ مهرولا ، واتجه الى غرفة المأمور التي كان يجلس فيها الضابط .. وقال وهو يرفع اصبعه بتحية باردة : ازاي الحال .. جرى له ايه ؟!

وقال الضابط وهو ينتصب واقفاً : قلبه بيدق .. انما مغمى عليه !..

وهز الدباغ رأسه .. ثم رفع عينيه إلى الضابط ، فرآه مضطرباً ممتقع الوجه فقال وهو يبتسم : ما تخافش .. مش حايموت !..

وجلس على مقعد مريح ، وهو يقول : البيه المأمور لسه ما جاش ؟..

وقال الضابط : زمانه جاي يا أفندم !..

وقال الدباغ ساخراً : على مهله ، كفاية احنا شايلين الهم كله !..

وفتح الباب الكبير مرة ثانية ، ودخل همام بك وصافح الدباغ ، وحيا الضابط بطرف اصبعه .. ثم انسحب الضابط إلى الغرفة الأخرى . غرفة المعاون . وقال الدباغ :

– تبقى مصيبة .. لو مات قبل ما يتكلم !!

وقال همام بك في صوت مفتعل الرقة .. كأنه يتهكم :

– والله الجماعه دول بيصعبوا علي ، أنا عارف ما يتكلموش ليه ! وفتح الباب الكبير ، ودخل طبيب السجن ، ساخطاً متبرماً تخيناً . ويجب أن يقال لك انه طبيب حتى لا تعامله على انه جزار . وقام همام بك واليوزباشي الدباغ يرحبان به .. ثم خرج الدباغ لينادي الضابط .. فجاء وصحب الطبيب الى داخل السجن ، وهمام بك يقول من ورائهما :

– انا آسف يا دكتور لإزعاجك .. إنما نعمل إيه في الروتين والإجراءات .

ودخل الطبيب إلى فناء السجن ، واستقبلته عيون لا يراها تطل عليه من خلال الفتحات الضيقة التي تفصل بين أبواب الزنازين والحائط المثبتة فيه .. وسار إلى الزنزانة رقم «٨» ، ودخلها .. ووقف فوق جسد محيي دون أن يلمسه .. ووقف ينظر اليه من بعيد .. ورأى الوجه الأصفر صفرة الموت . والجثة الضعيفة المكومة .. والشفة المشقوقة من أثر الضرب . والخدين المتورمين من أثر الصفع .. ورأى المياه التي تبلل الأرض .. وسمع الأنفاس الضعيفة التي تنطلق في مشقة كأنها تلفظ آخر ما فيها ثم خرج مسرعاً كأنه يهرب من رائحة كريهة .. وعاد الى غرفة المأمور حيث كان ينتظره همام والدباغ . وقال وهو يفرد أمامه ورقة ويخط فيها تقريره :

– التهاب حاد في المصران الأعور .. أظن من الأفضل ينتقل للمستشفى .. علشان تخلوا نفسكم من المسؤولية ! وقال الدباغ : ضروري يعني يا دكتور ، يروح المستشفى ؟! وقال الطبيب وهو يفتح فمه عن أسنان صفراء : على كل حال اطمن .. أنا حاكتب انه مصران أعور .. وحاباشره بنفسي هناك !

وابتسم همام قائلاً : فيك الخير يا دكتور .. والله دول ما يستهلوا المعامله الطيبه دي .. وبعد فترة وقفت سيارة من سيارات الإسعاف ، أمام باب السجن ،

وعاد الضابط إلى الزنزانة رقم « ٨ » يصحبه جنديان حملا جسد محيي بين أيديهما ، وخرجا به إلى القسم الخارجي من السجن حيث وضعاه فوق « نقالة » حملها رجلان آخران ووضعاها داخل السيارة .. وتحركت السيارة ..

وسارت في محاذاة سور السجن ، وقبل ان تصل الى شارع الملكة نازلي ، مرت برجل عجوز متعب ، يحمل في يده حقيبة صغيرة ، تبدو ثقيلة عليه ، ويسير في خطوات بطيئة مرتجفة نحو الباب الكبير . رجل لم يعلم ان هذه السيارة التي مرت به ، تحمل جسداً بين الحياة والموت .. جسد ابنه ..

١٨

كان الأب قد ارتدى ثيابه على عجل بعد أن تم القبض على ابنه وابن أخيه ، وترك زوجته ملقاة على الأرض تعاني نوبة عصبية تهز بدنها كله ، وبجوارها ابنتاها .. وخرج يشق الليل بخطوات فزعة متجهاً الى دار المحافظة ، بعد أن قال له الجندي الذي اشترك في القبض على ابنه انهم متجهون اليها ..

ووجد بناء المحافظة غارقاً في الليل ، كشبح يتوسط ميدان باب الخلق ، وليس فيه سوى بصيص ضئيل من النور ينبعث من حجرتين كأنهما عينا شيطان لا ينام .. ودخل واجف القلب .. مهتدياً ببصيص النور .. بعيني الشيطان الذي يسكن الدار .. واستطاع أن يقابل أحد الضباط وعلم منه ان ابنه ليس في المحافظة .. ولم يستطع أن يعلم منه اكثر من ذلك .. لم يستطع أن يعلم منه أين أخذوا ابنه ..

وخرج من مكتب الضابط ، ولم يعد إلى بيته .. إنما جلس على مقعد خشبي في ممر طويل مظلم داخل بناء المحافظة بجانب أحد الجنود .. منتظراً ابنه .. لعلهم يأتون به إلى هناك . ولكنهم لم يأتوا به .. أين أخذوه ؟ أين ذهبوا به؟.

ولأول مرة يرى القاهرة في مخيلته بلداً كبيراً غامضاً مخيفاً .. إن القاهرة ليست هذه الشوارع التي يعرفها .. وليست هذه الأبنية والدور التي تحمل أرقاماً وأسماء .. إنها شيء أكبر من ذلك وأخطر . ان فيها سراديب لا يعرفها ، وأماكن خفية لم يسمع بها أحد ، سراديب تحت الارض وأماكن خلف أسوار عالية . وبدأ يتخيل تحت كل شارع يعرفه سرداباً يخفون فيه ابنه . لعل تحت

بناء المحافظة سردابا رطبا مظلما ألقوا فيه بابنه وتركوه بين الثعابين والعقارب..

لعل ابنه وراء هذا السور العالي الذي يطل على فناء المحافظة ، وتعلوه أسلاك شائكة ، وأبراج يقف فيها جنود مسلحون .. وكان خلال هـــذه التخيلات يتنازعه الخوف واللوعة حتى يكاد يبكي ، ثم يطغي عليه إحساس عنيف بالسخط فيحس كأن يديه تمتدان رغماً عنه لتقبضا على عنق اليوزباشي الدباغ وتخنقه .. ثم لا يكتفي بخنق الدباغ ، وتمتـــد يداه لتخنقا وزير الداخلية .. ثم رئيس الوزراء .. ثم الملك نفسه .. يخنقهم بلا رحمة ، ويضغط عـــلى أعناقهم وهو يصرخ : « أين ابني .. أعيدوه إلي .. أين محيي » ؟!

ويفيق من هذه التخيلات ليجد نفسه صغيراً تافهاً . وهو لم يكن أبـــداً صغيراً الى هذا الحد.. ولا تافهاً إلى هذا الحد . كان دائماً يحس بشخصيته كاملة.. شخصية محددة واضحة ، قضى حياته كلها يرسم فيها .. شخصيته في بيتـــه ، وسط عائلته .. وشخصيته في عمله بين زملائه .. ولكنه الآن يحس بأن ليس له شخصية .. ليس له كيان . وبأنه لم تكن له هذه الشخصية وهذا الكيان أبدا .. لم تكن له شخصية في بيته ولا في عمله.. انما كانت مجرد مظهر من مظاهر الشخصية ، لا شخصية حقيقية ثابتة يستطيع أن يطمئن اليها . ليس لاحد من أهل هذا البلد شخصية .. ليس لأحد حقوق أو واجبات .. انما الناس في مصر مجرد بهائم ، تعلق في سواق .. وتحدد لهـــا الدوائر التي تدور فيها .. وتلهب ظهورها بالسياط ..

ليس لأحد في هذا البلد شخصية ما دام البوليس يستطيع أن يخطف أولاد الناس ، ويخفيهم في سراديب تحت الأرض ، وخلف أسوار عالية .. دون أن يكون من حق الناس أن يعرفوا أين اختفى أولادهم .

وازداد احساساً بالتفاهة ، والضعف.. وانكمش على نفسه وانكمشت قسمات وجهه ، فبدأ كالفأر المذعور .. وأشفق الجندي الجالس بجانبه على حاله .. فقال وهو ينظر اليه في رثاء : يا سيدنا الأفندي ما فيش فايدة من القعدة دي .. روح بيتكم أحسن .. أنت مش باين عليك وش بهدلة !

وقال زاهر افندي كأنه يتشبث بجلسته : بس عايز اعرف ابني خدوه فين.. ما اقدرش اروح قبل ما اعرف هوه فين .. وأديني قاعد ، انشا الله للصبح ..

وقال جندي البوليس وهو يتنهد : ويعني حاتعمل ايه لما تعرف ، مافيش فايده ، قوم روح أحسن لك وقول يا رب ..

وقال الأب الملتاع : بس عايز اطمن .. راح فين !!

ونظر اليه الجندي ملياً ، ثم قال في لهجة العليم ببواطن الامور :

– هو متهم في ايه ؟

قال زاهر افندي بسرعة : ما اعرفش دول لسه قابضين عليه دلوقت ، من مدة ساعة واحدة !.. وعاد العسكري يقول في لهجة الفيلسوف :

– ما هو دايماً كده .. الوالدين يشيلوا الهم من غير ذنب .من غير ما يعرفوا حاجة .. انما أنت كنت متأكد ان البوليس السياسي هوه اللي قبض عليه .. ما يمكن مسكوه في مخدرات ولا سريقة .. مين عارف !

– لا .. مش ممكن .. اللي قبض عليه ظابط اسمه اليوزباشي محمود الدباغ..

ورفع الجندي حاجبيه كأنه يرفعهما رهبة أمام الاسم الخطير ، وقال: بنفسه؟!.

وتلفت الجندي حوله ، ثم همس في أزن زاهر افندي : تلاقي ابنك دلوقت في سجن الاجانب .. هناك جنب المحطة .. حضرة اليوزباشي بيعمل كل شغله هناك .. وبياخد المتهمين بتوعه طوالي على السجن من بره بره ..

وغاص قلب الأب في صدره ، وانطلق كأنه يتأوه : – سجن !! قبل ما يحققوا معاه !!

وهمس الجندي : – بس وطي صوتك . ما هو التحقيق برضه هناك !

وقال الأب كأنه تائه : أنت متأكد ؟..

وقال الجندي متباهياً بنفسه : الا متأكد .. ما هو احنا يا سيدنا الافندي اللي نعرف كل حاجه .. احنا الاساس !

وقام الأب وهو يهمهم بكلمات لا معنى لها . وزحف في الظلام الى أن وضع نفسه في سيارة أجرة .. وذهب الى سجن الاجانب .. ونزل من السيارة ، وما كاد يقترب من سور السجن حتى صرخ في وجهه أحد الحراس وهو يرفع بندقيته من فوق كتفه : عندك ..

وكانت الصرخة كافية لتقذف به بعيداً عن السور.. ووقف ينظر الى السجن من بعيد.. وهو يتصور ابنه في كل مكان منه ، ويكاد يطل عليه من كل حجر فيه..

وعدل عن محاولة طرق باب السجن ..

ووضع نفسه في سيارة الأجرة مرة ثانية ، وعاد الى بيته ..

كان يائساً.. مهدماً .يعذبه احساس بصغر شأنه ، وفشله في العثور على ابنه..

وكان يأسه يصور له انه هو الذي جنى على ابنه والقى به بين انياب البوليس.. هو الذي سمح لابراهيم حمدي بأن يختبىء في البيت .. هو الذي جر على ابنه كل هذه المصائب .. لماذا لا يقبض عليه البوليس بدلا من ابنه ؟!

لماذا لا يقدم نفسه للبوليس ويعترف بأنة هو الذي سمح لابراهيم حمـــدي بالاختباء عنده ؟!

ما أغبى البوليس ..

انهم يعتقدون ان الشبان وحدهم هم الذين يتهورون في وطنيتهم ..

انهم لا يتصورون ان رجلا عجوزا مثلـــه يستطيع أن يشارك ابنه في تهوره ..

وواجبه كأب يلزمه بأن يفتدى ابنه ! ..

يجب أن يحمى ابنه من الضياع !..

ان ابنه هو المستقبل الذي يعيش له .. أما هو فهو الماضي . وهو يستطيع أن يضحي بالماضي ، ولا يستطيع أن يتنازل عن المستقبل!..ولكن هل يقبل البوليس هذا الفداء ؟!

هل يطلقون سراح محيى .. لو تقدم معترفا على نفسه ؟!

يجب أن يفكر .. وأن يفكر طويلا ..

وسار داخل بيته بين قطع الاثاث المتناثرة المحطمة من أثر عملية التفتيش التي أجراها البوليس .. ثم وقف على باب غرفته ، وشد ظهره ، وحاول أن يريح قسمات وجهه من تعابير العذاب وأن يجمع ارادته حتى يبدو هادئاً .. ثم دخل على أطراف أصابعه !

وكانت زوجته راقدة في الفراش ، وعيناها مفتوحتان معلقتان في السقف وخيوط من الدمع تجمدت فوق وجنتيها .. وقد عصبت رأسها بمنديل شدته حول جبينها شداً قاسياً كأنها تحمي رأسها من الانفجار . وكانت سامية جالسة على طرف السرير تدلك في قدمي أمها .. ونوال واقفة عند الطرف الآخر تدلك في يديها وذراعيها .. والثلاثة في صمت ثقيل حزين .. وقد فاحت في الغرفة رائحة عطر عنيف تغلب عليه رائحة « السبرتو » كأنها في غرفة مستشفى .. ورفعت البنتان رأسيهما إلى أبيهما وفي عيني كل منهما نظرات متسائلة ملتاعة ..

وأحست الأم بأنفاس زوجها ، فاهتز جسدها الثقيل هزة عنيفة ، وتأوه السرير في صرير حـــاد ، وقامت جالسة وسط الفراش وهي تنظر الى زوجها نظرات مبهورة ، ولما لم تسمعه يتكلم صرخت : هو فين ، ماجاش معاك ليه ، عملوا فيه ايه ؟!..

وشد الأب ابتسامة باهتة علقها على شفتيه ، وقال في حنان :

– يا ستي اطمني .. كل حاجه ماشية كويس ..

وفالت وهي لا تزال تصرخ : شفته .. شفته بعينك ؟..

وقال الأب وهو يرخى عينيه حتى لا تفضح كذبه :

– شفته ، وقعدت معاه .. واطمنت عليه !..

وعادت الأم تصرخ : وما جبيتوش معاك ليه .. ماتكدبش عليّ يا زاهر .. قلبي بيقوللي انك بتكدب عليّ !..

وقال وهو يحاول الايتلعثم : حاكدب عليكي ليه يا تحية .. صدقيني واطمني. دلوقت قاعد في أودة الضابط مستنيين النيابة علشان ياخدوا منه كلتين ..

وقالت الأم وهي تنظر في وجه زوجها : وسبته لوحـده يا زاهر .. يهون عليك تسيب ابنك لوحده ابني ، يا حبيبي يا ابني ، ياترى عاملين فيك ايه دلوقت؟

وبدأت تجهش في البكاء .. وانحنت البنتان تربتان على ظهرهـا .. وقالت نوال : – بس يا ماما .. ريحي نفسك من العياط بأه .. كفاية !..

وشدتها سامية تحاول ان ترقدها على ظهرها ، وهي تقول : ارقدي ياماما. كفاية اللي عملتيه في نفسك .. أهو بابا بيقول ان محيي بخير !..

وقال الأب وهو يدير وجهه : وبعدين بأه يا تحية .. ما تعملش زي العيال.. انت طول عمرك عاقلة وبتستحملي. انا محتاج لك اليومين دول ، بدل ما تعيطي خلينا نفكر سوا في حالنا .. وصدقيني . محيي كويس .. كل اللي حصل ان وكيل النيابة ضرب تليفون وقال انه مش حيقدر ييجي الا الصبح .. واضطر محيي انه يستناه .. واطمني ، ماحدش عرف حاجه ، ولا حيقدروا يعرفوا حاجة .. واستمرت الأم في البكاء والنشيج ، واستطرد الأب يقول : انا حاروح أنام في اودة محيي .. ومن بدري حاكون عنده ! .

وخرج من الغرفة .. وما كاد يتعدى الباب ، حتى تخلت عنه ارادته ، وعادت قسمات العذاب إلى وجهه ..

وقالت الأم من بين دموعها : قوموا يا بنات شوفوا أبوكم .. قوموا معاه .. انا خلاص بقيت كويسه .. خدي له الجلابية معاكي يا نوال .. وانتي يا سامية ، شوفي اذا كان عايز يتسحر حطي له السحور .. ونظرت البنتان إلى أمهـما في تردد ، ثم كأنهما قدرتا أن أمهما لن تستريح الا اذا اطمأنت على راحـة الأب ، فقامتا من جانبها ، وحملت نوال جلباب والدها وخرجت مع اختها إلى الغرفة الأخرى .. غرفة محيي !.. وكان الأب قد ألقى بنفسه فوق مقعد بـين قطع الاثاث المبعثر .. وجلس صامتاً يدير عينيه حوله كأنه يبحث عن محيي في كل

ما يراه .. وبين رموشه حبات من الدمع عجزت ارادته عن حملهـــا ، فتركها تسقط على وجنتيه ..

وقالت نوال في لوعة وهي ترى دموع أبيها :

– جرى ايه يا بابا .. انت حاتعمل زي ماما ؟! ..

وقال الأب كأنه يرجوها : وطي صوتك .. أحسن مامتك تسمعك ! ..

ومدت سامية يديها إلى سترته قائلة :

– قوم اخلع هدومك يا بابا ، واستريح شوية ..

وقال الأب هامساً وهو يزيح يد سامية عن كتفه ، وقد ارتسمت على وجه علامات الجد : اسمعوا .. انا حاقول لكم على حاجة مش عايز أمـكم تعرفها .. محيي في السجن. وشهقت كل من البنتين ، وظلت شهقتها معلقة بين شفاههما برهة.

وقالت سامية كأنها تعرض صدرها لطعنة أخرى : وعبد الحميد ؟..

قال الأب وهو ينكس رأسه : معاه ..

وقالت نوال : وعرفوا حاجة ؟! ..

وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس : – ما أعرفش .. مـــا قدرتش أشوفه .. انما عرفت انهم أخدوه السجن .. سجن الاجانب !

وخيم على الثلاثة صمت حزين.. كل منهم يرى السجن في مخيلته ويرى محيي خلف قضبانه .. ثم قالت سامية : – أنا أعرف ان ابن خالة خديجة صاحبتي يبقى ضابط في البوليس .. ما نكلمه .. يمكن يقدر يعمل لنا حاجة ؟!

ولم يجبها أحد .. ظل الأب صامتاً غارقاً في حيرته .. وظلت نوال سادرة في تفكيرها .. انها تفكر في ابراهيم . يجب أن تجده .. انـــه وحده الذي يستطيع أن ينقذ أخاها .. انه يعرف كيف ينقذه .. يعرف كل شيء !

وقال الأب وهو يتنهد : – خدوا بيجامة محيي وغيار جواني وفوطـــة وصابونة .. وحطوهم في شنطه صغيره يمكن أقدر أوصلهم له بكره الصبح ..

وبدأت البنتان تتحركان ..

والبيت كله غارق في الصمت والخوف كأنهم يرتقبون الموت !

وخرج الأب من الساعة السادسة صباحاً حاملاً الحقيبة الصغيرة التي تضم ملابس محيى ، ومر في طريقه على بائع فاكهة واشترى ثلاث أقات من الموز.. ثم ركب الترام إلى شارع الملكة نازلي ، ونزل قبل ميدان المحطة ، وسار نحو سور السجن ، ومرت به سيارة الأسعاف وهو لا يدري انها تحمل جسداً معذبـاً .. فقد النطق من كثرة ما تحمله من عذاب .. جسد ابنه !.. ووقف أمام الباب

الكبير حائراً ثم مد ذراعاً هزيلاً وضغط على الجرس المثبت في الحائط ..

وفتحت طاقة صغيره في الباب وأطل عليه وجه غليظ جامد ينتثر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين .. وقال في غلظة : نعم .. انت مين ؟!..

وقال الأب في تخاذل : صباح الخير .. انا والد محيي الدين مصطفى زاهر . وجايب له شوية هدوم !..

وقرب الجندي وجهه من الطاقة ، ونظر إلى الحقيبة التي يحملها زاهر وإلى اللفافة التي تضم صوابع الموز .. ثم مش شفتيه ، كأن ما رآه لا يكفي لأن يفتح الباب ، ثم قال في حدة : خليك عندك ..

ثم أغلق الطاقة في وجهه .. وظل زاهر أفندي واقفاً .. وطال وقوفه .. فوضع الحقيبة الصغيرة على الارض وجلس عليها .. وانتظر .. انتظر طويلا .. نصف ساعة .. ساعة .. ثم فتح الباب الصغير ، وقال له الجندي : اتفضل !..

وهب زاهر افندي واقفاً ، وجمع الحقيبة ولفافة الموز بين يديه في ارتباك .. ثم دخل ، وعلى وجهه فرحة كأنه سيلتقي بابنه بمجرد ان يتعدى الباب ...

وقاده الجندي إلى غرفة المأمور .. ودخلها وهو يدير عينيه بحثاً عن محيي. ولكنه لم يجده .. وجد ثلاثة ضباط بينهم اليوزباشى الدباغ .. ونظر إلى الدباغ في توسل ، كأنه يستجديه ابنه .. واقترب منه الدباغ مادا يده وهو يصيح في ترحيب ، وابتسامته اللزجة تسيل على شفتيه : اهلا ، صباح الخير ، ازيك يا زاهر افندي !..

واصطدمت يده بالحقيبة الصغيرة ولفافة الموز ، فقال من خلال ابتسامته : كل ده علشان محيي .. اتفضل استريح !..

وأخذه إلى ركن من الحجرة وأجلسه على مقعد كبير من الجلد ، وجلس بجانبه على مقعد من الخيزران .. والضابطان الآخران لا يلتفتان اليهما ..

وقال الدباغ : يا سيدي اطمن .. محيي بخير !..

وقال الأب في لهفة وهو يقفز إلى مقدمة مقعده : اقدر أشوفه ؟..

وقال الدباغ : حلمك عليّ .. أصل الحقيقة أن محيي مزعلني .. يظهر ان فيه شوية عيال ضاحكين عليه ومفهمينه انه ما يتكلمش .. وانا عايزه يتكلم علشان يرجع البيت .. ويلتفت لدروسه ..

وعاد الأب إلى مؤخرة المقعد وقد بدأ عليه اليأس وقال في حزن :

– يتكلم يقول ايه يا سعادة البيه ؟..

وقال الدباغ : يقول كل حاجة يعرفها عن ابراهيم حمدي .. احنا لاقينا في أودته حاجات تخص ابراهيم حمدي ، وكل اللي عايزين نعرفه ابراهيم راح فين ؟ الا قول لي .. انت ما لاحظتش على محيي حاجة في اليومين اللي فاتوا .. بيتأخر بره .. بيجتمع بصحابه كتير . حاجة زي كده ..

وقال الأب وهو يتنهد : ابداً يا سعادة البيه .. محيي مش بتاع حاجات زى دي .. ده عمره ما كان له دعوة بالسياسة ، ولا يعرف ابراهيم حمدي ولا غيره ..

وقال الدباغ كأنه يأسف : ما هو ده اللي محيرني . الحقيقة اننا عمرنا ما سمعنا عن محيي ولا كان له دوسيه عندنا .. انما مين عارف .. يمكن كان اشطر منا.

وقال الأب : أبداً يا سعادة البيه .. هوه مالوش دعوه بالسياسة أبداً .. ده أنا اللي مربيه !..

وقال الدباغ بعد فترة صمت : اسمع .. انا حاخليك تقابله علشان تقنعه بأنه يتكلم .. وحط في بالك ان التهمة الموجهة له خطيرة .. عقوبتها ثلاث سنين سجن على الأقل ولو اتكلم يأخذ مكافأة خمستلاف جنيه ..

قال الأب في لهفة : حاقابله دلوقت ؟...

وتذكر الصباغ آثار التعذيب التي قد تكون بادية على محيي ، فقال : لأ .. دلوقت مش ممكن .. لازم نجيب اذن من الحاكم العسكري .. وأنا حاسعى لك في الاذن ده .. ابقى فوت عليّ في المحافظة بعد بكره ..

وقال الأب : بس أشوفه أطمن عليه ..

وقال الدباغ وابتسامته لا تزال بين شفتيه :

— أطمن ، ده في عهدتي ، ما تخافش ، فوت عليه بعد بكره ..

وقال الأب يائساً : أقدر اسيب له الحاجات دي !؟..

وفكر الدباغ قليلا ، ثم عدل عن ان يقول للأب ان أبنه ذهبوا بـــه الى المستشفى ، وقال : أمال .. انا حاوصلهم بنفسي !..

وقال الأب في ضعف : متشكر !..

قام وصافح الدباغ بيد مرتعشة ، وخرج من الباب الكبير وسار كأنه يكاد يقع على وجهه في كل خطوة .. وركب الترام إلى الوزارة .. ووقف يوقع على الساعة التي يوقع عليها الموظفون عند وصولهم وانصرافهم .. ورفع عينيه فوجدها الساعة الثامنة والنصف .. لقد تأخر نصف ساعة .. لأول مرة في حياته .

وأحس ان حياته كلها قد اختلت !..

١٩

كانت نوال وهي تفكر في ابراهيم ، لا تدري بالضبط ماذا يمكن ان يفعله لانقاذ أخيها محيي من السجن .. ربما أستطاع أن يزوده بدليل يثبت بة براءته انها لا تدري .. ولكنها تحس احساساً عميقاً بأن ابراهيم يستطيع تحمل مسئولية محيي ، وأن ينقذه ..

وهي تحمله هذه المسئوليه بلا حقد ، وبلا لوم .. انها تحملها له كبطل .. وكزعيم .. وكأخ .. وكرجل يخفق قلبها بحبه .. وقد فكرت أن تبحث عنه بدل ان تنتظر موعده .. فكرت ان تذهب إلى صديقه فتحي المليجي ، وتبلغه نبأ القبض على محيي وعلى عبد الحميد ، وتطلب اليه ان يأخذها إلى رجلها ... ولكنها خافت ان تذهب .. خافت ان يفسد ذهابها خطة من خطط ابراهيم .. ربما كان البوليس يراقب فتحي المليجي .. ربما كان يراقبها هي شخصياً .. انها حائرة .. لا تدري شيئاً .. لا تدري كيف يفكر هؤلاء الشبان ، ولا كيف تصل اليهم .. ولكنها تحاول بينها وبين نفسها أن تفكر بعقليتهم على قدر ما فهمت من عقلية ابراهيم .. وفضلت الانتظار إلى الغد .. كان الغد يوم الاثنين ..

ولم تقف طويلا أمام المرآة .. لم تحس هذه المرة انها ذاهبة إلى موعد غرام .. كانت لهفتها على أخيها وابن عمها قد استحوذت على تفكيرها كله وعلى عواطفها كلها .. حتى لم يبق منها لابراهيم الا دوره في انقاذهما من السجن ..

ولم تتعب نفسها كثيراً في استئذان امها .. كانت الام قد هدتها لوعتها على ابنها فلم تعد تستطيع ان تغادر فراشها الا لبضع خطوات تخطوها مستندة على ذراع احدى ابنتيها .. وقد تركت البيت للبنتين يقومان بالإشراف عليه ، وبين عينيها نظرة ضعيفة تتبعهما بها ، كأنها تشفق عليهما من هذا العبء الثقيل الذي لا يستطيع أن يقوم به أحد إلا هي ..

وسارت في خطوات جريئة سريعة نحو محطة الاوتوبيس ، وهي تتلفت خلفها بين كل بضع خطوات لتتأكد أن البوليس لا يراقبها كما كان يراقب عبد الحميد. ولم تكن تفكر خلال الطريق إلا فيما يمكن أن يفعله ابراهيم من أجل أخيها .. قد يصمم على أن يقتل الضابط الذي اعتقله .. لا .. لن تتركه يقتل مرة ثانية .. انها تخاف عليه .. ورغم ذلك فهي في أعماقها تتمنى لو قتل هذا الضابط .. لو قتل كل الضباط .. وكان رجال البوليس ، إذا كان هذا هو الطريق لإنقاذ

أخيها .. ولكن على شرط ألا يتولى ابراهيم قتلهم .. إنها تريده سالماً .. تريده هو وأخاها .. وكانت متأكدة ان ابراهيم سيأتي للقائها ..

شيء في صدرها يكذب كل شك يساورها في حضوره .. إنه لا يستطيع أن يتخلى عنها اليوم .. لا يستطيع أن يترك محيي في السجن .. ولا يأتي ليطمئنها على ما سيفعله من أجله ..

ونزلت من الاوتوبيس ، وسارت إلى ميدان « فني » وهي لا تحس بالحرج من عيون الناس التي تتبعها .. لم يعد شيء يهمها إلا أن تلتقى بابراهيم لتنقذ أخاها.. إنها ليست ذاهبة الى موعد غرام أيها الناس ، إنها ذاهبه لإنقاذ أخيها ..

ووقفت في ميدان « فني » بجوار مستشفى عانوس ، وهي تتلفت حولها ، وفي عينيها نظرات قوية ، جريئة .. ومضت الدقايق .. مضت ربع ساعة .. وبدأ الشك يراودها .. وخفتت نظراتها القوية الجريئة .. ومضت الدقائق .. مضت نصف ساعة . وبدأ الشك يقترب من اليقين .. وبدأ الأمل يقترب من اليأس .. وبدأت ثورة عارمة تتجمع في صدرها ..

ومضت الدقائق .. ثلاثة أرباع الساعة .. إنه لن يأتي .. هرب من المسئولية .. ماذا يهمه لو قبض على أخيها ، وسجن أو شنق .. ماذا يهمه لو قبض عليهم جميعاً ؟ لو احترق البيت بمن فيه ؟ كل ما يهمه أن يهرب ، أن ينقذ نفسه ..

وانفجرت الثورة في صدرها .. لماذا تحبه؟. هذا الأناني ؟! وماذا تحب فيه؟! ربما كانت تحب فيه وهماً . وهماً صوّره لها بطلاً .. ولكن أين البطل ؟.. إنه هرب .. انه ترك أخاها وابن عمها في السجن وهرب .. لم تكن تتصور أن الأبطال يهربون .. يضحون بالناس في سبيل سلامتهم!

لماذا لا تذهب للبوليس وتنقذ أخاها بنفسها .. لماذا لا تقول للبوليس كل شيء ؟.. ستدلهم على فتحي المليجي .. وفتحي يستطيع أن يدلهم على ابراهيم ، ان ابراهيم أحقّ بالسجن من أخيها ومن ابن عمها .. إنه بطل .. والسجون أقيمت من أجل الأبطال .. أما أخوها وابن عمها فليسا بطلين !!.. وأحست بغصة تقبض قلقها .. لا .. انها لا تحب وهماً .. إنها تحب رجلاً عاش في بيتها .. تحب حقيقة عاشت في عينيها ، وفي رأسها ، وفي قلبها .. وأحست بثورتها تلين وهي تستعيد صورته .. عينيه الواسعتين ، وأنفه الكبير ، وشفتيه الرقيقتين ، وذقنه القوي ، وحديثه الهادىء الخجول ، وسيماء النبل والشهامة والرجولة تكسو وجهه .. وأحست بعواطفها تتمزق .. كأن ابراهيم يشدها من ناحية وأخاها يشدها من الناحية الأخرى..إنها حائرة..حائرة بين حبيبها وأخيها..

لا تستطيع أن تضحي بأحدهما .. ولا تكاد تجمعهما في قلبها حتى يشدهما عن بعضهما لهفتها على أخيها السجين ولهفتها على حبيبها الهارب ..

وأحست باليأس .. كأن باب الأمل الوحيد قد أغلق في وجهها ، الباب الذي كان يقف فيه ابراهيم ويمد منه يده لإنقاذ أخيها . ودفعها اليأس الى الإحساس بالاستسلام . بالاستسلام للقدر . لله . ووجدت نفسها تتنهد من أعماقها وهي تسير عائدة الى بيتها ، تردد : يا رب يا سيده زينب يا سيدنا الحسين!

ووصلت الى البيت لتنضم الى العائله الحزينة .. حزناً مستسلماً صامتاً الا من أصوات النشيج الخافت كلما خلت الام او احدى البنتين بنفسها .. وقضى الاب يومه يحاول ان يعثر على « واسطة » تتوسط في انقاذ ابنه .. ذهب الى رئيسه في عمله .. ووعده رئيسه خيراً .وذهب الى صديق له من موظفي وزارة الداخلية .. ووعده خيراً .. وذهب الى نسيب يمت بصلة قرابة بعيدة لنائب في البرلمان .. ووعده خيراً .. واستمع الى زملائه ، وكل منهم يدلي بنصيحة ، ويوصيه بطريق .. وقال له محمد افندي العنتيل زميله في المكتب :

— بصراحة . معاك قرشين .. إذا كان معاك أد خمسين جنيه ، استغني عنهم وحطهم في ايد عبدالله بيه عبدالله .. ده عضو مجلس نواب و كلمته تفتح كل باب حتى باب السجن .. وأحصى الأب في ذهنه كل ما يملكه ، وقرر أن يضحي بالخمسين جنيهاً في سبيل ابنه .. ولكنه ما لبث أن يئس عندما أكد له زميل آخر ، ان عبدالله بيه عبدالله لن يفعل له شيئاً إلا ان يتنازل ويقبل الخمسين جنيهاً ليضعها في جيبه .. وعاد في آخر النهار لتقابله مشكلة أخرى .. كيف يكذب على زوجته كذبة أخرى ، ليخدعها في مصير ابنه ، وقال لها قبل أن يركز تفكيره :

— يا ستي التحقيق اتأخر ، حيضطروا يبيتوه الليلة دي كمان! . وقالت الأم متأوهة :

— انت بتكدب علي يا زاهر .. ما تكدبش علي يا اخويا .قول لي الحقيقة .. عملوا في ابني ايه ؟ .. سجنوه .. شنقوه .. وقال وهو يدير وجهه عنها :

— هوه السجن بالساهل .. ده لسه تحقيق طويل .. قالت وهي تحرك رأسها في عصبية فوق الوسادة :

— بالساهل يا اخويا .. كل حاجة عندهم بالساهل .. دول مجرمين .. يا رب يشحططهم على ولادهم ، زي ما شحططوني على ابني .. ربنا ينزل عليهم مصيبة تاخد أجلهم .. زي ما بيصيبوا ولاد الناس . وتركها الاب ، وهرب الى غرفة « القعاد » ، حتى لا ترى يأسه على وجهه .. وازدحم البيت بعد الإفطار .

جاء الجيران الذين سمعوا الخبر .. جاءوا وعلى وجوههم دهشة .. لم يكن

أحد منهم يعتقد أن محيي له دخل في السياسة .. وبعضهم لا يتصور انه قبض عليه في قضية سياسية . من يدري .. ماذا يستطيع هـــذا الشاب الضعيف الخجول ان يفعله ؟ ربما اشترك هو وابن عمه في جريمة سرقة .. ربمـــا ضبطا في حادث حشيش .. ان ابن عمه حشاش وبايظ ، ولم يتم تعليمه .. وكلهم تغلبهم الرغبة في الاستطلاع وسماع القصة ، على رثائهم للعائلة وعطفهم عليها .

والأم في فراشها ، تستقبل جاراتها ، والبنتان بجانبها يرويان لهن قصة القبض على أخيهما ، ويعيدان روايتها في كلمات مبتورة وصوت حزين .. وكلما سألت إحدى الجارات عن سر القبض ، أجابت إحدى البنتين: ما نعرفش ، ما حدش عارف حاجه لغاية دلوقت ! وتستطرد الأخت الأخرى :

— دول الايام دي بيقبضوا على الناس عمياني.. اللي يلاقوه في وشهم يقبضوا علية ! وتمصمص الجارات شفاههن حسرة .. وتتنهد الأم قائلة : افرجها يا رب!

والأب في غرفة « الضيوف » يستقبـل جيرانه برأس منكس ، ويروي هو الآخر القصة المرة بعد المرة ، وفي كل مرة يضع لها تفاصيل جديدة ، ويحذف منها تفاصيل سبق أن قالها .. وجـاء اخوه .. والد عبد الحميد .. انه اضعف منه ، وأقلّ حزماً ، وكان طول عمره أضعف منه ، وأقل حزمـاً .. وحياته كانت دائماً مهزوزة ، مائعة ، وهو من هذا الصنف من الرجـال الذي يستسلم لزوجته ، اذا لم يجد إنساناً آخر يستسلم له .. وقد كان أشد حيرة من أخيه منذ سمع بخبر القبض على ابنه .. ولم يستطع أن يفعل شيئـاً ، لم يستطع حتى ان يذهب الى المحافظة ويسأل هناك.. إنما خرج من البيت مرضاة لزوجته ، وجلس في المقهى .. ثم جاء الى اخيه ليستمع منه الى بعض تفاصيل يعود بهـــا الى بيته ويرويها لزوجته ، كأنها تفاصيل وقف عليها بنفسه .. وقال الأخ لأخيه بعد أن استمع الى القصة تروى على مسامع الجيران المرة بعد المرة :

— طيب قولنا ان عبد الحميد ابني ولد شقي .. مين عارف كان بيعمل ايه؟. إنما محيي .. ده طول عمره عاقل ومقتصر في حاله .. ذنبه ايه كان ؟!..

وقال الأب : مالوش ذنب ، ولا عبد الحميد له ذنب ، قسمتنا كده !..

وقال صديقه السيد عبد الفتاح : قسمتنا ده ايه ؟.. بأه دي عيشة ترضي ربنا .. ده ظلم .. دي حكومة سفاحين ..

وقال خليل أفندي أبوه العز : الحقيقه حالة البلد بقت ما تنطقش .. ومـا حدش عارف آخرتها ايه ؟.. ما فيش طريقة تودي الناس دول في داهية ؟!..

ورد السيد عبد الفتاح : قبل ما يودونا في داهية !..

وقال عباس أفندي مرتضى : والله الواحد ابتدا يعذر الشبان بتوع السياسة لو كنت لسه في شبابي كنت عملت زيهم واكتر شوية ..

واستمع الأب إلى تعليقات جيرانه واصدقائه في دهشة صامتة .. انها المرة الأولى التي تتردد فيها مثل هذه الاقوال في بيته ، والمرة الأولى التي يسمعهاتتردد على السنة أصدقائه .. ولكنه يحس ان هـذه الاقوال كانت حبيسة في صدره منذ زمن طويل .. كان دائماً يرددها في نفسه ولا ينطقها .

وأحس برغبة جامحة في أن يشارك اصدقاءه تعليقاتهم . أن يثور .. وأن يسب ويشتم في الحكومة ، وفي الملك ، وفي الانجليز ولكنه كبت رغبته بكل ارداته .. كان خوفه على ابنه يحول دون ثورته ، وكان يعتقد ان من الافضل له أن ينافق الحكومة – حتى في حديثه مع أصدقائه ، وحتى بينه وبين نفسه – لعلها ترحم ابنه .. وبدأ الجيران ينصرفون .. وانصرف معهم أخوه ، ومـال على اذنه وهو يصافحه قائلاً : تفتكر حا يحصل ايه ؟.. وقال زاهر أفندي وهو يطأطىء رأسه : والله ما أنا عارف يا خويا .. انا مسلم امري لله ..

ونامت العائلة مفتحة العينين.. وخرج زاهر أفندي في الصباح الباكر ليعاود محاولة الاتصال بابنه ، وقد قرر أن يذهب الى رئيسه ، ويستأذنه في غياب يوم حتى يستطيع أن يذهب لمقابلة اليوزباشي الدباغ ليسهل له مقابلة ابنه ، كما وعده.. وبقيت الأم وبنتاها في البيت .. يتحركون كأنهم يتأوهون من الألم !..

ودق جرس الباب في الساعة الحادية عشرة .. وفتحت سامية ، ثم تراجعت عن الباب وهي تضع يدها فوق صدرها ، وقالت في حدة يشوبها الذعر : عايز إيه ؟!.. وظلت تنظر الى الطارق بعينين واسعتين ، كأنها تخشى أن يمد يده الى عنقها ويخنقها .. ولم يكن الطارق سوى جندي من جنود البوليس في ثيابـه الرسمية .. وكان يبتسم في تواضع ، ويغض نظره في أدب .. وقـال في صوت هامس : أنا جاي من طرف سي عبد الحميد أفندي !..

وقالت سامية وهي لا تزال تنظر اليه بعينين واسعتين :

– عبد الحميد!! عبد الحميد مين ؟!..

وقال الجندي : مش ده منزل مصطفى افندي زاهر ؟..

وقالت سامية ، وقد بدأت تحاول ان تفهم : ايوه ..

وقال الجندي وهو يهمس : انا جاي من سجن الأجانب .. وسي عبد الحميد مسلمني رسالة أوصلها لكم ! ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ، ومد بها يده الى سامية .. وتناولتها سامية بيد مرتعشة .. ونظرت الى الجنـدي صامتة .. ثم

فردت الورقة أمام وجهها ونظرت فيها .. انه خط عبد الحميد .. انهـا تعرف خط يده من بين آلاف الخطوط .. تعرفه طول حياتها .. وقرأت :

« عمي العزيز .. بعد تقبيل أياديكم الكريمة ، أبلغكم اننا بخـــير ، ولم يحدث شيء يمكن أن يزعجكم ، ويسيء الى موقفنا .. وقـــد نقلوا محيي الى المستشفى هذا الصباح ، وقد علمت انه بصحة جيدة ، ولكن أصابه بعض التعب من أثر الرطوبة .. والمستشفى خير له ، على كل حـــال ، من السجن .. فلا تنزعجوا .. أرجوك يا عمي ان تثق بنا ، وكل ما نحتاج اليه هو الصبر .. صبركم وصبرنا .. أرجو أن تطمئن والدي ووالدتي .. وأن تطمئنني على أخباركم عن طريق حامله .. تحياتي الى الجميع » ..

والخطاب بلا توقيع .. ورفعت سامية رأسها وقالت في لهفة :

– محيي في المستشفى .. ليه .. حصل له ايه ؟! وتلفت الجنـدي حوله ليشعرها بأنه لا يزال واقفاً على الباب ، وقال : ما حصلش حاجه .. بس كان تعبان شويه !

وقالت سامية وهي تكاد تصرخ : تعبان .. تعبان من ايه ؟..

وعاد الجندي يتلفت حوله ، ولاحظت سامية تلفته ، فأفسحت له الباب قائلة : اتفضل !..

ثم أغلقت الباب وراءه ، وهي تقول : اعمل معروف طمني ! .

وقال الجندي ، وهو ينظر الى المقعد لتدعوه الى الجلوس: – اطمئني يا ست هانم ما حدش يروح المستشفى الا بواسطة .

وقالت سامية وهي تشير الى المقعد : اتفضل !..

وتركته واتجهت الى داخل البيت ، ونادت اختها هامسة ، خفية عن أمها ، وانزوت بها في ركن من الممر الذي يصل بين الحجرات ، واطلعتهـا على رسالة عبد الحميد ، ونقلت لها حديث الجندي .. ثم خرجتا اليه سويا ، وقالت نوال وفي عينيها لهفة : – ما تعرفش من فضلك نقلوه اي مستشفى ؟!..

وقال الجندي ، وهو جالس : والله مش متأكد ، انما اللي أعرفه انهم كلهم بيروحوا القصر العيني !.. وارتفع صوت الأم من الداخل : مين يا بنات ؟!..

وتبادلت البنتان النظرات ، ثم دخلت اليها نوال قائلة : – ده واحد جاي من عند محيي وعبد الحميد بيطمنا عليهم !

وقفزت الام جالسة فوق سريرها ، ثم نزلت من فوق السرير في خفة ، كأن شبابها رد اليها ، وقالت : – جاي من عندهم .. لازم أشوفه !

وقالت نوال في ارتباك: – بس ساوي شعرك يا ماما .. ما يصحش ..و...

وقالت الام مقاطعة : ناوليني منديل رأسي والشال بتاعي ..

وناولتها نوال منديل الرأس والشال ، ثم تركتها مسرعة ، وخرجت الى الجندي وقالت له هامسة : – أعمل معروف ما تقولش لها حاجة .. قول لها انهم بيحققوا معاهم بس .. ما تجبش لها سيرة السجن ولا المستشفى . أصلها عيانة شوية واحنا مخبيين عليها ..

ودخلت الام وهي تسير في خطوات سريعة كأنها تركت ورائها آلامها ، وجسمها المكتنز ، وتوقفت قليلاً عندما رأت الجندي بزيه الرسمي ، ثم قالت :

– انت شفتهم يا ابني .. شفتهم بنفسك ؟!..

وقال الجندي وهو يقوم واقفاً: أيوه.. كويسين ومستريحين وصحتهم عال..

وقالت الام : وحيرجعوا امتى ؟ قول لي يا ابني .. طمني ؟!

وقال الجندي : تهون يا ست هانم !.

وقالت الام فزعة : تهون .. ودي تهون أبداً .. ما تقول .. ما تخبيش .. حاترجعوهم امتى ؟!..

وأرتبك الجندي ونظر الى البنتين كأنه يستغيث بهما ، ثم قال : – كلها يوم ولا اتنين ، ويخلص التحقيق ..

وقالت الام كأنها تعتبر هذا الجندي هو المسؤول الاول أمامها : – والنبي يا ابني دول مظلومين .. صدقني .. دول مظلومين .. واللي بيجي على المظلومين ربنا ما يرحموش .. خافوا من ربنا يا ابني ..

ثم جلست كأنها سقطت فوق المقعد .. وأحس الجندي بحرج ، ومط شفتيه كأنه يشفق على هذه العائلة الساذجة ، ثم ردد وهو يبحث عن أي كلام يقوله :

– اطمني يا ست .. الفرج قريب باذن الله .. على كل حال لو حبيتوا توصلوا لهم أي حاجة أنا في الخدمة ..

وقالت الام وكأنها لا تسمعه : – وبتحققوا معاهم في أيه بأه ؟.. ايه اللي عملوه ؟!. وعاد الجندي ينظر الى البنتين ، ثم قال : – على كل حال .. اطني يا ست ..

وقالت الأم : ويا ترى بيناموا ازاي ؟..

وقال الجندي : على سراير .. زي سرير حضرة الضابط تمام !

وعادت الام تقول وهي تمصمص شفتيها وترفع عينيها الى السماء : ويا ترى بيا كلوا ايه ؟..

وقال الجندي : – الفطـــار .. لحمة .. ورز .. وخضار .. والله حضرة الضابط يسيب الأكل اللي جاي من بيتهم ويا كل من اكل السجن !

وخبطت الام على صدرها، وصاحت : سجن؟! .. هم خلاص دخلوا السجن؟! ..

وبوغت الجندي ، ثم قال بلهجة العليم : – لأ يا ست هانم ، دول اسمهم .. تحت التحقيق !

ثم قام واقفاً ، كأنه يريد أن يفر من هذا الحرج ، وقال : – تحبوا أوصل لهم حاجة ؟

وقالت الأم : ايوه والنبي يا ابني نفسي ابعت له شوية حاجات رمضان أصل محيي طول عمره يحب البندق واللوز .. ولازم أبعت له شوية هدوم ، زمانه مش طايق الهدوم اللي عليه يا حبة عيني .. وكمان شوية فاكهة يغذي بيهم نفسه . وكتبه .. ما هو لازم يذاكر .. الامتحان فاضل عليه يدوبك كم يوم ..

والتفت الجندي إلى البنتين وقال لهما، كأنه يئس من التفاهم مع الأم : الحاجات دي مش ممكن تدخل الا باذن .. انما اذا كان فيه حاجات صغيرة ممكن الواحد يدخلها له ..

قالت سامية : زي ايه ؟..

وقال الجندي وقد عاد يتعجب لهذه العائلة الساذجة :

– فلوس مثلاً .. ماهم برضه هناك محتاجين لفلوس !

وقالت نوال وهي تضع ذراعها في ذراع أمها :

– تعالي يا ماما .. عايزاكي في كلمة جوه !..

وقامت الأم وهي تتأوه . وقد عادت اليها كل آلامها، واتجهت مع ابنتها إلى غرفتها . ثم صعدت إلى سريرها وارتمت عليه يائسة كأنها عادت من رحلة خائبة ، واشارت الى ابنتها . وقد فهمت ما قاله الجندي ، وقالت : افتحي الدرج اللي عندك ده ، تلاقي منديل معقود على جنيه .. خدي الجنيه واديه للجدع ده يوصله لمحيي .. يمكن يكون صحيح محتاج له ..

وفتحت نوال الدرج ، وفكت عقدة المنديل ، ثم حملت الورقة ذات الجنيه وعادت بها إلى الجندي قائلة وهي تناولها له في ارتباك :

– اذا كان محتاج لحاجة تانية ، ابقى فوت علينا .. يكون بابا جه ! .

ونظر الجندي الى الورقة المالية وقال : ده بأه أدية لسي عبد الحميد ؟.

وقالت نوال : أيوه ..

وعاد الجندي ينظر إلى الورقة المالية دون ان يتحرك في وقفته ، وقال :

– والله الواحد بيجازف بمستقبله علشان خاطره ، أهي عمله زي دي يمكن تورديني في داهية ، ولا انسجن فيها ..

وقالت سامية : فيك الخير ..

وعاد الجندي يقول وهو ينظر إلى نوال ثم يعود وينظر إلى الورقة المالية :

– انما الحقيقة دول رجاله يستاهلوا ..

ولم يتحرك من وقفته ، ولم يبد عليه نية الانصراف !..

وبرقت عينا نوال كأنها فهمت شيئاً . ثم التفتت إلى أختها ، قائلة :

– سامية ..اسمعي !..

ثم اخذتها من ذراعها ودخلت إلى البيت وهو تقول للجندي :

– دقيقة واحدة من فضلك !..

ثم همست في أذن سامية ، وقداصبحتا على باب غرفتها : هاتي الخمسة وعشرين قرش اللي معاكي ، على الخمسة وعشرين قرش اللي معايا .. وندیهم له ..

وقالت سامية : يمكن يرفضهم .. ويزعل !..

– مش باين .. كل الناس بتعمل كده وأصلنا محتاجين له !..

وهزت سامية رأسها كأنها غير مقتنعة .. ثم اخرجت كل من الاختين حقيبتها وتناولت ما فيها من نقود ، ثم جمعت نوال المبلغ في يدها ، وعادت به إلى الجندي ، ووضعته في يده وقلبها يدق بعنف كأنها ترتكب جريمة !..

ولم ينظر الجندي إلى المبلغ ، انما تحسسه بيده كأنه اعمى يعد نقوده ، ثم قال : ودول علشان مين بأه ؟.

وقالت نوال وهي تتلعثم : دول علشانك .. علشان المواصلات :

وقال الجندي وهو لا يزال قابضاً على النقود في يده :

– ما فيش لازمة .. لا والله .. ما تجيش !..

واتسعت عينا سامية كأنها تصدقه ..

وترددت بين شفتي نوال كلمات لا معنى لها ..

ووضع الجندي النقود في جيبه ، قائلاً : متشكرين ! .

ثم تحرك نحو الباب ، ونوال تقول له : ابأه طمنا دايماً .. كل يوم ..

وقال الجندي : حاضر .. خليتكم بعافية !..

وخرج .. ودخلت نوال إلى المطبخ ، وهي تسير مقطبة الجبين كأنها تخنق افكارها وفتحت سامية خطاب عبد الحميد . واخذت تعيد قراءته كأنها تلتقي به بين السطور .. ثم غطت عينيها بالخطاب .. وبكت .. كأنها تبكي على صدره !

وكانت الساعة قد بلغة الثالثة بعد الظهر عندما عاد الأب .. عاد اكثر يأساً. واشد ضعفاً .. واصغر شأناً .. لقـــد ذهب إلى مكتب اليوزباشى الدباغ في المحافظة ، فلم يجده .. وانتظر على بابه ثلاث ساعات جالساً بين السعاة ، الى أن جاء الدباغ .. وعندما جاء أبقاه على الباب ثلاث ساعات أخرى ، ثم رفض أن يقابله .. رفض حتى ان يطمئنه على ابنه .. وعاد الى بيته وهو يسحب قدميه ويسير في ظلام لا يرى خلاله شيئاً .. ولا يرى في داخل نفسه الا الحقـــد .. والثورة المكبوتة في عنف .

واستقبلته ابنتاه وأطلعتاه على نبأ الجندي الذي جاء .. وقرأ خطاب عبد الحميد .. وشعر ببصيص ضئيل من النور يتسلل الى صدره . انه على الأقـل يعرف أين ابنه الآن .. ويحس كأنه يسمع صوته .. صوت محيى وصوت عبد الحميد .. وسار متجها الى غرفته ليطمئن على زوجته .. ولكنه توقف فجأة .. كأنه سمع صرخة حادة .. صرخة محيى وهو راقـــد في المستشفى يناديه ويستغيث به ..

واستدار في عجل .. وخرج من البيت قبـــل ان يطمئن على زوجته .. واستقل سيارة من سيارات الأجرة ، وأمر السائق أن يتجه به الى مستشفى القصر العيني بسرعة .. بسرعة وحياة أبوك يا أسطى .. ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه ..

لقد تخبط بين جنبات المستشفى ساعات طويلة ، وكل ما استطاع أن يراه غرفة يقف على بابهـــا جنديان مسلحان .. عرف ان فيها ابنه .. وكل ما استطاع أن يقف عليه كلمة قالها له طبيب شاب .. طمأنه بها على صحه ابنه .. انه مصاب بضعف .. ضعف شديد .. هذا كل ما في الأمر ..

وعاد الى البيت في الساعة السادسة مساء .. يحمل همه ..

عاد ليستقبل – هو وعائلته – ليلاً طويلاً ..

* * *

صباح الاربعاء ..

واستعدت نوال لتذهب الى موعدها .. الموعد الذي لم تلتق فيه أبـــداً بابراهيم .. وهي لا تدري لماذا تذهب .. ولماذا لا تيأس .. ولكنها كانت يائسة فعلا .. لم يكن في قلبها قطرة من الأمل .. كانت تحس كأنها ذاهبـة لزيارة قبر .. قبر آمالها .. قبر نذرت نفسها لزيارة صباح كل يوم اثنين وصباح كل أربعاء

وخرجت من البيت وهي غارقـة في الحداد .. حداد قلبها .. ووقفت في ميدان « فني » ، دون أن تتلفت حولها .. وقفت منكسة الرأس كأنهـا تتلو

الفاتحة لتستنزل رحمة الله على أملها الشهيد .. ووقفت بجانبها سيارة .. ورفعت رأسها في بطء ، ورأت في السيارة فتحي المليجي ، فاندفعت اليه في لهفة ، وقالت دون أن تحييه : عرفت اللي حصل ؟!

ونظر اليها فتحي في حنو ، كأنه يربت على قلبها بعينيه ، وقال بصوت هادىء :

– عرفت .. عرفنا كل حاجة . وابراهيم باعتني مخصوص علشان اطمنك . بيقولك تأكدي ان مش حيحصلهم حاجة !..

وقالت نوال في صوت ضعيف وهي تنكس رأسها حتى لا يرى فتحي عينيها:

– وازاي ابراهيم ! . وقال فتحي وبين شفتيه ابتسامة حلوة كأنه يحيي بها حباً عظيماً : كويس .. بخير .. وسادت فترة صمت ثم عادت نوال تقول: انما حيطلعوا من السجن ازاي ؟

وقال فتحي : السجن مش مهم .. المهم ما يعترفوش . ولغايه دلوقت ماحدش منهم اعترف .. ما كانش ممكن حد يصدق ان محيي وعبد الحميد يستحملوا ده كله .. دول استحملوا كتير .. دول أبطال ..

وقالت نوال مذعورة : استحملوا ايه ؟..

وتراجع فتحي قائلاً وقد استنتج انها لا تدري ما تحمله أخوها وابن عمها من عذاب : المهم ان ابراهيم بيطمنك .. بس المسألة عايزه وقت !.

وقالت نوال وهي لا تفهم : مسألة ايه؟.. قال: مسألة الافراج عنهم ..

قالت : عايزه وقت كتير ؟! قال : لأ . مش كتير .. بس المهم ما يعترفوش ! قالت ساخرة : كل اللي يهمكم انهم ما يعترفوش مش كده ؟..

قال في هدوء : لو اعترفوا حيروحوا المحكمة ويتحكم عليهم ، أقله بتلات سنين. ولو ما اعترفوش حيفضلوا معتقلين شهر ولا شهرين ، ويخرجوا ..

ونكست رأسها وكأنها خجلت من نفسها .

وقال فتحي : انا مضطر أسيبك دلوقت .. شدي حيلك .. وخدي بالك اوعي حد يتكلم !.. قالت كأنها لم تعد تستطيع أن تقاوم: ما اقدرش أشوف ابراهيم ! قال وبين شفتيه ابتسامته الطيبة : ده كان حايودي نفسه في داهية مرتين علشان ييجي يشوفك.. وانتي عارفة ظروفه.. انما ضروري حاتشوفيه .. بأذن الله!

ونكست نوال رأسها ، وقد التمع وجهها ، وكست وجنتيها حمرة خفيفه. كأنها تواجه حبها لأول مرة .. انه لم ينسها .. حاول ان يراها .. خاطر بنفسه في سبيلها .. انه يحبها .. وتركها فتحي المليجي هائمة .. وانطلق بسيارته ...

* * *

قاد فتحي سيارته حتى وصل إلى ميدان الجامع الازهر .. ثم أوقف السيارة بين مجموعة من سيارات التجار التي تعودت ان تقف هناك في انتظار أصحابها .. وسار على قدميه ، ثم انحرف إلى اليمين محاذياً الجامع الازهر .. واستمر في سيره حتى وصل إلى شارع « الباطنية » . ووقف أمام بيت مكون من ثلاثة أدوار. يبدو أكثر متانه من البيوت التي حوله .. وأطلق صفيراً حاداً عدة مرات ..

وفتحت نافذة في الدور الاول ، واطل عليه شاب يرتدي جلباباً وقال بمجرد أن رآه : اهلاً .. ازيك يا فتحي .. جبت كراسة المحاضرات !..

وقال فتحي ، وهو ثابت لا يتلفت حوله : طبعاً .. عايزين نذاكر شوية .. مش فاضي دلوقت ! . وتردد الشاب برهة ، ثم قال : فاضي .. اتفضل !..

ودخل فتحي من باب البيت .. وحيا امرأة لا يعرفهـا جالسة في الحوش الضيق الذي يستقبل الداخل ، ثم ارتقي السلالم الحجرية القليلة ، حتى وصل إلى الدور الأول ، فانفتح الباب ، وبرز له الشاب الذي اطل عليه . عريض قصير تبدو رقبته الغليظة وفوقها رأسه الكبير كسندانة حداد .. وتبادلا نظرات صامتة .. ثم تقدم الشاب بضع خطوات وأغلق الباب الذي خرج منه ثم اخذ .. يصعد السلم الحجري في خطوات بطيئة هادئة ومن خلفه فتحي .. ووصلا الى الدور الثالث .. واخرج الشاب مفتاحاً من جيب جلبابه وفتح الباب . ودخل ومن خلفه فتحي صامتين .. كانت شقة مظلمة .. كل نوافذها الخشبية مغلقة .. ليس فيها من ضوء الا ما يتسلل من بين خشب النوافذ المغلقة . واتجها الى أحدى الغرف .. وفتح الشاب الباب ، وترك فتحي يمر قلبه ..

وانبعث صوت من جانب الغرفة .. صوت متعب كأن صاحبه يتنهد : شفتها ؟!..

وقال فتحي باسماً : طب استنى يا ابراهيم لما أقول لك السلام عليكم ..

واعتدل ابراهيم في جلسته على الأريكة .. انه يبدو نحيلاً هزيلا .. ووجهه ممتقع .. وعيناه تبرقان ببريق لامع عصبي ، كأن روحه كلها تجمعت في عينيه .. وقد أطلق شاربه .. فبدأ اكبر من سنه .. وذقنه غير حليق .. فبدا كالمريض.

وقال ابراهيم في عصبية : وعليكم السلام .. قالت لك ايه !.. وقال فتحي وهو يجلس بجانبه : كانت خايفة على أخوها .. انما قدرت اطمنها .. وطبعاً عايزه تشوفك !.. وسكت ابراهيم .. سكت فترة طويلة . وفتحي ينظر اليه مبتسماً كأنه تعود منه هذا الحال .. ثم نكس ابراهيم رأسه ، وقال : انا بافكر اسلم نفسي .. ما فيش طريقة أنقذ بيها محيي الا اني اسلم نفسي !..

وقال فتحي وهو لا يزال هادئاً : ما تبقاش مجنون !..

وقال ابراهيم وهو يسند جبينه فوق رأسه : يظهر اني لازم أتجنن !..

٢٠

كانت الخطة التي وضعها ابراهيم مع اصدقائه قبل ان يهرب من السجن تقضي بأن يدبروا له وسيلة يستطيع ان يخرج بها من مصر كلها .. وكانت الوسيلة التي اتفقوا عليها هي ان يتصلوا بصديق لهم في الاسكندرية ، ابن أحد مقاولي شحن السفن ، ليساعد ابراهيم على التسلل إلى احدى السفن الراسية في الميناء ، والاختباء فيها ، حتى يصل إلى مرسيليا .. وهناك يبدأ في وضع خطة جديدة ..

وخرج ابراهيم من بيت محيي مرتدياً بدلة الضابط . ساعة الافطار .. ولم يلمحه بواب البيت فقد كان مشغولاً في تناول أفطاره .. وسار في خطوات سريعة نحو شارع النيل . والطريق خال من الناس .. وارتبكت خطواته قليلاً عندما لمح عسكري داورية ، جالساً على حافة « السور » المقام على ضفة النهر وهـــو يتناول طعام الافطار . رغيف عيش ، وقطعة جبن ، وحزمة فجل .. واستطاع ابراهيم ان يسيطر على خطواته بسرعة ، واستمر في سيره . ولمحـه عسكري الداورية فوقف منتصباً يؤدي التحية العسكرية لحضرة الضابط . ونطت حزمة الفجل على الأرض ، ولم ينتبه ابراهيم إلى تحية العسكري الا بعد ان تعداه ، فرفع يده يرد له التحية دون ان يلتفت اليه بوجهه . ورأي من بعيد السيارة التي تنتظره .. انها سيارة فتحي المليجي .. انه يعرفها .. وكثيراً ما استعملها في عمليات الاغتيال التي كان يقوم بها . وأسرع الخطى . وحاذى السيارة دون ان يبطىء من خطاه ، كأنه لن يركبها . والتفت بطرف عينه فرأى صديقه فتحي وبجانبه محمود عرفه .. صديق آخر من طلبة كلية التجارة .. وانحرف فجأة ناحية السيارة وفتح بابها الخلفي والقى بنفسه فيها ..

وكان محرك السيارة دائراً .. فانطلقت مرة واحدة .. دون ان يلتفت فتحي أو محمود إلى ابراهيم . ودون ان يتفوه أحدهم بكلمة .. وظل ابراهيم جالساً منحنياً إلى الأمام حتى يبعد وجهه عن السيارة . وتعدت السيارة ميدان الجيزة في دقائق ، وانطلقت كالصاروخ في شارع الهرم .. ثم انحرفت في حدة إلى طريق الاسكندرية .. وقال فتحي كأنه يتم حديثاً لم ينقطع : احنا لازم نكون في اسكندرية الساعة حداشر الا ربع .. عبدالعزيز مستنينا في التريانون الساعة حداشر تمام ..

وقال ابراهيم في صوت هادىء : الساعة كام دلوقت ؟..

ورد محمود عرفه دون ان يلتفت إلى ابراهيم : سبعة الا ربـع .. وقال ابراهيم : حانلحق بالراحة . هدي شويه يافتحي أحسن يوقفونا عند نقطة الحدود !..

وهدأ فتحي من سرعة السيارة قليلا ، دون مناقشة . . ثم بدأ الثلاثة يتحدثون عن تفاصيل الخطة التي وضعوها . . وعن زملائهم الذين في السجن ، والذين في المعتقل ، والذين لم يقبض عليهم بعد . . وعن أخبار السياسة . . وأخبار همام بك واليوزباشي الدباغ . . ولم يتكلم ابراهيم عن البيت الذي كان مختبئاً فيه ولم يسأله أحد عنه . . وكان ابراهيم في حديثه لا يبدو متحمساً كعادته ، ولا يبدو واعياً لم يكن يوجه هذه الاسئلة الحاسمة الدقيقة التي تمس صلب كل موضوع وتكشف عنه . . كان يبدو كأنه يائس . حزين . . كأن روحه تنسحب منه رويداً رويداً ، كلما تقدمت به السيارة نحو الاسكندرية . . ولم يكن بينه وبين نفسه يفكر في تفاصيل خطة الهرب . . ولم يكن يحس بأصدقائه الذين يتحدث عنهم ، ولا بأخبار السياسة التي يستمع اليها . . انما يملأه الاحساس بأنه على وشك ان يترك مصر كلها . . احساس رهيب مخيف يتجاوب في صدره كالهواء البارد الثقيل . . ماذا يفعل بعيداً عن مصر . ما قيمته هناك ، في فرنسا . . سيكون انساناً حياً . يأكل ويشرب ويسير على قدميه . . ولكن ما قيمته . . ما قيمة هذه الحياة التي يحياها في بلد ليس وطنه . . لن يكون له هناك هدف ، ولا مستقبل ، ولا شيء يحبه . . لن يرى هذه الأرض التي ولد عليها ووقف فوقها طول عمره . . ولن يرى اباه وأمه ولن يرى اصدقاءه ولن يشترك في جهادهم . . ونوال . . نوال . . الخفقة التي خفق بها قلبه . . الأمل الجديد الهادىء الذي تفتح في حياته . لن يراها أبداً . . لن يعود الا بعد عشرين عاماً حين تسقط جريمته بمضي المدة القانونية . . عشرون عاماً يقضيها انساناً مشلولاً لا فائدة منه ، بلا حب ، وبلا وطن ، وبلا هدف . . وليس له ذكريات تعيش في صدره ، وبينها وبينه البحر الأبيض المتوسط . .

وابتسم كأنه يتحسر . . لقد كان في صباه يتمنى أن يذهب الى فرنسا . . كان يحلم بأن يطوف الدنيا كلها . . بل كانت احلامه تصل احياناً الى حد الهجرة من مصر . . ولكنه الآن وقد بدأت احلام الصبا تتحقق ، يستطيع ان يرى بشاعتها . وقسوتها . . ويحس بها كالكابوس لا كالأحلام . .

ونظر من خلال النافذة إلى الرمال التي تحيط بالطريق . . ما اجملها ، كأنها تنبض بالحنان . وتمنى لو ملأ عينيه منها حتى لو أصبحت آخر شيء يراه . . حتى لو اصيب بالعمى . . ورأى في كل بقعة من الرمال قبراً له . . وأحس بالحنين إلى قبره . . انه يريد ان يدفن هنا في أي مكان من مصر ! . .

وهدأت السيارة من سرعتها اكثر عندما اقتربت من نقطة الحدود عند الكيلو (١٠) . . وأشار لها الجنود لتقف . . ولكنها لم تقف وسارت بينهم ببطء ، ولمح الجنود

بدلة الضابط التي يرتديها ابراهيم ، فرفعوا ايديهم بالتحية العسكرية ، وتركوا السيارة تمر بينهم بعد ان سجلوا رقمها في دفاترهم . ورد ابراهيم تحيتهم وهو منحن إلى الأمام حتى لا يروا وجهه . وعادت السيارة تنطلق بسرعة بعد أن أجتازت نقطة الحدود وعاد ابراهيم إلى افكاره الحزينة التي تملأ صدره كالهواء البارد الثقيل .. مصر . نوال .. اهدافه .. أبوه وأمه .. وكلما انقاد إلى افكاره أحس بضعفه .. وكلما أحس بضعفه كره نفسه .. انه يكره نفسه هارباً .. يكره هذا التسلل والاختباء الذي لا هدف له الا انقاذ حياته . ويكره هذه الرعشة التي تصيب قلبه كلما صادفته عقبة في الطريق .. انه يريد ان يكون دائماً مهاجماً .. يطلق الرصاص على اعدائه واعداء وطنه .. ويدبر خطط الهجوم لزملائه .. هكذا كان دائماً . وهكذا احب نفسه .. تمنى ان تفشل خطة هربه .. الا يترك مصر ابداً . وحاول ان ينزع هذه الأمنيه من نفسه .. ولكنه لم يستطع .. انها تدوي في صدره كصوت طبل ضخم يأتي اليه من بعيد .. وأحس انه اصبح منساقاً إلى الهرب خارج مصر ، اكثر منه مقتنعاً به ..

ووصلت السيارة إلى الاسكندرية .. ودارت في شوارعها ، ثم وقفت في شارع سعد زغلول قبل التقائه بميدان محطة الرمل . ونزل محمود عرفه .. شاب طويل رفيع في عينيه سذاجة تخفي وراءها خطورة افكاره .. وسار على قدميه إلى مقهى التريانون . وحيى شاباً جالساً على أحدى الموائد وجلس بجانبه ، وتهامسا لفترة قصيرة ثم قام وعاد إلى السيارة ، وجلس في مكانه بجانب فتحي المليحي ، وهو يقول : سيدي بشر .. بعد تلت ساعة !..

وتحركت السيارة . واتجهت إلى شارع الكورنيش ، وهي تسير على مهل كأنها تحمل جماعة يشمون الهواء .. وأطل محمود عرفه من نافذة السيارة وراء فتاة تسير في الطريق واطلق صفيراً حاداً . وقال فتحي المليجي بسرعة : ايوه بصبص يا اخويا علشان ننفد من الدباغ ، ويمسكنا بوليس الآداب !..

وقال محمود عرفه وهو يقهقه : دي حركة للتعمية !..

والتفت الاثنان إلى ابراهيم ليشاركهم ضحكهم .. ولكنه كان واجماً .. حزيناً .. هائماً وراء افكاره .. فكفوا عن ضحكهم احتراماً لصمته ، وتبادلا نظرات تساؤل .. فكل منهما يعرف أن ليست هذه هي عادة ابراهيم عندما يقوم بتنفيذ خططه !.. ووصلت السيارة إلى سيدي بشر .. واتجهت الى طريق معسكر الانجليز .. وعلى جانب الطريق الهادىء المظلم لمحوا سيارة واقفة .. فأطفأ فتحي المليجي مصباحي سيارته ثم اضاءهما .. ثلاث مرات .. وردت السيارة

الأخرى فأضاءت مصباحيها واطفأتهما ثلاث مرات .. وقاد فتحي السيارة في هدوء، وأوقفها في محاذاة السيارة الأخرى..ومضت برهة صمت كان خلالها كل من في السيارة يضع يده على مسدسه .. الى ان تحقق محمود عرفه من شخصية قائد السيارة الأخرى .. فنزل وصافحه: أهلاً عبد العزيز .. اتأخرنا عليك!..

وقال عبد العزيز : يدوبك .. اتفضلوا ! .

وبدأ محمود يقدم عبد العزيز إلى كل من فتحي وابراهيم .. انه مجاهـــد من الاسكندرية لم يكن ابراهيم يعرفه من قبل ..

وسار الجميع في الرمال التي يشقها الطريق ، الى أن وصلوا الى « كابين » خشبي ، اقيم بعيداً عن الكبائن الاخرى ، وأوقد عبد العزيز مصباحاً غازيـــاً صغيراً . وجلس الأربعة يتحدثون عن تفاصيل الخطة .. لقد اتفق عبد العزيز مع أحد بحارة سفينة يونانية ستبحر غداً إلى بيروت ومنها إلى مرسيليا..وسيتنكر ابراهيم في زي احد عمال نقل الفحم .. وقد أعد له عبد العزيز بطاقة شخصية مزورة تتيح له دخول الميناء . وسينتظره عند رصيف الفحم ليسلمه الى بحـار الباخرة .. وتركهم عبد العزيز .. وذهب فتحي ليملأ خزان السيارة بالبنزين.. ثم عاد .. ولم ينم ثلاثتهم .. وفي الساعة الخامسة صباحاً .. جاء اليهم عبدالعزيز يحمل بعض الثياب الرثة ، وقطعة فحم .. وارتدى ابراهيم الثياب على اللحم . بنطلون قذر اسود لا يصل الى قدميه ومشدود الى وسطه بحبل .. وقميص ممزق متسخ .. ثم بدأ عبد العزيز يطلي وجه ابراهيم ويديه وصدره وقدميه ، بلون الفحم .. ثم نظر اليه من بعيد ، كأنه فنان يتأمل صورة انتهى من رسمها ، وقال بلهجته الاسكندرانية : ايوه . و .. ه يا رتنا نشتغلوا الشغله دي على طول .. كنا نكسبو دهب !.. وسبقهم عبد العزيز بسيارته .. وركب ابراهيم في سيارة فتحي ومحمود ، ورقد في أرضها حتى لا تثير رؤيته دهشة أحد .. كان حافي القدمين. ليس على لحمه سوى هذه الخرق الباليه .. وليس في جيب بنطلونه الكالح الممزق ، سوى البطاقة الشخصية المزورة، وخمسون جنيهاً زوده بها فتحي بالاضافة الى الخمسة جنيهات التي أعطاها له زاهر أفندي . ومصحف صغير يضم بين صفحاته ورقة صغيرة مكتوب عليها « محمد رسول الله » بخط نوال .. وقال ابراهيم وقد اقتربوا من منطقة الميناء ، وهو لا يزال راقداً على أرض السيارة : فتحي . فاكر البنت اللي بعتها لك البيت ؟.. وقال فتحي دون ان يلتفت اليه : ايوه .. واستطرد ابراهيم في صوت حزين كأنه يتنهد : تروح ميدان عبد المنعم يوم الاتنين الساعة حداشر . تلاقيها واقفة هناك..طمنها علي .. ما

تقولش لها انا رحت فين .. بس طمنها !

وقال فتحي وهو ينظر أمامه وقد ارتفع حاجباه دهشة : حاضر

وقال ابراهيم كأنه يكاد يبكي : ما تنساش !.. ورد فتحي وقد ازدادت دهشته : حاضر !..

وقال ابراهيم : ما تتصلش بالبيت عندنا الا بعد ما تهدأ الحكاية !

وكرر فتحي قائلاً : حاضر .. ثم استطرد فتحي : — احنا حانفضل جنب باب نمرة « ٦ » لغاية المركب ما تقوم ! وقال ابراهيم كأن الزعامة لا تستطيع أن تتخـــلى عنه : — اعملوا نوباتشيه ، ما تفضلوش مع بعض ، وما تستنوش في العربية . دوروا على قهوة تقعدوا فيها !

ووقفت السيارة بجانب سور البناء ، بعيداً عن الباب نمرة « ٦ » .. وقال محمود عرفه بعد أن تلفت حواليه : أمان ..

قالها في صوت حازم خافت ، كأنه يصدر حكماً بالاعدام . واعتـــدل ابراهيم ، وفتح باب السيارة ونزل منها بسرعة ، وسار فوق قدميه الحافيتين .. دون أن يلتفت خلفه .. وفتحي ومحمود يتبعانه بنظرتهما .. وقلب كل منهما في حلقه .. وفي عيني كل منهما دموع لا تنهمر .. واجتاز ابراهيم باب الميناء دون أن يعترضه أحد من الجنود .. كأن ثيابه الرثة والبقع السوداء التي تغطي وجهه وصدره ، تكفي كجواز للمرور .. وسار داخل الميناء وقد استعاد ذهنه ، والتمعت عيناه بكل ذكائه .. ولكن قلبه لا يزال يرتعش في صدره .. قلب الهارب ..

وتلفت حوله ، ورأى عبد العزيز واقفاً بعيداً .. وتبادلاً اشارة خفية .. ثم سار عبد العزيز يتبعه ابراهيم عن بعد .. سارا طويلاً .. حتى وصـــلا الى رصيف الفحم ، ودخل عبد العزيز في « كشك » صغير ، اتخذه والده مكتباً لادارة اعمـــاله الخاصة بتموين السفن .. ثم خرج عبد العزيز من « الكشك » وصرخ في وجه ابراهيم الذي كان قد اقترب منه : جرى ايه يا وله ، نجيبولك بسكليت تركبها ، ما تتلحلح وتروح تشيل لك مقطف .. واحنى ابراهيم رأسه ، واتجه الى مجموعة من « المقاطف » ملقاة على الرصيف وحمل واحداً منهـــا ..

واتجه عبد العزيز الى سلم الباخرة الراسية ، وأخذ يتحادث مع أحد البحارة ..

ثم صعد البحار سلم الباخرة ، وتبعه ابراهيم .. ونزل البحار الى قاع الباخرة وابراهيم خلفه .. وفي مكان رطب مظـلم كأنه قفص من الحديد ، بجانب مخزن الفحم في الباخرة ، قريباً من عنبر الآلات ، استدار البحار الى ابراهيم وقال له بانجليزية ركيكة : — ستبقى هنا الى أن نصل .. وسأحضر لك بعض الطعام ..

وهز ابراهيم رأسه صامتاً .. وألقى « المقطف » الذي يحمله على الارض وجلس فوقه مستنداً الى الحائط الحديدي ..

وخرج البحار . ثم عاد بعد قليل يحمل أرغفة من الخبز « الافرنجي » وبعض علب الطعام المحفوظ .. وناولها لابراهيم ، وهو يبلغه موعد قيام الباخرة ويلقي اليه بتعليماته . وقطع حديثه صوت أقدام تقترب .. ثم ظهر بحار آخر ، وما كاد يرى ابراهيم جالساً على الارض ، حتى بدأ نقاشاً طويلاً مع زميله باللغة اليونانية . نقاشاً لم يفهم منه ابراهيم شيئاً .. انما ظل صامتاً ، وفي عينيه اضطراب وجزع ..

والتفت البحار الاول الى ابراهيم قائلاً : ان هذا الرجل يريد مبلغاً من المال ..

ودون ان يتكلم ، وضع ابراهيم يده في جيبه ، واخرج ورقة من ذات الخمسه جنيهات ناولها للبحار .. ونظر البحار الثاني الى الخمسة جنيهات في امتعاض ، ثم دسها في جيبه وخرج .. وقال البحار الاول ، وهو يخرج خلف زميله : — هل تعرف ان الباخرة ستعود من بيروت الى الاسكندرية ، قبل ان تبحر الى مرسيليا .. وبهت ابراهيم ، وقال في فزع : كيف ؟!..

وقال البحار باللغة الانجليز : هذا ما سمعته الآن من زميلي !..

وخرج البحار .. وجلس ابراهيم هائماً ، وهو يحس بكل عضلاته تتقلص .. انه لا يستطيع أن يبقى في هذا القفص الحديدي ثلاث اسابيع الى ان تصل الباخرة الى بيروت .. ثم تعود الى الاسكندرية ، ثم تبحر الى مرسيليا .. وقد يكتشفون أمره خلال هذه المدة ، أو قد يعود البحار الثاني الى التهديد بطلب نقود .. ثم قد يسلمونه للبوليس في الاسكندرية عندما تعود اليها الباخرة .. انه لا يستطيع ان يبقى ، يجب أن يغادر هذه الباخرة حالاً .. واحس بالراحة وهو يتخذ هذا القرار .. احس كأنه افرج عنه .. انه سيعود إلى مصر .. الى وطنه وحمل « المقطف » الذي يجلس عليه ، وتسلل من الطريق الذي أتى منه ..

ونزل الى الميناء .. وبحث بعينيه عن عبد العزيز .. واقترب منه .. وما كاد عبد العزيز يراه حتى صرخ صرخة مكتومة وقال : جرى ايه ؟!..

قال ابراهيم هامساً : المركب راجعة اسكندريه تاني ، لازم اخرج من هنا حالاً ، اسبقني وادي خبر لفتحي ومحمود ..

وخرج ابراهيم من منطقة الميناء .. وركب في سيارة فتحي ، وقد تقرر أن يبحث عبد العزيز عن باخرة أخرى متجهة الى مرسيليا رأساً .. ولكن ابراهيم رفض ان يبقى في الاسكندرية .. انهم هنا لا يعرفون احداً ، وليس لهم صديق

يبلغهم تحركات البوليس.. واصر على أن يعود إلى القاهرة .. انه هناك يستطيع ان يختبىء . وارتدى ابراهيم بدلة الضابط مرة ثانية .. وعادت به السيارة إلى القاهرة . كأنها تعود به الى بيته .. وتقرر أن يقيم مع محمود عرفه في حجرة يسكنها فوق سطح احدى العمارات بشارع البورصة القديمة المتفرع من شارع قصر النيل .. وكان المفروض ان يبقى ابراهيم في هذه الغرفة ، الى ان يبلغه عبد العزيز خبر اتفاقه مع باخرة أخرى يهرب عليها . ولكنه كان في قرارة نفسه ينوي الا يترك مصر . كان قد اقتنع انه لا يستطيع أن يعيش هناك ،في فرنسا، أو في أي مكان غير مصر ، لا يستطيع ان يعيش مشلولاً بلا هدف وبلا حب وبلا وطن .. ولكنه لا يستطيع ان يبقى في القاهرة بلا عمل . مجرد هارب ..وفي نفسه طاقة من الحقد الثوري يريد ان ينفس عنها .. يريـــد أن ينتقم من الذين حرموه حريته .. وحرموه حبه.. وكان يفكر في حبه كثيراً ، كان كلما اندمج في تفكيره الوطني شغله طيف نوال فيهيم في حلم جميل . بيت هادىء .. وعائلة بسيطة .. ونوال بجانبه ..

وقد حاول ان يرى نوال .. قرر مرة ومرتين أن يخرج من مخبئه ويذهب اليها في موعدها،ليرى شعاعاً من حلمه..ولكنه كان يعدل في اللحظة الأخيرة.. كان يخاف عليها من حلم لن يتحقق أبداً..وكان يتمنى لها اليأس .. اليأس منه ، ومن حبه .. ويتمنى ان يحمل العذاب كله..ألا يجرح هذا القلب البكر الكريم.. وان يمزق قلبه قرباناً لها ..

ويبقي في الحجرة أياماً . وقد أطلق شاربه ، وترك ذقنه غير حليق .. وقد أقضه الحرمان والقلق والتوتر ، فبدا نحيلاً ، أصفر الوجه ، كأنه مريض .. وكان يرتدي جلباباً ، ويضع في جيبه دائماً النقود التي يملكها ، والمصحف الذي يضم الورقة الصغيرة التي كتبتها نوال بخط يدها ، وحذاؤه معد دائماً بجانبه .

فالهارب يجب ان يكون دائماً على استعداد للمفاجآت ..

ولم يكن قد قرر بعد ان يعمل شيئاً .. وكان يكتفي بأن يجلس مع زميله محمود عرفة ويضعان سوياً خططاً وطنية لا يشترك في تنفيذها .. قنبلة تلقى على المعهد البريطاني .. اغتيال جنود انجليز في منطقة القنال .. ولم تكن كل هذه الخطط تنفذ .. كان ينقصها اليد التي تستطيع التنفيذ .. يده هو ..

إلى أن كان يوم .. وكان جالساً في الحجرة مع محمود عرفة ذات صباح .. عندما اقتحم عليهما الباب « كونستابل » من قوة البوليس السياسي ، يصحبه اثنان من البوليس السري .. وفهم ابراهيم توأ ان البوليس جاء في طلب محمود

عرفة ، لا في طلبه . ووقف بعيداً عن صديقه .. رنظر اليه الكونستابل نظرة عابرة دون اهتمام .. ودون ان يخطر بباله ان هذا الشاب الآخر ، هو ابراهيم حمدي .. وقال : مين فيكم محمود عرفة ؟! .. وأجاب محمود في تحد : عايز ايه؟!..

وأزاحه الكونستابل من طريقه ، ودخل يفتش مكتبه ، بينما بقي الجنديان واقفين يسدان الباب . وبسرعه .. وبحركة مباغتة .. مرق ابراهيم من بين الجنديين وأخذ يعدو في فناء السطوح ، ثم أخذ ينزل السلم قفزاً ..

وصرخ الكونستابل : حصله يا عسكري انت وهوه ..

ومد يده وقبض على محمود عرفة حتى لا يهرب هو الآخر ..

وكان ابراهيم يضع شبشباً في قدميه طارت احدى فردتيه ، وهو يجري ، فتخلص من الفردة الأخرى .. وظل يقفز فوق السلالم حافي القدمين .. والجنديان وراءه .. ووصل إلى الشارع . وظل يجري .. وسمع الجنديان يصيحان من ورائه : « حرامي . حرامي .. » ووقف الناس في الطريق .. وهمّ بائع جرائد بأن يعترض طريق ابراهيم ، فصاح بأعلى صوته : « أنا مش حرامي .. دول بوليس سياسي » .. فتنحى بائع الجرائد بسرعة ، وخرج كواء من باب دكانه . رجل عريض ضخم .. واعترض طريق أحد الجنديين .. وتصدى له .. ثم أمسكه من يده في قوة ، وقال في هدوء : ايه الحكاية يا سيدنا لفندي ؟!وقال الجندي، وهو يلهث : يا جدع سيبني، أوع من سكتي! .

وقال الكواء ، وهو يضع يده في شق جلبابه، كأنه يستعد لحديث طويل : بس مش تقول ايه الحكاية .. علشان نساعدك !؟

وقال الجندي في حدة: حرامي،مش سامعني باقول حرامي!وقال الكواء، وهو لا يزال قابضاً على يده العسكري : عجيبه .. وسرق ايه يأ الحرامي ؟ .

وقال الجندي : يا جدع سيبني أحسن أوديك في داهيه !

وقال الكواء: هوه حضرتك مخبر .طيب ما تقول كده من الصبح. اتفضل!

وانطلق الجندي يجري ، وقد غاب ابراهيم عن عينيه ..

وعاد الكواء إلى دكانه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ..

وأسرع بائع الجرائد يجري ، وسبق الجندي الآخر، وألقى نفسه في طريقه مدعياً ان ما يحمله من الصحف سقط منه .. ووقع الجندي فوقه .. ثم قام وهو يسب ويلعن ، وتلفت حوله فلم ير ابراهيم .. وكان ابراهيم قد مرق من شارع قصر النيل .. واتجه إلى ميدان الأزهار .. وهو لا يزال يجري .. ولم يعد يسمع وقع الاقدام التي تجري خلفه .. ولكنه ظل يجري وأخذ يصيح :

– اسمع يا جدع . يا أخينا استنا !

وكان يصيح ليقنع الناس أنه يجري ليلحق بشخص آخر .. ثم كف عن الجري .. وأخذ يسير بخطى واسعة ، ثم دخل إلى مخبز ، واشترى عشرة أرغفة من الخبز حملها بين يديـــه بحيث تخفي نصف وجهه .. وبدأ وهو يسير حافي القدمين ، يرتدي جلباباً ، ويحمل أرغفة العيش ، كأنه خادم عائد من السوق..

وسار في اتجاه ميدان العتبة الخضراء .. وهو يفكر . يفكر بسرعة ..أين يذهب ؟ أين يختبىء ؟.. وانحرف في شارع الازهر .. ووقف عند بائع فاكهة ، وأشترى برتقالاً وأقتين من الموز ، وترك البائع مشغولاً بوضع ما اشتراه في « كيس » كبير من الورق .. واتصل بصديقه فتحي المليجي بالتليفون . ولكنه لم يجده. فحمل « كيس » الفاكهة ، وسار في شارع الازهر حتى آخره . واتجه الى شارع « الباطنية » .. لقد تذكر صديقة عبد السحرتي .. طالب معه في كلية الحقوق ، من الوطنيين المتحمسين .. ولكنه لم يشترك في جمعية سرية . وكان بعيداً عن مراقبة البوليس .. هل يجد عبد الله في بيته ؟! .

ووجده في البيت .. ولم يتردد عبدالله في معاونته على الاختباء .. وكان يسكن في بيت يمتلكه أبوه ، مكون من ثلاثة أدوار .. والدور الثالث يقيم فيه طالبان من الازهر ، وقد سافروا الى بلدتهما ، وتركا مفتاح الشقة مع عبد الله . وصعد عبدالله بابراهيم الى الدور الثالث .. وأقام في شقة الطالبين المسافرين .. يقضي ليله ونهاره في مكان واحـد منها دون ان يبدي أي حركة حتى لا يشعر أحد من السكان بأن هناك من يحتل الشقة ، وظلت النوافذ مغلقة ليل نهـــار ، وعبد الله يتسلل اليه في أوقات متفاوتة ليزوده بالطعام والشراب .. ومرت أيام ولم يعد يستطيع ان يهدأ !.. أن اعصابه التي كان يستمد قوته من قوتهـــا .. اعصابه الهادئة الباردة .. بدأت تخونه .. بدأت تهتز .. انه يحس أحياناً انـه سيجن ، يحس انه يريد ان يصرخ ، أن يحطم ، ان يدمر ، أن يقتل !..

يقتل من ؟.. همام بك واليوزباشي الدباغ ، اللذان يتبعانه ويسلطان عليه رجالهما ؟ . لا .. انهما يمثلان طبقة الخدم .. خدم لسياسة مرسومة يرسمهـــا الاستعمار !.. يقتل الانجليز كما كان يفعل قبل أن يقبض عليه ؟ لم لا ؟..

يجب الا يرتاح الانجليز في مصر .. يجب ان يقلقوا دائماً على حياتهم ما داموا في مصر !.. وقرر ان يعمل .. أن يعمل بنفسه .. واستطاع ان يتصل بفتحي المليجي .. وبدأ الثلاثة يعقدون اجتماعات سريـة في الشقة الخالية .. ابراهيم ، وفتحي ، وعبد الله .. ولكن فتحي كان يعارض بشدة في يقوم ابراهيم بتنفيذ

احدى الخطط بنفسه . انه هارب . وتصرفات الانسان الهارب تختلف عن تصرفات الانسان المهاجم .. ولو قام ابراهيم بالعمل فسيحتاج الى خطتين في وقت واحد . خطة لتغطية هربه ، وخطة لتنفيذ عملية الاغتيال . وقد تعرقل احد الخطتين الاخرى .. وكان ابراهيم مقتنعاً بمنطق فتحي !.. ولكنه يريد ان يعمل .. انه لا يستطيع ان يعيش مختبئـــاً كالفأر طول عمره ! وطال تردد الثلاثة في القيام بعمل ما .. الى ان بلغهم خبر القبض على محيي وعبد الحميد وتعذيبهما .. وبلغهم انهما تحملا السجن والعذاب ولم يعترفا .. وفقد ابراهيم اعصابه .. جن غضباً .. ! لقد رأى كثيراً من زملائه يعتقلون ويعذبون .. ولكنهم كانوا جميعاً من الطلبة المشتغلين بالسياسة .. كانوا كلهم يعدون أنفسهم للقبض والتعذيب .. ولكن محيي ، انه لم يكن مشتغلاً بالسياسة .. انه واحد من الناس البسطاء السلبيين الذين يحتلون مقاعد المتفرجين .. انه الشعب .. الشعب كله .. وقد وقف الشعب بجانبه .. تحمل الشعب العذاب من أجله ، دون ان يتخلى عنه ، وازداد احساساً بالشعب ، وهو يفكر في محيي .. يجب ان يرد الثمن للشعب .. يجب أن يثبت لمحيي .. ونوال وزاهر افندي .. والست تحية .. انه يستحق ثقتهم .. يستحق العذاب الذي تحملوه من أجله .. وتخلص من احساسه بأنه انسان هارب ..

ورفض أن يستمع الى اعتراضات فتحي المليجي ، وهدد ان يعمل وحده ان رفض فتحي أن يعمل معه .. ولم يرفض فتحي .. وفي نفس الليلة تمت عمليـــة اغتيال احد الجنود الانكليز قرب معسكر العباسية .. ولم يعد ابراهيم من العمليه راضياً ، لم يهدأ ولم يحس انه قام بعمل كبير .. وكان يعلم ان الحكومة ستمنع نشر الخبر في الصحف ، حتى لا ينعكس على الناس ويؤلبهم على الانجليز .. ويعلم أن البوليس سيدعي في تقاريره الرسمية ان القتل حصل بقصد السرقة ، رغم أنـه – أي البوليس – يعلم أنها عملية اغتيال سياسي ، وربما علم أن ابراهيم هو الذي قام بها ، فقد تمت بنفس الاسلوب ونفس الخطة التي كان ابراهيم يتبعها في الاغتيالات السابقة .. واقتنع ابراهيم – كما اقتنع من قبل – ان عملية الاغتيال الفردي للجنود الانجليز ، لا طائل من ورائها ، وأخذ يجهد نفسه في التفكير ..

يجب ان يقوم بعمل كبير .. عمل أكبر من اغتيال جندي انجليزي ، وأكبر أيضاً من اغتيال وزير من عملاء الانجليز .. ومن خلال تفكيره بدأ وعيه يتطور .

ان الانجليز في احتلالهم لمصر لا يعتمدون على جنودهم ، ولا على واحد أو اثنين أو عشرة من عملائهم ، إنما يعتمدون على نظام كامل ، نظام للحكم ، نظام يبدأ بالملك ، ويرتكز على طبقة الاقطاعيين التي تحتكر مقاعد الوزراء ومقاعد

البرلمان .. يجب قلب هـــذا النظام إذا أردنا تخليص مصر من الانجليز ، ومن العملاء ، ومن الظلم ، ومن الفقر ، ومن همام ، والدباغ.. إذا أردنا انقاذ محيي ، وزاهر افندي ، والست تحية ، وبقية الناس الطيبين البسطاء ، وإذا أراد أن يحقق حلمه البعيد ،البيت الهادىء الذي يضمه هو ونوال !وتعجب من نفسه عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ، كأنه اكتشف حقيقة بسيطة غابت عنه العمر كله ..

ولكن كيف ؟.. كيف يقلب نظام الحـكم ؟..

واتسعت عيناه .. وانطلق منهما بريق لامع .. كأنه يحاول بهما ان يخترق سحب الغيب .. وأحس بذكائه يشتعل في رأسه حتى يكاد يحرقه ..

لو استطاع ان يجمع حوله مائتي شاب مسلح .. مائتين فقط من الشباب الفدائي.. لاستطاع بهم أن يستولي على الحكم .. سيحتل بهم أولاً محطـــة الاذاعة .. ثم يحاصر رئيس الوزراء في بيته .. ويقبض على رؤساء البوليس السياسي . و .. وحتى لو فشل في الاستيلاء على الحكم، فستكون ثورة مسلحة تهز مصر وتوقظ شعبها .. ولكن كيف يجمع مائتي شاب مسلح ؟؟ .

سيطبق نظام الخلايا ، سيجمع خمسة يثق بهم ، وكل واحد من الخمسة يجمع خمسة يثق بهم ، وهكذا إلى أن يتم جمع المائتين !

وأخذ يستعرض وجوه المائتين الذين سيجمعهم .. ورأي من بينهم كثيراً من زملائه طلبة الجامعة .. ورأى عبدالعزيز المجاهد السكندري .. ورأى وجه سائق التاكسي الذي رفض ان يأخذ منه النقود عندما قرر أن يقوم بأول عملية اغتيال .. ورأى وجه الطبيب الذي تستر على هربه من مستشفى قصر العيني.. ورأى كل الوجوه التي مرت في حياته . وكأنهـــا اصطفت أمامه في طابور عسكري ينتظر أمره ، ليقلبوا نظام الحـكم ..

كيف يسلحهم ؟ . أنه في حاجة إلى أموال كثيرة ليشتري بهـا السلاح .. أموال يتبرع بها اصدقاؤه الأغنياء .. ولن يقول لهم خطته ، فقط سيجعلهم يتبرعون .. ولم يضع وقتاً . وبدأ في صباح اليوم التالي يسوق الخطة إلى فتحي وعبدالله بطريقته الخاصة .. يدفعهم اليها دفعاً ، حتى ينظلقوا بها قبله ..

ومرت أيام أخرى .. وبدأ فتحي المليجي يجمع الخمسة الذين يكونون الخلية الأولى .. وابراهيم مختبىء في الشقة لا يغادرها .. ولكنه لم يعد يشعر بالضيق .. أنه مشغول دائماً بالتفكير في خطته ، ويشتعل حماسة لها . ولكن مجهودات فتحي المليجي في تكوين الخلايا تسير ببطء .. بل تتعثر ولا تكاد تسير .

وابراهيم يتمادى في التفكير ، وكلما تمادى في تفكيره داخله الشك في خطته ..

ومن خلال الشك اكتشف حقيقة أخرى غابت عن تفكيره .أنه لا يمكن جمع مائتي شاب فدائي مسلح مخلص، إلا إذا كانت وراءهم قاعدة شعبية عريضة متحركة قاعدة ثائرة ، تغلي بالثورة .. ان مائتي شاب لا يستطيعون ان يقوموا بثورة . ولكنهم يستطيعون ان يقوموا بدور في الثورة. ان مائتي ثائر مسلح ، لا ينبتون في أرض باردة جامدة ، ولكنهم ينبتون في ارض ثائرة ملتهبة .. يجب ان تثور الأرض أولاً .. يجب ان يلتهب الشعب . ان يعم السخط ، ان يحس العامل ، والتاجر ، والموظف ، والطالب .. بروح الثورة .. ان تتحرك الهيئات كلها .. والجمعيات كلها .. ومن خلال هذه الحركة . يتجمع مائتا شاب مسلح لقلب نظام الحكم !.. إذن .. عليه ان يبدأ أولاً باشاعة روح الثورة ، بتحريك الهيئات ، باثارة قضايا وطنية .. إلغاء المعاهدة . الجلاء .. الفساد .. الظلم .. نفوذ غير المسؤولين .. عملاء الاستعمار . كل هذه القضايا يجب ان تثار مرة واحدة .. ان تصبح حديث الشعب وغذاء العقول . ولكنه لا يستطيع ان يفعل كل ذلك وحده .. وبدأ خلال الأيام التالية يتبع أخبار الهيئات والجمعيات الثورية ، وكان يعلم أن هناك أكثر من جمعية ثورية سرية .. جمعيات داخل الجيش.. وجمعيات في أوساط الشعب.. فبدأ يرسل فتحي وعبد الله لمحاولة الاتصال بهذه الجمعيات .. والعمل على توحيدها واشراكها في عمل واحد .. وبدأ يؤمن بأهمية المنشورات السرية .. وأهمية الصحافة المتطرفة .. وأهمية الازمات السياسية .. كل ذلك وهو جالس في الشقة المظلمة .. وقد بدأ احساسه بأنه انسان هارب يعاوده أشد مما كان .. وبدأ يضيق بنفسه .. وبحياته ما دوره في كل ذلك ؟.. انه لا يستطيع أن يتنقل بين الجمعيات السرية ، ولا يستطيع ان يشترك في المظاهرات . ولا يستطيع أن يكتب المنشورات ويوزعها ولا يستطيع أن يتصل بالطلبة والناس ليثيرهم ويثير سخطهم كيف يستطيع أن يقوم بدور تنفيذي .. يخدم به وطنه ؟! ومن خلال ضيقه ، قرر انه انسان منته .. انسان لا أمل له ، فهو لا يستطيع أن يعيش هارباً ، ولا يستطيع ألا يكون هارباً .. فهو منته .. أن الطريق الوحيد أمامه اذا أراد أن لا يسلم نفسه للمشنقة ، هو ان ينتحر .. ولكنه لن ينتحر كما ينتحر الضعفاء بل سيقوم بعملية وطنية انتحارية .عملية يضرب بها مثلاً لمن يأتي بعده .. للشباب كلهم .. لم يعد يعنيه أن يعيش .. كل ما يعنيه هو ان تقوم ثورة .. فليكن الطلقة الأولى في الثورة . التي تعقبها كل الطلقات .. ليكن الطلقة التي توقظ الناس .. وتفتح أعينهم .. وتثير حماستهم .وليعرفوا إلى أي حد يمكن ان يضحي فرد في سبيل

وطنه .. لا .. لن يقوم بعملية انتحارية واحدة .. عدة عمليات .. اما ان تلحقه الثورة .. ان يموت لتحيا الثورة .. هذا هو دوره .. دوره ان يكون ضحية يبكي الناس فوقها .. شهيداً يتخذ الناس من دمه علماً للثورة .. وكان هذا هو آخر ما قرره بينه وبين نفسه ، عندما عاد فتحي المليجي اليه بعد أن قابل نوال ..

وعندما قال ابراهيم لفتحي انه يفكر في تسليم نفسه للبوليس كان يمهد للعملية الانتحارية التي يوشك أن يشترك فيها زميله ..

* * *

وقال فتحي كأنه يعاتبه : حكايـــة تسليم نفسك دي ، لازم تشيلها من دماغك . احنا مـــا عملناش ده كله علشان تيجي في الآخر تسلم نفسك ! .

وقال ابراهيم : وهو يخفي عينيه عن زميله حتى لا يفتضح ما في رأسه : يعني حا فضل مستخبي زي الفار كده طول عمري؟ وقال عبدالله : بأه انت مستخبي .. لو ما كنتش مستخبي كنت عملت ايه؟ . الراجل الانجليزي لسه ما بردش دمه ! وقال ابراهيم : طيب وبعدين . ضربنا واحد انجليزي . ضربنا عشرة انجليز .. ايه اللي حا يحصل؟ ! وقال فتحي : والله اللي يستحق الضرب اكتر من الانجليز . هما هما وشلته .. هم دول اللي حاكمين البلد ! ورد ابراهيم دون ان يرفع رأسه : لو خلصنا على هما ، حيطلع اللي ألعن منه .. سيبك . المسدسات مـــا بقتش نافعة ! وقال عبدالله في غباء : أمال حتضربوهم بشومة ؟!. وقال فتحي : أمال ايه اللي ينفع ؟ . وقال ابراهيم : انا عارف الواحد لازم يعمل عمل كبير . عمل يفرقع ! وقال فتحي وقد تعود على اسلوب ابراهيم حتى فهمه :

— قنابل .. مثلاً .. ديناميت !؟. وقال ابراهيم وقد رفع عينيه إلى فتحي كأنه يهنئه على ذكائه : وحانجيب القنابل والديناميت منين ؟. وقال فتحي وقد اكتسى وجهه بعلامات الخطورة : بسيطة .. بس حا نستعملها في ايه ؟

وقال ابراهيم : بس اتشطر وهاتهم الاول .. وقام فتحي وقال وقد تعود ألا يلح على ابراهيم في حديث : لما حاجيبهم حابقى اتصل بيك ! وخرج فتحي ومعه عبدالله .. وتركا ابراهيم في الظلام ..

٢١

ومضي يومان .. وكان ابراهيم خلال هذين اليومين ، هادئاً .. لم يعد شيء يثيره .. ولم يعـد يحس باحساس الهارب .. لقد عرف مصيره .. انتهى من تحديد

دوره في المعركة الطويلة العنيفة التي خاضها .. ودوره الذي أختاره لنفسه هو ان يكون الطلقة الاولى في الثورة ، وان يظل يعمل حتى تلحقه الثورة .. وان يموت وتحيا الثورة ثورة مصر كلها . ثورة الشعب كله ..

وكان كل ما يبدو عليه من آثار الايام العنيفة التي مرت به ، هو هذا الشارب الذي أطلقه فبدا اكبر من سنه .. وذقنه التي تركها بلا حلاقة فوق وجهه الممتقع فبدا كأنه مريض . وكان يفكر تفكيراً هادئاً في خطة الثورة . وفي اختيار المكان الذي يبدأ منه العمل .. ولم يكن خلال تفكيره يحس باحساس المنتحر . لم يكن يائساً . ولا ساخطاً .. كان كأنه مقبل على اختراع جديد يحاول تجربته . اختراع لاشعال الثورة في مصر .. وكان يدرس اختراعه بعقلية العالم المدقق ، الواثق من النجاح .. يحدوه الامل .. والبشر .. ويرى النور ينبثق من بعيد .. من أعماق روحه ، ومن اعماق تفكيره ..

وكانت صور من حياته تنعكس في خياله ، فينظر اليها في حنان ، وبين شفتيه ابتسامة راضية . صورة بيته الذي نشأ فيه بحي المنيرة . وصورة امه . كم أحبها ، وكم أحبته .. وساءل نفسه : هل أغضبها .. هل سبب لها عذابا . لا .. انها تفهمه .. لقد عودته دائماً ان تفهمه .. وقد ورث عنها كل اخلاقها . هذا العناد ، وهذا الهدوء الذي يغلف به ثورته .. كل ذلك ورثه عنها .. وربما لو كانت رجلاً لكانت زعيما .. لأتت نفس الأعمال البطولية التي يقوم بها .. انها في قرارة نفسها تفخر به . مهما حاولت ان تخفي هذا الفخر ، ومهما حاولت ان تحذر من اندفاعه ، فقد كان يرى في عينيها دائما نظرة الزهو به ، والاعتزاز ببطولته .. ويوم قبض عليه ودخل السجن ، رأى فوق وجنتيها آثار دموع ، ولكنه رأى خلف آثار الدموع ظل ابتسامة .. ابتسامتها القوية المتكبرة التي تضن بها دائما ، ولا تكشف عنها الا بما يكفي لبضىء وجهها بالنور .. نور السماحة الطيبة .. وأبوه .. وابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يرى في خياله صورة أبيه . انه رجل يؤمن بالنظام .. النظام الذي يطبقه في وظيفته الحكومية ، وهو نفس النظام الذي يطبقه في البيت .. ولم يكن يغضب لتصرفات ابنه الا لأنها خروج على النظام .. ولم يكن يعتقد ان هناك سبباً للقبض على ابنه الا لأنه خرج على النظام .. ورغم ذلك فقد كان يزهو دائما بابنه .. لم يكن مقتنعاً بتصرفاته ، ولكنه كان يزهو بها .. شيء أقوى منه ، وأقوى من منطقه كان يدفعه الى الزهو .. كان ابراهيم يحس بهذا الزهو حتى في اعنف المناقشات التي دارت بينهما . واتسعت ابتسامة ابراهيم .. لقد كان ابوه يريده ان ينال ليسانس الحقوق ..

وكان يتصوره قاضياً .. وكان أحياناً يتصوره وزيراً .. انه ان يكون قاضياً ولا وزيراً .. ولكنه سيكون أكثر من ذلك .. ان القضاة والوزراء يموتون كما يموت عامة الناس .. ثم ينساهم الناس .. وينسون آباءهم .. ولكنه سيموت شهيداً .. ولن ينساه الناس .. سيمنح أباه ذكرى لا تنسى .. وهذا هو كل ما يستطيع ان يعوض به أباه .. ذكرى يزهو بها أمام الناس . وتوالت الصورة في خياله .. صور زملائه في المدرسة الثانوية . وصور زملائه في الجامعة .. كم أحبهم .. وكم أحبوه . انه يستطيع الان ان يرى هذا الحب .. يكاد يلمسه بيده .. ان هذا الحب هو الذي زوده بالقوة التي اقتحم بها كل يوم من ايام حياته .. لقد كان يحس بينهم انه اقوى من البوليس ، ومن الحكومة ، ومن الانجليز اقوى بهم من نفسه .. من الخوف ، ومن الطمع ، ومن الضعف .. ورأى أصدقاءه في مخيلته واحداً واحداً . ورأى حتى لوجوه التي خيل اليه انه نسيها . وكان يذكر مع كل منهم واقعة ، أو نادرة . فيضحك بينه وبين نفسه لواحد منهم ويبتسم للآخر ويعاتب الثالث ، وتعابير وجهه تنفرج وتنكمش كأن وجهه شاشة سينمائية ترتسم عليها عواطفه . واستعرض كل مغامراته الوطنية .. كل المظاهرات التي اشترك فيها .. وكل العمليات التي قام بها .. وأيامه في السجن .. والتحقيق الذي اجري معه .. ومرّ أمامه وجه همام بك ، ووجه اليوزباشي الدباغ ، ووجوه وكلاء النيابة .. ثم أيامه في مستشفى القصر العيني .. واليوم الذي هرب فيه .. وأحس بعواطفه كلها تتجمع وهو يقترب بخياله من بيت محبى .. ورآه بوجهه المستدير .. ونظارته .. وقامته القصيرة . وزاهر افندي .. والست تحية .. وسامية . وعبد الحميد .. وابتعد بخياله عن نوال .. انه يخافها .. انه يستطيع ان يعوض كل الناس باستشهاده في سبيل الثورة ، انه يحس وهو مقدم على خطته الجديدة ، انه يدفع الثمن للناس كلهم .. انه يضحي بحياته من اجل الناس كلهم .. ما عدا نوال .. انه يريد ان يعيش من اجلها .. ان موته ليس تضحية من اجلها ، انها تضحية بها .. وهو لا يريد ان يتشبث بالحياة ، انه محتاج الآن الآن لكل جرأته ، وكل استهتاره ، وكل زهده ، حتى ينفذ الخطة التي قررها .. وكلما حاول ان يبتعد بتفكيره عن نوال ، لحقت نوال بخياله . إلى ان استسلم لها . ورآها بعين خياله .. وهي تفتح له الباب .. رأى عينيها المرحتين النشطتين .. ورأى وجنتيها العاليتين .. ورأى بشرتها السمراء المشربة بالحمرة ، كأنها فتاة من الهنود الحمر .. ورآها وهي تفسح له الطريق كل صباح ليدخل الحمام .. ثم وهي تقدم له أفطاره .. وأحس بعينيه تلتقيان بعينيها ، وأحس بخفقة قلبه التي تعودها كلما واجهته

بابتسامتها .. وأمعن في استسلامه .. دون أن يراوده حلمه الذي يعاوده .. حلم البيت الصغير الذي يضمه هو ونوال .. لقد اختفى هذا الحلم من قلبه .. لم يعد في قلبه احلام ، إنما امتلأ بالحقيقة . حقيقة تعوضه عن أحلامه .. حقيقة أقوى من حلمه . حقيقة الحب .. انه يحب وهذا يكفيه .. وهو سعيد بحبه .. بلا حاجة الى الأمل ، ولا إلى الأحلام ..

هل يمكن ان يصل الحب الى هـذا الحد .. الحد الذي يصبح فيه اقوى من الامل .. لا يدري .. ولكنه – في هذه الساعة – لا يتعذب بحبه ، ولا يحس بحاجته الى المزيد..وانتبه من عواطفه ، على صوت المفتاح يدور في قفل الباب.. ودخل فتحي المليجي ، ومن ورائه عبدالله .. وقال فتحي ، وصوته يكاديزغرد:

– هات يا عم .. عبد العزيز جه من اسكندريه امبارح ، واتصل بيه ،وقال لي انه اتفق مع مركب حاتقوم على مرسيليا بعـــد بكره .. طوالي .. ولازم نكون في اسكندرية بكره الساعة حداشر بالليل . وابتسم ابراهيم دون ان يترك ابتسامته تصل إلى شفتيه .. إنه لن يسافر .. لن يترك مصر .. هذا قرار نهائي .. ولكنه لم يبالغ فتحي قراره وقال في صوت حـــاول ان يضمنه بعض الحماسة : عال .. كويس .. نقوم من هنا بكره الساعة سابعه. جبت الحاجات؟ وقال فتحي : حاجات ايه بأه .. ما بلاش شغل اليومين دول ، لغاية ما تسافر بالسلامة ! واحتد ابراهيم على غير عادته وقال : انت وعدت انك تجيب قنابل ودبغاميت .. وانا كنت معتمد على وعدك . ولسه قدامنا وقت كبير نقـــدر نشتغل فيه ! وقـال فتحي ، وهو دهش لاحتداد ابراهيم : انا جيبتهم .. تلات قنابل يدوية . وشوية صوابع جلجنايت .. إنما انا شايف ان ..

وقاطعه ابراهيم في عجلة : حاططهم فـين ؟.. وقال فتحي في استسلام : في العربية !!. وقال ابراهيم : يا خـبر ، حاططهم ازاى في العربية .. دول يمكن ينفجروا وانت ماشي .. هاتهم هنا حالاً .. وقال فتحي وهو ينظر الى ابراهيم مدققاً كأنه لا يصدق ان هذا هو ابراهيم .. الانسان الهادىء الذي لا يأمر ، إنما يسوق خططه في لباقة : يعني انزل اجيبهم وآجي .. أفضل طالع نازل قـدام الناس .. وقال ابراهيم في حزم : ايوه ..

وعاد فتحي يقول في تردد : طيب مش نتفق الاول حانعمل بيهم ايه؟وقال ابراهيم في حدة : لما أشوفهم الاول بين ايديه أبقي اقول لك ..

وسكت فتحي ، وتنبه ابراهيم الى انه فقد اعصابه ، فعاد يقول في صوت معتذر : أرجوك يا فتحي تستحملني النهار ده كان .. انا عارف اني باتعبك ..

انما كلهم كام ساعة ، وأسيب مصر كلها ، باذن الله .. ورق قلب فتحي وقال وهو ينظر الى ابراهيم في تقدير وايمان : مش قصدي يا ابراهيم .. بس انا كنت عايز اليومين دول يفوتوا على خير .. وبكره زي ما انت عارف الوقفه . وحقنا نبطل شغل زي بقية الناس !

وابتسم فتحي كأنه يرشو ابراهيم بابتساسته .. وقال ابراهيم وهو يردابتسامة صديقه : كل سنة وانت طيب . ثم سكت ليقنعه بأنه لا يزال مصمماً على رأية .. وقال عبدالله : أوصل أنا أجيب الحاجات من العربيه .. أهو اسمي داخل وخارج من بيتنا .. ونظر فتحي الى ابراهيم يسأله رأيه . وقال ابراهيم : فكره صح !.. وقال فتحي ، وهو يخرج مفاتيح سيارته من جيبه ، ويناولها لعبدالله : العربيه مركونه في ميدان الأزهر .. تلاقي في الدواسه اللي ورا جرابندية فيها الحاجات .. وما تنساش تقفل العربيه ، أحسن فيها مسدس ! وقال عبدالله وهو يتناول المفاتيح : حاضر .. ثم خرج على أطراف أصابعه .. وبقي ابراهيم وفتحي لا يتحدثان فترة ، كان كل منهما يخشى ان تكلم ان يعود الى الاحتداد ، الى أن قال ابراهيم بلاه مقدمات : أنا حادخل معسكر العباسية الليلة !

وفوجيء فتحي .. واتسعت عيناه . وقال وهو يلتقط أنفاسه من الهواء : يا خبر .. ندخل معسكر انجليزي ازاي .. ده بعد خطوتين نكون رحنا في داهيه ! وقال ابراهيم دون أن يرفع عينيه : ده أسهل حاجه .. ولا حد حايحس. وقال فتحي وهو يبتلع ريقه بصعوبة : وحا ندخل نعمل ايه ؟

قال ابراهيم في هدوء : أنا حادخل لوحدي !!..

وارتفع صوت فتحي كأنه لم يعد يطيق ، وقال : تدخل معسكر بحاله لوحدك ؟ ده انتحار !

وقال ابراهيم : بالعكس .. لما يكون واحد بس يبقى اسهل .. اتنين يلخموا بعض ، وينكشفوا ! . وسكت فتحي برهة ، ثم عاد يقول . ما بلاش يا ابراهيم .. كفاية تضرب واحد ، ولا اتنين . زي كل مره ، اللي حاتعمله في المعسكر نقدر نعمله بره المعسكر ..

وقال ابراهيم في صوت عميق كأنه يلقي وصيته : كل اللي بتعمله مش حايطلع الانجليز من البلد .. مافيش حاجة حاتطلع الانجير الا ان البلد كلها تثور .. تتحرك .. وعلشان تتحرك لازم تعمل حاجة تصحيها .. لازم نعمل حاجة تفرقع .. لازم تكون المقدمة للثورة . وده اللي حاعمله . يوم ماحادخل المعسكر ، البلد كلها حاتدخل كل معسكرات الانجليز ورايا .. وبكره تشوف !..

وسكت فتحي برهة ، ثم عاد يقول : انت متأكد ؟ .

وقال ابراهيم في حزم : متأكد ..

وقال فتحي : طيب ما تسيب غيرك يعمل الحكاية دي .. عملت اللي عليك واكتر .. ومن يوم ما ضربت عبد الرحيم شكري ، وهي البلد هايجه !..

وقال ابراهيم : مش كفايـة .. لازم أعمل حاجه كمان ولازم كل يوم يحصل حاجه !.. ثم سكت قليلاً ، واستطرد : انا عارف معسكر العباسية كويس .. زمان قبل ما يتقبض على قدرت اجيب خارطة المعسكر كله ، ودرستها حتة حتة . واسه فاكرها لغاية دلوقت ؟..

وهز فتحي رأسه ، وسكت .. كأنه يعلم انه لا يستطيع ان يثني ابراهيم عن قرار اتخذه .. وارتفع صوت المفتاح يدور في القفل .. ودخل عبد الله وفي يده حقيبة من القماش السميك الاصفر ، كالتي يعلقها الجنود فوق ظهورهم . ووجهه ممتقع ، ويداه ترتعشان كأنه يحمل الموت بينهما .. ووضع الحقيبة بحرص على مائدة صغيرة ، وما كاد يتركها من يده ، حتى تنهد في ارتياح .. وقال وهـــو يمسح بذراعه قطرات العرق المعلقة فوق جبينه : مش هي دي ؟..

وقال فتحي دون ان يتحرك من جلسته : أيوه .. وهب ابراهيم واقفاً ، وقفز نحو المائدة في خطوة واحدة ، واخذ يفتح الحقيبة ، بأصابع متلهفة ، وقد زم شفتيه وارتسمت في عينيه امارات الاهتمام العميق ، كأنه عالم أمام أنبوبة اختبار وأخرج من الحقيبة أصابع الجلجنايت .. قطع طرية ذات لون أسمر ، كأنها قطع من الملبن وقال عبدالله وعيناه متسعتان في سذاجة : هـو ده اللي بيقولوا عليه جلجنايت .. ده مش باين عليه حاجة .. زي ما يكون ملبن ...

وقال فتحي ضاحكاً في مرارة : تحب تدوق !.. وبدأ ابراهيم يخرج القنابل اليدوية ويضعها فوق المائدة.. وعاد عبد الله يقول في سذاجة : ودي بيستعملوها ازاي ؟..والتفت اليه ابراهيم وفي يده احد القنابل ، وقال كأنه يلقى عليه درساً : زي مابتشوف في السينما تمام.. تشد الدراع ده ، وتنزع المفتاح ده بأسنانك. وترمي ! وقال عبد الله : حفيظ يا رب ؟.. واتجه ابراهيم إلى الفراش الذي يحتل جانباً من الحجرة .. ونزع الملاءة التي تغطيه ، ثم مزق منها جزءاً ، وأخذ يمزق هذا الجزء الى عدة شرائط طويلة . وقال عبدالله ، كأنه يحاول ان يوقف ابراهيم : يا أخينا مش كده .. دي مش حاجتنا ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة : ما هو لازم أصحاب الشقة يشتغلوا معانا !.. واستمر يصنع الشرائط الطويلة .. ثم بدأ يأخذ كل خمس اصابع من

أصابع الجلجنايت ، ويربطها الى بعضها بشريط .. ويثبت بينها فتيلاً قصيراً ، قابلاً للاشتعال .. وقال فتحي : ما تطول الفتيل شويه .. أحسن ينفجر في ايدك قبل ما ترميه ! .

وقال ابراهيم في حزم : ما فيش وقت لازم الانفجار يحصل بسرعة !..

واستمر في عمله.. وبدأ يلقي بتعليماته وأصابعه مشغولة بين قطع الجلجنايت. دون ان ينظر إلى فتحي أو إلى عبدالله .. انه سيدخل المعسكر من ناحية دار السينما المخصصة للجنود الانجليز والتي تقع على ناصية شارعي مدرسة البوليس والسرايات ويتولى عبد الله مهمة تعمية جندي البوليس ، ان وجد .. وفتحي يساعده على القفز من على سور دار السينما .. وبعد ذلك يعود فتحي بالسيارة الى بيته ويظل منتظراً هناك .. وقال فتحي محتجاً : مش استناك لغاية ما تخرج ..

وقال ابراهيم ، والجلجنايت بين يديه : لأ .. انا حاخرج من ناحية الجبل.. والعربية لازم ترجع ، لأنها لو اتمسكت ، ولا أتعرفت نمرتها..حانتقفش كلنا ..

وسكت فتحي ،وهو ينظر الى ابراهيم في تعجب .ثم اخذ الثلاثة يتداولون الخطة ويعدون اسلحتهم .. حتى كان منتصف الليل .. وخرج الثلاثة من البيت. عبد الله يحمل بين يديه الحقيبة القماش التي تضم الموت .. وفتحي يحمل حقيبة مدرسية أشبه بحقائب المحامين.. وابراهيم يرتدي قميصاً أزرق وبنطلوناً أخذهما من عبدالله .. ويحمل في يده كتابين من كتب القانون التي تدرس في كلية الحقوق وليس به من آثار التنكر الا شاربه وذقنه غير الحليق .. وساروا في حي الباطنيه كأنهم طلبة عائدون من استذكار دروسهم .. والمقاهي على الجانبين مزدحمة بروادها ، وقد زينت بالمصابيح الكهربائية احتفالاً بوداع رمضان ..والشوارع مزدحمة بعربات الفاكهة.. والحلوى.. والكبد والكلاوي . والاطفال يصرخون في مرح .. ومجذوب يصيح: يارب.. وعسكري ينظر بعينين سارحتين الى رجل يشد انفاسه في الجوزة .. وخادم المقهي يصيح : تلاتة أخضر . واتنين عجمي !

والثلاثة يحاولون تبادل حديث أثناء سيرهم ، فيأتي حديثاً مبتوراً لا تتصل كلماته.. ويحاولون الضحك ليظهروا في هيئة ظبيعية فتقع ضحكاتهم تحت أقدامهم كقطع الطوب..وخرجوا الى ميدان الأزهر.. ووصلوا الى السيارة..وتلفت فتحي حوله بحركة تلقائية ،وهو يفتح السيارة.. ثم جلس في مقعد القيادة، وجلس عبدالله بجانبه ، وجلس ابراهيم في المقعد الخلفي..وقال ابراهيم وقد قاربت السيارة ميدان العتبة الخضراء : اطلع بينا على الدقى .. وتقلص وجه فتحى كأنه يكاد يبكي تأثراً ، واتجه بالسيارة الى حي الدقي دون أن يسأل شيئاً.. وكأنه يعلم كل شيء

وعندما وصل الى الدقي اتجه الى ميدان «فني».. وأوقف السيارة بجانب مستشفى عانوس ، دون أن يوقف الموتور .. وظل ساكتاً لا يتكلم .. وعبد الله لا يدري شيئاً .. وأطل ابراهيم من نافذة السيارة ، وفي عينيه نظرة حانية مبتسمة ، كأنه يرى في الليل الذي أمامه . نوال .. وقال في صوت هامس وهو لا يزال ينظر في الليل : هيه كانت لابسة فستان لونه ايه ؟

وقال فتحي دون أن يلتفت اليه : أبيض ..

وتنهد ابراهيم ثم قست تعابير وجهه .. وسحب عينيه من الليل واعتدل داخل السيارة ، وقال في صوت أجش : ياللا بينا يا فتحي ..

وانطلقت السيارة وابراهيم صامت .. وعضلات وجهه متقلصة .. كأنه في معركة مع نفسه .. انه يقاوم ضعفاً يحس به .. ضعفاً يسري في عواطفه ، ويغلف أعصابه ، فيجعله يميل الى الاسترخاء ويدفعه الى الاستسلام .. انه يريد أن يغمض عينيه ويحلم .. ويريد أن يبكي في حلمه .. ويبتسم ويضع يده في يد نوال .. ثم يضمها الى صدره .. ويضغطها اليه بقوة حتى يحس بها بين خفقات قلبه .. ولكنه يقاوم هذا الضعف ويقاوم بقسوة .. لقد جاء اليها في مكان لقائها لأنه وعدها .. انه ليس ضعيفاً .. ولكنه فقط أراد أن يبر بوعده .. أن يأتي للقائها .. وقد جاء متأخراً . ولكنه جاء ..

وانتبه الى السيارة ، وهي تمر أمام المعرض الزراعي ، وقال : الساعة كام ؟

وقال عبد الله بعد أن نظر في الساعة : واحده وربع ..

وقال ابراهيم : لسه بدري .. ثم استطرد بلا وعي وكأن شخصاً آخر يتحدث في نفسه : اطلع بينا على المنيرة .. نفسي أشوف بيتنا !..

وقال فتحي في جزع : يمكن يكون البيت مراقب ..

وقال ابراهيم : احنا حانمر من قدامه بس.. يمكن تكون أودة أمي منورة !

وسكت فتحي ، وهو يحس بقلبه يتشقق تأثراً . وقاد السيارة الى حي المنيرة .. ومر من أمام بيت ابراهيم بسرعة .. وأطل ابراهيم من نافذة السيارة كأنه يريد أن يلمس الجدار بيده.. ان البيت غارق في الظلام .. وحجرة والدته ليست مضاءة .. وهو لا يزال يحس بالضعف .. الضعف الذي يسري في عواطفه ويغلف أعصابه .. وعاد يقاوم ضعفه من جديد .. وقال كأنه يستعين بأي شيء على عواطفه : سوق على مهلك ، مش عاوزين نوصل قبل الساعة اتنين ..

وخفف فتحي من سرعة السيارة .. وعاد ابراهيم يقول : فين المسدس ؟.

ومد فتحي يده ، وفتح درج السيارة المثبت في « التابلوه » وأخرج مسدساً

كبيراً « برابللوم » . وانكمش عبدالله في مقعده ، وقـــال : يا جدع .. ابعد البتاع ده عن وشي !! وضحك ابراهيم ، وقال وهو يمد ذراعه ويتناول المسدس من يد فتحي : ده مسدس مايضربش الا في وش الانجليز . ثم انه أراد ان يستمر في الضحك ليتغلب على ضعفه ويستعيد طبيعته ، فاستطرد ، وهو يوجه المسدس الى رأس عبدالله : استنى أما أشوف اذا كنت انجليزي ولا لأ !!

وغطس عبدالله في مقعده ، وصرخ وقد امتقع وجهه : « حياة أبوك بلاش الهزار التقيل ده .. وقال ابراهيم وهو لا يزال يضحك :

— من بكره حاديك دروس في ضرب النار ..

وقال عبدالله : لأ أنا ما ليش في المسدسات ، طبيعتي كده !

وقال فتحي : ده انت لو رحت الهند تبقى زعيم زي غاندي .. أهو زيك كده مايحبش المسدسات .. أصلك هندي !! واستمر الثلاثة في هذا الحديث .. وهم يلحون فيه .. ويشدون الضحكات من أفواههم شدا .. حتى يتغلبوا بهـــا على وجيب قلوبهم الواجفة ، ويستشعروا الاستهتار والجرأة ..

وكان ابراهيم يضحك ويتحدث ، وهو يعبث بالمسدس ، ويشد خزان الرصاص منه ، ويتأكد من كل قطعة فيـــه بأصابع خبيرة متمرسة ، تحتضن المسدس في رفة وحنو كأنها أصابع عاشق تحتضن حبيب العمر ..

ثم فتح زرارين من قميصه ، وأسقط المسدس في عبه ، وتوقفت عضلات وجهه .. وسرحت عيناه في الظلام .. وبدأ يستعيد خطته .. ويستعيد في مخيلته رسم المعسكر .. ويقدر جميع الاحتمالات التي يمكن أن يصادفها .. وهو يحس الآن بأنه في حالته الطبيعية .. الحالة التي يكون فيها عادة وهو مقبل على تنفيذ خطة من خططه .. وقلبه مليء بشعور التحدي .. والجرأة .. والاستهتار .. وشعور أشبه بشعور « الشقاوة » .. شقاوة الشبان . وذهنه واع ، تجمع فيه ذكاؤه كله .. ولكن هناك شيئاً آخر يحس به .. شيئاً لم يتعوده .. انه متشائم . وهذا التشاؤم يضايقه .. ويثير في قلبه نوعاً آخر من الخوف غير الخوف الطبيعي الذي كان يراوده دائماً وهو يطلق الرصاص .. وأخذ يمني نفسه بالتغلب على هذا التشاؤم ، وعلى هـــذا الخوف الغريب .. سيتغلب عليه حتما ، عندما يبدأ في العمـل . عندما يندمج في المعركة .. وسارت السيارة في شارع العباسية .. حتى وصلت الى ناصية « شارع مدرسة البوليس » .. وسأل ابراهيم ، وقـــد بدأت لهجته تحمل رنة حازمة خطيرة : الساعة كام ؟..

وقال عبد الله وفي صوته رعشة : اتنين وعشرة !..

وقال ابراهيم :استنى هنا يا فتحي..انزل انت يا عبدالله ، وامشي في الشارع ده واذا لقيت عسكري واقف كلمه .. قول له أي حاجة .. اسأله عن بيت.. عن شارع . عن أي حاجة . ماتخلهش ياخد باله من العربية وهي داخله ..

ونظر عبدالله اليه في مسكنة كأنه يرجوه أن يعفيه من هذه المهمة .. ثم فتح الباب ، وقبل ان ينزل من السيارة .. استطرد ابراهيم قائلاً : بعـــد ما تشوف العربية مشيت..خد بعضك وأمشي لغاية ميدان فاروق ..فتحي حيستناك هناك.

وقال عبدالله في ضعف: حاضر.. ونزل من السيارة . وقال ابراهيم لفتحي:

– لف لف صغيرة .. وأرجع ادخل من الشارع ده !..

واتجة فتحي في شارع العباسية حتى آخر محطة الترام ، ثم عـاد ودخل في شارع مدرسة البوليس .. وقاد السيارة في سرعة عادية حتى لا يلفت الانظار.. ومرا في طريقهما على عبدالله وهو واقف يحادث عسكري الداورية ..ووقفت السيارة في آخر الشارع ، بجوار جدار « سينما الانجليز » ونزل ابراهيم وقد علق الحقيبة القماش في عنقه .. ونزل فتحي بعد ان ترك موتور السيارة دائراً ..

واقترب الاثنان من جدار السينما . وشبك فتحي اصابع يديه في بعضهما ، وجعل من كفيه سلماً، وضع ابراهيم احدى قدميه فوقها ، وتعلق باحدى يديه ، في أعلى الجدار .. ويده الاخرى تضم الحقيبة الى صدره حتى لاترتطم بالجدار .. ثم وضع ابراهيم قدمه الاخرى فوق كتف فتحي .. وفي قفزة واحدة كان فوق السور .. تم كل ذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة . وتدلى ابراهيم فوق الناحية الاخرى من الجدار .. وقفز قفزة خفيفة .. وأصبح داخل معسكر الأنجليز .. وسمع صوت سيارة فتحي تبتعد . واحس انه اصبح وحيداً . وحـدة هائلة مخيفة . واشتد وجيب قلبه .. حتى خشي أن يكون لقلبه صوت يسمع خارج جسده . وتلفت حوله بعينين جاحظتين منتبهتين .. انه يعلم ان دار السينما تترك بلا حراسة ، وان مدخلها من ناحية المعسكر ليس له باب .. وسار في خطوات متسعة خفيفة ،بين مقاعد السينما .ثم خرج الى المعسكر.. ان كل شيء هادىء. اقرب إلى الظلام .. ليس هناك الا هذه الاضواء الباهتة الصفراء التي تنير الشارع الرئيسي داخل المعسكر..وصوت أقدام الحراس الذين يقفون على باب المعسكر المطل على شارع السرايات .. وهو يلمح هناك ضوء سيجارة مشتعلة .. وسار يزحف في الظلام ، انه محتاج دائماً الى الظلام .. ظلام .. يا رب ، مزيـداً من الظلام .. سار في محاذاة الشارع الرئيسي.. متستراً في جدران البيوت والثكنات الصغيرة التي يتكون منها المعسكر .. ان في نهاية هذا الشارع ، موقفاً كبيراً

لدبابات وسيارة اللوري ، يريد ان يصل اليه .. وسمع وقع اقدام ثقيلة في اسفلت الشارع .. فتوقف .. وضم الحقيبه المعلقه في رقبته إلى صدره .. ان الاقدام الأقدام تقترب وسقط على الارض ونام على وجهه . ومرت به برهة خيل اليه انها جيل .. ومرت الأقدام من أمامه دون ان تنتبه اليه .. وقام من رقدته واستمر يسير .. سار طويلا .. وقلبه واجف ، وذكاؤه كله ينبض في رأسه ، وعيناه جاحظتان منتبهتان .. ورأى حرساً يقفون أمام بيت من بيوت المعسكر .. لا بد انه بيت القائد . هل يلقي ذخيرته فوق هذ البيت وينتهي ؟. انه يريد ان ينتهي بسرعة .. يريد ان يخرج من الظلام .. الظلام .. يا رب ، مزيداً من الظلام .. لا . يجب ان يتم خطته كما وضعها .. ودار حول البيت الذي يقف حوله الحرس .. وهو يسير في خطوات متسعة ، خفيفة ، وقد احنى ظهره ، وضم الحقيبة التي تحمل الموت الى صدره . ثم عاد يحاذي الشارع الرئيسي .. وعاد يسير محترساً يقظا . لم يكن يفكر في شيء خارج خطته . كل شيء اختفى من خياله . نوال .. أمه أبوه اصدقاؤه . نفسه .. لم يعد له خيال .. انه يعيش في قلب الحقيقة ، بكل اعصابه .. وقلبه واجف . يدق دقات مثيرة يقشعر لها بدنه . ان الحقيقة التي يعيش فيها هائلة .. وتوقف عن السير .. والتمعت عيناه ببريق خطير .. انه يرى أمامه مخزن الدبابات والسيارات اللوري . أرض مكشوفة تحيطها اسلاك شائكة ، وحرس في كل مكان ، وحرس يقف شاهراً السلاح في أماكن متفرقة .. واضواء قليلة هنا وهناك .. ورقد على بطنه .. ووضع حقيبة الموت تحت إبطه .. وشد نفساً عميقاً من صدره استجمع به كل ارادته .. ثم بدأ يزحف . ويزحف .. إلى ان وصل الى الأسلاك الشائكة .. ورفع الحقيبه من حول عنقه ووضعها عبر الأسلاك .. ثم ازداد التصاقاً بالأرض .. وزحف تحت الأسلاك .. وتعلقت شوكة حديدية بقميصه ومزقته .. وأحس بصوت التمزيق كأنه صراخ حاد .. فتوقف .. ولكنه لم يسمع حركة .. كل شيء هادىء .. وعاود الزحف .. الى ان عبر الأسلاك ..

والتقط حقيبة الموت وعلقها في كتفه واخذ يتحرك على يديه وقدميه بسرعة .. متستراً في ظلال الدبابات وعربات اللوري .. انه يريد ان يبدأ من منتصف المعسكر .. ورفع عينيه .. وركزهما فوق دبابة صغيرة ، وقال لنفسه . هذه !.. ثم أسرع اليها . وفتح حقيبة الموت ، وأخرج حزمة من حزم الجلجنايت ، ووضعها تحت الدبابة .. ثم اخرج من جيبه ولاعة .. ومد يده تحت الدبابة وأشعل الفتيل .. ثم قام على قدميه .. واخذ يجري بكل سرعته ، مستتراً دائماً بظلال

الدبابات والسيارات الواقفة .. ولم يكد يجري خطوات ، حتى انطلق من ورائه صوت مفزع يمزق الهواء . صوت رهيب . ضخم . مخيف ..

وأحس بنفسه كأنه يكاد يطير في الهواء .. وبذل مجهوداً ليثبت قدميه على الارض ، وفجاة اضيئت الأنوار ، انوار قوية كاشفة .. وارتمى على الأرض .. وزحف تحت سيارة من سيارات اللوري .. واخرج حزمة أخرى من حزم الجلجلنايت .. وأشعل الفتيل .. ثم زحف سريعاً بعيداً عن السيارة .. وانطلق صوت آخر .. مزعج .. مدو .. مخيف .. يمزق الهـواء .. وأحس ان جسده كله يتمزق ، وأحاطت به الاضواء .. اضواء ساطعة تنبعث من مصابيح كاشفة تدار في انحاء المعسكر ، كأنها الكلاب المسعورة .. واضواء نيران تنبعث من خلفه .. اطفئوا هذه الأضواء .. اطفئوا النور يا كلاب .. دعوني اتم خطتي .. يا رب اطفىء هذه الأنوار .. وسمع صوت طلقات رصاص .. من كل ناحية !..

وجرى .. لا يدري إلى اين .. لم يعد يستطيع أن يحدد هدفه .. . واشعل حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وألقاها بعيداً .. بكل قوه ذراعه .. لا يدري أين وقعت .. وانطلق الصوت المفزع مرة ثانية .. مدويـاً .. مخيفاً .. وكشف عن أسنانه ، وهو يحز عليها .. كأنه يبتسم .. وجرى .. والاضواء تتعقبه .. والرصاص ينطلق من كل اتجاه .. واصوات اناس يصرخون .. وهرج كبير .. وهو يجري وينبطح احياناً على وجهه .. ويزحف على بطنه .. ويقفز على يديه وقدميه .. لا تزال معه حزمه أخرى من الجلجنايت ..

وأشعل الفتيل .. والقي الحزمة خلال نافذة بيت صغير من الصاج ، وجده أمامه .. قد يكون مخزناً . أو ثكنه .. لا يدري .. ألقاها والسلام ..

وجرى .. وانطلق الصوت المفزع الرهيب . والأضواء .. والرصاص .. والهرج .. ونام على بطنه ، وأخرج من حقيبته ثلاث قنابل يدوية .. وضع قنبلة منها في جيب بنطلونه .. وثانية في الجيب الآخر .. والثالثة احتفظ بها في يده والقى بالحقيبة الفارغة بعيداً ، ثم اخذ يزحف على بطنه .. ثم قام يجري ليختبىء خلف دبابة .. وأتفاسه تلهث .. وسيل من العرق يغطي وجهه وقد استحال الى انسان من التراب ، من طول ما زحف على الأرض ..

انه يريد ان يخرج من هنا .. لن يدعهم يقتلونـه .. سيقتلهم جميعاً .. أين سور الاسلاك الشائكة ؟.. وعاد يجري ، نحـــو السور الشائك .. والرصاص يلاحقه . والتصق بالارض وزحف على بطنه تحت الاسلاك .. واشتبكت الأشواك الحديدية بلحمه . وأحس بآلام حادة . سكاكين تشق ظهره .. ولكن لا يهم .

يجب ان يخرج من هنا . وشد لحم ظهره من بين اسنان الاشواك الحديديه .. وتأوه . تأوه كأنه يلفظ روحه .. واستمر يزحف .. حتى اجتاز السلك الشائك .. وقام يجري .. لم يكد يجري خطوات حتى أحس بجسم صلب يرتطم في كتفه ، وينغرز في لحمه . وأحس بسائل حار يسيل منه .. لعلها رصاصة .. لا يهم .. وظل يجري .. باحثاً عن الظلام .. ولكن الظلام يتبدد . والاضواء تغمر كل مكان كأنها سيل ينهمر من السماء . ورفع يده التي تحمل القنبلة اليدوية ولكنه ما لبث ان خفضها ، وهو يتأوه . انه لا يستطيع ان يرفع ذراعه كأنه شل .. ونقل القنبلة إلى يده اليسرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، وقذف بها بكل ما فيه من قوة ، ولا يدري اين وقعت . ثم غير اتجاهه بسرعة .. وأخذ يجري في اتجاه آخر .. ليضلل متعقبيه الذين يجرون خلفه .. انهم سيتجهون إلى حيث وقعت القنبلة ، وهو يجري في اتجاه آخر.. واخذ يجري مستتراً في كل مايجده في طريقه .. وينبطح على الارض ريثما تلتقط انفاسه . وهو يحس بقواه تنزف منه .. يحس بصدره يطبق فوق رئتيه ، كأنهما سيكفان عن الحركة ..والاضواء تتعقبه .. والنيران .. وطلقات الرصاص .. سيارات تتحرك بسرعة ..وصوت صفارات تنطلق وتكاد تمزق اذنيه .. ونباح كلاب .. انه يكره الكلاب .. يا رب . لماذا خلقت الكلاب .. الا يكفي الانجليز . وآلام .. آلام حادة في كتفه .. وفي ظهره .. وفي ركبتيه ..

ورفع يده بالقنبلة الاخرى ، وشد مفتاحها بأسنانه .. واستدار وألقاها .. بكل ما فيه من قوة . ثم غير اتجاهه مرة اخرى .. انه لم يعد يدري اين هو من المعسكر .. لقد كانت خطته تقضي بأن يخرج عن طريق الجبل ، ويصل إلى القاهرة من ناحية حي الدراسة .. ولكن اين الطريق المؤدي الى الجبل ؟.. انه لم يعد يدري . لم يعد يعرف أين الشمال ، واين اليمين ، واين الشرق .. واين الغرب .. تاه داخل المعسكر .. ولم تعد معه الا قنبلة واحدة ، والكلاب تنبح من ورائه .. انه يكره الكلاب . ويخافها .. نعم انه يخاف .. يخاف الموت. لا يريد ان يموت .. لن يموت .

ورفع القنبلة والقاها بيده اليسرى !.. لعل رائحة الدخان المنبعث من القنبلة تضل أنوف الكلاب وغير اتجاهه . واخرج المسدس الكبير من عبه ، وأمسك به في يده .. ولكنه لم يعد يستطيع ..ان يجري .. يريد ان يقف .. ولكنه لا يستطيع .. انه يجري بقوة الاندفاع .. ورأسه مدلى على صدره .. وجسده يترنح. وقطرات من دمة تتعقبه !. ورفع عينيه المكدودتين ، ونظر بهما أمامه

كأنه ينظر من خلال غيوم كثيفه .. هذا هو سور المعسكر .. انه يعرف هذه الناحية من السور .. انها الناحية التي تطل على ميدان العباسية .. والسور يلف الى ان يطل على حارة صغيرة متفرعة من شارع العباسية . انه يعرف كل هذا جيداً ولو استطاع ان يجتاز السور من ناحية الحارة . لسلم .. نجا من الموت ..

ولف من وراء اكشاك «النافي» التي تقع في أسفل سور المعسكر ورأى شبحاً يسير أمامه . فأطلق رصاصتين من مسدسه .. ولا يدري ماذا جرى للشبح .. ووصل الى السور المطل على الحارة .. انه عال .. ومصنوع من الصاج .. ولن يستطيع ان يجتازه .. وفكر .. ان كل شيء فيه هامد الا عقله ، وبحث حوله بعينيه الغائمتين .. ثم التقط من على الارض لوحاً قصيراً من الخشب ، رفعه بصعوبة وأسنده على السور .. وأعاد وضع مسدسه في عبـــه .. ثم وضع قدمه على لوح الخشب ، ورفع جسده ، وتعلق بيديه في أعلى السور . آه انه يتألم .. شيء آخر يتمزق في جسده .. ان حافة السور ذات اسنان وقد انغرزت الاسنان الصلبة في كلتا يديه .. ولكن لا يهم .. هذا آخر ما يتحمله . وبعـــد ذلك سيهدأ .. سيستريح .. وشد جسده الى اعلى . وهو يتأوه .. انه لا يتأوه فحسب .. انه يبكي .. ان يديه تتمزقان .. ووصل الى حافة السور .. ثم القى بنفسه الى الناحية الاخرى .. اصبح خارج المعسكر .. وقام متعثراً .. يجب ان يبتعد من هنا سريعاً .. وبدأ يجري في خطوات ثقيلة ، مترنحة كأنه مخمور .. وسمع صوت صفارة حادة تنطلق من خلفه .. ما هذا ؟!.. انه البوليس المصري ..

يا مغفلين .. ابتعدوا عني .. لقد فعلت كل هذا من اجلكم .. من اجل مصر لقد اثرت الرعب في قلوب اعدائكم .. سيرحلون عنكم .. صدقوني ، سيرحلون عنكم ، ستثورون كلكم مثلي لتطردوهم .. ولكنهم لا يبتعدون .. والاقدام الثقيلة تقترب منه .. واخرج مسدسه من عبه .. سيقتلهم .. لا انه لا يستطيع .. لا يستطيع ان يقتل مصرياً لا ذنب له . انهم يؤدون ما يخيل اليهم انه واجب وطول حياتة لم يستطع ان يقتل واحداً منهم ، وقد قبضوا عليه مرة لأنه رفض ان يقتل الجندي الذي يتعقبه .. ولكنه لم يعد يستطيع ان يجري .. يريد ان يستريح .. يريد ان ينام .

لعله لو قتل هذا الذي يتعقبه .. لاستطاع ان ينام .. والتفت خلفه ، وهو لا يزال يجري متعثراً .. ومسدسه في يده .. ورأى من خلال عينيـــه الغائمتين ضابط بوليس .. يا اخي .. دعني .. انني ثائر لاجلك .. ولو بحثت في قلبك ، لوجدت ثورتي .. انها ثورتك .. ولكن هذا الضابط لن يفهم .. وهو يريد أن

يستريح . . يريد ان ينام . ووجه اليه مسدسه . . ليقتله . . ولكن اصبعه تجمد فوق الزناد . . لم يستطع ان يضغط عليه . . شيء في نفسه يرفض أن يقتل مصرياً لا ذنب له . . شيء اقوى منه . واقوى من سلامته ومن حياته . . ولمح الضابط فوهة المسدس الموجهة اليه . . فاسرع واطلق مسدسه . . وسقط ابراهيم على الارض . . وانكفأ على وجهه . وتحسس الارض بيديه . . وابتسم . . انه الآن يستطيع ان يستريح . . وأغمض عينيه . . كأنه نام . .

٢٢

الساعة السادسة صباحاً . . واليوم يوم وقفة العيد ! واستيقظت العائلة وكل فرد فيها مقبوض الصدر . . لقد مضت أيام طويلة وصدورهم مقبوضة ، وانقبضت معها الشفاه ، فلم تعد تبتسم . . وانقبضت العقول ، فخبا ذكاؤها . . وانقبضت النظرات بين جفونهم ، فلم يعد فيهـا نشاط ولا مرح . . ونزلت نوال من فوق فراشها ، وخرجت من غرفتها تبحث عن جريدة الاهرام تحت عقب الباب . . لقد أصبحت الجريدة تأتي الى البيت كل صباح . . لم يعد أحد يستطيع أن ينتظر عودة الأب من عمله ليطلع على الأخبار ، ولم يعد الأب نفسه يستطيع ان يخرج من البيت قبل ان يقرأ الجريدة ويطمئن ! والتقت نوال في طريقها بأمها ، وهي تسير متثاقلة نحو الحمام ، كأن خطواتها تأوهات من ألم . . وقالت في صوت حزين وهي تحاول ان تبتسم : صباح الخير يا ماما . . كل سنة وانتي طيبة !

ثم أمسكت يد أمها ، وانحنت تقبلها ثم رفعت وجهها تحاول ان تقبل وجنتيها فأشاحت عنها امها برأسها ، وهي تقول : هوه فيه طيب يا بنتي طول ما أخوكي في السجن ! وقالت نوال بصوتها الحزين :

– بكره يرجع بالسلامة يا ماما . . وكل حاجة تروح لحالها . .

وقالت الأم وهي تنقل قدميها نحو الحمام كأنها تسير فوق مسامير :

– والله يا بنتي متهيألي اني حاموت قبل ما اشوفه تاني . .

وقالت نوال : ماتقوليش كده يا ماما . ربنا معانا . .

ولم ترد الأم ، انما تنهدت كأنها تصعد بقلبهـا الى الله . . وخرجت نوال الى « الصالة » ، وانحنت تلتقط الجريده من تحت عقب الباب ، وفجأة ارتدت عنها قبل ان تلمسها ، وقد اتسعت عيناها وارتسم فيهـا الذعر . . واستندت الى

الحائط ، وهي لا تزال تنظر الى الجريدة كأنها تنظر الى افعى تسعى تحت قدميها ثم انطلقت منها صرخة ، صرخة حادة هالعة ، وحاولت ان تكتم صرختها ، ووضعت يدها فوق شفتيها ، وهي لا تزال تنظر الى الجريدة الملقاة على الأرض بعينين ازدادتا اتساعا .. ثم لم تستطع ، انطلقت منها صرخة ثانية أحد من الأولى ثم صرخة ثالثة ، ثم توالى الصراخ ، واخذت تشد ضفائرها بكلتا يديها .. وتدق الأرض بقدميها ، كأنها جنت .. وجاءت اختها سامية مهرولة وهي في قميص النوم .. وجاء وراءها أبوها وهو يخب في جلبابه ، وقد سقطت طاقيته فوق رأسه حتى لامست حاجبيه وسقطت نظارته فوق أرنبة أنفه حتى كادت تقع على شفتيه ، وقال في لهفة وهو مبهور الانفاس : ايه ؟ فيه ايه ؟ حصل ايه ؟!

واحتضنت سامية اختها نوال ، وهي تقول : مالك يا نوال . بتصرخي ؟!

وكفت نوال عن الصراخ .. وعيناها لا تزالان مذعورتين .. وجسدها كله يرتعش .. وأشارت لهما بأصابعها الى الجريدة الملقاة على الأرض .. الى الافعى التي تسعى تحت قدميها .. والتفتا الى حيث أشارت .. وقرآ حروفاً كبيرة حمراء كأنها السنة من نار : « مصرع ابراهيم حمدي في معركة مع البوليس » ..

ورفعت سامية رأسها .. ونظرت الى اختها وشفتاها ترتعشان كأن الكلمات أثقل منهما .. ثم ارتمت في أحضانها . وبكت الاختان .

وانحنى الأب والتقط الجريدة بيد مرتعشة ، ثم ثبت نظارته فوق عينيه وأخذ يقرأ : « روع سكان حى العباسية ، في ساعة متأخرة من مساء أمس بأصوات انفجارات شديدة صادرة من داخل المعسكر الانجليزي ، وتبين ان بعض الشبان قد استطاعوا التسلل الى داخل المعسكر ، ولم تعرف دوافعهم بعد .. وقد اتصل مأمور قسم الوايلي بحكمدارية العاصمة ، فأرسلت قوات من البوليس حاصرت المعسكر ، وفي انتظار خروج المتسللين ، ودارت معركة بين هؤلاء المتسللين وبين البوليس ، وتبادل الطرفان اطلاق النار ، وسقط احد الشبان قتيلاً .. وقد تبين ان هذا الشاب هو ابراهيم حمدي المتهم بقتل المغفور له عبد الرحيم باشا شكري ، والذي استطاع ان يهرب من سجنه منذ عدة اسابيع .. هذا وقد اصدرت وزارة الداخلية البيان الرسمي التالي .. » وطوى الأب الجريدة كأنه يمزقها .. وتقلص وجهه كأنه يعاني ألماً حاداً .. ثم انتبه الى نفسه وقال لابنتيه ، في صوت محشرج مخضل بدموع تنزف في صدره ولا تطل من عينيه : مش عايز حد يسمع صوتكم .. فاهمين .. مش عايز حد يسمع صوتكم ، بأقول لكم أهو !!

وجاءت الام في خطواتها المتأوهة ، وأنفاسها اللاهثة .. وقالت وهي تنظر

الى الجميع نظرات متشائمة : جرى ايه عالصبح ؟.. كفى الله الشر .. مـا هي أصل المصايب عرفت طريق البيت خلاص .. ولم يرد عليها احد ..

وعاد الأب الى حجرته والجريدة في يده وهو يخب في جلبابه كأنه يحاول ان يشقه بساقيه .. ويردد في سخط : لا حول الله يارب .. لا حول الله ..

وأحاطت سامية اختها نوال بذراعهـــا ، وشدتها الى غرفتها ، وكلتاهما تنشجان ودموعها تفيض من عيونها .. وقالت الام كأنها غضبت : مش تقولوا لي حصل ايه ؟ .. ولا مش حاسبيني واحدة في البيت ؟!..

وارتفع نشيج نوال.. وردت سامية من بين دموعها : بابا حيقول لحضرتك.

واستدارت الام ، وقد نسيت بعض آلامها ، وبدت في لهفتها على معرفة الخبر ، اكثر نشاطاً ، ولحقت بزوجها قائلة :

— ايه يا زاهر ؟.. حصل ايه ؟.. ياخويا طمني ..

ونزع الأب نظارته من فوق عينيه ، ثم رفع طرف جلبابه وأخذ يمسح بـه زجاج النظارة وكأنه يمسح الدموع من فوق عينيه .. وقال في تأثر : ابراهيم .

وقالت الأم متطلعة : ماله ؟ .

وقال الأب وتأثره يمزق كلماته : ما..ت !!..

وخبطت الأم على صدرها وقالت في ألم كأن شيئاً تمزق فيها :

— كبدي يا ابني .. مات ازاي ؟! وقال الأب وهو يهم بالجلوس عـــلى الأريكة « الاستامبوللي » : قتلوه .. البوليس قتله !

وارتفع حاجبا الام فوق عينيها وقالت في سذاجة :

— قتلوه .. وهم الناس بيتقتلوا كده بالساهل !

ولم يرد الأب .. وعـادت تقول .. وقد اشتد فزعها : ومحيي ؟.. عملوا ايه في محيق ؟.. ورفع الاب وجهه اليها كأنه يستنكر هذا التفكير . وقال :

— محيي مسألته حاجة تانية .. مالوش دعوة بابراهيم !

وقالت الام وقد بدأت تنهار : هوه مش في السجن ؟ وقال الاب متبرما : أيوه . قالت : ما هو اللي قتل ابراهيم يقدر يقتل محيي كمان ، بكره حايقتلوه.. حايقتلوا ابني .. ابني .. يا ضناي يا ابني .. ثم وقعت فوق الاريكة بجانب زوجها وانخرطت في البكاء وجسدها المكتنز يرتعش كأنه يمزق نفسه .. وقال الأب وهو يزفر كأنه لم يعد يحتمل مزيـداً من الهم : يا ستي ابراهيم اتقتل في معركة مع البوليس . كان هاجم على معسكر انجليزي .. انما محيي لا بيعمل معارك ولا بيهاجم معسكرات .. وخفت دموع الأم .. وكف جسدها عن الارتعاش ..

ثم سكتت برهة وهي تفكر .. ثم قالت في صوت متردد كأنها تخشى أن تفصح عن أفكارها : هم مش ماسكين محيي علشان خاطر يلاقوا ابراهيم ؟!

وقال الأب وهو ينظر اليها كأنه يبحث وراء عينيها : ايوه ..

قالت كأنها تتخلص من أفكارها : أهم خلاص . لقوا ابراهيم ! ونظر اليها الأب في تعجب قائلاً : قصدك ايه ؟ .

وقالت الأم وهي تدير عينيها عنه : يوه .. أنا عارفه بأه .. انما ما دام لقوا ابراهيم ، حيفضلوا ماسكين محيي ليه ؟! وقال الأب وهو يفتح صفحات الجريدة ويخفي فيها وجهه كأنه يخجل من أفكار زوجته : والله يا ستي لو كان خروج محيي متوقف على موت ابراهيم ، كان بلاش يخرج أحسن . كان أهون يفضل طول عمره في السجن وسكت الأب ، وأحس بالعجب من نفسه .. أحس كأنه اكتشف انساناً جديداً في داخله . أحس انه يؤمن فعلاً بهذا الكلام الذي يقوله .. انه يرضى فعلاً بأن يبقى ابنه في السجن ، لو كان بقاؤه ثمناً لحياة ابراهيم . هذا عجيب ، هل يعقل ان يضحي بإبنه إلى هذا الحد ؟! ولكنه يحس بأن تضحيته بابراهيم ليست أقل من تضحيته بابنه .. يحس ان ابراهيم ليس مجرد شاب وطني آواه في بيته يوماً ، يحس كأن له شيئاً في ابراهيم ، كأنه اشترك في صنعه ، في صنع بطولته ، وفي صنع وطنيته ، وفي صنع مغامراته ، ويحس الآن انه فقد شيئاً يملكه ، يملكه مع غيره ، على الشيوع !! وهو يريد أن يبكي ، يريد أن يصرخ ، أن يضرب ، أن يثور لدم الشهيد الذي اشترك في صنع بطولته .. يريد أن يقف بين الناس ويحدثهم عن ابراهيم .. يروي لهم قصته . قصة وطنيته ، وقصة البوليس الذي كان يطارده .. ويقول لهم : أيها الناس ، لقد ضحى ابن لكم بروحه في سبيلكم .. في سبيل تحريركم .. ليطرد الانجليز .. ويطرد الفساد .. ويعيد اليكم كرامتكم وعزتكم .. ولكنه لن يفعل . انه لن يصرخ ، ولن يضرب ، ولن يثور .. غاية ما يستطيعه هو أن يبكي في صمت ، بعيداً عن الناس .. ورغم ذلك فإن شيئاً يمنعه من البكاء . انه يحس كأنه أصبح أقوى من البكاء . لماذا لا يثور ؟.. انه ثائر فعلاً .. ولكن دوره في الثورة يختلف عن دور الآخرين .. وعندما يدعى للقيام بدوره قد يتردد قليلاً ، ولكنه لا يهرب . ولا يخون الثورة ، وقد دعي للثورة يوم طرق ابراهيم بابه ، فلبى . وفتح بابه على مصراعيه .. وأحس بنفسه خلال هذا التفكير ، كأنه واقف بين ناس كثيرين .. وان حالته ليست حالة فردية ، انما هي حالة كل هؤلاء الناس .. حالة ملايين الناس يصنعون الثورات ، ويصنعون الابطال .. وبحث عن ابنه محيي بين هذه الملايين فرآه

بخياله . رآه خلف القضبان .. وابتسم له .. انه هو الآخر يقوم بدوره في صناعة الثورة وصناعة الابطال .. ولأول مرة يبتسم في دخيلة نفسه ، وهو يرى ابنه خلف القضبان.. ماذا تفعل الآن هذه الملايين ؟ ماذا تفعل بعد موت ابراهيم ؟. انها لا تيأس .. ولا تبكي .. ولا تستكين .. انها تنشط لتصنع بطلاً آخر .. ان العيون تتقد .. والهمسات تعلو لتصبح صراخـاً .. والاحداث تترى بسرعة ، وكل حدث يصنع بطـــلاً .. أبطال كثيرون . يتمون رسالة الشهيد ويتقدمون صفوف الثورة هـــذا ما يجب ان يحدث .. وسيحدث .. سننتقم ، سنثور ، سنتحرر من الظلم ويخرج محيي من السجن . وأحس بالدماء تتدفق في عروقه بقوة وعنف ، كأنه استعاد شبابه .. استعاد شبابـاً غاضباً ، ساخطا ، يطالب بالثورة .. وتقلصت تعابير وجهه ، كأن في صدره مظاهرة يطاردها البوليس ! وأفاق من أحساسه على صوت نشيج زوجته وقد بدأ يرتفع من جديد ، فأبعد الجريدة — التي لم يكن يقرأ فيها شيئاً — عن وجهه ، وقال وهو ينظر اليها في حنان : جرى ايه يا تحية . ما كنا سكتنا ! . وقالت زوجته وهي تنشج: مش قادرة يا زاهر .. كل ما اتصور ابراهيم مقتول ، يتهيألي ان محيي مقتول جنبه !

وقال الأب وقد غاص قلبه في صدره : يا شيخة بلاش الكلام ده .. فال الله ولا فالك .. قومي يالله شوفي حناخد ايه بكره لمحيي.. دي أول مرة حازوره فيها .. ولازم كان آخد له معايا شوية كحك .. و ..

وقاطعته الأم: انا حالفه الكحك مايدخلش البيت طول ما ابني مرمي الرمية دي

وقال الأب وهو يحاول ان يبتسم : ياستي ما حدش عايز يأكل كحك .. انما لازم آخد له شوية يستبشر بيهم ويخفف بيهم عن نفسه ..

وسكتت الأم .. وتركت دموعها تنهمر فوق وجنتيها .. وسكت الأب.. وحاول ان يعود الى احساسه الثوري . ولكنه وجد قلبه لا يزال غائصاً بين رئتيه.. ووجد لهفته على ابنه تعصف به.. انه يريده ان يعود سالماً الى جانبه ..وأن يحقق حلمه فيه . وان يتم الثوب الذي كان ينسجه له.. ثوب المستقبل الذي نسج كل خيط فيه بعرقه ، وحرصه ، وتقتيره ، وتزمته .. وهب واقفاً كأنه يهرب من لهفته.. وخرج متجهاً إلى الحمام.. وتوقف قليلاً عندما مر بباب غرفة ابنتيه وتسمع إلى صوت نشيجهما .. وحاول أن يدخل اليهما لينهرهما .. أو .. ليخفف عنهما .. ولكنه عدل .. ودخل الحمام ، وصفق الباب وراءه في عنف ، كأنه يصفقه في وجه أعداء كثيرين يلاحقونه في بيته .. كانت نوال قد انكفأت على وجهها فوق فراشها .. تبكي .. كأنها تقطر روحها في دموع .. وضفيرتاهـــا

ملتفتان حول عنقها كأنها تحاول ان تخنق نفسها بهما . وكان البكاء يعصف بها أحياناً فيضيق صدرها ، وتلقف أنفاسها من الوراء ، وتضرب بيديها وقدميها فوق الفراش كأنها تفر من الموت .. واختها بجانبها تشاركها دموعها ، وتحاول ان تخفف عنها ، ثم لا تجد ما تخفف به عنها الا ان تشاركها مزيداً من الدموع.

وسكتت نوال عن البكاء فجأة .. واستدارت على ظهرها وأخذت تتطلع إلى السقف بعينين مفتوحتين لا تريان شيئاً . وقد امتقع وجهها حتى بدت بشرتها السمراء في لون الليمون الاخضر .. وظلت ساهمة طويلاً .. واختها بجانبها عاجزه عن ان تجد شيئا تقوله ، انما ترقبها في نظرات حانية مشفقة .. وفجأة ايضاً — وفي حركة آلية — اعتدلت نوال جالسة فوق الفراش وقالت كأنها تحادث نفسها : لازم أروح له .. وقالت سامية في دهشة : تروحي لمين ؟..

قالت نوال وهي لا تزال ساهمة تنظر بعينين لا تريان شيئاً: لابراهيم ،النهارده الاتنين وحايستناني الساعة حداشر .. وقالت سامية في لوعة على أختها : — نوال ، فوقي لنفسك يا حبيبتي ، ما تعمليش في نفسك كده !..

ونظرت اليها نوال وبين شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها مجنونة : اظن صدقتي كلام الجرايد .. بأه حد يقدر يقتل ابراهيم .. ده يقتل الف ..تعرفي هوه راح فين ؟.

ومدت سامية ذراعها وأحاطت خصر اختها ، وقالت وقد ازداد صوتها لوعة : فين ؟! واتسعت عينا نوال ، وانبثق منهما بريق غريب ، وقالت : — راح يطلع محيي من السجن .. هو قال لي كده .. اصلي كنت مخبية عليكي يا عبيطة .. وكنت باقابله من وراكي .. كل يوم اثنين ، وكل يوم أربع .. وآخر مرة قال لي انه حا يطلع محيي من السجن .. وكادت سامية تعود إلى البكاء شفقة على اختها .. ولكنها تحاملت على نفسها وقررت ان تتخذ موقفاً حازماً فزمت شفتيها ، وأمسكت اختها من كتفيها بكلتا يديها ، وأخذت تهزها برفق وهي تقول : نوال .. بلاش كلام مجانين .. اللي حصل خلاص حصل .. انتبهي لنفسك وخليكي عاقلة .. وشدت نوال نفسها من بين يدي أختها وقالت في حدة : — سيبيني .. لازم أقوم البس .. أحسن أتأخر ! وقفزت من فوق الفراش ، واتجهت إلى دولابها وفتحته ، وقامت أختها ، ووقفت خلفها وقالت في رفق : — بلاش فضايح يا نوال ، مش كفاية الهم اللي أحنا فيه ..؟ انتي عايزة بابا يجرا له حاجة .. وقالت نوال ، وقد اشتدت حدتها : بابا مش حايقدر يمنعني.. لو حد منعني من الخروج ، حارمي نفسي من الشباك .. وعادت سامية تقول : نوال .. ما تخلنيش أتجنن .. و .. وقاطعتها نوال وقد ارتفعت الابتسامة البلهاء

مرة ثانية الى شفتيها : انتي مش مصدقاني .. طب بصي .. وفتحت المصحف الذهبي الصغير المعلق في رقبتها ، وأخرجت الورقة الصغيرة التي كتب عليها ابراهيم بخط يـــده شهادة لا اله الا الله . وقالت ، والضوء الغريب ينبثق من العينين الواسعتين : شوفي .. دي ورقة كتبتها أنا وابراهيم قبـــل ما يسيب بيتنا زي الورقة اللي بيكتبها بابا مع ماما لما ييجي يسافر .. مش كده ؟! ونظرت سامية اليها في حيرة ولوعة .. وعادت تطوي الورقة وتضعها داخل المصحف الذهبي الصغير . وعادت دموعها تنهمر هادئة فوق وجنتيها ، ثم جلست على الأرض مستندة الى الدولاب .. وأسقطت رأسها بين يديها وأخذت تبكي بكاء هادئاً ..

وكانت نوال تعلم انها مدفوعة الى هذا الكلام بقوى أقوى منها .. وكان جزء من عقلها يعي ان كلامها ما هو الا نوبة عصبية تجتازها .. كانت تحس كأن في داخلها فتاتين .. فتاة تعلم ان ابراهيم قد قتل .. مات .. وماتت معه احلامها .. وفتاة أخرى ترفض ان تصدق انه مات .. وتؤكد انه لا يزال حيـــاً .. وانه ينتظرها في موعده .. في ميدان « فني » بجوار مستشفى عانوس .. وكلا الفتاتين لا تستطيع أن تقنع الأخرى .. وإحداهما حزينة أنهكها الحزن فلم تعد تستطيع أن تقاوم والثانية مجنونة ! ورطبت الدموع من الأعصاب الثائرة .. واستطاعت الفتاة الحزينة المنهكة ، أن تتماسك ، وقالت لأختها في توسل :

ـ سامية .. أنا لازم أخرج .. انا عارفه انه مات .. إنما ما اعرفش تربته فين علشان أزوره فيها .. ونفسي أروح أزوره في الحتة اللي كان مواعدني فيها ..

واطمأنت سامية الى هدوء أختها ، وجلست بجانبها على الأرض ، والتصقت بها كأنها تحميها من نفسها ، وقالت وهي تحاول أن ترفع صوتهـا حتى تبدد سحب الحزن التي تتجمع فوق رأسيهما : إنما مش ممكن أسيبك تخرجي لوحدك ، وانتي في الحالة دي .. وقالت نوال وهي تتنهد ، دون ان تلتفت اليها : تعالي معايا .. وسكتت سامية قليلاً ، ثم عادت تقول : بس حانخرج ازاي .. حانقول ايه ؟!

وقالت نوال وهي ساهمة : ما اعرفش .. انا تعبانة يا سامية . فكري انتي ! وبدا على سامية كأنها تلقت مهمة خطيرة ، وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها : بس لو كان بابا يخرج ! ولم ترد نوال .. ظلت صامتة طويلاً .. وسامية لا تزال تفكر في حجة تخرج بها هي وأختها .. ثم قالت نوال كأنها تحادث نفسها :

ـ أنا متهيأ لي اني مش حاقدر أعيش من غـيره .. انا ما كنتش عايشة إلا علشانه .. كنت باعد الايام لغاية ما يرجع بالسلامة .. كان قلبي بيقولي انه مش ممكن يجراله حاجة .. أتاري قلبي كان بيكدب علي ..

وقالت سامية وقد عاد قلبها يخفق لوعة على أختها :

– احنا حانرجع للكلام ده تاني.. يعني حانعمل اية في قسمة ربنا..قسمتك وقسمتي .. وقالت نوال كأنها تحلم : حاقدر اعيش بعد كده ، وحاعيش لمين ؟ وقالت سامية كأنها تحاول ان تلهي اختها : هس . اسكتي . متهيأ لي اني سامعة صوت دولاب بابا وهو بيفتح . وقامت سامية وخرجت من الغرفة متجهة الى غرفة أبيها .. وكان الأب يلبس ثيابه فعلاً ، وكان خارجاً ليشتري بعض الكعك ، وبعض الهدايا والثياب التي سيحملها لابنه غداً .. وانتظرته سامية الى ان خرج ، واطمأنت الى انه أغلق الباب وراءه ثم عادت مسرعة ، وقالت لأختها وقد ضاع حزنها في لهفة المغامرة : خلاص بابا نزل .. دلوقت نقول لماما ايه ؟! وسكتت قليلاً ، وهي تضع أصبعها فوق رأسها في حركة مثيرة للضحك ثم قالت : فكرة .. نقول لها اننا رايحين لوفاء علشان نسمع أخبار ابن خالتها .. الضابط اللي وعدنا يطمنا على محيي وعبد الحميد . واقتنعت الأم بسهولة .. كان يكفي ان تعلم أن ابنتيها خارجتان بحثاً عن أخبار محيي وعبد الحميد ، لتسمح لهما بالخروج .. وركبتا الاتوبيس .. وسامية تتلفت حولها في وجل كأن الناس يعلمون سرها .. وكأن العيون التي ترتفع اليها توجه اليها اتهاماً .. ونوال ساهمة لا ترى شيئاً . لا ترى الناس ولا الشوارع . رأسها كله مزدحم بخيال ابراهيم .. وعيناها لا تريان إلا ابراهيم عندما فتحت له الباب وهو مرتد القميص والبنطلون وفي عينيه قوة مهذبة يشق بها طريقه الى قلبها.. وتراه وهو في جلباب والدها ، الذي كان ينام به .. وتراه وهو مرتد بدلة ضابط يوم خرج من البيت .. وتراه وهو يعتلي السلم الخشبي ليختبىء في السندرة .. تراه مبتسماً .. لقد كانت ابتسامته دائماً ضيقة خجولة . لم تسمعه أبداً يقهقه .. وترى عينيه وهو يحاول ان يخفيها عنها ، إلى ان واجهها بهما وفيهما إعلان لحبه وحبها .. وترى أنفة الكبير رأس السهم الموجه الى أعدائه . وابتسمت في مرارة وهي تتذكر أنفه .. كم ليلة قضتها وهي تقيس بخيالها هذا الأنف وتبتسم له .. كيف استطاع ابراهيم ان يكون جميلاً وهو بهذا الأنف الكبير.. وتمادت في خيالها حتى تجسد أمامها .. حتى أحست بابراهيم بجانبها .. أحست بأنفاسه .. وسمعت صوت دقات قلبه .. وكادت تلمسه بيدها .. وبدأت الفتاة الاخرى تستيقظ في صدرها .. الفتاة المجنونة التي لا تريد أن تصدق ان ابراهيم قد مات !! ونزلت الاختان من الاتوبيس ..

وسامية تسير وهي تتلفت حولها ، كأنها تقول برأسها « لا » « لا » لتنفي

الشبهات من عقول الناس.. تتأخر عن اختها خطوات ، ثم تسرع وتلحق بها.. ورأسها لا يزال يتلفت ويقول « لا » .. « لا » ..

ونوال تسير وهي لا تزال ساهمة ، غارقة في خيالها .. وكلما اقتربت من مكان اللقاء ، أحست انها مقبلة على بيت تعرفه جيداً بيت من نور .. بيتها هي وابراهيم .. البيت الذي عاشت فيه بخيالها طويلاً .. ورأت نفسها فيه وهي تودع ابراهيم كل صباح وتستقبله عندما يعود من عمله .. لقد حددت موعد عودته بالضبط .. الساعة الثانية والنصف.. ان والدها يعود في الساعة الثانية ، ولكن ابراهيم يعمل اكثر منه ، ويتأخر عنه نصف ساعة .. وهي تقف معه ريثما يخلع ثيابه ويرتدي جلبابه . انه لا يرتدى « بيجاما » أبداً .. انها تحبه مرتدياً جلباباً . وتصحبه إلى مائدة الطعام .. لقد أعدت كل شيء بيديها .. وهي تعرف كل ما يحبه المصقعة.. والمكرونة المقصوصة.. ولكنه يأكل وهو سرحان . انه ينسى أن يهنئها على مهارتها .. انه مشغول دائماً بشيء في رأسه حتى عندما يجلسان سوياً في الشرفة ساعة العصر ، ينسى أن ينهرها على قزقزة اللب . ولكنها تفعل ذلك لتثيره لتلفت نظره .. ولكنه ينسى .. انه سرحان دائماً .. ودائماً مشغول .. لقد أحبت رجلاً مشغولاً .. يحمل عبء البلد كله في رأسه.. وسارت كأنها تسبح في خيالها وأفاقت على صوت أختها تسألها: احنا لسه حانمشي كتير؟!

ورفعت اليها عينين غائمتين كأنها لا تفهم معنى لسؤالها . ولم ترد عليها !..

وعادت سامية تسأل بعد عدة خطوات : احنا حانقابل حد هناك ؟!

وعادت ترفع إلى أختها العينين الغائمتين ، وأجابت كأنها تائهة : ابراهيم ..

وسكتت سامية ، وقد خافت أن تثير في أختها نوبة عصبية جديدة .. واقتربا من ميدان « فني » .. وأبطأت خطوات نوال ، كأنها تصعد سلماً .. سلم البيت الذي عاشت فيه بخيالها .. ثم وقفت بجوار جدار المستشفى !

انها تحس فعلاً انها تزور ابراهيم .. تزوره في قبره .. وانهمرت الدموع فوق وجنتيها ، ولم تحاول أن تجففها .. وحاولت أن تقرأ « الفاتحة » ترحما على حبها .. ولكن الآيات اختلطت في ذهنها .. ووجدت نفسها تخلط بين «الفاتحة» و « التحيات » .. وكلما حاولت ان تبدأ من جديد ، تبخرت الآيات من ذهنها..

انها ليست واعية .. وليست غائبة.. وهي لا تكاد تحس بموت ابراهيم حتى تحس بحياته .. ولا تكاد تتصوره في قبره حتى تراه في بيتها .. ولكنها تتألم .. كل شيء فيها يتألم. كأن كل ما فيها يتمزق ويحترق. انها تحس بآلام في ذراعيها.. وفي رأسها .. وفي صدرها .. وفي ساقيها .. أعصابها .. أعصابها تؤلمها ..

تتمزق .. وبدأت تقاوم الألم .. وأخرجت سامية منديلاً من حقيبتها ناولته لأختها في صمت ، لتجفف به دموعها .. وتناولت نوال المنديل ، وهمت أن تضعه فوق عينيها ، ولكنها عادت وأبعدته ونظرت إلى جندي بوليس يمر أمامها ، نظرات ارتسم فيها الرعب كأنها ترى شيئاً مخيفاً لم تره من قبل .. ثم ركزت عينيها فوق البندقية التي يحملها جندي البوليس . انها لم تر هذه البندقية من قبل ..

كانت ترى شيئاً يحمله كل رجال البوليس .. وكانت تعلم ان هذا الشيء يسمى بندقية . وكانت تتصور البندقية شيئاً كلعب الأطفال .. مجرد شيء يحمله رجال البوليس لتكملة مظهرهم الرسمي .. كهذه الأزرار الصفراء التي تحلي صدورهم . ولكنها لم تر البندقية كما تراها الآن . لم تر هذه الفوهة السوداء ، كفم الأفعى . ولم تر هذا الزناد ، كذيل العقرب .. ان « البندقية » ليست لعبة من لعب الاطفال ، وليست شيئاً لاستكمال المظهر الرسمي .. انها اداة قتل . هذه البندقية هي التي قتلت ابراهيم !! لماذا يحمل رجال البوليس بنادق؟! ليقتلوا بها الابطال .. ليقتلوا بها الثورة .. ليقتلوا بها الحب .. وليحموا بها الانجليز والخونة والباشوات والملك وأعداء ابراهيم !

والتصقت بأختها وهي تشعر بالخوف .. خوف شديد .. من البندقية .. ثم أمسكت بذراع أختها بيد باردة .. قطعة من الثلج .. وسحبتها ، وسارت كأنها تتسلل بعيداً عن أعين رجل البوليس ، وسارت معها سامية دون مقاومة ودون اعتراض أو سؤال .. وقد اشتدت بها اللوعة واللهفة على اختها ..

واتجهتا الى محطة الاوتوبيس ، عائدتين الى البيت .. والخوف لا يزال يستبد بنوال .. وهي تبحث في كل خطوة تخطوها عن عسكري بوليس يحمل بندقية وتعدهم : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. عشرة .. انهم كثيرون .. والبنادق في ايديهم كثيرة .. وكلها مصوبة الى صدر ابراهيم . وإلى صدرها .. الى صدور كل الابطال .. وكان خوفها يخفي تحته ثورة .. انها تتمنى من خلال خوفها ان تهجم على كل رجل بوليس ، وتخطف منه بندقيته ، حتى لا يقتل بها أحداً .. حتى لا يقتل ابراهيم مرة ثانية .. وهي تتصور نفسها فعلاً تخطف البنادق .. وتتصور انها عملية سهلة .. لا تكلفها شيئاً . فقط تخطف البندقية وتجري بها ..

وركبت الاوتوبيس ، وأطلت من النافذة . واستمرت تعد رجال البوليس وتعد البنادق التي يحملونها وتتصور نفسها تخطفها ! وعندما وصلت الى البيت ، ألقت نفسها فوق الفراش .. وعادت تبكي .. وأختها تبكي لبكائها .. وتبكي ابراهيم .. وتبكي أخاها .. وتتذكر عبد الحميد فيشتد بكاؤها ..

وعاشت العائلة ليلة ثقيلة جامدة . كالهواء الراكد ! وأفرادها يخفون حزنهم في صدورهم ويبالغون في تكتمه . . فليس من حقهم ان يبدوا حزنهم للناس ، ليس من حقهم أن يعرضوا دموعهم على أحد ، او يرتدوا السواد حداداً على ابراهيم ، أو يترحموا عليه علانية . . انهم لا يعرفونه أبداً ، ولم يروا وجهه . هكذا يبدون أمام الناس !

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي خرج الأب يصلي صلاة العيد ثم عاد وأخذ يعد الأشياء التي سيحملها لابنه في السجن ، والتي أعدها قبل ذلك عدة مرات ، واحتفظ بها تحت فراشه طول الليل . . وتحركت الأم في فراشها وقالت دون أن تقرىء زوجها تحية الصباح :

– اسمع يا زاهر . . الدور الجاي تاخدني معاك ، يا أروح أزوره لوحدي . . انا خلاص ، ما بقاش فيه . . ما عدتش استحمل . . مش قادرة استنى اكتر من كده . . لازم أشوفه . . اعمل حسابك على كده . . إلا اذا كنت عايز تموتني . . وقال الأب من خلال ابتسامة باهتة : الدور الجاي يكون في البيت باذن الله . . وصرخت الأم : ما تقولش كده . . انا ما بقتش أصدق الكلام ده . . ما تضحكش عليّ وقال الاب في هدوء : يا ستي استبشري . . النهار ده عيد . .

– مش عيد يا خويا . أبداً مش عيد . . ده عيد عـــلى ولاد الكلب اللي حابسين ابني . . ان شاء الله يا رب ينطسوا في عنيهم ، وتاخدهم وكسة ، يا رب بحق صيامي اللي صمته تحرمهم من ولادهم زي ما حرموني من ابني ، وتشحطط قلوبهم زي ما شحططوا قلبي . . يا رب تاخدهم وتريح البلد منهم . . آه يا ناري . . بس لو كان فيه حيل . . لو كنت راجل ، ما كنتش عارفة اعمل ايه في المجرمين دول . . وسكت الأب . . وعادت الام تقول بعد فترة : ما تنساش توصيه مـا يقلعش فانلته . أصله يا حبة عيني ما يطقش الفانلة في الصيف . . وقـال الاب وهو لا يزال مشغولاً بإعداد الاشياء التي سيحملها دون ان يكون فيها شيء يعده : حاضر . . وعادت الام تقول : وتجيب منه الهدوم الوسخة ، علشان تتغسل هنا .

وقال الاب : حاضر !! وقالت الام : أوعى تكون نسيت حاجه . . خدت جوز الفراخ ؟ وقال الاب في استسلام : ايوه . . .

وقالت الام : ما تلفهمش لغاية ما ساميه تحمر البطاطس . . وقال الاب : حاضر . وظلت الام تلقي تعليماتها ، وصاياها وتمنياتها . . حتى خرج الاب في الساعـــة التاسعة ، وقالت له نوال في صوت باك ، وهي تودعه : قول لهم انهم حيخرجوا قريب . . انا عارفه كده ! وقالت سامية :

– ما تنساش تقول لحيي إني باعمل له بيجاما جديدة . . ثم استطردت في

صوت خافت : ولعبد الحميد كمان !!

ولم يسمع الأب كل هذا الكلام ، انما كان يهز رأسه ويقول « حاضر » دون أن يركز انتباهه الى ما يسمعه .. وخرج مسرعاً نحو السجن وهو يحمل بين يديه الاشياء التي أعدها لابنه وعبد الحميد .. ولم يكن يشعر بالرهبة .. لم يعد يرهب السجن .. وفي خلال الأيام التي مرت به كان قد اكتشف كل الطرق الضيقة التي تؤدي الى الاتصال بالمسجونين .. عرف طريق رشوة الجنود .. وعرف طريق وسايط ضباط البوليس .. وعرف طريق تهريب النقـــود والرسائل الصغيرة والاطعمة .. بل انه استطاع ان يرى ابنه لعدة دقائق عندما كان في المستشفى. ثم بعد أن نقل محيي من المستسفى وأعـــادوه الى السجن ، ظل على اتصال به بواسطة الرسائل الصغيرة التي يحملها منـه واليه جنود السجن .. ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي يحصل فيها على اذن رسمي بزيارة ابنه ..

وكان متفائلاً بهذا الاذن . كان يعتبره تحولاً في موقف البوليس من ابنه ..

ولكن هذا التفاؤل ، لم يكن يطغى على احساسه بالحدث الهـام الذي وقع باستشهاد ابراهيم .. ان هذا الحدث جعله يحس بتفاهـــة مصيبة ابنه .. وجعله يحس بأنه – هو وابنه – يعيشان ضمن مجموع كبير .. ضمن الأغلبية التي تصنع الثورة ، وتصنع الابطال .. وهو احساس يملأه بقوة جديدة .. كأنه الآن مع هذا المجموع الكبير ، يستطيع ان يتحدى البوليس ويتحدى الحكومة .ويقتحم السجن .. ووقف أمام الباب الكبير ..

وضغط الجرس المثبت في الحائط .. ضغطه بقوة !!

وفتحت كوة الباب وأطل منها الوجـــه الغليظ ذو الشارب المشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين .. وأبرز التصريح بالزيارة الذي يحمله .. فمد الحارس يده من خلال الكوة وتناوله منه ، ونظر فيه ملياً كأنه يقرأه .. ثم أغلق الكوة ، وغاب قليلاً ، وعاد وفتح الباب الصغير ضمن الباب الكبير .. ودخل زاهر افندي ..

٢٣

فوجيء المسجونون في سجن الأجانب صباح أول يوم العيد ،بأبواب الزنازين تفتح كلها مرة واحدة .. وتغيرت الاوامر ، فسمح لهم بالاختلاط بعضهم ببعض. وقال لهم ضابط السجن ان الادارة رأت ان تخفف عنهم بمناسبة العيد.. ثم هددهم

بأن أي محاولة لاثارة الشغب داخل السجن ، ستؤدي الى تطبيق الاوامر القديمة واعادة عزلهم ، وحبسهم حبساً انفرادياً .. ثم ابتسم لهم الضابط وقال كأنه ينهي خطاباً بليغاً : وكل عام وانتم بخير !!

ورد المسجونون بهمهمات غريبة .. ثم ابتسم كل منهم بينه وبين نفسه ..

ليس بينهم واحد يؤمن بانسانية « الادارة » وليس بينهم واحد يؤمن بأن البوليس السياسي يمكن ان يصدر أمراً بتخفيف قيود السجن ، لمجرد الاحتفال بالعيد . ان هذه الاوامر تعني اتجاهاً جديداً .. وقد تعودوا من طول ما تحملوه من عذاب السجن أن يفسروا كل أمر ، تفسيراً يتعلق بمصيرهم .. حتى ابتسامة الضابط ، أو تكشيرة المأمور ، أو تودد العسكري .. كل كلمة ، وكل حركة . كل ذلك له تفسير في أذهانهم يتعلق بمصيرهم .. مـــا معنى ان يفتحوا أبواب الزنازين .. ويسمحوا لهم بالاختلاط بعضهم ببعض ؟!..

معناه ان التحقيق في قضية هرب ابراهيم حمدي قد انتهى وحفظ !

لماذا حفظ التحقيق ؟! لأنهم وجدوا ابراهيم .. وجدوه شهيداً !!

وخرج كل سجين من زنزانته وهو يزحف بقدميه في خطوات مترددة ، كأنه نسي كيف يمشي من طول ما قبع في زنزانته الضيقة .. ثم يتلفت حوله كأنه لا يصدق انه منح عشرين متراً من الحريـة .. واخذوا يتجمعون في الفناء الصغير الذي يتوسط السجن ، وهم يتبادلون التحية والتهنئة بالعيد في أصوات رزينـة هادئة .. وقد ارتدوا جميعاً الثياب التي ينامون بها . بعضهم يرتدي «البيجاما» وبعضهم يرتدي « جلباباً » ، وبعضهم اكتفى ببنطلون البيجاما والفانلة الداخلية وبعضهم ينتعل « شبشباً » وبعضهم حافي القدمين .. وكانوا جميعاً يكتمون في صدورهم ثورات عنيفة .. كانت اعصابهم تالفة من شدة ما تحملوه من عذاب .. ووجوههم صفراء ممتقعة من طول ما عاشوا في ظلام الزنازين .. وكانت ترتفع في عيني كل منهم ، بين الحين والحين ، نظرات شزراء قاسية مليئة بالسخط يوجهها إلى جندي من جنود السجن ، أو إلى الضابط عندما يمر بـه .. كأن كلاً منهم يطلق من عينيه قبضتين قاسيتين تسعيان الى عنق هذا الجندي أو هـذا الضابط ليخنقاه ، انتقاماً للعذاب الذي يعانيه كل سجين ، وللكرامة المجروحه التي أهينت خلف الابواب المغلقة .. ولكنهم جميعاً — وبلا اتفاق سابق — اخفوا السخط خلف ضلوعهم ، واخفوا النظرات الشزراء خلف جفونهم .. وحاول كل منهم أن يفرح بنصيبه الضئيل من الحرية .. وان يمتع عينيه بالشمس التي اخفوها عنه طوال هذه الاسابيع .. وأن يملأ رئتيه بهواء أرحب من هواء زنزانته .. وان

يحس بين زملائه بصورة مصغرة للمجتمع الذي حرم منه ..

ووقف محيي أمام باب زنزانته يرقب زملاءه ، ويضغط على قنطرة نظارته بطرف أصبعه بين الحين والحين .. ان شيئاً فيه قد تغير .. ان ملامح وجهه قد قويت ، ونظرات عينيه قد اشتدت ، لم يعد جفناه يضطربان كجناحي عصفور حبيس خلف زجاج نظارته ، وهو يبدو هادئاً ..اهدأ من زملائه ، كأنه اكبر منهم .. وأعقل .. وليس في صدره ثورة . وانما صدره مفعم بالاستسلام .. ومن خلال استسلامه يتعمق بتفكيره فيما جرى له ، وفيما يحيط به .. كأنه يطل بذهنه على عالم غريب .. عالم اكتشفه لأول مرة .. وكان ينقل عينيه في وجوه زملائه وفوق شفتيه ظل ابتسامة .. انه لا يعرف احداً منهم . ولم يرَ وجوههم من قبل ، الا في لحات خاطفة ، عندما كان يلتقي ببعضهم في طريقه الى دورة المياه .. ورغم ذلك فهو يشعر كأنه يعرفهم من زمان بعيد .. كأنه عاش معهم العمر كله ، في بيت واحد. عائلة واحدة يبدو كل فرد منها أمام الآخر مرتدياً الجلباب أو البيجاما دون حرج !.. وصاح به واحد من الزملاء : صباح الخير يا استاذ محيي .. كل سنة وانت طيب ؟!.. واجاب محيي في صوت سليم لا يرتعش ولا يتردد : وانت بالصحة .. انه يعرف هـــذا الصوت .. انه الصوت الذي كان ينطلق من خلف الزنزانة رقم «١١».. وعاد الصوت يدعوه : اتفضل .. وخطا محيي خطوتين نحو الفناء ، وهو يتلفت حوله بحثاً عن عبد الحميد .. ولمحه آتياً نحوه ، فاندفع اليه .. ووقف الاثنان ينظران أحدهما الى الآخر ملياً ، كأن كلا منهم يتعرف على الآخر من جديد .. ثم شد كل منهما على يد الآخر ، وهما يبتسمان في تكلف ثم لم يتمالكا نفسيهما فاندفع كل منهما في أحضان الآخر يضمه الى قلبه ، وقال عبد الحميد يربت على ظهر ابن عمه :كل سنة وانت طيب يا ابن عمي !.. وقال محيي في حرارة : وانت بالصحة يا عبد الحميد ..

وقال عبد الحميد وهو يبعد محيي من بين ذراعيه : باين فرجت ؟!..

وقال محيي : على الله ..

ولمعت نظرات الذكاء الحاد في عيني عبد الحميد،ومال أذن على محيي هامساً :

– أوعى تقول حاجه المسألة لسه ما انتهتش !..

وابتسم محيي ابتسامة صغيرة كأنه يستخف بذكاء ابن عمه وقال : ماتخافش

ثم سارا جنباً إلى جنب نحو زملائهما .. ومحيي لا يزال يشعر بشعوره القديم الذي كان يشعر به كلما سار بجانب عبد الحميد .. شعوره بأن له سنداً قوياً .. بأنه ليس وحده . شعوره بأنه يستطيع ان يكون هو وابن عمه على الغريب ورغم

ذلك فقد قضى محيي ليالي كثيرة يتعذب بعبد الحميد .. في المستشفى وفي السجن ليالي قضاها يسائل نفسه : هل صحيح ان عبد الحميد هو الذي ابلغ البوليس ؟. هل صحيح ما قاله اليوزباشي الدباغ ؟ وكان هذا التساؤل يقرع رأسه كالمطارق الثقيلة . يحاول ان يتخلص منه فلا يستطيع ، ويحاول ان يقنع نفسه ببراءة عبد الحميد فيتذكر المفكرة الصغيرة التي عرضها عليه اليوزباشي الدباغ.. مفكرة عبد الحميد التي سجل فيها بخط يده نمرة تليفون همام بك ، والنائب العام..وبعد أيام وليال كثيرة استطاع أن يخرس هذا التساؤل .. ان يخفيه في عقله الباطن.. ان عبد الحميد سجن مثله ، وتعذب مثله ، ولم يعترف .. ألا يكفيه هذا .. حتى لو كان عبد الحميد قد حاول أن يبلغ البوليس ، فيكفيه أنه عدل عن محاولته ..

ولكن عقله الباطن لا يزال يلفظ نفس التساؤل إلى عقله الواعي بين الحين والحين .. فيقلقه ، وتعود المطارق الى رأسه .. ورفع عينيه الى وجه عبدالحميد كأنه يحاول ان يكتشف الحقيقة.. ولكنه لم يكتشف شيئاً ، كل ما اكتشفه ان عبد الحميد يبدو مهموماً .. ترى لماذا يبـــدو مهموماً ؟ وانضما الى زملائهما .. ورحب بهـــما زملاؤهما كبطلين .. تحملا العذاب .. ولم يعترفا ، ثم انخرطوا جميعاً في حديث واحد .. وكانوا يتحدثون عن ابراهيم ..

وكانت الاخبار كلها قد وصلتهم .. والخطابات الصغيرة المهربة حملت اليهم كل التفاصيل التي لم تنشرها الصحف .. انهم يعلمون ان ابراهيم هاجم معسكر العباسية .. ويعلمون مدى الخسائر التي أوقعها بالانجليز .. ثلاثة قتلوا .. وخمسة عشر جرحوا .. وانفجرت دبابتان ، وأربع سيارات لوري .. وقـــد طارد الانجليز ابراهيم داخل المعسكر .. طاردوه بالرصاص . والكلاب المدربـة .. وأصابوه برصاصة في كتفه . ورغم ذلك استطاع ان يخرج حياً.. ثم سقط شهيداً صريعاً برصاصة ضابط بوليس مصري .. وهم يعلمون ان الانجليز ثائرون ، وانهم قد يطلبون إسقاط الحكومة .. ويعلمون ان البوليس قد سلم الجسد الطاهر .. جسد ابراهيم .. الى اهله وأجبرهم على ان يدفنوه ليلاً .. وبلا جنازة ، وبـــلا احتفال .. ثم انطلق رجـــال البوليس كالكلاب المسعورة تفتش بيوت الطلبة والعمال ، ويقبضون عليهم . ويضعونهم في معتقل أقيم في ضاحية الزيتون ، رهن التحقيق .. ولا تزال حملة الاعتقالات مستمرة ..

وكان اكثر من واحد يشترك في رواية قصة ابراهيم . ولم تكن في نبرات أصواتهم رنة حزن يائس ، بل كان كل منهم يتكلم كأنه يعيش في القصة .. كأنه هو البطل..وفي نبراته رنين أحلام ثائرة تدفعه لأن يبالغ قليلاً في سرد التفاصيل ، ويضيف عليها من خياله صوراً جديدة من صور البطولة .. والذين لم يتكلموا

كانوا يستمعون بعيون متسعة ، وأنفاس مبهورة ، كأنهم يشاهدون فيلماً سينمائياً مثيراً .. ثم يتعدون بخيالهم ما يسمعون فيتصور كل منهم نفسه داخل معسكر الانجليز يلقي بالقنابل وأصابع الجلجنايت.. وكان محيي يستمع كأنهم يتحدثون عنه .. إن القصة تبدأ به . انه اشترك فيها فعلا . لولاه لما استطاع ابراهيم أن يدخل معسكر الانجليز ويثير فيه الرعب .. وكان وهو يستمع يحس ببطولة ابراهيم اكثر مما يحس باستشهاده .. كان يحس به في خياله بطلاً حياً اكثر مما يحس به شهيداً مقتولاً .. وكان يحس بالثورة ، اكثر مما يحس بالحزن .. كأن ابراهيم لم يمت .. ولن يموت .. انه يعيش دائماً في صدره ..

وقال واحد من الزملاء كأنه يحلم: الواحد نفسه يشتغل شغلانة زي دي ..

وقال ثان وهو يضع يده في فتحة جلبابه : الحكاية لازم تكبر يا جماعة .. البلد لازم تعمل حاجة !! وقال آخر وهو ينبش الارض بأصابع قدمه: أنابلغني ان الجامعة حتضرب بعد اجازة العيد .. وحايخرجوا في جنازة صامتة ..

وقال ثالث ، وقد التمعت في عينيه نظرات ثائرة : واحنا كمان لازم نعمل حاجة .. متهيألي نقوم نكسر السجن وننزل ضرب في العساكر ..

وقال رابع : حقنا نضرب عن الطعام النهار ده !

وأطل آخر برأسه .. شاب اسمر .. عيناه واسعتان ، وأنفه ضخم كأنه رأس سهم موجه إلى اعدائه.. وشفتاه رقيقتان فوق ذقن عريض قوي .. وقال في صوت هادىء بطيء كأنه لم يتعود الكلام الكثير :

– المهم نخرج من هنا .. علشان نعرف نشتغل بره! ووقعت هذه الكلمة في اذن كل منهم كأنها إيحاء بتتيير اتجاهه.واقتنعوا فعلاً بأن مشكلتهم الاولى هي ان يخرجوا من هنا .. أن يخرجوا من السجن ، ليهبوا حريتهم مرة ثانية للثورة التي يؤمنون بها ..

ولكي يعجلوا بخروجهم من السجن يجب ان ينتهزوا فرصة التخفيف عنهم ويمالئوا البوليس .. ويحتفظوا بهدوئهم ويتنكروا في ثوب المظومين الضعفاء ..

ونظر محيي الى زميله ذي الانف الكبير ، وأحس انه يرى أمامه ابراهيم .. انه يتكلم على طريقته .. ويصرح بآرائه في نفس اسلوبه .. الاسلوب الذي لا يحمل لهجة الامر ، ولا سلطة الزعامة .. أحس انه امام بطل جديد يتم رسالة بطل شهيد !! وعاد الزملاء يتحدثون من جديد بعد ان نبذوا فكرة الثورة داخل السجن .. وكان كل منهم يروي ذكرياته الوطنية.. وذكريات المظاهرات التي اشترك فيها .. السجون التي دخلها .. وذكريات المرات التي حقق معه فيها.

وكانوا يروون هذه الذكريات وهم يضحكون.. كأنها نكات سمعوا بها.. وليست عذاباً عاشوا فيه .. ومحيي واقف صامت .. انه ايضاً يريد ان يروي ذكرياته. يريد ان يقول لهم ان ابراهيم اختبـــأ في بيته .. ثم يضحك عندما يقص عليهم كيف اختبأ ابراهيم مرة في السندرة بين بلاليص العسل وصفائح السمن.. ثم كيف ذهبت أخته لتتفق على خطة هربه مع فتحي المليجي . يريد ان يثبت لهم انه هو الآخر مثلهم .. لا يقل عنهم بطولة.. ولكنه لا يتكلم ان حرصه يلجم لسانه انه لن يتكلم ابداً .. لقد قرر ان يحبس ذكرياته في صدره . والى الابد ..

ورفع عينيه الى عبد الحميد . ربما كان هو الآخر يريد ان يتكلم .. يريد ان يلقي بنصيبه في سوق الذكريات .. ولكن عبد الحميد كان صامتـــاً ، منكس العينين .. يبدو مهموماً !..

وتعب احد الزملاء من وقفته ، فدخل الى زنزانته ، وشد البطانية من فوق سريره ، وعاد بها وفرشها على الارض وجلس فوقها مسنداً ظهره الى الحائط . ولحق به زميل آخر ، جلس بجانبه ثم انطلق يغني بصوت حالم ولحن حزين .. أغنية حب محروم : أول ميعاد خلفتيه .. تاني ميعاد برضه خلفتيه ..

تالت ميعاد شوفي رأيك فيه .. راح تخلفيه ، ولا حتوفيه ..

يا حمام .. روح قوام لحبيبي .. يا حمام .. ده البعاد زود نحيبي ..

ورفع عبد الحميد عينيه ، وتلقى النغم الحزين بأذنيه .. وأحس بقلبه يخفق ، ويطير .. يطير الى سامية حتى يصل اليها ..

ودهش محيي وهو يلتقط كلمات الاغنية . انها اغنية لم يسمعها من قبل .. كأنه دخل الى عالم كل شيء فيه جديد عليه حتى أغانيه ..

وتسلل بقية الزملاء نحو الصوت الحزين .. ثم جاء احدهم ببطانيته وفرشها بجانب البطانية الاولى .. وبطانية ثالثة .. ورابعة .. وجلس كل المسجونين على الارض ، وبدأوا يغنون معاً .. ثم مـــا لبث ان انقلب اللحن الحزين الى لحن راقص ، اختلطت فيه اصوات غليظة ، وأصوات مبحوحة وأصوات رفيعة .. والايدي كلها تصفق صفقات منتظمة .. وقهقهات عاليـــة .. ونكات تقاطع الاغنية .. وواحد يرقص بكتفيه .. ثم قـام زميل ووقف في وسط الحلقة ، وأشار الى زملائه بالسكوت ، ثم قال في لهجة مذيعي محطة الاذاعة :

– هنا سجن الاجانب .. افحص .. سيداتي (ونظر الى جنـــود السجن المتفرجين بجانب الزنازين ، وضج الزملاء بالضحك ثم استطرد وهـو يلتفت الى زملائه) وسادتي .. نبدأ برنامج العيد المبارك بأغنية ياللي زرعتو البذنجان .

ويلقيها الزميل علي محمود .. وأحب ان اقول لكم ان الزميل ولو انه من اعيان سجن الاجانب الا انه ليس اجنبياً . كما انه تواضعاً منه يقبل اي سيجارة تقدم له على سبيل ابداء الاعجاب .. وبدأ الزميل يغني أغنية فكهة .. والضحكات تتعالى .. وصرخ جندي من بعيد : بس يا افندي انت وهوه ممنوع الزيطة ..

ونظروا اليه بعيون ثائرة ،وردوا علىصراخه بصراخ أعلى : ايه.. عايز ايه؟

وأدار الجندي رأسه ، كأنة يهرب من عيونهم .. وسكت ..

وصاح زميل منهم : ما تزعلش ياشاويش . ان شالله تترقى وتبقىمسجون!

وضج الزملاء بالضحك ..

ثم قام المذيع وأعلنعن مسابقة فيالنكت ، وبدأ كل واحد منهم يروي نكتة وعقب كل نكتة ترتفع ضحكات صاخبة ، كأنها صراخ المظلومين وضحك محيي. ضحك كما لم يضحك أبداً طول عمره .. انه عالم غريب .. عالم يضحك فيه الناس من العذاب . وضحك عبد الحميد .. وكانت ضحكاته ابتسامات خافتة تتسلل من بين همومه .. ثم اشتدت حتى اصبحت ضحكات اقوى من همومه .. وأحس انه بين اصدقاء يحبهم .. وكأنه جالس معهم في المقهى الذي تعودوا انيجتمعوا فيه .. وبدأت شخصيته تتجمع لتبدو على طبيعتها .. وبدأ يستعد ليروي هو الآخر نكتة يساهم بها في المسابقة .. انه يحفظ نكتاً كثيرة .. اكثر ممايعرفه كل اصدقائه مجتمعين .. سيثبت لهـــم خفة دمه ، وذكاءه .. ولكنه تردد في اختيار النكتة التي يبدأ بروايتها .. وقرر الا تكون نكتة خارجة .. سيروي لهم نكتة بيضاء، ثم يتدرج حتى يصل إلىالنكت الخارجة . وتنحنح .. والتفت اليه الزملاء وبين شفاههم ضحكات معلقة تهم بالانطلاق .. ونظر اليه محيي في اعجاب ، ثم ادار عينيه في وجوه زملائه كأنه يقول لهم : هذا ابن عمي ..

وقال عبد الحميد : مر واحد مجنون شاف مجنون تاني بيغسل قطة .. و ..

وارتفع صوت من بين الزملاء : نو .. نو .. نو ..

وظهرت علامات الامتعاض على وجه عبد الحميد ، كأنـــه أيقن ان هؤلاء الجماعة ليسوا من محترفي الاستماع للنكت ورواتها ، ولكنهم من الهواة . من طلبة المدارس لا من زبائن المقاهي ..

ثم أكمل النكتة وقد فقد بعض حماسته : المجنون قال لزميله : « ما تغسلش القطة أحسن تموت » ورد عليه زميله وقال له : « مالكش دعوة » .. سابـــه المجنون ورجع بعد شوية لقى زميله بيعيط والقطة ميتة بين ايديه ..

وارتفع صوت من بين المجموع : لا حول الله .. اما دي حكاية .

وارتفع صوت آخر : انا دمي « فار » !..

وقال صوت ثالث : أمك ..

فرد الجميع : اشمعنى ..

وقال الصوت : بتخربش !!..

وتحامل عبد الحميد على نفسه وقال كأنه يحاول ان ينقذ مركزه :

— لما الدبانة تخبط على باب بيتكم تطل الست والدتك وتقول :

ورد الجميع : اشمعنى ..

وقال عبد الحميد مقلداً مواء القطط باللهجة الانجليزية : نو .. نو .. نو ..

وضج الجميع بالضحك .. ورفع محيي رأسه ونظر الى زملائه متباهياً بابن عمه .. وارتفع صوت يقول لعبد الحميد :

— أيوه كده انفرد .. قول لنا بأه حكاية المرحومة !!

وعاد عبد الحميد يقول مبتسماً : لما المجنون شاف القطة ميتة قال لزميله : « أنا مش قلت لك ما تغسلهاش أحسن تموت »، رد عليه : « ما هي ما متتش من الغسيل » ، سأله : « أمال ماتت من ايه ؟ » ، قال له : « وانا باعصرها » !!

وضج الجميع بالضحك .. وزها عبد الحميد بنكتته ، ولكنهم ما لبثوا ان صاحوا فيه : قديمة ، قديمة ، انت لسه في سنة أولى روضة يا استاذ !

وفجأة برز الباشسجان منتصباً بقامته الطويلة العريضة ، وصاح في صوت جمهوري ، وهو واقف بعيداً عند مدخل الفناء الصغير : محيي الدين مصطفى زاهر .. وسكت الجميع مرة واحدة كأن سكيناً أشهرت فوق أعناقهم ..

والتفت محيي نحو الباشسجان وفي عينيه نظرات تتساءل في اضطراب ..

وعاد الباشسجان يصيح وهو لا يتحرك من وقفته : عندك زيارة ..

واستراح المسجونون ، وعلت شفاههم ابتسامات .. ولكنها كانت ابتسامات حزينه .. تحمل حسرة وتشاؤماً .. ان « الزيارة » لها عندهم معنى ، غير المعنى الذي توحى به .. فما دام البوليس قد بدأ يسمح للأهالي بزيارة المعتقلين ، فمعنى هذا ان مدة الاعتقال ستطول .. ستطول الى شهور طويلة ، الى حد ان يضطر البوليس الى ان يتعب نفسه وينظم زيارات داخل السجن ..

ولم يكن محيي يعلم هذا المعنى الذي يدور في أذهان زملائه . ولكنه قام من مجلسه وهو متضايق ، يشعر بالخجل من زملائه .. لقد كان يعلم ان والده يحاول

ان يحصل على اذن بزيارته منذ مدة .. وكان في انتظار هـذه الزيارة بين يوم وآخر ، ولكنه اليوم لا يريدها ، انها تميزه عن زملائه .. وهو لا يريد ان يميز عنهم بشيء .. لا يريد ان يبدو بينهم كطفل صغير يدلله والده ، ويحاول ان يخفف عنه بزيارته ..

وسار بخطوات بطيئة نحو القسم الخارجي من السجن .. وزملاؤه يتعقبونه بنظرات اختلط فيها الرثاء بالحسد .. وسار عبد الحميد معه حتى الحاجز المقام من اسياخ الحديد ، الذي يفصل القسم الخارجي والقسم الداخلي للسجن وهو يهمس في أذنه : سلم على عمي .. وخليه يطمن ماما وبابا عليّ .. وخليهم يبعتو لي فلوس وحد يروح يقابل مدير الشركة .. ويفهمه الحكاية قبل ما يرفدوني . وخليه يسلم على عمتي ، وعلى نوال . وعلى سامية ..

وتركه عند الحاجز الحديدي .. وخطا محيي خلف الحاجز ، وسار بجانبه الباشسجان ، حتى دخلا مكتب معاون السجن . ووجد والده جالساً هنـاك على أريكة .. كأنه يراه جالساً في غرفة « القعاد » على الاريكة «الاستامبوللي» مرتدياً جلبابه .. وقام الوالد واقفاً عندما رأى ابنه ..

انها المرة الاولى التي يقف فيها له .. وكأنه — بلا تعمد — قد اعتبر ان ابنه قد أصبح رجلاً .. بطلاً .. يستحق الاحترام .. وانحنى محيي يقبل يد والده .. ثم وقف كل منهما يشد على يد الآخر ، ويبحث عن نفسه في عيني الآخر ..

ولم يرتم محيي في احضان والده ، ولم يقبله في وجنتيه .. بل تعمد أن يحتفظ بمسافة تبعده عن والده ، حتى لا يحاول والده ان يأخذه في احضانه .. ولو حدث هذا لاحس محيي بمزيد من الخجل والحرج امام الكونستابل الجالس خلف المكتب في الحجرة ، وأمام الجنود الذين يدخلون ويخرجون .. كان اكثر مايخشاه ان يبدو امام هؤلاء ولداً صغيراً يدلله ابوه ، وليس رجلاً يستحق السجن !

وربما قدر ابوه فيه هذا الشعور ، فلم يحاول أن يحتضنه او يقبله .. وجلسا بجانب بعضهما على الاريكة ، والكونستابل ينصت الى كل كلمة يقولانها .. ولم يقولا شيئاً .. لقد اكتشفا بعد برهة قصيرة ان ليس لدى اي منهما شيء هـام يقوله للآخر .. انما تبادلا عشرات الاسئلة والاجوبة ، كلها تدور حول موضوع واحد .. بدأها محيي وهو يسأل في لهفة يحاول ان يخفيها : ازاي ماما وازاي صحتها .. وازاي سامية ونوال .. والاب يجيب ، ويعود يسأل بدوره عن صحة ابنه .. وعبد الحميد .. وكيف يعيشان ؟ .. وماذا يأكلان ؟ ..

ثم توقف بينهما السؤال والجواب برهة .. كأن كلا منهما قد شبع من الآخر. وكأن كلا منهما يريد ان يعود من حيث جاء .

وقال الاب وهو يتعمد ان يرفع صوته ، حتى يسمعه العسكري : يا ابني اذا كان عندك حاجه قولها .. اليوزباشي الدباغ بك راجل عايز يخدمنا .. لازم تسمع كلامه !.. ونظر إلى ابنه نظرة ذات معنى ، كأنه يكشف له عن خطة خطيرة ترمي الى تضليل البوليس .. وقال محيي : وانا لو كان عندي حاجه ما كنت قلتها من زمان .. إنمـــا انت عارف يا بابا .. انا عمري ما كان له دعوه بحاجه ! وابتسم الأب .. وابتسم الابن . ان الاثنين يشعران بتقـارب بينهما لم يشعرا به من قبل .. انهما يشعران كأنهما صديقان .. رجلان . لم يعـــد الأب ينظر الى الابن كطفل في حاجة الى حمايته ، إنما ينظر اليه كصديق .. كرجـل بجانبه يحمل معه مسؤولية العائلة ويتحمل عنها العذاب .

وهمس محيي بسرعة : يظهر انهم حفظوا التحقيق .. فتحوا الزنازين وسمحوا لنا نقعد مع بعض .. واتسعت ابتسامة الاب . ولكن ابتسامته اختفت سريعاً عندما تذكر ان الفضل في حفظ التحقيق يرجع الى استشهاد ابراهيم .. ولكنه لم ينطق باسم ابراهيم ، ولم يتبادل ذكره مع ابنه .. وانتهت الزيارة .. وعـاد محيي الى داخل السجن يحمل الهدايا والثياب التي جاء بها والده . ورأى زملاءه وقدانفضت حفلتهم الصغيرة.. وبعضهم لا يزال جالساً على الارض فوق البطاطين المفروشة.. وبعضهم قام يتجول في الفناء الصغير .. وبعضهم يغتسل ، أو يتناول طعام افطاره .. وأسرع محيي ووضع كل ما حمله له والده من مأكولات في وسط زملائه الجالسين على الارض.. كأنه يريد أن يتخلص من شيء يثير حوله اتهاماً ، وصاح زملاؤه مهللين ونادوا على المتفرقين : قربوا يا جماعة .. الكحك وصل !!

وفي دقائق كان كل شيء قد اختفى من على الارض ، وانتقـــل الى الايدي والأفواه.. والجنود ينظرون بعيون جشعة.. وشفاه يسيل فوقها اللعاب..وكان محيي قد ترك زملاءه ودخل الى زنزانته وأخذ يبدل ثيابه الداخلية ، وبيجامته ، وعبد الحميد خلفه يسأله الاخبار ، وهو يجيبه في عجلة.. ثم جمع ثيابه التي بدلها ، وبقية ثيابه التي لا يحتاج اليها.. وعاد بها الى الحاجز الحديدي ، وناولها من وراء القضبان لاحد الجنود ليسلمها لوالده حتى يحملها الى البيت لتغسل هناك .. تحقيقاً لوصية والدته .. وعندما عاد الى زملائه لم يجد شيئاً قد بقي ليأكله .. ووقف مبتسماً .. لم يغضب .. ولم يأسف .. بل أحس انه تخلص من عبء كبير .. وانه

استرد مكانته بين زملائه .. وقال له واحـد منهم ضاحكاً ، وهو يناوله نصف كحكة : خد ما تزعلش !! وأخذ نصف الكحكة قائلاً : كل سنة وانت طيب. وأحس انها أحلى قطعة كحك اكلها في حياته .. وفجأة ارتفع صوت صراخ من جانب السجن: ابعد عني يا عسكري ، مالكش دعوه بيه ، أنا باقول لك أهوه! ورد العسكري في صوت أجش : يا أفندي ممنوع .. اسمع الكلام بالراحة !

وعاد الصوت يصرخ : أبعد يا عسكري . غور من وشي!!..

وصاح العسكري : ما تزعقش .. خليك في أدبك !!..

وصرخ الصوت : أدبي يا قليل الادب .. ابعد ايدك عني ..

وتجمع المسجونون حول زميلهم .. وتجمع حولهم جنود السجن .. وبدأت الاصوات تغضب .. ثم اصبحت الاصوات صراخاً.. وارتفع صوت الباشسجان من عند الباب : بس يا مسجون انت وهوه .. كل واحد يدخل زنزانته .. كله يدخل الزنازين .. شده يا عسكري دخله الزنزانة .. وتنبه المسجونون ..

انهم سيعودون الى العذاب الذي عاشوا فيه اسابيع .. وتوترت الأعصاب.. لن ندخل الزنازين .. سندافع عن حريتنا .. سنتحدى هؤلاء المجرمين ..

ومد عسكري يده يحاول ان يجذب سجيناً الى زنزانته ، فعالجه السجـين بلكمة في بطنه ، ولكمة أخرى في وجهه .. وصرخ العسكري .. واشتبك كل المساجين مع كل العساكر.. ومحيي واقف عند باب زنزانته يرتجف..وعبدالحميد في وسط المعركة ، وقد تمزقت ثيابه .. وهو أعنفهم ، وأشدهم ثورة .. وسجين سقط على الارض ومن فوقه جندي يضرب رأسه بكعب حذائه ، وسجين لصق جندياً في الحائط ، وضربه برأسه فوق أنفه فأسال منه الدم .. وسجين يجري هناك .. وجندي يجري في الناحية الاخرى ..

ودخل الضابط الى فناء السجن، وخلفه جنود .. جنود كثيرون .. بعضهم يحمل البنادق.. وصاح الضابط: اقلع القايش يا عسكري انت وهوه، اضرب.. اضرب على طول ! وخلع كل جندي الحزام الجلدي الذي يتمنطق به حول وسطه وهجموا على المساجين.. وضربوا.. لا يهمهم أين تقع الضربة..وارتفع الصراخ.. ان الاحزمة الجلدية تشق الوجوه .. وتذبح الظهور .. والدم .. دم كثـير .. واستطاع سجين ان يخطف الحزام الجلدي من يد جندي .. وبدأ يضرب به .. وعاجله جندي آخر بضربة بمؤخرة بندقيته فوق عظمة كتفه .. فسقط عـلى الارض يتلوى من الالم..

ان المساجين يفرون الى الزنازين ، ويغلقون ابوابهـــا خلفهم بأيديهم .. وهم يصرخون .. ويتأوهون .. وبعضهم سقط على الارض قبل ان يصل الى الزنزانة ، فشده الجنود من شعر رأسه وألقوا به في الزنزانة وأغلقوا الباب وراءه .. ومحيي في زنزاته يرتجف .. وعبد الحميد لا يزال يقاوم . انه أعنفهم .. انه يجري في الفناء الصغير والجنود يجرون خلفه .. ثم يحاصرونه ويضربونه .. انهم كثيرون .. كثيرون جداً .. لم يعد يراهم .. ان دماءه تغطي عينيه .. لم يعد يستطيع ان يقف على قدميه .. سقط .. وشده الجنود ، يجرجرونه على الارض ، وألقوا به في الزنزانة .. وأغلقوا الباب .. الابواب كلها عادت مغلقة .. وخلف الابواب المغلقة ، تأوهات من ألم .. وصوت خافت يصيح : يا مجرمين .. يا ولاد الكلب ..

ونظر الضابط حوله . لقـد أغلقت كل الابواب .. وعاد الى مكتبه .. ومرت الأيام والاسابيع داخل السجن .. وكل يوم يحمل كثيراً من الضحـك ، وكثيراً من العذاب . والزنازين لا تكاد تفتح مكافأة للمساجين عـلى هدوئهم ، حتى تعود وتغلق عقاباً لهم .. وكل سجين يفتح عينيه كل صباح على أمل الافراج عنه ، ويغلقهما كل مساء على يأس مرير .. وعبد الحميد يعاني أزمة نفسية عنيفة ، يحاول أن يتخلص منها بالضحك مع زملائه حيناً ، وبإثارة الشغب داخل السجن حيناً ، ولكن الازمة النفسية ترتد دائماً الى صدره ..

وكان خلال هذه الازمة يبحث عن اسباب فشله . لقـــد قضى في زنزانته ليالي كثيرة مظلمة يحاول عبثاً ان ينكر انه انسان فاشل . ولكنه اخـــيراً اعترف .. اعـــترف لنفسه بأنه انسان فاشل . وبقي أن يبحث عن أسباب فشله .. لماذا فشل ؟! .

وخلال الايام والليالي الطويلة التي قضاها وليس معه إلا نفسه يحادثها ويحاورها بدأت تتضح له خيوط النور .. النور الذي حرم نفسه منه طول حياته ..

انه فشل ، لأنه لم يكن له ايمان .. لم يؤمن بشيء ابداً طول حياته ..

لم يؤمن بالدين ، ولم يؤمن بالتقاليد . ولم يؤمن بمبادىء الاخلاق ، ولم يؤمن بمذهب من المذاهب ولا بزعيم من الزعماء ولم يؤمن بالشهادات الدراسية ، ولم يؤمن بالمجتمع ، ولا بعائلته ، ولا بأبيه وعمه .. لم يؤمن أبداً إلا بنفسه .. وبذكائه .. ذكاء يدور في فراغ ، لا تحده حدود من المبادىء ، ولا يرمي الى هدف معين .. ذكاء يدور كالآلة المنطلقة التي لا تنتج شيئاً ، وليس بجانبها عامل يحكمها .. فتنتهي الآلة بأن تحطم نفسها .. تنفجر .. وتحطم ايضاً ما حاولها .

لو كان يؤمن بشيء ، لكان سعيداً ، مهما صادف من عذاب في سبيل إيمانه ..

ولما شقي بهذا الإحساس بالفشل .. هذا الإحساس الذي يجعله يحتقر نفسه ..

إن عمه سعيد ، رغم انه ليس غنياً .. وسر سعادته انه يؤمن بمجموعة مبادىء حددها له الدين والمجتمع ، ورسم على ضوئها أسلوباً معيناً في الحياة يستريح له ، ويجد شخصيته به .. وأبوه .. سعيد ايضاً .. وهؤلاء الشبان الذين يزاملونه في السجن ، انهم سعداء .. انهم لا يحسون مثله بالفشل .. وهم يتحملون السجن والعذاب بروح مخالفة لروحه .. روح أقوى وأشد إصراراً .. لأن كلاً منهم يعلم انه يتعذب في سبيل مبدأ ومن أجل هدف .. وهذا الايمان في حد ذاته يخفف من وقع العذاب عليهم .. وابراهيم .. انه ليس فاشلاً ، رغم انه مات .. انه بطل .. لماذا اعتبر بطلاً .. لانه مات في سبيل مبدأ ، في سبيل هدف .. ولا بد انه سعيد بميتته حتى انه ابتسم عندما وقع على الارض صريعاً. ودون ان يشعر عبد الحميد ، بدأ يتجه بنفسه نحو الايمان .. انه يصلي داخل السجن بحرارة .. وهو يتبع اسلوباً خلقياً جديداً في معاملة زملائه .. وهو يشعر بحقد كبير على رجال البوليس .. لماذا ؟ لأنهم يعذبونه .. ويعذبون آلاف الشبان أمثاله .. لماذا يعذبونه؟ .. لأنهم في خدمة الانجليز .. والحكومات كلها في خدمة الانجليز .. وبدأ يكره الانجليز .. يكرههم كالعمى انه يريدهم أن يخرجوا من مصر ..

وبدافع تلقائي ، بدأ عبد الحميد يفكر في نيل الشهادة التوجيهية .. ان الوقت لم يفت بعد .. سينال شهادة ، ما دام المجتمع يتخذ الشهادات مقياساً للاحترام .. وبدأ يسأل عن العلوم التي تدرس لطلبة التوجيهية .. وبدأ يهرب الكتب الى داخل السجن ، ويذاكر في الخفاء .. كأنه يخجل من أن يكتشف زملاؤه انه آمن أخيراً بالشهادات .. ولكنه سينالها . سينال الشهادة .. وسينال معها سامية .. ربما كان هذا هو الطريق الوحيد للوصول الى سامية ..

ومحيي في زنزانته يفكر تفكيراً آخر .. انه ليس نادماً على عدم تقدمه الى الامتحان .. وعلى ضياع عام دراسي من عمره .. لقد تعلم في هذه الشهور اكثر مما تعلمه طول حياته ، واكثر مما استطاعت كل كتب ومحاضرات كلية الحقوق ان تضعه في رأسه .. وهو يريد ان يتعمق فيما تعلمه من هذه الشهور .. يريد ان يتعلم اكثر .. تعليماً حراً لا تحده البرامج البي تضعها له الجامعة .. يريد ان يتعلم الحياة نفسها .. وكان يتتبع الأخبار التي تتسرب إلى داخل السجن بشغف كبير لقد أضرب طلبة الجامعة ، وساروا في مظاهرات ضخمة تنادي بسقوط الوزارة.

وسقوط المعاهدة .. والانتقام لابراهيم حمدي .. واستشهد طالب .. اثنان .. ثلاثة .. والقيت قنابل على المعهد البريطاني في الاسكندرية .. وقتل جنديان انجليزيان .. وقتل خائن مصري آخر .. وتكون اتحاد العمال والطلبة .. ان كل الاخبار تصل الى السجن بالتفصيل .. بل وصل اليهم نشيد وضعه طالب صغير في مدرسة ثانوية اسمه صلاح جاهين يقول فيه :

ايام حاتيجي بعـــد ليام دي ..
والشمس من دم ابراهيم حمدي ..
ايام حاتيجي ويبقى عمر جديد ..
والشمس حمرا بدم كل شهيد ..

وردد محيي هذا النشيد ، في سره ، وهو يسائل نفسه : لماذا ؟ انه يكرر دائماً : لماذا ؟.. لماذايقبل الطلبةعلى الاستشهاد ؟ لماذا يلقون انفسهم في السجون؟ لماذا يتحملون كل هذا العذاب.. لماذا يضعون هذه الأناشيد.. لا يمكن ان يكونوا كلهم مجانين .. ولا يمكن ان يكونوا كلهم « بايظين » لا بد ان هنـــاك سبباً يدفعهم ، أقوى من حياتهم ، سبباً لم يعلمه في بيته ووالده يحاصر أفكاره وتحركاته ..

وما هي الوطنية ؟.. وما هو الاستعمار ؟.. وما هو الجـــلاء ؟.. وما هي الخيانة ؟.. وما هو الشعب ؟!.. اسئلة تحيره ، ويحس وهو يتعمق فيها كأنـــه يغوص في بحر لا قرار له ..

ووقع في يده كتاب عبد الرحمن الرافعي عن التاريخ المصري وجده مع احد زملائه .. وقرأه بشغف كبير ووجد فيه بعض الضوء ، فقرأ كل الكتب التي اصدرها عبد الرحمن الرافعي ثم قرأ عشرات الكتب.. كلها تتعلق بموضوع واحد كتب تاريخيه ، وكتب سياسية ، وكتب مذاهب .. وقرأ القرآن ، كما لم يقرأه من قبل .. وقرأ بعده كتاب « رأس المال » لكارل ماركس .. وبدأ يفهم .

بدأ يضع معاني لهذه الكلمات الضخمة ، والشعارات المثيرة التي سمعها كثيراً بدأ يفهم لماذا استشهد ابراهيم ، لماذا يثور زملاؤه .. وأحس بنفسه عنيفـــاً ، متطرفاً في عنفه .. لم يكن عنفاً جسدياً فهو يكره العنف الجسدي .. وطول مدة حياته في السجن لم يشترك في معركة واحـدة أثارها زملاؤه ، ولم يعرض نفسه للاحتكاك بالجنود .. وعرف في السجن بهدوئـه وانزوائه .. واتزانه .. ولكن العنف كان في رأسه.. لقد أصبح يحمل فيها آراء جديدة صائبة تصل إلى الهدف مباشرة ، وتثير أمة بأكملها .. وفي ذات صباح .. صباح كان فيه اكثر

يأساً من أي صباح آخر ، سمع صوت الباشجان يصيح من طرف الفناء الصغير الذي يتوسط الزنازين : محيي الدين مصطفى زاهر ..

والتفت اليه صامتاً .. فعاد السجان يصيح : هات هدومك ، وتعال .. افراج!

وبهت محيي . لم يصدق اذنيه .. ثم احس بقلبه يخفق بشدة كعصفور فوجيء بباب قفصه مفتوحاً .. سيخرج الى الحرية .. الى الحياة .. الى بيته .. وحاول ان يكتم فرحته وان يخفيها عن زملائه ، حتى لا يجرحهم بها .. ووجد نفسه محرجاً ، لا يستطيع ان يبدي اسفه لمفارقة زملائه ، لأنه يريد الحرية .. ولا يستطيع ان يفرح بالحريه .. لأنه نالها وحده دون زملائه ..

ومرت فترة صمت بينه وبين زملائه ، ثم انطلق الزملاء مهللين «مبروك ياعم» « اوعى تنسانا » ، « نشوفك قريب باذن الله » وكان في تهليلهم رنة افتعال لا تخلو من حسد .. وتقبل تهاني زملائه .. وقبلاتهم .. وجمع هدومه .. وصافح زملاءه واحداً واحداً ، وشد على يد عبد الحميد قائلاً : الدور عليك يا ابو عبده!

وخرج منطلقاً ، ووقف أمام الكونستابل ، يملي البيانات التي يطلبها منه ..

وطلب منه الكونستابل ان يوقع على تعهده بعدم اشتغاله بالسياسة ..

وابتسم محيي ابتساهة خافتة .. انه لم يعد يستطيع ان يتعهد بعدم الاشتغال بالسياسة .. أن السياسة أصبحت في رأسه وفي قلبه . أصبحت في دمه ، ولكنها لا تسمى « سياسة » ، انما تسمى وطنية ..

ووقع بامضائه على التعهد الذي قدم اليه ، وهو يعلم انه يتعهد كاذباً ..

وهمّ أن يتحرك ليخرج من السجن .. ففوجيء بباب السجن يفتح ، ويدخل منه اليوزباشي الدباغ وخلفه اثنان من الجنود يسوقون أمامهم طالباً شاباً ..

وانحرف الدباغ إلى غرفة المأمور دون أن يلمح محيي ..

وساق الجنود الطالب المقبوض عليه إلى غرفة الكونستابل ، ورفع الكونستابل رأسه ، ثم عاد وخفضه وبدأ يسجل بيانات جديدة ، ثم صاح في الجنود :

– حطوه في نمرة « ٨ » اللي فضيت دلوقت !!

وهز محيي رأسه ، دون أن يشعر بأسف على مصير السجين الجديد ..

انه يعلم الآن الاساليب ..! ويعلم ان المعركة لن تهدأ .. وخرج من السجن ..

ومرت السنين .. ان البيت واحد من ملايين البيوت .. يبدو من بعيد بيتاً هادئاً ، طيباً ، ساذجاً ، يقف الزمن على بابه ، فلا يتقدم ولا يتأخر .. بيت من ملايين البيوت التي تبدو من بعيد كأنها لا يمكن أن تكون مصانع للثورة ، أو مصانع للأبطال ..

والأب قد عادت حياته منتظمة رتيبة .. يحكمها « المنبه » الموضوع بجانب فراشه .. ولا يزال ينسج حياته ومستقبل اولاده بحرص ودأب وكثير من الحذر .. كل ما تغير فيه انه احتفظ بعادة قراءة الجريدة قبل ان يذهب إلى عمله .. وانه أصبح يتذوق الحديث في السياسة والتعليق على الأنباء ويطيل في هذا الحديث حتى تكونت له عادة البحث عن أصدقاء يستمعون له ويستمع لهم .. وكان يدعو هؤلاء الأصدقاء إلى بيته ، ثم اصبح يذهب إلى بيوتهم ، ثم تشجع واصبح يتسلل في بعض الأمسيات إلى المقاهي بحثاً عن هؤلاء الأصدقاء .. ثم تكونت له عادة الجلوس في مقهى خاص ، تعود أن يستريح إلى حديث رواده ، ويستريح إلى أن يتحدث اليهم .. وكان في حديثه ينحاز دائماً إلى أحد الجانبين .. لقد اختار موقفه .. انه مع الناس وضد الحكومة .. ومع كل الناس ، وضد كل حكومة .. لم يعد يكفيه أن يقف بقلبه موقف المتفرج .. ولم يعد يكفيه أن يستعيض بذكريات ثورة ١٩ ، عن واقع الثورة التي يعيش فيها .. ان قلبه لا يتفرج الآن ، انما ينفعل .. وانفعاله لا يتعدى مجرد الحديث ، ولا يصل إلى أبعد من لسانه .. ولكنه ينفعل .. ويأمل .. يأمل أن تسقط هذه الحكومة ، وتسقط الحكومة التي تليها .. ثم التي تليها .. كل الحكومات يجب أن تسقط .. وأمله لا يتعدى سقوط الحكومات .. ثم لا يريد شيئاً بعد ان تسقط الحكومة الا أن تسقط الحكومة التي تليها .. أو هو لا يدري ماذا يريد .. لا يدري كيف يحل مشكلته ، ومشكلة الملايين .. ولا يدري أين تنتهي هذه الثورة التي تعتمل في صدره .. وقد تغيرت النظرات في عينيه .. أصبحت نظرات تحمل معنى السخط والامتعاض .. وأصبح كلما التقى بشاب أو طالب في الجامعة نظر اليه كأمل كبير .. أمل في تحقيق الثورة .. كأنه يبحث وراء كل شاب عن بطل جديد أو عن مظاهرة .. وهذه النظرة

الجديدة هي التي أصبح ينظر بها الى ابنه .. انه اكتشف أن ابنه لم يعد طفلاً .. ولم يعد يمثل جيلا أقل احتمالا من الجيل الذي سبقه .. انه أصبح يمثل أملا .. أصبح يمثل مسؤولية كاملة تشمل مصير البلد كله . وقد اثبت ابنه انه رجل يستطيع ان يتحمل المسئولية . تحمل المسئولية عن العائلة كلها عندما دخل السجن وهو وزملاؤه يستطيعون ان يتحملوا مسئولية مصر كلها .. وكان أمله في ابنه يشوبه كثير من الخوف .. الخوف عليه .. ولكن هذا الخوف لم يعد يدفعه إلى محاصرة ابنه والتضييق عليه ، انما كان يدفعه الى الرجاء .. رجاء الا يتهور ابنه ولا يندفع ، وان يسلم له . موضوع واحد كان يمنع نفسه عن الحديث فيه .. موضوع ابراهيم .. ان حذره الطبيعي يذكره بان الامر العسكري الخاص بعقاب كل من يساعد ابراهيم على الهرب ، لا يزال قائماً .. وهذا الحذر يجسم له خطورة الموقف الوطني الذي اتخذه من ابراهيم ، وما يمكن أن يترتب عليه من اضطهاد الحكومة له .. قد يفصل من عمله ، وقد يقبض عليه ، أو قد يقبض على محيي من جديد . انه حذر .. متشدد في حذره .. وكلما جاء ذكر ابراهيم في حديث اصدقائه ، سكت .. لا يقول شيئاً .. لا يحيي حتى بطولة ابراهيم بكلمة .. كان الحديث عن بطولة ابراهيم هو الحديث عن بطولة بيته .. وبطولة ابنه ، وبطولة ابنتيه .. ولم يكن حديث ابراهيم يأتي ذكره حتى في البيت ، الا في كلمات خاطفة ثم يتعاون الجميع على بتر هذا الحديث كأنهم يخشون ان تكون للجدران آذان .. أو كأنهم يخشون ان يثيروا ذكرى عزيزة يحرصون عليها في صدورهم ويضنون بها على السنتهم .. وربما اتصل هذا الحديث عندما يخلو الأب الى زوجته في غرفتها .. ولكنه لا يتصل طويلاً فيسكت عنه الاثنان .. ويستلقي الأب على ظهره يتنهد في ارتياح ، كأنه يهنىء نفسه على قيامه بواجب كان يجب أن يقوم به .. وتتنهد الأم كأنها تترحم على روح الشهيد ..

والأم الطيبة .. عادت الى حياتها بين حجرات البيت ، وفي المطبخ .. لم تترك الحوادث فيها من اثر الا انها أصبحت أكثر لهفة على ابنها .. لقد اكتشفت حقيقة كانت تجهلها ، وهي ان في مصر سجونا ، وفي السجون تعذيب .. وان ابنها يمكن أن يدخل السجن . ويمكن ان يقتل كما قتل ابراهيم ..

ان مصر ليست هي سكان العمارة .. وليست هي هؤلاء الجيران الطيبين .. وليست هي اولياء الله الصالحين الذين تعودت ان تزور أضرحتهم بين الحين والحين .. وليست هي عم عوض البقال والمعلم فتيحة الجزار .. وليست هي هذا

الجندي البريء الذي يقف عند ناصية الشارع .. ان في مصر قوماً آخرين .. قوماً لم تكن تعرفهم .. قوماً يقتحمون بيوت الناس ، ويقبضون على الناس ، ويسجنون الناس ، ويعذبون الناس ، ويقتلون الناس ..

وهي تخاف على ابنها من هؤلاء القوم .. تودعه كل صباح وهي تقرأ حوله آيات من القرآن ، وتستقبله بفرحة كأنه رد اليها من العالم الآخر .. فاذا تأخر بعض الوقت عن موعده استبدت بها اللوعة ، وسرحت عينيها من خلال نظرة فزعة ، ترى بها الدنيا كلها ظلاماً ، وصراخاً ،ودماء .. وتكتم فزعها في صدرها وتترك ما في يدها من مهام البيت .. وتبحث عن ابنتيها لتجلس بينهما صامتة ، كأنها تحتمي بهما من وساوسها .. إلى ان يعود محيي ، فترتد اليها الروح وتعود تطوف بين الحجرات وتستقر في المطبخ .. وقد عاشت هـــذه اللهفة طول هذه السنين .. لم تستطيع أن تقاومها أو تخفف من حدتها .. حتى بدأت اللهفة تأكل من جسدها المكتنز ومن وجهها المبتسم دائماً فأصيبت بضغط الدم ، ثم اصيبت بمرض السكر .. فذوى جسمها ، وتهدل جلدها وتعبت ابتسامتها .. لم تعد ابتسامه اقبال، بل اصبحت ابتسامة استسلام .. ولكنها ظلت صابرة.. تطوف بحجرات البيت وتستقر في المطبخ ، وهي تكتم آلامها ووساوسها حتى لا تزعج بها احداً من احبائها ..

وسامية .. لقد تزوجت ..

تزوجت عبد الحميد .. وقد نال عبد الحميد شهادة التوجيهية في نفس العـام الذي خرج فيه من السجن .. ثم انتسب طالباً في كلية التجاره .. وظل في نفس الوقت موظفاً في الشركة .. ولم ينقطع عن التردد على بيت عمه .. لقـد اصبح اصبح يربطه بهذا البيت شيء اكبر من القرابة ، ويكاد يساوي حبه لسامية .. اصبح يربطه به سر مشترك وعذاب مشترك ، وذكرى مشتركة .. واصبح محيي بالنسبة له اكثر من ابن عمه.. انه صديق..انه رجل بجانبه .. انه فكرة وطنية يتبادلها معه .. لم يعد بينهما شك .. ولم تعد بينهما هذه الريبة التي كانت تثور في صدر محيي تجاه ابن عمه .. ولا هذا الاستخفاف الذي يملأ صدر عبد الحميد تجاه محيي .. كلاهما آمن بالآخر .. ومناقشاتهما السياسية لا تهدأ أبداً .. والاب فرح بهما هما الاثنين .. لقد اصبح عبد الحميد قريباً الى قلبه .. لم يعد ولداً «بايظ» ولم يعد زواجه من سامية امراً بعيد الأحتمال ..

ولكن عبد الحميد لا يفاتح عمه في زواجه من سامية ، ولا يحاول ان يذكره

بوعده .. لقد قرر بينه وبين نفسه الا يتقدم مرة ثانية طالباً الزواج الا بعد ان ينال بكالوريوس التجارة . لقد آمن بالشهادات .. لم تعد ثقته في ذكائه تكفيه ليطمئن الى انه يصلح زوجاً لسامية . وكل ما كان يرجوه هو الا يتقدم لها احد قبله .. ولم يكن يدري ما يفعله لو تقدم اليها شخص آخر .. ربما ثار ، ربما اختطفها ، ربما حطم حياته . ولكنه لم يكن يفكر كثيراً في هذا الاحتمال .. كان يحس في اعماقه ان ساميه له ، وانه اصبح يستحق سامية ..

وإذا كان قد سكت فترة عن موضوع الزواج ، فإن حبه لم يسكت .. كان حباً ثرثاراً يتكلم في هذه النظرات التي تطوف بينه وبين سامية وفي هذه الابتسامات التي يتبادلانها ، وفي هذه المشاحنات الصغيرة التي لا تنتهي .. وكان الحب يصرخ في هذه الأوامر الصارمة التي يصدرها لابنة عمه .. لا ترتدي هذا الثوب .. لا تكشفي عن ذراعيك .. لا تلبسي هذا الكعب العالي .. لا تضحكي هذه الضحكة العالية .. لا تمشي هذه المشية الخليعة .. اوامر لا تنتهي .. يفتعلها احياناً افتعالاً .. ويصدرها باسم حقوقه كابن عم .. ولكنه لا يصدر مثلها لنوال !

وسامية تتلقى هذه الأوامر فرحة بها .. وقد يمر يوم أو يومان لا يصدر اليها أمراً .. ولا يثير مشاحنة ، فتحس كأنه بعد عنها .. كأنه أقل حباً .. كأنه نسيها ..

كانت قد عادت له بكل ما كان لها في طفولتها وصباها من سذاجة ، وثقة .. تنظر اليه كأنه انسان كبير جداً ذكي جداً .. يفهم من الحياة ما لا تفهمه وما لا تعرفه حتى أنها لتخاف الحياة أن تتخلى عنها ، وعادت بنفس الشعور الذي كان لها عندما كان زواجها أمراً متعارفاً عليه بين أفراد العائلة ، تطيعه ، وتنتظره ، وتخافه .. وتعيش على أمل الزفاف .

ولم يسكت حديث الزواج طويلاً .. أصبح همساً بين الاختين ، ثم أصبح همساً بين الأم والأب .. ولم يعد أحد يشك في أن سامية راغبة في الزواج من عبد الحميد ، ولم يعد أحد يعترض على زواج عبد الحميد من سامية ..

إلى أن قالت الأم يوماً لعبد الحميد : يابني انتو حتفضلو مخطوبين كده في السر .. ما خلاص بأه .. أنا عايزه افرح ،، ووري فرحتي للناس ..

وقال عبد الحميد والفرحة تملأ صدره : أنا كنت مستنى يا عمتي لما آخذ الشهادة ..

وقالت تقاطعه : وماله يا اخويا .. على بال الخطبة وكتب الكتاب تكون خدت الشهادة بإذن الله ..

واعلنت الخطبة للناس ..

ومر عام ، وتم عقد القران ..

وعبد الحميد يقبل على دروسه ليحقق الزفاف ..

وهو في خلال ذلك لم يهمل المبادىء الوطنية التي خرج بهـا من السجن .. وكانت العقدة النفسية التي ترقد في عقله الباطن تدفعه إلى التطرف في وطنيته .. والى الاشتراك في اعمال العنف.. كان يشترك في المظاهرات .. ويطوف على دور الاحزاب يشترك في نشاطها حيناً الى ان يكفر بهذا الحزب فيبحث عن حزب آخر .. وكان اذا سمع بقنبلة القيت في مكان ما أحس بالكمد لانه لم يشترك في القائها واذا رأى منشورات توزع دار يبحث عن موزعها ليشترك معه في توزيعها كان يلقي بنفسه في كل عمل وطني يصادفه. لم يلهه حبه ، ولا استعداده للزواج، عن المغامرة بكيانه وحياته في سبيل المبادىء التي آمن بها .. وفي سبيل التكفير عن خطيئته الوطنية .. ولكن وظيفته في الشركة كانت تبعـده عن محيط الطلبة .. وعن محيط الفئات التي تنوي الأعمـــال الفدائية ، وكان الملف الذي يحتفظ له به البوليس السياسي يسجل عليه ضعفه السابق، فأعفاه البوليس السياسي من مراقبته ، وابعده عن يده..

وسامية بجانبه تخاف عليه من حماسته .. وتخاف عليه من مصير السجن مرة أخرى ، وتتصوره بطلاً وطنياً فتخاف عليه مصير ابراهيم .. ولكن خوفها لم يمنعه من اندفاعه .. بل كان يتلذذ بخوفها ويزهو به ، فيزداد اندفاعاً ..

إلى أن نال الشهادة الجامعية .. وتزوجا .. وعاشا مع العائلة في بيت واحد.. وبدأ عبد الحميد جهاداً جديداً في سبيل الحياة .. جهاداً في سبيل تكوين نفسه كرجل ناجح ، صالح ، رب عائلة ، يسير على مبادىء مرسومة يحدها احساس وطني صادق ، ويدفعها ندم دفين على خطيئة سابقة ..

ونوال .. لقد قضت عامين .. وكل ما بقي لها من الحياة ذكرى قصيرة لحب لا يموت.. ومصحف ذهبي تعلقه في رقبتها يضم ورقة عليها شهادة « لا إله الا الله » مكتوبة بخط ابراهيم هي كل ما تركه لها حبيبها قبل أن يرحل ..

وفي خلال هذين العامين كانت التجربة العنيفة قد صهرتها .. لم تعد هـــذه الفتاة المرحة الجريئة .. ولم تعد عيناها تومضان بهذا النشاط الضاحك .. ولم تعد عيناها تومضان بهذا النشاط الضاحك.. ولم تعد تهتم كل هذا الاهتمام بثيابها . ولم تعد تترك ضفيرتها مسدلة فوق كتفيها ، ولم تعد تطيل التحديق في الصور التي تنشرها المجلات لتقتبس منها ثوباً ، أو عقصة شعر ..

أصبحت فتاة كبيرة.. كبرت مع التجربة .. وأصبح طابعها طابعا حزيناً.. حزينة في نظرات عينيها ، وحزينة في ابتسامتها، وحزينة في تصرفاتها ..ولكن حزنها كان يبدو كأنه تعقل .. كأنه تزمت .. وأشاع حولها جواً من الاحترام، ابوها يحترمها ولم يعد ينهرها ، ولا يعيب عليها تصرفاتها .. فلم يعد في تصرفاتها ما يعاب. وأمها ومحيي ، وعبد الحميد، وصديقاتها والجيران.. الكل يحترمها.. وسامية وحدها هي التي تعلم سر هذا التبدل الذي ألم بها ، وتسكت عنه ، وتحترمها كالآخرين ، ولكنها – دون الآخرين – تحترم حزنها ، وفجيعتها ، وحبها ، وذكرياتها القصيرة .

هذا الاحترام جعل العائلة كلها ، تقدر لنوال رأيها فيما يعرض من مشاكل.. لم تعد في نظر العائلة أصغر أفرادها ، بل أصبحت أعقلهم .. وأحست نوال بهذا الاحترام ، وهذا التقدير لرأيها ، فاتخذت منه عوضاً عن فجيعتها .. وأصبحت تفكر كثيراً قبل أن تقول رأيها في هذه المشاكل الصغيرة التي تعرض للعائلة .. ثم تعلن رأيها في هدوء وروية ، كأنها زعيمة .. كأن البطل يعيش في صدرها وينطق بلسانها .. كأن ابراهيم دائماً معها !

إلى أن جاء يوم ، كان عليها فيه أو تتخذ قراراً خطيراً ..

لقد تقدم لها طبيب شاب ، شقيق احدى صديقاتها ، يطلبها للزواج .

كان عليها وحدها أن تقرر ..

ان أباها لم يجبرها على الزواج ، وهي لا تحب هذا الشاب ..

انها لا تزال تعيش في ذكرى حبها لابراهيم ..

ولكنها يجب ان تتزوج .. ان الزواج مصير كل فتاة .. انه الوظيفة التي تعد لها كل فتاة والتي أعدها لها أبوها منذ ولدت ..

ليس من حقها ان تعيش عاطلة بلا وظيفة !! وكيف تعيش .. اين ؟!

ان المجتمع يدفعها الى الزواج .. لا إلى الحب .. والعائلة تنتظر لها ان تتزوج لا أن تحب ! وقررت ان تقبل هذا الزوج الطبيب !

قررت ان تقوم بوظيفتها .. أن تقوم بها على خير وجه .. وأن تكون زوجة صالحة ؟! وتزوجت .. قبل اختها سامية !

وقبل الزفاف ، أخرجت قميص ابراهيم الذي كانت تحتفظ به في دولابها .. وحملته بين يديها ونظرت اليه طويلاً ، كأنها ترى بداخله صدر البطل .. ثم سارت به الى اخيها وفي عينيها دموع لا تنهمر ، وقالت في صوت خفيض :

– ده قميص المرحوم ابرا ... ولم تتم ذكر الاسم .. كأن قلبها سينطلق من فوق لسانها لو نطقت اسمه .. ثم خرجت مسرعة ..

انها لن تدخل بيت زوجها ، وبين ثيابها قميص رجل آخر ..

ولكن المصحف الذهبي لا يزال معلقاً فوق صدرها ، يضم الورقة التي تحمل خط ابراهيم .. كأنها لا تزال تنتظر لقاءه ، لتضع ورقته بجانب ورقتها ، وتتم شهادة « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » !!

لعلها ان لم تلتق به في الارض .. تلتقي به في السماء !

وعلى الارض ، عرف الناس عنها انها خير الزوجات .. وان زوجها أسعد الأزواج .. وفي السماء .. أمل لا يعلمه الا الله ..

ومحيي ..

ان التغيير الكبير الذي ألم بتفكيره ، ألم أيضاً بغرفته .. أصبحت غرفته مزدحمة بالكتب .. كتب فوق المكتب ، وكتب ملقاة على الأرض ، وكتب في دولابه ، وكتب فوق فراشه .. كتب قديمة ، وكتب حديثة ، وفي هذا البحر من الكتب ، تضيع كراسات المحاضرات وملازم المواد الدراسية المقررة في كلية الحقوق وكان محيي يقرأ .. يقرأ دائماً .. وهو جالس الى مكتبه ، ثم وهو راقد ثم وهو يأكل .. انفتحت في نفسه طاقة هائلة للقراءة .. طاقة لا تفرغ ولا تشبع .. وكان يظن انه يقرا في الموضوع واحد . ولكنه اكتشف ان كل المواضيع ، متعلقة بهذا الموضوع الواحد .. اكتشف انه لا يمكن ان يعرف بلده ويعرف شعبه ، الا إذا قرأ في التاريخ وفي المذاهب ، وفي الدين وفي الأدب ، وفي الاقتصاد .. لم يكن يقرأ للتسلية .. كان يقرأ ليفهم .. كان يقرأ وفي يده قلم رصاص ، يسجل به ملاحظاته على هوامش الكتب ، ثم لم تعد تكفيه الهوامش ، فكان يكتب ملاحظاته في أوراق صغيرة يحتفظ بها بين صفحات كل كتاب .. وعجزت ميزانيته الصغيرة عن ملاحقة نهمه للقراءه ... فبدأ يتردد على دار الكتب ، يمضي هناك ساعات طويلة يقرأ كل شيء ، حتى مجموعات الصحف القديمة .. ثم لم يعد يكفيه ان يقرأ بالعربية ، فبدأ يقرأ بالانجليزية . أصبح يعيش كالفأر يقرض بعينيه كل كتاب وكل ورقة تقع بين يديه .. وكان يتلذذ وهو يقرض السطور بعينيه .. كان يحس انه يكبر عاماً مع كل سطر .. ان آفاقاً جديدة تتفتح أمامه .. ونتائج جديدة يصل اليها .. كأنه يجد في كل كتاب حلا بسيطاً لمشكلة حسابية عويصة ..

وقد كبر محيي فعلا .. كبرت شخصيته في بيته ، وبين زملائه .. ولكن قراءاته الكثيرة جعلت منه انساناً نظرياً يجري بعقله وراء المثاليـــات ووراء النظريات ، ووراء المنطق المتحرر . وظل بعيداً عن النشاط الوطني العنيف.. لم يعرف عنه انه اشترك في مظاهرة ، أو اشترك في جمعية ، أو انضم لحزب . انما عرف بين زملائه بوعيه ، وبحوثه .. ورغم ذلك فقد كان لا يتقدم برأيه الا إذا سأله أحد فيه ، ولا يعرض بحثاً إلا إذا اضطر إلى عرضه .. كان لا يزال حريصاً .. حذراً . كل هدفه في الحياة أن يعيش أكثر ليقرأ أكثر ..

وهذه القراءات الكثيرة شغلته عن اصراره على أن يكون أول الخريجين في دفعته .. لقد نجح بتفوق في الامتحان ولكنه لم يكن الأول .. ولم يسع ليعين معيداً في الجامعة ، بل قبل وظيفة في إحدى الادارات القضائية . ثم استقال واشتغل في مكتب أحد المحامين ، يدرس له القضايا ، ويعدها ، ويكره ان يذهب إلى دور المحاكم ليترافع أمام القضاة.. وبين الحين والحين كان يكتب بحثاً وطنياً مستفيضاً . يكتبه بأسلوب هادىء لا يحمل حماسة في كلماته ، ولكن منطقه ينبض بالعنف .. عنف الفكرة ، وعنف الاتجاه الوطني .. لم يرسل هذا البحث إلى أحدى المجلات الوطنية .. لينشر بلا امضاء !

وصحا محيي ذات يوم .. فإذا الثورة تحققت .. حدثت ..

وأحس بقلبه يخفق في صدره كأنه يزغرد .. وتابع الاحداث السريعة وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه .

أحس كأنه يتباهى بنفسه ..

أحس احساساً عميقاً صادقاً بأنه اشترك في هذه الثورة . اشترك في صنعها . هو وابوه وأمه وسامية ونوال وعبد الحميد .. كل العائلة اشتركت في صنع هذه الثورة .. اشتركوا فيها بالسخط الذي كان ينطلق من أعينهم .. وبالأحاديث التي كانوا يثيرونها حولهم .. وباتجاه تفكيرهم وآمالهم .. وبالخلق الوطني .. وبالارادة التي تحملت العذاب والحرمان ..

هذه الثورة صنعتها عائلته ..

وربما كان هذا هو سر فرحه بها .. سر قلبه الذي يزغرد ، وسر ابتسامته التي تعلو شفتيه ..

وعندما رأى البطل الجديد ، أحس أنه يعرفه من زمان طويل .. احس كأن له شيئاً فيه .. كأنه اشترك في صنعه .. انه ليس غريباً عليه .. انه قريب

من قلبه .. قريب جداً من قلبه ..

نعم .. لقد اشترك في صنع البطل .. أو ربما كان الاصح انه اشترك في صنع البطولة .. والبطولة ليست فرداً واحداً يمكن أن يموت ، ولكنها قوة تتجدد في أفراد متتابعين .. قوة لا يصنعها فرد ، ولكن تصنعها أمة وتجسدها في فرد ، فاذا استشهد هذا الفرد أو انحرف ، جسدتها في فرد آخر .. البطولة لا تموت أبداً ولا تنحرف ابداً .. ولم تمت بطولة ابراهيم ولا انحرفت .. ولم تمت بطولة سعد زغلول ، ولا مصطفى كامل ، ولا عرابي .. لم تمت يوماً واحداً .. كانت بطولة حية دائماً .. حية بحياة الشعب .. تتجسد في الزعيم تلو الزعيم ..

واتسعت ابتسامة محيي ، وهو يصل بتفكيره الى هذا الحد ، كأنه اكتشف حلا بسيطاً لمشكلة حسابية عويصة ..

وأدار رأسة عن الموكب الذي يسير في وسط الشارع ، التفت إلى الملايين التي تقف مهللة على الجانبين ..

كل هؤلاء اشتركوا معه في صناعة الثورة .. صنعها الفلاحون من حرمانهم ، وصنعها العمال من كدحهم ، وصنعها الطلبة من وعيهم ، وصنعها الموظفون من سخطهم ، وصنعها التجار من أحلامهم .. صناعة احتاجت إلى صبر طويل ، والى عنـــاد ، والى اباء ، وصهرت في السجون والمعتقلات ، وتحت ضربات السياط .. وبوركت بالدم والروح على مدى اجيال ..

وسار محيي بين الملايين يقبـل كل فرد فيها بعينيه .. يهنئه بثورته .. ثورة الملايين الذين يسكنون بيوتاً هادئة ، ساذجة طيبة .. بيوتاً لم يكن الانجليز ، ولا البوليس السياسي ، ولا الحكام ، يعتقدون انهـــا تصلح لتكون مصانع للثورات .. ومصانع للابطال ..

وذاب محيي بين الملايين ..